ما قُرِأَ هذا الكتابُ ـ يعني : « البرهانَ المؤيَّدَ » ـ على أهلِ مجلسٍ . إلاّ وظهرَتْ لهم :

نَفَحاتُ العِرْفانِ ، والإخلاصِ ، والتَّمكُّنِ ، والوُقُوفِ عندَ الحُدودِ المرضيَّةِ الشَّرعيَّةِ .

***

القُوصيُّ الشّافعيُّ

البُرهانُ المُؤيَّد

لصَاحِبِ مَدِّ اليَدِ مَولانا الغَوثِ الشَّرِيفِ الرِّفَاعِيِّ أَحْمَدَ

بسم الله الرحمن الرحيم

موافقةُ وزارة الإعلام
رقم : (٩٥٢٦٧) بتاريخ : ٧/ ٥/ ٢٠٠٧ م

الطبعةُ الأُولى
١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م

مطبوعات مكتب الزّاوية

السلسلة الرفاعية (٢٦)

البرهان المؤيد

لصاحب مد اليد مولانا الغوث الشريف الرفاعي أحمد

للإمام الحافظ الفقيه المفسر الرحلة الحجة
السيد الكبير أبي العباس أحمد بن علي الرفاعي الحسيني
إمام الطريقة الأحمدية الرفاعية
٥١٢ - ٥٧٨ هـ

جمعه رواية عنه في مجالس وعظه
الشريف الحافظ أبو طالب شرف الدين
عبد الرحمن بن محمد بن عبد السميع الهاشمي الواسطي
٥٢٨ - ٦٢١ هـ

اعتنى به
شرف الدين
حسن بن عبد الحكيم عبد الباسط

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمةُ المُعتني به

/ الحمدُ للهِ الذي رفَعَ خواصَّ الأُمَّةِ بالاجتباءِ ، وأقعدَهم على كراسيِّ المجدِ والرِّفْعةِ بالاصطفاءِ ، وفتحَ لهم بابَ المعرفةِ بالمحبةِ ، وأفهمَهم عنه بسرِّ القُرْبِ وفِعْلِ القُربةِ .

والصلاةُ والسَّلامُ على رئيسِ رَكْبِهِمْ ، وإمامِ حضَراتِهِمْ ، سيِّدِ الأنبياءِ ، وإمامِ الرُّسُلِ الأصفياءِ ، حبيبِ اللهِ ، قُرَّةِ عينِ أهلِ اللهِ ، سيِّدِنا محمدِ بنِ عبدِ اللهِ ، صلَّى اللهُ عليه وآلِهِ وسلَّمَ .

والرِّضىٰ عن الصَّحْبِ والآلِ ، نجومِ المحافلِ ، وأقطابِ الدَّوائِرِ والمنازِلِ ، والسَّلفِ الصَّالحِ ، والعِتْرَةِ الرِّفاعيَّةِ أهلِ الفلاحِ والنجاحِ ، وعنَّا بهم ، آمين .

أما بعدُ ، فهذا هو كتابُ « البُرهان المؤيَّد » ، أُمُّ الكتبِ الرِّفاعيَّةِ وأُسُّها ، وعَلَمُ الحقيقةِ ورأسُها ، ومنهاجُ المُريدِ ورَسْمُهُ ، ودُسْتُورُ كُلِّ متصدِّرٍ ونَفَسُهُ .

نقَلَ منه أئمَّةٌ فُحول ، ودَرَسُوا عِباراتِهِ ، وشرحُوها لِطُلَّابِهم ومُريدِيهِمْ وأحبابِهِمْ ، وتخرَّجُوا بصحيحِ ما جاءَ به الإمامُ الرِّفاعيُّ .

ولم يتصدَّرْ إمامٌ منَ الأئمةِ في هذه الطَّريقةِ لجمعِ كتابٍ أو تسطيرِ

رسالةٍ . . إلاّ وأخذَ منه واستفادَ ، وأوضحَ بسرِّ ما انطوىٰ في جُمَلِهِ سُبُلَ الرَّشادِ .

ولم يَسْلَمْ تأليفٌ لِمُحقّقٍ منهم ، رضي اللهُ عنهم من عباراتِهِ ، فهذا السيِّدُ الصيَّادُ ينقُلُ منه في كتابِهِ « المعارف » ، والسيِّدُ السَّرَّاجُ في « رحيقه » ، والحافظُ الرِّفاعيُّ الثاني السيِّدُ الرَّواسُ في أغلبِ كُتبِهِ ، ونائبُهُ ونتيجةُ فُتُوحِهِ السيِّدُ أبو الهدىٰ في عامَّةِ تَواليفِهِ .

كُلٌّ منهم أشارَ إلى فضلِهِ ، وغزيرِ علمِهِ ، وسَدادِ قولِ صاحبِهِ .

ولو لم يكنْ هذا الكتابُ مُشَبَّكاً بآيِ القُرآنِ ، وحديثِ سيِّدِ ولدِ عدنانَ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لمَا تهافتَتْ عليه هِمَمُ السَّادةِ الأكابرِ ، ودرسوا ما فيهِ لطلاَّبِهم أهلِ المحابرِ .

ورُبَّما يصْعُبُ على المُبتدىءِ تناولُ العبارةِ بدليلِها إنْ لم يكنْ منَ العِرفانِ مُتزوِّداً ، ومنَ الفهمِ مُتكَسِّباً ، ومنَ اليقينِ معتَقِداً .

وقد يغيبُ عنه مرادُ السيِّدِ لِقِلَّةِ بِضاعتِهِ ، وشُرودِ ذِهنِهِ ؛ لأنَّ النُّكْتَةَ في هذا البابِ . . هو أنَّ المُبتدىءَ يقرأُ للمُنتهي ، والطالبَ يشرحُ كلامَ الأستاذِ ، والفارقُ واضحٌ ، والنتيجةُ بديهيَّةٌ .

ومَنْ قرأَ هذا الكتابَ بِنَصَفَةٍ وإخلاصٍ . . فلنْ يَجِدَ فيه ما يُنْتَقَدُ أو يُشارُ إليه بِغَمْزٍ ؛ لأنَّ صاحبَهُ الإمامَ . . اجتهدَ أنْ يكونَ على الكتابِ والسُّنَّةِ ، بل ممزوجةٌ عِبارَاتُهُ بهما ، ومَنْ كان وقَّافاً عليهما . . ظهرَ له رُسُوخُ قَدَمِهِ في المصْدَرَيْنِ ، وَسَعَةُ فَهْمِهِ في العِلْمَيْنِ .

وإذا كُنَّا في زمنٍ يُنتَقَدُ فيه مذهبُ التصوُّفِ ، وكلامُهُ وما يكونُ منه . . فالأحرىٰ بأهلِ النَّصَفَةِ أنْ ينظروا إلى هذا الكتابِ وأمثالِهِ ، ليُدْرَكَ باليقينِ الأحَقِّ : أنَّ أئمتَهُ منَ الراسخينَ في العِلْمِ والفهمِ عنِ اللهِ ، وأنهم ـ رضي اللهُ عنهم ـ منَ الذين نصَرُوا دِينَ اللهِ بِسِرِّ ما أنطوىٰ في جُمَلِهِمْ ورَشيقِ عِبَاراتِهِمْ .

ألا ترىٰ كيفَ كانتْ سِيرةُ القومِ بينَ طُلَّابِهم ؟ كُلٌّ منهم يُلزِمُ صاحبَه بالتَّمَسُّكِ بالكتابِ والسُّنَّةِ ، ومُتابعةِ السيِّدِ المُحْتَشَمِ ـ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ وأصحابِهِ وأهلِ بيتِهِ الأعلامِ ؟ .

ولسوفَ تجدُ في بيانِ حالِ صاحبِ هذا الكتابِ . . ما يُثْلِجُ الصدرَ ، ويُنَقِّي الفؤادَ ، ويُذهِبُ بالدَّخَلِ .

ولسوفَ تُدرِكُ ـ أيضاً ـ كم منَ الدُّخلاءِ مَنْ أدخَلَ في طريقِ كُلِّ كاملٍ . . ما هو منهُ بَرَاءٌ ، والعُهدةُ فيه على المُفتري ، لا على الإمامِ .

ولو كان كُلُّ كاملٍ يُؤخَذُ بجريرةِ ما يلتصِقُ به مِمَّنْ دخلَ طريقَهُ من أهلِ البِدْعَةِ والمُحْدَثَةِ . . لكانَ الإسلامُ أوَّلَ مُسْتَهْدَفٍ بسببِ بعضِ المسلمينَ ، الذين قَصَّروا في جَنْبِهِ ، وطَمَسُوا مُحَيَّاهُ ، ودَلَّسُوا على الخَلْقِ ، وأساؤوا ، وهَتَكُوا الأعراضَ ، واستباحوا المُحَرَّماتِ ، وفعلوا المُنكراتِ ، ونشَروا الفواحِشَ ، ولم يبقَ منْ إسلامِهِم إلاّ ما كُتِبَ في بِطاقاتِ أحوالِهِمْ .

ويزدادُ عَجَبي عندما أرى مَنْ ينتقدُ ثمرةَ الشريعةِ ، ونتيجةَ التَّمَسُّكِ بها ، ولعلَّ غابَ عنْ بالِ المُنتَقِصِ قولُهُ تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ ! .

فهذا عِلْمٌ تَكَفَّلَ اللهُ به للصَّالحينَ ، وأَسْتَوْدَعَهُ في قلوبِهم ، وليس لغيرِهِمْ فَهْمُ المُرادِ منه . . إلاّ بتطبيقِ ما أَتَوْا بهِ ، والتَّمَسُّكِ بما به عمِلوا .

فكيفَ يُنْتَقَدُ عِلْمُ اللهِ ، وسِرُّهُ المستودَعُ في عِبادِهِ ، وتفهيمُهُ لِعبدِهِ المُقرَّبِ إنْ هو أتى بما يَهُزُّ القلوبَ ، ويُحرِّكُ الهِمَمَ ، ويُنَشِّطُ الفَهْمَ ، ويُحَيِّرُ الألبابَ ؟! .

ولا ينقضي العَجَبُ عندما ترى أنَّ الأكابرَ . . تُغْمَزُ بحالِ الأصاغرِ! ويُنْتَقَدُونَ ، ويُشَارُ إليهم! .

وواللهِ لو لم يكنْ على دليلِ إفلاسِهِمْ إلاّ انتقادُهُمْ وطَعْنُهُم بأهلِ اللهِ . . لكفى به حُجَّةً على إلزامِهِم وكشفِ عَوَارِهِم وتَعْرِيَتِهِمْ أمامَ العُقلاءِ .

ويَبْهَتُ العاقلُ من قولِ مَنْ يَنتسبُ إلى العِلْمِ ويُحسَبُ عليه إذ يُوَجِّهُ اللَّومَ عليهم ، ويَتَّهِمُهُمْ بتأخُّرِ الرَّكْبِ ، ظَنّاً منه أنَّ ذلك حراسةٌ لِجانبِ التوحيدِ ، وتنزيهٌ للشريعةِ عن مِثْلِ ذلكَ .

وتراهُمْ يَقِفونَ عندَ أبسطِ العباراتِ ، وأخفِّ الجُمَلِ والكلماتِ ، فيتَنَاولونَها بأخَسِّ الفهمِ وأبلدِ الفِكْرِ لإظهارِ ما أنطوىٰ فيها .

وكأنَّ الأمرَ . . سهلُ المَنالِ ، وقريبُ المأخذ! .

وكم سمعْنَا من بعضِهِم تنقيصاً لِرِجالاتِ القومِ ، وتوجيهَ اللَّومِ عليهم ، والإساءةَ إليهم ، حتَّىٰ تخرَّجَ بِصُحْبَتِهِ كُلُّ مَنْ هو سليطُ اللِّسانِ ، كثيرُ الأذى ، سيِّءُ الاعتقادِ بهم ، ثَرْثَارٌ ، هَمَّازٌ ، طعَّانٌ .

وإذا كانَ مبنى الإسلامِ بعدَ أداءِ أركانِهِ ـ كما هو في حديثِ مسلمٍ ـ على مقامِ الإحسانِ ، فإنَّكَ لنْ ترى أتباعَ القومِ الذين صدَقُوا معَ اللهِ ورسولِهِ ،

وَٱلْتَزَمُوا إرشادَ شُيوخِهِمْ . . إلاَّ ذاكرينَ اللهَ كثيراً ، مُراقِبينَ له في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، كثيري الحُضورِ معَهُ ، لا يَغيبُ عنهم لحظةً ، ولا يَفْتُرونَ عن مُلاحظةِ إشاراتِهِ .

ولن ترى بالمُقابلِ أتباعَ أولئكَ . . إلاَّ أهلَ غَفْلَةٍ وقيلَ وقال ، وتباهِياً في حفظِ المسائلِ ، وتفاخُراً بكثرةِ الإجازاتِ وتشعُّبِ طُرُقِها .

أجل! فنحنُ بينَ مُحِبٍّ غالٍ ، وبينَ مُتطرِّفٍ سليطٍ مُتطاولٍ ، وأهلُ الوسَطِ . . قليلونَ ، بل كادوا يكونون بيننا . . كالكبريتِ الأحمرِ[1] .

وليستْ هذه الكلماتُ تبرئةً لهم ؛ لأنَّهم مُبرَّؤون مما يقولونَ ، ولا مَدْخلاً لِلْوُلُوجِ في المَقْصَدِ . لأنَّ عُنوانَهُ بَرِيْدُ الحقِّ والحقيقةِ .

بل هي نَفْثَةُ مَصْدُورٍ ، رأىٰ منْ أهلِ صَنْعَتِهِ وأبناءِ جِنْسِهِ ما يُستغْرَبُ ، ولَمَسَ منهم ما يُستهجنُ .

أئمَّةُ التَّصوُّفِ وعلماءُ الإسلامِ كُلٌّ منهم كانت له وِجْهَةٌ في الفهمِ وتبيانِ الحقيقةِ ، وكان لِكُلٍّ منهمِ أسلوبُهُ وطريقُهُ وعِبارتُهُ .

ثُمَّ جاءَ مِنْ بعدِهِمْ مَنْ نَقَلَ عنهم أقوالَهُمْ ، وَحَفِظَهَا وتداوَلَها على سائرِ الأيامِ .

وفي زمانِنا هذا لم نجدْ ـ على حَسَبِ ٱسْتِقْرَائِنَا ـ صاحبَ منهجٍ واضحٍ ، وأسلوبٍ مُتَميِّزٍ مُخْتصٍّ به ، وعبارةٍ ترجعُ إليه ، بل غايةُ سَيْرِهِ : أنه يحفظُ

---

(١) وهُوَ الياقُوتُ الأحْمَرُ ، وهُوَ مِنَ الجَواهِرِ النَّفِيسَةِ ، أُنْظُرْ « لسانَ العَرَب » ٢ : ٣٨١ ، مادة : « كبرت » .

وينقُلُ ، وقَدْ يأتي في أكثرِ الأحوالِ بتفسيرٍ لبعضِها مُستعيناً بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ أهلِ الحِفْظِ والعِرفانِ .

فرجَعَ الأمرُ في نهايتِهِ إلى الأخذِ عمَّنْ فتَحَ اللهُ عليه ، وكانتْ له طريقةٌ واضحةٌ في الاستنباطِ والفهمِ عنِ اللهِ تعالى .

فأينَ نحنُ من رجلٍ يفهمُ كما فَهِمَ الأوَّلُونَ ، ويستنبِطُ كما استنبَطَ السَّلَفُ الصَّالحون ، وكانت له طريقةٌ في التَّناولِ ، وأسلوبٌ خاصٌ به دونَ غيرِهِ ، يَستفيدُ منه كُلُّ مَنْ يسمعُ منه ، أو يأخُذُ عنه ؟ .

فالتَّصوُّفُ بذلك ليس نقلاً عنِ القومِ كما هو في زمانِنا ، بل طريقٌ للسَّالِكِ واضحٌ ، يَشُقُّهُ بنفسِهِ ، يُعْرَفُ به ، ويُعْلَمُ وجودُهُ مِنْ خلالِ وُجدانِهِ ولواعجِ حُبِّه ، وكوامِنِ السِّرِّ المُستودَعِ في الذاتِ .

وكأنَّنا بهذا الكلامِ نُشيرُ إلى اختصاصِ العبدِ بِسرِّ اللهِ واصطفائِهِ! وهلِ الدِّينُ إلاَّ ذلك ، وفوقَ ما هُنالك ؟ .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ .

« . . كنتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِها ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِها . . »[1] . الحديثَ .

يظهَرُ مِنْ ذلك : أنَّ التنازُعَ يكونَ بينَ مُقرَّبٍ ومُبْعَدٍ ، أو عَالِمٍ وجاهلٍ وإنِ اتَّصفَ بصفةِ العلمِ لدى الناسِ .

وهيهاتَ أن يجتمعَ الفريقانِ ، أو يصطَلِحَا على أمرٍ وقد شُقَّ لِكُلِّ طريقٌ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) .

يَصْعُبُ عليهما أخذُ كُلٍّ طريقَ الآخَرِ ، ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ ! .

وكتابُ « البرهان » هذا .. يجمعُ بينَ الفريقين ، ويُصلحُ الرَّحْلَيْنِ إنْ تَنَاوَلَهُ مَنْ يُنْكِرُ عليهم بإنصافٍ ، وتُؤَدَةٍ دونَ هَوَجٍ واعْتِسَافٍ ، وإلاّ فلنْ ينفعَ بهم دواءٌ ولو جاءَتْهُمْ كُلُّ آيةٍ .

وعِبارةُ الإمامِ فيه .. مبسوطةٌ لِكُلِّ قارئٍ ، ظاهرةٌ لكُلِّ مُتناوِلٍ ، لا يغيبُ المرادُ ـ واللهُ أعلمُ ـ عنها باطِّرادٍ ، لِما تقرَّرَ أنَّ كلامَهُ هو السَّهْلُ المُمْتَنِعُ ، فقد قال سِبْطُهُ في « المعارف المحمدية »[١] :

« وإنَّ كلامَهُ ـ رضي اللهُ عنه ـ لَهُوَ السَّهلُ الممتنعُ ، المُطَرَّزُ بأنواعِ الحِكمةِ والبيانِ ، والمعاني التي تُفْتَقُ لها القلوب ، ويُسْمَحُ لأجلِها بالأرواحِ » .

قلتُ : وفي مطويِّ كلامِهِ عِرفانٌ ظاهرٌ ، ووُجْدانٌ صادقٌ باهرٌ ، يظهرُ للمتأمِّلِ المُراقِبِ ، الذي جمَعَ بينَ نورِ الذِّكرِ وحضورِ القلبِ ، قال سِبْطُهُ في « المعارف »[٢] :

« لم يتكلَّمْ في علمِ الحقيقةِ باللِّسانِ الجامعِ بينَ عِلْمِ الشَّريعةِ والطَّريقةِ ، بِحُسْنِ السَّبْكِ وطَرْحِ الفَرْقِ ، مِنْ بعدِ الإمامِ تاجِ العارفينَ الجُنَيْدِ البغداديِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ أحسَنُ وأرْشَقُ مِنْ سيِّدِنا ومَفْزَعِنا ، شيخِ الكُلِّ في الكُلِّ ، السيِّدِ أحمدَ الكبيرِ الرِّفاعيِّ رضي اللهُ عنه .

ولم يجمعْ بينَ سياسةِ الحُكماءِ ، وبلاغةِ الأدباءِ ، ومقاصِدِ العلماءِ ،

---

(١) ص (٥٩) .

(٢) ص (٥٨) .

وظرافةِ الشُّعراءِ ، وغوامضِ الأولياءِ ، وحقائقِ العُرَفاءِ ، وحِكْمَةِ الأصفياءِ . رَجُلٌ غَيْرُهُ بعدَ ساداتِنَا أئِمَّةِ أهلِ البيتِ الاثني عشرَ ، سلامُ اللهِ عليهم » . انتهى .

قلتُ : وقد تكلَّمَ بشأنِ « البرهان » جماعةٌ ، وأشاروا إلى فَضْلِهِ ومكانتِهِ ، ومِمَّنْ نصَّ على كلماتِهِ وأقوالِهِ فيه .. سِبْطُهُ الفَرْدُ في كتابه « المعارف »[١] ، فقال :

« ومَنْ تَدَبَّرَ أسرارَ كلماتِهِ الوحيدةِ ، وأخلاقِهِ السعيدةِ .. يرى أنَّ التمسُّكَ بأفعالِهِ وأقوالِهِ .. طريقٌ مُوصِلٌ إلى اللهِ ، دالٌّ عليه ، ويعلَمُ ما لِمُتَّبِعِيهِ منَ الفضلِ الكاملِ ، والفخرِ الشَّامِلِ ، نفعَنا اللهُ بهم أجمعين » . انتهى .

وقال فيهِ الرافعيُّ في « سواد العينين »[٢] : « وهو الكتابُ الجليلُ ، الذي عزَّ شأنُ سَبْكِهِ عنِ المثيلِ » .

وقال فيه شيخ الإسلامِ ، السيِّدُ السَّرَّاجُ في « صَحَاحِهِ »[٣] :

« وهو كتابٌ أوضحَ المَحَجَّةَ ، وأقامَ على طُلَّابِ الحقِّ الحُجَّةَ .

أنشدَني لِنَفْسِهِ الإمامُ العارفُ أبو عبدِ اللهِ ، أحمدُ بنُ شيخِ الإسلامِ محمدِ العاقوليُّ الواسطيُّ ثم البغداديُّ ، يَمْدَحُ « البرهانَ المؤيَّدَ » على لسان مؤلِّفِهِ سيِّدِنا السيِّدِ أحمدَ ـ رضي اللهُ عنه ـ بهذين البيتَيْنِ :

---

(١) ص (٨٠) .

(٢) ص (٧٤) ، طبعةُ شيخِنا الإمامِ الوالدِ ، قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ .

(٣) ص (٩١) .

إنَّ الَّـذِيْـنَ تَسَلَّقُـوا شَـأْوَ العُلَـىْ وَبِوَهْدَةِ الدَّعْوَىْ العَرِيْضَةِ مَاتُوا[١]
بُـرْهَـانُنَـا قَـامَـتْ مَحَجَّتُـهُ عَلَـىْ نُقْصَانِهِمْ، فَمَتَىْ ادَّعَوْا ﴿ قُلْ هَاتُوا ﴾

***

وأنا قلتُ فيه :

بُرْهَانُ سَيِّدِنَا الرِّفَاعِيِّ انْجَلَتْ آيَـاتُـهُ ، فَكَـأَنَّهَـا فُـرْقَـانُ
هِـيَ بَيْـنَ فِتْيَـانِ الحِمَىْ بُرْهَانُـهُ أَتَظُـنُّ كُـلَّ فَتًـى لَـهُ بُـرْهَـانُ ؟!

***

وقلتُ فيه :

إنَّ الـرِّفَـاعِـي جَـدِيْـرٌ بِـأَنْ يُنْسَـجَ بِـالأَلْمَـاسِ بُـرْهَـانُـهُ
آيَـاتُـهُ أُعْجِـزَ عَـنْ دَرْكِهَـا فِـي سَـاحَـةِ العِـرْفَـانِ أَقْـرَانُـهُ

***

وقلتُ :

إنَّ هَـذَا البُـرْهَـانَ آيَـاتُ قُـدْسٍ قَـامَ مِنْهَـا عَلَىْ المَعَالِي الـدَّلِيْـلُ
أُفْرِغَتْ مِنْ فُيُوضِ أَحْمَدَ فِي أَحْـ ـمَـدَ رُوحُ أَمِيْنِهَـا جِبْـرِيْـلُ »

***

(١) الوَهْدَةُ : المكانُ المطمئنُّ ، « مُختار الصِّحاح » ص (٧٣٨) ، مادة : « وهد » .

وفيه أنا شَرَفُ الدِّينِ قلتُ :

بُرْهَانُهُ لِلطَّالِبِينَ مَحَجَّةٌ وَبِهَدْيِهِ يَسْتَرْشِدُ الطُّلاَّبُ
فَكَأَنَّمَا مِنْ نُورِهِ انْبَجَسَتْ لَهُ مِشْكَاةُ نُورٍ ضَوْؤُهَا خَلاَّبُ

* * *

هذا ما أردتُ رَقْمَهُ في هذه المقدِّمة ، وللبرهانِ . . مزايا فوقَ ما كَتَبْنَا ، وأكثرُ ممّا سطَّرْنا .

ولقد تَرَكْنَا ما أشَرْنَا إلى ذوقِ القارِئِ ، وفَهْمِ المُتَناوِلِ ، وعِرْفانِ العارفِ ، واللهُ مِنْ وراءِ القصدِ ، والهادي إلى سواءِ الطريقِ .

وإني أرجو منَ اللهِ الجوادِ الكريمِ : أن يَكْتُبَنَا معَ مَنِ انْدَرَجَ فِيمَنْ خَدَمَ هذا الطريقَ السَّعيدَ ، وأنْ يجعَلَ ذلكَ عندَهُ في المقبولينَ ، ينْفَعُنا به وذرارينا ووالدينا وشيوخَنا والمسلمين ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

دمشق الشام ، الزَّاوية الرِّفاعيّة
يومَ الجُمُعة المبارك ، ٣٠ جُمَادى الأولى ١٤٢٨ هـ
١٥ حزيران ٢٠٠٧م

وكتبه : المعتزُّ بالله
شَرَفُ الدِّين
حسنُ بنُ عبدِ الحكيمِ عبدِ الباسط
خادمُ العِلْمِ الشَّريفِ والطَّريقةِ الأحمديَّةِ الرِّفاعيَّةِ

السلسلة الرفاعية «٢٧»

الدر المنضد

في

بيان حال مولانا السيد الرفاعي أحمد

كتبها وألفها

شرف الدين

حسن بن عبد الحكيم عبد الباسط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي فَضَّلَ أهلَ الطَّاعةِ بالصَّلاحِ والإسعادِ ، وَفَتَقَ لهم رَتْقَ الحُجُبِ فَسَعِدُوا بالمشاهدةِ والإمدادِ .

وَمَيَّزَهُم عن أبناءِ جنسِهم بأنْ أبقىٰ ذِكْرَهُمْ مَتلُوّاً في الصُّحُفِ وعلى أَلْسُنِ العبادِ ، وخصَّهم ببوارقِ الفتحِ والمَنْحِ فكانوا سادةَ أهلِ الرُّشدِ والرَّشادِ .

والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا مُحَمَّدٍ ، المبعوثِ بالقولِ الثابتِ وصحيحِ المُعجزاتِ ، وباهرِ الكلماتِ الطَّيِّباتِ ، والماحِقِ لِظُلُماتِ الشَّكِّ والشِّرْكِ والضَّلالاتِ ، والنَّاصرِ لِدينِ اللهِ في كُلِّ الحالاتِ .

والرِّضىٰ عنْ صَحْبِهِ رجالِ الوغى في الحركاتِ والسَّكناتِ ، ونجومِ الهدى في سماءِ البريّاتِ .

أما بعدُ، فيقولُ العبدُ الفقيرُ إلى اللهِ ، المُعتزُّ به لا بِسواهُ ، شَرَفُ الدِّينِ، حسنُ بنُ عبدِ الحكيمِ عبدِ الباسطِ ، كانَ اللهُ له ولِوَالِدَيْهِ ولِذُرِّيَّتِهِ وأهلِهِ والمسلمينَ :

إنَّ أخبارَ مولانا الإمامِ الرِّفاعيِّ.. كثيرةٌ في الكُتُبِ ، شهيرةٌ في المصادرِ ، مادَّتُها غزيرةٌ ، ونصوصُها وفيرةٌ .

كتبَها أحبابُهُ وبعضٌ من أهلِ بيتِهِ ، وتلامذتُهُ والمقرَّبونَ من خلفائِهِ ،

وأفردوا لها كُتُباً مستقِلَّةً ، ورسائلَ مُسْتَلَّةً ، وذكروا فيها ما ينبغي أنْ يُسَطَّرَ ، ويُكْتَبَ وَيُدَوَّنَ .

حفظوا بها العهدَ ، وأشاروا إلى ما مَنَّ اللهُ به عليه من الرِّفعةِ والسَّعْدِ .

لم يذهبوا به مذهبَ أهلِ الغُلُوِّ والشَّطْحِ ، ولم يتجاوزوا به حدَّ التحدُّثِ بالنِّعْمَةِ والمِنَحِ .

رَأَوْا منه ما يُدْهِشُ فكتبُوهُ ، وما يُذْهِلُ فرقمُوهُ ، فكانتْ سِيْرَتُهُ مستودَعَةً عندَهم دونَ غيرِهِمْ منْ أهلِ العِلْمِ وكَتَبَةِ التاريخِ ؛ فإنَّكَ إنْ ذهبتَ لِتُطَالِعَ سيرتَهُ عندَهُمْ . . وجدْتَها لا تتجاوزُ السَّطْرَ أو السَّطْرَيْنِ ، وإنْ طالتْ . . فلا تُعْطِي السَّيِّدَ حَقَّهُ ، ولاَ تُوقِفُ الباحثَ على الحقيقةِ التي كان عليها .

فكنتَ تُشاهدُ النقصَ ظاهراً ، والمادَّةَ ضعيفةً بَلْهَ الخطأَ الذي يقعُ فيه بعضُهُمْ ، وما ذلك إلاَّ لِبُعْدِهِمْ عن صحيحِ ما دُوِّنَ بقلَمِ أهلِ الاختصاصِ من أحبابِهِ وتلامذتِهِ .

ولهذا فلم يبقَ للوقوفِ على بيانِ حالِهِ . . إلاَّ ما كتبَهُ أهلُ الفضلِ من طُلاَّبِ الحقِّ والحقيقةِ ، لِيُعْرَفَ حالُ السَّيِّدِ كما كان ، ولِيُدْرَكَ سِرُّ الخصوصيَّةِ فيه في كُلِّ آنٍ وزمانٍ .

وهذا ما دعاني إلى كَتْبِ شيْءٍ مِنْ أخبارِهِ ، وتدوينِ نُتَفٍ مِنْ آثارِهِ ، عسىٰ أنْ تكونَ في بابِ الرَّغبةِ والحاجةِ عَلَماً مشهوراً ، وعندَ طُلاَّبِ الطريقِ وأهلِ الفضلِ منَ العلماءِ الرَّاسخينَ شيئاً مذكوراً .

ولم أخرجْ بها عن حدِّهم ، وما ألزموا به أنفسَهم ، فكنتَ ترى النَّصَّ

يُعزىٰ إليهم ، والعبارةَ تُعَوَّلُ عليهم ، وتلكَ الكُتُبُ مذكورةٌ ، مطبوعةٌ مسطورة .

وهي لِمَنْ تأمَّلَها بِالنَّصفَةِ . . مَادَّةٌ لِكتابٍ كبيرٍ ، ومجلَّدٍ خطيرٍ ، عسىٰ الباري أنْ يَمُنَّ علينا بِنَشْطَةٍ تُبرِزُ مِنْ تلكَ الخبايا كنوزاً ، ومِنْ هاتيكَ الزوايا رموزاً ، وسَمَّيْتُها :

« الدُّرُّ المُنَضَّدُ ، في بَيانِ حالِ مولانا السَّيِّدِ الرِّفاعيِّ أَحْمَد »

راجياً مِنَ اللهِ أنْ تكونَ عندَهُ في المقبولينَ ، وأنْ ينفعَ بها النَّفْعَ العميمَ ، ويُجْزِلَ بِها الثَّوابَ الجَسِيْمَ ، إنه وليُّ الإجابةِ ، والقادرُ على الإثابةِ .

وهذا أوانُ الشُّروعِ في المَقْصَدِ ، ومنهُ العَوْنُ والمددُ

* * *

نَسَبُهُ مِنْ طَرِيْقِ أَبِيْهِ

هو مولانا الإمامُ الأكبرُ ، والأستاذُ الأشهرُ ، وليُّ اللهِ ، وحبيبُ رسولِ اللهِ[١] ، شيخُ الطَّريق ، وعُمْدَةُ أهلِ اللهِ في التحقيق .

السَّيِّدُ الشريفُ ، النَّسيبُ الحَسِيبُ الغِطْرِيفُ[٢] ، مِنَّةُ اللهِ الكُبرى في عصرِه على الأنام ، شيخُ مشايخِ الإسلامِ : السَّيِّدُ أحمدُ مُحيي الدِّينِ ،

---

(١) حكى الشيخُ العارفُ أبو يحيى المظفَّر ، بنُ الإمامِ الكامل ، عليِّ بنِ نُعيم البغدادي ، المعروف بابن الخبير : أنَّ الشيخَ محمدَ بنَ الصَّفَّارِ البغداديَّ ، أحدَ أصحابِ الشيخ عمرَ أبي حفصٍ ، شهابِ الدِّين السُّهْرَوَرْدِيِّ البكريِّ ، قُدِّسَ سِرُّه : رأى النبيَّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ في المنام ، فقالَ له . يا رسولَ اللهِ! ما تقولُ بالسيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ ، وبالشيخِ شهابِ الدِّين السُّهْرَوَرْدِيِّ ، وبالشيخِ عبدِ القادر الجِيْلِيِّ ؟ .

فقال له . شهابُ الدِّين . رجُلٌ ، أو قال : شيخٌ مرشِدٌ ، وعبدُ القادر . . عاشقٌ صادقٌ ، وأحمدُ الرِّفاعيُّ . محبوبُنا ، وشيخُ هذه الأُمَّةِ » . وتمامُ الحديث في « ترياق المحبين » ص (١١) .

وحكى أبو الحسن الواسطيُّ في « خلاصة الإكسير » ص (٥٥) عنه ـ رضي الله عنه ـ أنه قال :

« أُعطيتُ خَصْلَتَيْن لم يُعْطَهما الشيخ منصور ، هو كان عاشقاً ، وأنا معشوقٌ ، والعاشقُ مُتْعَبٌ ، والمعشوقُ مُدَلَّل ، وأُعطيتُ الحِكمةَ ، ولم يُعْطَها » . انتهى .

(٢) هو السَّيِّدُ الشَّريفُ السَّخِيُّ الكثيرُ الخيرِ ، « لسان » ١١ : ٦١ ، مادة : « غطرف » .

أبو العبّاسِ ، الرِّفاعيُّ ، الحُسينيُّ ، الحَسَنيُّ ، الصِّدِّيقيُّ ، الأنصاريُّ .

ابنُ السَّيِّدِ أبي الحسنِ عليٍّ ، دفينِ بغداد ، ابنِ السيِّدِ يحيى نقيب البصرة ، أبي أحمد ، المهاجرِ من المغرب .

ابنِ السيِّدِ أبي حازمٍ ثابتٍ ، بن السيِّدِ عليٍّ الحازمِ أبي الفَوارس ، ابنِ السيِّدِ أبي عليٍّ أحمدَ المرتضى .

ابنِ السيِّدِ عليٍّ أبي الفضائل ، ابنِ السيِّدِ الحسَنِ الأصغرِ رِفَاعةَ الهاشميُّ المَكِّيِّ ، نزيلِ إشبيلية بالمغربِ .

ابنِ السيِّدِ أبي رِفَاعةَ المهديِّ ، بنِ السيِّدِ أبي القاسم محمَّدٍ ، بنِ السيِّدِ الحسَنِ أبي موسى رئيسِ بغدادَ ، نزيلِ مكَّةَ .

ابنِ السيِّدِ الحسينِ عبد الرحمنِ الرِّضِيِّ المُحدِّثِ ، ابنِ السيِّدِ أحمدَ الصالحِ ، ويُقال له : الأكبرُ .

ابنِ السيِّدِ موسى الثاني ، ويُقالُ له : أبو يحيى وأبو سُبْحة ، ابنِ الأميرِ الجليلِ السيِّدِ أبي محمدٍ إبراهيمَ المرتضى ، بنِ السيِّدِ الإمامِ موسى الكاظِمِ ، بنِ السيِّدِ الإمامِ جعفرٍ الصَّادِقِ .

ابنِ السيِّدِ الإمامِ محمدٍ الباقِرِ ، بنِ السيِّدِ الإمامِ عليٍّ زَيْنِ العابدينَ ، بنِ السيِّدِ الإمامِ أميرِ المؤمنينَ الحُسينِ الشَّهيدِ بِكَرْبَلاء .

ابنِ السيِّدِ الإمامِ أميرِ المؤمنين ، وزيرِ سيِّدِ المخلوقينَ ، أسدِ اللهِ الغالب ، سيِّدِنا ومولانا عليِّ بنِ أبي طالبٍ ، رضي اللهُ عنه .

هذا نَسَبُ سيِّدِنا السيِّدِ أحمدَ على الوَجْهِ الأصحِّ ، وإن وُجِدَ الخلافُ في

بعض النُّسخ . فمِنْ جهلِ النُّسَّاخِ الذين حرَّفوا الكُنى ، وعدُّوها من الأسماءِ لاغير .

نَسَبُ النَّجاريِّ الأنصاريِّ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ

ونَسَبُهُ ـ رضي الله عنه ـ من جهةِ أمِّه ـ . هو كما صحَّحَهُ الثِّقاتُ الأثباتُ : ابنُ وَلِيَّةِ اللهِ ، الحَسيبةِ المُعمَّرةِ الزاهدةِ ، العابدةِ الصَّالحةِ ، أُمِّ الفَضْلِ ، فاطمةَ الأنصارية ، أختِ الشيخِ منصورِ الزاهدِ البطائحيِّ الرَّبَّانيِّ لأبويه .

وأبوهما : العارفُ الكبيرُ ، الشيخُ يحيى النَّجاري ، ابنُ الشيخِ موسى أبي سعيد ، بنِ الشيخ كامل ، بنِ الشيخ يحيى الكبير ، ابنِ الإمام الصُّوفي الشهيرِ محمدِ أبي بكرٍ الواسطي .

ابنِ موسى ، بنِ محمد ، بنِ منصور ، بنِ خالد ، بنِ زيد ، بنِ مت وهو أيوب ، بنِ خالد أبي أيوب ، بن زيد الأنصاريِّ النجاريِّ الصحابيِّ الجليلِ ، رضي الله عنه وعن أصحاب رسولِ اللهِ أجمعين .

نَسَبُ أمِّ السيِّدِ أحمدَ لأُمِّها

هو أنَّها فاطمةُ بنتُ السيِّدةِ رابعةَ ، بنتِ السيِّدِ عبدِ اللهِ الطاهرِ نقيبِ واسط ، ابنِ السيِّدِ أبي عليٍّ سالمِ النقيب ، ابنِ السيِّدِ أبي يَعْلَى النقيب .

ابنِ السيِّدِ أبي البركاتِ محمدِ النقيب ، ابنِ السيِّدِ أبي الفتح محمدِ أميرِ الحَاج ، ابنِ الأميرِ الجليلِ السيِّدِ محمدِ الأَشْتَرِ ، ابنِ السيِّدِ عُبيدِ اللهِ الثالث .

ابنِ السيِّدِ عليٍّ ، بنِ السيِّدِ عبدِ اللهِ الثَّاني ، بنِ السيِّدِ عليٍّ الصَّالح ، بنِ

السيِّدِ عُبيد الله الأعرج ، ابنِ السيِّدِ الحُسينِ الأصغرِ ، ابنِ الإمامِ زَيْنِ العابدينَ عليٍّ ، بنِ الإمامِ الحسينِ سِبْطِ النَّبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

نَسَبُ السيِّدِ يحيى جَدِّ الإمامِ الكبيرِ لأبيه مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ

فهو يحيى بنُ آمنةَ ، بنتُ يحيى العُقيلي ، ابنِ الناصرِ لدِين اللهِ عليٍّ ، مَلِكِ الأندلس .

ابنِ أحمدَ ، بنِ ميمونٍ ، بنِ أحمدَ ، بنِ عليٍّ ، بنِ عبدِ اللهِ ، بنِ عُمرَ ، بنِ إدريسَ .

ابنِ إدريسَ الأكبرِ ، الذي فتحَ اللهُ الغربَ على يديه ، ابنِ عبدِ اللهِ المَحْض ، ابنِ الحسنِ المُثَنَّىٰ ، بنِ السيِّدِ الإمامِ الحَسَنِ سِبْطِ النَّبيِّ ، صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

نَسَبُ الشَّيخِ يحيى النَّجاريِّ جَدِّ السيِّدِ أحمدَ لأُمِّهِ من جهةِ أُمِّه

فهو يحيى بنُ عَلَويةَ ، ويُقال : عالية ، بنتِ الحسنِ اللأَّع ، ابنِ محمد ، بنِ يحيى ، بنِ الحسينِ ملك اليمن ومكة ، ابنِ القاسمِ أبي محمد الرَّسِّي .

ابنِ إبراهيم طباطبا ، ابنِ إسماعيل ، بنِ إبراهيمَ الغَمْرِ[(١)] ، ابنِ الحسَنِ المثنَّىٰ ، ابنِ الإمامِ الحسنِ السِّبْطِ ، رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

---

(١) أي : واسعِ الخُلُقِ ، كثيرِ المعروفِ سخيٍّ ، « لسان » ١١ : ٨١ ، مادة « غمر » .

اِتِّصَالُ السيِّدِ أحمدَ بالإمامِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ

ويتصلُ نَسَبُ السيِّدِ أحمدَ بالإمامِ أميرِ المؤمنين أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ، من طريقِ جَدِّه الإمامِ جعفرٍ الصَّادق ؛ فإنَّ أُمَّ الإمامِ جَعْفَرٍ أُمَّ فَرْوَةَ .. بنتُ القاسم ، بنِ محمد ، بنِ سيِّدِنا أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه .

ووالدةُ أُمِّ فَرْوَةَ المذكورةِ .. أسماءُ بنتُ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ رضي الله عنهما .

ولهذا كان الإمامُ جعفرٌ الصَّادقُ يقولُ : وَلَدَنِي الصِّدِّيقُ مرَّتين[١] .

اِتِّصَالُهُ بِعَمِّهِ الإمامِ الحسنِ بنِ عليٍّ

ويتصلُ نَسَبُهُ بعمِّه الإمامِ الحسنِ السِّبْط ، مِنْ طَرِيقِ جَدِّه الإمامِ محمدٍ الباقر ؛ فإنَّ أُمَّ الباقرِ فاطمةَ أُمَّ عبدِ الله .. بنتُ الحَسَنِ السِّبْطِ عليه السلام[٢] .

وِلادَتُهُ ونَشْأَتُهُ

قال الحافظُ العِزُّ الفَارُوثِيُّ في كتابه « إرشاد المسلمين »[٣] عند ذكره .. ما نصُّه :

---

(١) « ترياق المحبين » ص (٣ ـ ٤) ، للإمام تقي الدين عبد الرحمن بنِ عبد المحسن الواسطيِّ الشافعيِّ ، (ت ٧٤٤ هـ) .

(٢) « صحاح الأخبار » ص (٦٥) ، للسيد محمد سراج الدين الرفاعيِّ الحسينيِّ ثم المخزوميِّ ، (ت ٨٨٥ هـ) .

(٣) ص (٢٩ ـ ٣٠) .

« وُلِدَ شيخُنا السيدُ أحمدُ ـ رضي اللهُ عنه ـ بقريةِ حسن ، بدارِ أبيهِ السيِّدِ عليٍّ أبي الحسن .

وقال آخرون : بل يومَ ولادتِهِ كانت أُمُّه الشريفةُ فاطمةُ بدارِ أبيها الشيخِ يحيى النجاريِّ بأُمِّ عَبِيْدَةَ ، وهناك وُلِدَ .

أقولُ . ولا فَرْقَ ؛ فإنَّ قريةَ حسن ـ كما سَبَقَ وقُرِّرَ[1] ـ جُزْءٌ من أُمِّ عَبِيْدَة ، وكذا في سِجِلاَّتِ الدِّيوان ؛ فإنَّهم يذكرونَ أُمَّ عَبِيْدَة ، ويدخُلُ تحتَ هذه الكلمةِ :

الفضيلة ، وقريةُ حسن ، والرَّبوة ، وحربون ، والمنصورية ، والوردية ، وعِدَّةُ قرىً أُخَر .

وكانت ولادتُهُ في يومِ الخميسِ ، منَ النصفِ الأوَّلِ من شَهْرِ رجبٍ على الصحيحِ المتَّفَقِ عليه[2] .

وقد بَشَّرَ بقُدومِهِ الأولياءُ العارفون ، ونوَّه على عِزَّةِ مكانتِه وقُرْبِه من رَبِّه أيّامَ ولادتِهِ الأعيانُ الواصلون .

وَسَمِعُوه يُهَمْهِمُ حينَ وُلِدَ هَمْهَمَةً فيها تركيبُ حروفٍ ، فعجِبوا لذلك! فذكروا القصةَ لخالِهِ الشيخِ منصورٍ رضيَ اللهُ عنه .

فقامَ بجماعَةٍ من أعيانِ أصحابِه ، ودَخَلَ حُجْرَتَه ، فَسَمِعُوه يقول : سبحانَ من صَوَّرَكم فأحسنَ صُوَرَكُمْ! .

---

(١) أي : في كتابه « الإرشاد » ص (٢٦) .

(٢) وما ذكره السُّبكيُّ في « طبقاته » ٦ : ٢٤ . من أنَّ ولادتَه في المحرَّم سنةَ خمسِ مئة ، ليسَ بصحيحٍ .

فَسَجَدَ سيدي الشيخُ منصورٌ شكراً لله ، وقال : الحمدُ للهِ الذي جعلَ جوهرَ أهلِ اللهِ في هذا البيتِ .

نقَلَ جدِّي الإمامُ عمرُ أبو الفرجِ الفارُوثيُّ ، عن أبيه الفقيه الثَّبْتِ الشيخِ أحمدَ بنِ سَابُورِ الفَاروثيِّ ، وكان من أصحابِ السيدِ عليٍّ أبي الحسنِ المكيِّ الرِّفاعيِّ :

أنَّ سيِّدَنا السيِّدَ أحمدَ تقيَّدَ عن شُرْبِ الحليب في رمضانَ كُلَّ يومٍ ، فإذا وجاء وقتُ الغروبِ .. شَرِبَ اللَّبَنَ .

وثبتَ هذا من طُرُقٍ عديدةٍ ؛ فإنَّ شيخَنا الحافظَ المُتَفَنِّنَ عبدَ المنعمِ الأنصاريَّ .. حدَّثَ بمثلِ ذلك ، راوياً القصةَ عن وليِّ اللهِ الشيخِ يحيى النجاريِّ .

ونقلَها ـ أيضاً ـ الشيخُ عبدُ الملك الواسطيُّ ، عن أُخْتِهِ العابدةِ الصَّالحةِ ، الشيخةِ المعمَّرةِ صالحةَ أُمِّ الشُّمودِ ، والدةِ الشيخِ عبد الملكِ الحربونيِّ ، قالت :

إنَّ السيِّدَ أحمدَ بنَ السيِّدِ أبي الحسنِ عليٍّ .. لم يَشْرَبِ الحليبَ ولا مِنْ ثَدْيِ أُمِّه في رمضانَ إلاَّ بعد إفطار ، وكنَّا ندفعُهُ من حِجْرِ أُمِّهِ إلى حِجْرِ أُخرى ليرضَعَ .. فلم يفعل .

قلتُ : إذا أرادَ اللهُ أن يُصْلِحَ شأنَ عبدِهِ ، ويستخلِصَهُ له ، ويجعلَهُ من خاصَّتِه .. يصرفُ تربيتَه مِنْ مَهْدِهِ إلى لَحْدِهِ لجنابه الكريمِ ، ويُعلي أمرَه بالتوفيق .

وإذا قضى بشقاءِ العبدِ .. صرَفَه عنه ، ووكَلَهُ إلى نَفْسِه ، حمانا اللهُ .

وفي المعنى أقولُ :

إنَّ العِنَايَةَ إنْ أَعَانَتْ ضَائِعاً　　جَمَعَ الإلٰهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَتَاتِهِ
فَيَقُومُ مَرْضِيَّ الشُّؤُونِ مُوَقَّراً　　وَتَحُفُّهُ الأَلْطَافُ فِي حَرَكَاتِهِ
وَإِذَا العِنَايَةُ فَارَقَتْ ذَا قُدْرَةٍ　　فَالسَّيِّئَاتُ يَلُحْنَ مِنْ حَسَنَاتِهِ
وَيَرُوحُ مَذْمُومَ الصَّنَائِعِ خَائِباً　　تُطْوَىٰ لَهُ الغُصَّاتُ فِي أَوْقَاتِهِ
سُبْحَانَ مَنْ لاَ أَمْرَ إلاَّ أَمْرُهُ　　نَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ »

* * *

وقال سِبطُه السيِّدُ الصَّيَّادُ ـ رضي اللهُ عنه ـ في كتابه « المعارف المحمدية »(١) عن نشأته . . ما نصُّه :

« ورُوِيَ عن الشيخِ يعقوبَ بنِ كُرَّازٍ ـ رحمة الله عليه ـ قال : كان سيدي أحمدُ ـ قدسَ اللهُ تعالى روحَه ـ في صِغَرِهِ عاقلاً ، حامداً ، ذليلاً ، منكسراً ، ما عرَفَ أحدٌ قطُّ له كلمةً زائدةً ولا ناقصةً ، ولا فاهَ يوماً بكلمةٍ بما يَرِيب ، ولا ما يغيظ به جليسَه .

ولا سأله أحدٌ قطُّ شيئاً كان بيدِهِ أو يَقْدِرُ عليه ومنعَه عنه . . إلاّ أعطاه ما طلبه ، وأجابَه إلى ما سأله ، وما وعدَ أحداً قطُّ وعداً وعَدَلَ عنه .

وكان ـ قدسَ اللهُ تعالى سِرَّه ـ لا يَراه أحدٌ قطُّ إلا ضاحكاً ، أي : مُبتسماً .

---

(١) ص (٤٢) .

وكان يُلازِمِ الوَحْدَة ، ويُحِبُّها ، ولاَ يُخالط اللُّعِبَة ، ولا يلعب معَهُم ، ولا يُمازِحُهم ، وإذا مازحوه . . لا يحردُ .

وكان يقولُ الحقَّ ولو على نفْسِهِ ، وما كَذَبَ قطُّ لا هَزْلاً ولا جَدَلاً ولا جِدّاً .

وكان إذا رآه مَنْ لا يعرفُهُ . . عَبَرَتْ عينُه عليه لأجل مسكنته ، كأنه كان يتيماً غريباً .

وكان جليلَ القَدْرِ ، دائمَ البِشرِ ، قويَّ الهمَّةِ ، عزيزَ العقلِ ، شديدَ العزمِ على طلب الخيرِ .

وكان يُحِبُّ الصالحين ، ويَزُورُهُم ، ويتردَّدُ إليهم ، ويغتنمُ بركتَهم ، ويسألُهُمُ الدُّعاءَ ، ويُقبِّلُ أقدامَهم .

ولمّا كان في المكتب . . كان يتحمّلُ أذِيَّةَ الصّغارِ ، ولا يَحْرَدُ منهم ، ويقضي حوائجَهم ، حتى كان يمسحُ الألواحَ للأطفالِ في شِدَّةِ البردِ ، ويقولُ لهم :

مَنْ كان منكم يخشى البردَ من مسِّ الماءِ . . يعطيني لَوْحَهُ أغسِلُهُ .

وكان يُشْفِقُ عليهم ، ويَقِدُ لهمُ النَّارَ ، ويُدْفِئهم ، وإذا جاء وقتُ الصلاةِ . . ينهضُ من غيرِ كسلٍ ، ويُسبغ الوَضُوء ، وَيَقْصِدُ المسجدَ ، فيصلِّي ويرجع .

وكان ـ قدسَ اللهُ تعالى روحَه ـ يقول للصّغار : صلُّوا ما دمتم فارغين متفرِّغين قبلَ إشغالِكم بالدنيا وطلبِها ، فإذا صلَّيتم وأنتم فارغون صغار . . حلَّت في قلوبكم عند الكِبَرِ .

وما وضعَ يدَه قطُّ على ألمٍ . . إلاّ شفاهُ اللهُ تعالى ، فكان الناسُ يعرفونَ له ذلكَ من صِغَرِهِ .

وأنَّه ـ رحمةُ اللهِ عليه ـ ما ادَّخَرَ شيئاً منَ الدنيا ، ولا أكل وحدَهُ قطُّ ، ولا اشتهى شهوةً إلاّ فرَّقَها على الأطفال ، ولا يأكُلُ هو منها .

وكان يُشفقُ على المعلّم ، ولا يقولُ إلا : يا سيدي .

وكانت له الهيبةُ والمحبّةُ في قلوبِ الناسِ .

وكان يُقَبِّلُ يَدَ كُلِّ مَنْ رآه ، ولا يُعطي أحداً يَدَهُ يُقَبِّلُها .

وكان إذا سأله أحدٌ الدُّعاءَ . . رفعَ يَدَهُ نحوَ السماءِ ، فلا يَعلم أحدٌ ما يقولُ ، فيجدونَ بَرَكَةَ الدعاءِ ، وتُقْضى حوائجُهُم ببَرَكَتِهِ وبَرَكَةِ دُعائِهِ .

وكان إذا سمعَ بمريضٍ من أهلِ البلدةِ . . يَزُورُهُ ، ويتردَّدُ إليهِ لِصِغَرِ نَفْسِهِ ، ولا يستحي من حَسَنَةٍ يعملُها .

وكان إذا رأى غريباً . . حملَه وأكرَمَه ، ويحمِلُ له طعاماً ، ويُبَيِّتُهُ عندَهُ .

وكان كثيرَ الإطراقِ ، سريعَ العَبْرَةِ ، حزينَ القلبِ ، حريصاً على فعلِ الخيراتِ .

وكان ـ قدسَ اللهُ تعالى روحَه ـ إذا قرأ القرآن على الشيخِ . . لا يتلقَّنُ أكثرَ من آيةٍ أو آيتين ، ويدرسُها يومَه أجمعَ وليلتَه ؛ لأنَّه كان لا ينامُ الليلَ كلَّه في صِغَرِهِ .

وكان يعتبر في الآية ، ويتفكَّرُ ، ولا يقرأُ بِعَجَلَةٍ ، بل بِترتيلٍ وخوفٍ ، ويقرأُ ودموعُهُ تجري على وجهه كالغيث .

وكان يُحِبُّ القرآنَ وأهلَه ، وإذا رأى صغيراً في الدَّربِ يلعبُ . يلعبُ معَهُ ، ويُشفق عليه ، ويُرغِّبُه في القراءة ، ويقولُ : نقرأُ أنا وأنتَ ، وكلُّ ما تريدُهُ عليَّ ، ولا يزال عليه حتى يُدخلَه حَلْقَةَ المقرَّبين ، فإذا رآه وقد تلقَّنَ شيئاً من القرآن . . فرِحَ بِهِ ، واستبشر .

وكان إذا رأىٰ شخصاً كبيراً . . كرَّمَهُ ، وخدَمَهُ ، والتفتَ إليهِ .

وكان إذا رأى أعمى . . أشفقَ عليه ، وقاده إلى موضعِ حاجتِهِ .

وكان يقضي للفقراءِ حوائجَهُم ، ويملأُ لهم أباريقَهم من الشَّطِّ ، ويحملُ لهمُ الطعامَ ، ويمنعُ مَنْ يتعرَّضُ لهم .

وكان لا يتركُ مَنْ به فاقةٌ على حَسَبِ طاقتِه ، ولا يرى مُحتاجاً ، إلا تعرَّض به لأجل حاجتِهِ ، وهذا دَأْبُهُ إلى أن كَبِرَ رضي الله عنه » . انتهى .

وقال في مكانٍ آخرَ من كتابِهِ[1] . . ما نصُّهُ :

« ورُويَ عن سيدي يحيى أنه قال : إن سيِّدي أحمدَ الرِّفاعيَّ ، ما أكلَ الخُبْزَ السُّخْنَ في عمرِهِ أبداً ، وما نامَ أبداً في الليلِ ، وما ضحِكَ أبداً .

وفي زمن الطُّفوليةِ . . ما لَعِبَ معَ الأولادِ قطُّ ، وكان وهو طِفْلٌ من عوائده الحَسَنة : أنه يجمعُ الخبزَ للغرباء والضُّعفاءِ وقليلي الطاقة والجُهد ، ويستسقي لهمُ الماءَ ، ويُعطيه لهم ، ويتقيَّدُ بخدمتِهم .

وكان من عوائدِهِ : أنه يَزُورُ المهجُورَ من المساجدِ ، ويزورُ المقابرَ .

---

(١) ص (٧٧) .

ومِنْ حينَ كانَ طِفلاً كان كُلُّ مَنْ صَاحَبَهُ أو حادَثَهُ . لا يتصاحَبُ مَعَهُ إلاَّ بالنَّصِيْحةِ والفوائدِ .

وكان الناسُ يتمنَّى الواحدُ منهم أن يُصاحبَهُ لحظةً ، لِشِدَّةِ محبَّته له ، وكُلُّ مَنْ نَصَحَهُ مِنْ هؤلاءِ المصاحِبين . لا يَرُوحُ إلاّ وهو من الفائزين مِنْ تلكَ النَّصيحةِ ، فرَضي اللهُ عنه » . انتهى .

عِنَايَةُ النَّبِيِّ (ﷺ) بِهِ

وقد صحَّ وتواترَ : أنَّ الشيخَ منصوراً رأى النبيَّ - صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ - في المنامِ قبلَ ولادةِ السيِّدِ أحمدَ بأربعينَ يوماً فقالَ له :

أُبَشِّرُكَ يا منصورُ ! إنَّ اللهَ يُعطي إلى أُختِكَ بعدَ أربعينَ يوماً وَلَدَاً ، يكونُ اسمُهُ أحمَدَ الرِّفاعيَّ ، مِثْلُ ما أنا رأسُ الأنبياءِ . كذلكَ هو رأسُ الأولياءِ .

وحينَ يَكْبَرَ . فَخُذْهُ وَاذْهَبْ بِهِ إلى الشيخِ عليٍّ القاريءِ الواسطيِّ ، وأعطِهِ لَهُ كي يُرَبِّيَهُ ، لأنَّ ذلكَ الرَّجُلَ عزيزٌ عندَ اللهِ ، ولا تَغْفُلْ عنه! .

قال الشيخُ منصور : فقلتُ : الأمرُ أمرُكمْ يا رسولَ الله ، عليكَ الصلاةُ والسَّلامُ . وكانَ الأمرُ كما ذكرَ رسولُ اللهِ ، صلى اللهُ عليه وسلَّم[1]

بِشَارَاتُ أهلِ التَّمكينِ بِقُدُومِهِ قبلَ وِلادتِهِ

قال العلاَّمةُ الشيخُ القُدْوةُ الفقيهُ عبدُ العزيزِ بنُ أحمدَ الدِّيْرينيُّ الدَّميريُّ الشافعيُّ الأحمديُّ ، في رسالته « غاية التحرير ، في نَسَبِ قُطْبِ العَصْرِ

---

(١) « ترياق المحبين » ص (٤) .

غوثِ الزّمانِ سيّدِنا أحمدَ الرّفاعيِّ الكبير ».. ما نصُّهُ[1] :

« أخبرَنا شيخُنا سلطانُ العلماءِ ، عبدُ العزيزِ أبو محمد ، الشيخُ عِزُّ الدّينِ بنُ عبدِ السّلامِ الشافعيُّ ـ قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ـ قالَ :

قرأتُ في كتابِ الشيخِ الصُّوفيِّ العارفِ الصّالحِ ، المتمسّكِ بالسُّنّةِ المحمديّةِ ، بقيّةِ السّلفِ ، السيّدِ الشريفِ محيي الدّين أحمدَ بنِ سليمانَ الحسينيِّ الرّفاعيِّ الهُماميِّ قدّسَ اللهُ روحَه ، ومِنْ خَطِّهِ نقلتُ هذه الصحيفةَ .

يقولُ الفقيرُ إلى اللهِ تعالى عبدُ العزيزِ بنُ أحمدَ الدّميريُّ عفا اللهُ عنه : وأنا نقلتُها من خطِّ شيخِنا شيخِ الإسلامِ عزِّ الدّين عبدِ العزيزِ بنِ عبد السلامِ ، وقرأتُها ـ بعد نقلِها ـ عليه ، وهذا نصُّها :

نزَلَ السيّدُ محمدٌ أبو القاسمِ الحسينيُّ البغداديُّ ، الجَدُّ التاسعُ لسيّدِنا ومولانا السيّدِ أحمدَ الرّفاعيِّ معَ أبيه : إلى مكّةَ ، وتوطّنَها ، وأحبَّهُ الناسُ ، واعتقدوا صلاحَه ، وعظّمُوه لأجلِ الدّين ، وبجّلُوه حُرْمَةً لِنَسَبِهِ المحمديِّ .

ومن غرائبِ الإتحافِ الإلهيِّ ، الذي حَصَلَ له : أنه رأى ليلةَ جُمُعَةٍ بِمَكّةَ في منامِهِ : أنَّ أبوابَ السّماءِ فُتِحَتْ ، ونزَلَ منَ السّماءِ نُورٌ غَشَّ الأبصارَ .

ثم أنكشفَ رداءُ النورِ عن أرضٍ نديّةٍ ، خَضِرَةٍ مفروشَةٍ بِشُقَقِ الدّيباجِ ،

---

(١) ص (٢٦ ـ ٣٠) .

وعليها الأَسِرَّةُ ، وفوقَ الأَسِرَّةِ رجالٌ تغشاهُم من كُلِّ جِهَاتِهِمُ الأنوارُ ، ومعَهُ ولدُهُ المهديُّ .

وإذا برجلٍ قد جاء فدعاهما ، فذهبا معَه ، حتى إذا أوقفهما تُجاه سَريرٍ رفيعٍ ، عليهِ سِتْرٌ مُرَصَّعٌ باليواقيتِ والجواهرِ . فٱنكشفَ السِّتْرُ ، ونزلَ عنِ السَّريرِ رجلٌ عظيمُ المهابةِ ، جليلُ الطَّوْلِ ، وبيدِهِ غُصْنُ شجرةٍ رفيعٌ ، فتقدَّمَ إليهما وقال :

يا أبا القاسم! خُذْ هذه الغريسة ، وأعطها لولدِكَ المهديِّ ، وٱسْلُكْ بِهِ هذا الطريقَ إلى الغَرْبِ ، فإذا وصلَها . فليغرِسْ فيها هذه الشَّجَرَةَ ، فإذا نَمَتْ . فليأخُذْ أشرفَ أغصانِهَا ، ويُسَلِّمْهُ إلى بعضِ أولادِهِ ، ولْيَسْلُكْ به هذا الطريقَ إلى الشرق ، فإذا انتهى إلى واسط . فَلْيَغْرِسِ الغُصْنَ بها ، ولْيُقْلِعْ عنِ السَّيْرِ ؛ فإنَّ هذا الغُصْنَ يُنْجِبُ شَجَرَةً تَصِلُ فروعُها المشرقَ والمغربَ ، وتصلُ إلى قُبَّةِ السَّماءِ .

قال أبو القاسم : فكلَّمتُ ولدي المهديَّ في ذلك ؟ فقال ولدي : رِفَاعةُ أقوى جَلَدًا منِّي على السَّفَرِ ، فأرْسِلُوْهُ هو .

فكلَّمتُ الرجلَ بما قالَه المهديُّ ؟ فَصَعِدَ السَّريرَ ، ثم عاد ، فقال : نعم فَلْيَكُنْ رِفَاعةُ ابنُه الذي يفعل .

فلم أَلْبَثْ قليلاً إلاَّ ورِفَاعَةُ عندي ، فأعطيْتُهُ الغُصْنَ ، ثم قلتُ للرجلِ : ها نحنُ قد قمنا لامتثالِ أمركم ، فباللهِ إلاَّ ما أخبرتَنِي مَنْ أنتَ ومَنْ صاحبُ هذا السَّريرِ الذي أتيتَنَا بالأمرِ مِنْ قِبَلِهِ ؟ .

قال : أنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، وصاحبُ السَّريرِ . رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فصلَّيْتُ عليه ، وحَمِدْتُ اللهَ ، وأخذتُ بيدِ حفيدي رِفَاعةَ ، وسلكتُ به طريقَ الغربِ الذي أشارَ إليه أميرُ المؤمنين .

فما كان كطرفةِ عينٍ إلا ونحنُ في المغرب ، فَغَرَسَ رِفَاعةُ الغُصْنَ ، فأنبتَ شجرةً عظيمةً تسلَّقَ غُصْنُها مِنْ ذِرْوَةِ السماءِ ، فقطعَهُ رفاعةُ .

ثُمَّ قُمنا ، فسلكْنا طريقَ الشرقِ تَزَجُّ بالنورِ ، فما كان غيرُ يسيرٍ وإذا نحن بواسطِ المشرقِ من العراق ، فغرَسَ رِفَاعةُ الغُصْنَ ، فأنجبَ شجرةً عظُمَتْ حتى مسَّ أغصانُها أطلس السماء ، وانتهت فروعُها طولاً حتى بلغتِ المشرقَ والمغربَ ، وكأنَّ الشمسَ أصلُها ، والنجومَ أوراقُها .

فخشعتُ لذلك ، ثم استيقظْتُ متحيِّراً ، وانصرفتُ إلى بيتِ اللهِ وأنا في بحرٍ من الفِكْرِ ، فرأيتُ السيِّدَ حمزةَ بنَ عليٍّ العَلَوِيَّ ، معبِّرَ أهلِ البيتِ ، فذكرتُ له قِصَّةَ الرُّؤْيا ، فخشَعَ وبكى ثم قال :

تُشيرُ رؤياكَ إلى أنَّ ولَدَ ولدِكَ رِفَاعةَ ينزلُ المغربَ ، ويتركُ فيها العَقِبَ الطاهرَ ، ثم ينتقلُ من بنيه رجُلٌ إلى المشرق ، وينزلُ واسطَ[1] .

ويُعْقِبُ فيها سيِّداً ينُوبُ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ[2] ، فيُجَدِّدُ

(١) وهو السيِّدُ يحيى بنُ ثابت ، جَدُّ السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ لأبيه ، وهو أوَّلُ قادمٍ من عصابةِ بني رفاعةَ الحسينيِّين إلى البصرة ، نزلَها عامَ (٤٥٠ هـ) ، « خلاصة الإكسير » ص (٢١) ، لأبي الحسن الواسطي ، (ت ٧٣٣ هـ) .

(٢) إشارةً إلى السيد أحمد رضي الله عنه ، كما سيمرُّ بك آخرَ القصة

شريعتَهُ ، ويُحيي طريقتَهُ ، وتملأُ أنوارُ إرشادِهِ الأكوانَ ، ويَجيءُ مِنْ بنيه رجالٌ مِنْ خُلَّصِ أهلِ البيتِ ، كُلُّهم كالنُّجوم ، إن لم يكنْ ذلك الرجلُ مهديَّ أهلِ البيتِ . . فهو مثلُهُ .

فكتبتُ رُؤْيايَ وتعبيرَها في رُقْعَةٍ ، وحفظتُها لتكونَ ـ إن شاءَ اللهُ ـ وديعةً محمديَّةً عَلَوِيَّةً لصاحبِها ، انتهى كلامُ السيِّدِ محمد أبي القاسم

ولا زالتِ الرُّقعةُ محفوظةً يتداولُها أهلُ هذا البيتِ الشريفِ ، حتى ظَهَرَ شمسُ هذه العِصابة ، وليُّ اللهِ ، القُطْبُ الجامعُ الأكبرُ ، السيِّدُ أحمدُ بنُ عليٍّ الرِّفاعيُّ الحسينيُّ رضي اللهُ عنه ، وبَلَغَ مِنَ الظُّهورِ في مقامِ إرشادِ أُمَّةِ جَدِّهِ ـ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ ما بَلَغَ .

حَمَلَ هذه الرُّؤيا أعيانُ أهلِ البيتِ عليه رضي اللهُ عنه ، وأيَّدَ ذلك مِنَ البِشاراتِ المحمديَّةِ شيءٌ كثيرٌ رواه أَئِمَّةٌ مِنَ الصالحينَ العارفين(١) .

وكانت وفاةُ السيِّدِ محمد أبي القاسم بمكَّةَ سنة ـ (٢٦٥ هـ) ـ خمسٍ وستين ومئتين ، طيَّبَ اللهُ مرقدَه ، انتهى .

قال الفقيرُ إلى الله ، جامعُ هذه الكُرَّاسةِ ، عبدُ العزيز بنُ أحمدَ الدَّميريُّ ، عفا اللهُ عنه :

قال شيخُنا شيخُ الإسلامِ ، الشيخُ عِزُّ الدِّين بنُ عبدِ السلام ، قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ :

---

(١) سيأتي بعضُها بعد نهاية هذه القصة .

وأنا مِمَّنْ يحملُ هذه الرُّؤيا على شيخِ مشايخِنَا السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ رضي اللهُ عنه » . انتهى .

وقال الواسطيُّ في « ترياقه »[١] : « وبشَّرَ أهلُ التَّمكينِ من أعيانِ القومِ بِقُدُومِهِ قبلَ ولادتِهِ ، وقالوا : إنَّ الذُّلَّ والانكسارَ سيكونانِ مَحَجَّتَهُ[٢] في طريقته وإفادتهُ .

وقد صحَّ من طُرُقٍ عديدةٍ : أنَّ الشيخَ الأكبرَ ، تاجَ العارفين ، السَّيِّدَ أبا الوفا . . مرَّ يوماً بِأُمِّ عَبِيْدَة ، فقالَ لِمَنْ معَهُ :

سَيَظْهَرُ بعدي في هذه القريةِ السَّعيدةِ رجلٌ تُشَدُّ إليه الرِّحالُ ، وتَذِلُّ له رقابُ الرِّجالِ ، يتواضَعُ له كُلُّ صاحبِ سَجَّادةٍ على وجهِ الأرضِ .

يسلُكُ طريقاً لم يَسْلُكْهُ أحدٌ من هذه الخِرْقَةِ قبلَهُ ولا بَعْدَه ، وهو طريقُ الذُّلِّ والانكسارِ والمسكنةِ والافتقارِ ، وهي أصعبُ الطُّرُقِ إلى اللهِ . . .

والدَّوْلَةُ له بعدَنا ، وهو صاحبُ الأمرِ والنَّهْيِ والتَّصرُّفِ في البواطنِ والظَّواهِرِ بإذنِ اللهِ تعالى » . انتهى .

وقال العِزُّ الحافظُ الفَارُوثيُّ في « النفحة المسكية »[٣] عندَ ذِكْرِ مَنْ بَشَّرَ به . . ما نصُّهُ :

« وقد بشَّرَ به قبلَ ولادتِهِ بسنتينِ أكابرُ الأولياءِ ، وانتظر ظهورَهُ أماجدُ

---

(١) ص (١١) .

(٢) أي : جَادَّتَهُ ؛ لأنَّ المَحَجَّةَ . . هي جَادَّةُ الطريق ، « مختار الصِّحاح » ص (١٢٣) ، مادة : « حجج » .

(٣) انظر « الرَّشحات الحَسَنيَّة على النفحة المسكية » ص (٢٩٢ ـ ٢٩٣) .

الأصفياءِ ، وأمروا إخوانَهُم إذا رأَوْهُ وصاروا في زمانه . . أن يعرفوا حقَّ حُرْمَتِهِ ، وعظيمَ منزلتِهِ ، وقالوا :

إنه صاحبُ الوقتِ والزمنِ ، والدولةُ له ولذريّتِهِ إلى يومِ القيامةِ .

وقالوا : إنه متى ظَهَرَ . . يُغْلِقُ أبوابَ الصالحين ، ويَصيرُ الوقتُ له ولأهلِهِ ، وتَحَكُّمُهُ وتَصرُّفُهُ يصلانِ إلى مرتبةٍ عظيمةٍ .

يُضرب داغُهُ على جبهات الذَّراري في أصلابِ الآباء ، وسيسلُكُ طريقاً لم يَسْلُكْها أحدٌ قبلَهُ ولا بعدَه ، وهي : طريقُ الذُّلِّ والانكسارِ ، والمسكنةِ والافتقارِ ، والخُضُوعِ والحَيْرَةِ ، ولم يكن في الطريقِ إلى اللهِ أعظمُ وأصعبُ منها .

وممَّنْ بَشَّرَ به بالأسانيدِ الصحيحةِ الثابتةِ . . الشيخُ الكبيرُ ، تاجُ العارفين ، أبو الوفا ، والشيخُ أحمدُ كنزُ العارفين الزاهدُ ، والشيخُ نصرُ الهُمامانيّ ، والشيخُ أحمدُ بنُ خميس ، والشيخُ أبو بكرٍ النَّجاريُّ الأنصاريُّ ، والشيخُ منصورٌ الرَّبّانيُّ البطائحيُّ ، وغيرُهم ، رضي اللهُ عنهم .

والذين عَدَدْتُهُمْ لكَ[1] . . مَنْ عرفتَهُم ، غَصَّتْ بِفَضَائِلِهِمُ الأوراقُ ، وانتشَرَ صِيتُهُمْ في الآفاقِ » . انتهى .

---

(١) عَنَىٰ به الشيخَ الصَّالحَ المُكاشَفَ إبراهيمَ بنَ مِعْضَادٍ الجَعْبَرِيَّ ، (ت ٦٨٧ هـ) ، رحمةُ اللهِ عليه ، فإنَّ رسالَتَهُ « النفحة » مُوَجَّهَةٌ إليهِ بِطَلَبٍ منه ، انْظُرِ « الرَّشحات الحَسَنِيَّة » ص (٣٠) .

طَلَبُهُ لِلْعِلْمِ :

قال العِزُّ الحافِظُ في « إرشادِهِ »[١] : « تُوفِّيَ السيِّدُ عليٌّ والدُ سيِّدِنا السيِّدِ أحمدَ ببغدادَ ، وللسيِّدِ أحمدَ إذْ ذاكَ منَ العُمُرِ سَبْعُ سنين .

فبَعْدَ وفاةِ أبيهِ كَفَلَهُ خالُهُ البَازُ الأشهبُ الشيخُ منصورٌ ، ونقلَه هو ووالدتَهُ وإخوتَهُ إلى بلدتِهِ نهرِ دَقْلى من أعمالِ واسط .

وكان شيخُنا المشارُ إليه ، سلامُ اللهِ ورضوانُهُ عليه : قد أكمَلَ يومئذٍ قراءةَ القرآنِ العظيمِ حِفْظاً وترتيلاً بقرية حسنٍ على الشيخِ الوَرِعِ المُقرىءِ الصالحِ الأصيلِ عبدِ السميعِ الحربونيِّ رحمه اللهُ .

فلمَّا صارَ إلى كَنَفِ خالِهِ . أخَذَهُ إلى واسطَ بأمرٍ سَبَقَ له منَ المصطفى ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ في المنام . .

ولا زالَ حتى أدخلَهُ على الإمامِ الفقيهِ العلاَّمةِ الزاهدِ المُقرىءِ المُفَسِّرِ الواعظِ المُحَدِّثِ الرُّحْلَةِ الصُّوفيِّ الكبيرِ الشأنِ ، الشيخِ عليٍّ أبي الفضلِ الواسطيِّ رضي اللهُ عنه .

فتولَّى أمرَه ، وقامَ بتربيتِهِ وتأديبِهِ وتعليمِهِ امتثالاً للأمرِ النبويِّ .

فَبَرَعَ في العلومِ النَّقليَّةِ والعقليَّةِ ، ومَهَرَ واشتهرَ ، وأحرزَ قَصَبَ السَّبْقِ على أقرانِهِ ، وتفرَّدَ بالعلومِ والمزايا في زمانِهِ .

وكان يُلازمُ دَرْسَ خالِهِ الشيخِ أبي بكرٍ الواسطيِّ ، ويتردَّدُ إلى حَلْقَةِ خالِهِ

---

(١) ص (٣٠ ـ ٣٣) .

الشيخِ منصورِ الرَّبَّانيِّ ، ويتلقَّىٰ بعضَ العلومِ عنِ الشيخِ عبدِ الملكِ الحربونيِّ .

وحفِظَ كتابَ « التنبيه » للإمامِ أبي إسحاقَ الشيرازيِّ على ظاهرِ قلب ، واقتفى آثارَ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، وعظَّمَ الشيوخَ ، واستغرقَ أوقاتَهُ بجميعِ المعارفِ الدينيَّةِ ، وأفاضَ اللهُ عليهِ مِنْ لَدُنْهُ علماً خاصّاً ، حتى رجعَ مشايخُهُ إليه ، وتأدَّبَ مُؤدِّبُوه ـ لجلالةِ قَدْرِهِ ـ بينَ يديه .

ولمّا بلَغَ عُمُرُهُ المباركُ عِشْرينَ سنةً . . أجازَهُ شيخُهُ عليٌّ أبو الفضلِ محدِّثُ واسطَ وشيخُها إجازةً عامَّةً بجميعِ علومِ الشريعةِ والطريقةِ ، وألبَسَهُ خِرْقَتَهُ المُباركةَ ، ونوَّهَ بذكرِهِ ، وأعظَمَ شأنَهُ ، ولَقَّبَه بـ : أبي العَلَمَيْنِ ، لإشارةٍ سماويَّةٍ ظهرَتْ له ، فَهِمَ منها : أنه قائدُ أهلِ الظَّاهرِ والباطنِ ، وبابُ النجاحِ في أمرَيِ الدُّنيا والآخرةِ .

وانعقدَ عليه في حياةِ مشايخِهِ الإجماعُ ، واتفقَتْ بشأنه ورِفعَةِ قَدْرِهِ الكلمةُ .

وأقام بنهر دَقْلَىٰ مُدَّةً يسيرةً ، ورَجَعَ إلى رِواقِ أبيه بقرية حسن ، فاشتهر كُلَّ الاشتهار ، ومعَ ذلك فكان يتباعدُ عن طَقْطَقَةِ النِّعالِ ، وحُبِّ الشُّهرةِ ، ويخلُو بربِّه على أكملِ وَقارٍ وأحسنِ سكينةٍ ، مُلازماً الذُّلَّ والانكسارَ ، والمسكنةَ والافتقارَ ، للهِ الواحدِ القهَّارِ ، مُتخلِّياً لعبادةِ ربِّه ، لا يعرفُ الراحةَ ، ولا يُواصلُ الاستراحةَ ، هَمُّهُ ربُّه دونَ الأكوانِ .

ففي سنةِ تِسْعٍ وثلاثين وخمسِ مئةٍ تُوفِّيَ شيخُهُ الشيخُ عليٌّ الواسطيُّ ، فأكملَ أمرَه ، وقضى مِنَ الفِطَامِ في الطريقِ وَطَرَهُ : على يَدِ خالِهِ الشيخِ منصور .

ودخلتْ سَنَةُ أربعين وخمس مئة ، وتَمَّ للسيدِ أحمدَ إذ ذاكَ منَ العُمْرِ ثمانٌ وعِشرونَ سنةً ، فَعَهِدَ الشيخُ منصورٌ له بمشيخةِ الشيوخِ ، وبمشيخةِ الأروقَةِ والرُّبُطِ المنسوبةِ إليه .

وفي تلك السَّنَةِ تُوفِّيَ الشيخُ منصور ، وكان لمَّا عَهِدَ له أمرَهُ بالإقامةِ في أمّ عَبِيدَةَ بِروَاقِ أبيهِ الشيخِ يحيى النجاريّ ، فأقام بها ، وتصدَّرَ على سَجَّادة الإرشادِ بذلك العام .

فلمّا دخلتْ سَنَةُ سَبْعٍ وأربعين وخمس مئةٍ . حُصيتِ الرِّقاعُ التي وردت إلى السيد أحمدَ ـ رضي اللهُ عنه ـ من مريديه ، الذين دخلوا الخَلْوَةَ المحرَّميَّة ، فزادت عن سبع مئةِ ألف رُقْعةٍ » . انتهى .

وقال أبو الحسن الواسطيُّ في كتابه« خلاصة الإكسير »[1] . . ما نصُّه :

« حدَّثني الشيخُ جُمْعَةُ قال : سمعتُ سيدي نجمَ الدِّين أحمدَ بنَ عليٍّ ـ قدَّسَ اللهُ تعالى روحَه ـ يقول : كان أخي سيدي إبراهيمُ الأعزبُ ـ رحمه اللهُ ـ يقولُ :

كان سيدي أحمدُ ـ رضي اللهُ عنه ـ يحفظ القرآن ، ويشرَحُهُ ، وكان يكتبُ خَطَّهُ على الفتوى ، وكان نَحْويّاً ، لُغَويّاً ، عالماً ، عارفاً ، بارعاً ، يتكلَّمُ شريعةً وحقيقةً .

وكان ـ قدَّس اللهُ تعالى روحَه ـ إذا أشكَلَ على الفقهاء أمرٌ . رجَعُوا فيه إليه ، فيُفصِحُهُ لهم .

---

(١) ص (٤٦) .

وكان يقرأُ القرآنَ بواسطَ ، ويحضُرُ معَ الفقهاءِ الدَّرسَ ، فيسكُتُ ويُنْصِتُ ، فإذا فرغُوا مما يتكلمون به .. حفِظَ كُلَّ ما قالوه وتكلَّموا به ، وكُلَّ ما شَرَحَهُ لَهُمُ الشيخُ .

فيقرأ على كُلِّ واحدٍ منهم ما درسَهُ وشرَحَه ، فيتعجَّبُون من ذلك ، ويقولون للمدرِّس ؟! فيتعجَّبُ ويقولُ : هذا رجلٌ سعيد ، قد أعطاه اللهُ تعالى عطاءً بغيرِ حسابٍ ولا تعبٍ .

وكان إذا سمِعَ الحديثَ حينَ يحضُرُ الحديثَ .. فكأنما يضعُهُ على قلبه ، فلا ينسى منه حرفاً واحداً » . انتهى .

وقال الإمامُ عبد الكريمِ الرافعيُّ القَزْوينيُّ في مختصره « سواد العينين[1] » .. ما نصُّه :

« حدَّثني الشيخُ الإمامُ أبو شجاعٍ الشافعيُّ فيما رواه قائلاً :

كان السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ ـ رضي الله عنه ـ عَلَماً شامخاً ، ورجلاً راسخاً ، وعالِماً جليلاً ، محدِّثاً ، فقيهاً ، مفسِّراً ، ذا رواياتٍ عاليات ، وإجازاتٍ رفيعاتٍ ، قارئاً ، مجوِّداً ، حافظاً ، مُجيداً ، حُجَّةً ، رُحْلَةً ، متمكِّناً في الدِّين ، سَهْلاً على المسلمين ، صعباً على الضالين .

هيِّناً ، ليِّناً ، هَشَّاً ، بَشَّاً ، لَيِّنَ العريكةِ ، حَسَنَ الخَلْقِ ، كريمَ الخُلُقِ ، حُلْوَ المكالمةِ ، لطيفَ المعاشرةِ .

لا يَمَلُّهُ جليسُهُ ، ولا ينصرفُ عن مجالِسِهِ إلا لِعبادةٍ .

---

(١) ص (٥٥) .

وفيّاً إذا عاهَدَ ، صبوراً على المكارِهِ ، جواداً من غيرِ إسرافٍ ، مُتواضعاً من غيرِ ذِلَّةٍ ، كاظماً للغيظِ من غيرِ حِقْدٍ ، أعلمَ أهلِ عصرِهِ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ، وأعملَهُمْ بها .

بحراً من بحارِ الشرعِ ، سيفاً من سيوفِ الله ، وارثاً أخلاقَ جَدِّهِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ » . انتهى .

أقولُ : جاءَ في « المعارف المحمديَّةِ في الوظائف الأحمديَّةِ »[1] لِسِبْطِهِ الإمامِ القُدْوةِ الجَدِّ السيِّدِ عِزِّ الدِّين أحمدَ الصيَّادِ رضي اللهُ عنه . . ما يلي :

« وقد أجازه ـ أي : شيخُه عليٌّ القاريءُ ـ بالعِلْمِ والطَّريقِ ، ولم يسمح بإجازته لغيره من أصحابه ، فعُوتِبَ على ذلك ؟! فقال :

يجبُ على من أنجبَ مثلَ السيِّدِ أحمدَ : أن ينقرضَ مِنْ غيرِهِ ، يريدُ أن لا يكونَ له خليفةٌ غيرُهُ .

وكان أصحابُ الشيخِ عليٍّ الواسطيِّ من أهل الأحوال والعِرْفَانِ أكثرَ من أربعينَ ألفاً ، وكان إذا رأى بأحدِهِمُ الاستعدادَ للفِطام . . يأمرُهُ بملازمةِ السيِّدِ أحمدَ ، وتجديدِ البيعةِ على يديهِ .

فيُقالُ له : أمَا أنتَ شيخُهُ ؟! فيقولُ : نحنُ أشياخُ الجُسوم ، وهو شيخُ الأرواح .

وربما قال : لولا أمرٌ سبقَ . . لأخذتُ البيعةَ منه ، وتشرَّفْتُ بملازمتِهِ ؛

---

(١) ص (٣١) .

فإنَّهُ كنزٌ من كنوزِ اللهِ مُطَلْسَمٌ ، اِستودَعَ اللهُ قلبَهُ أسرارَ القرآنِ ، وأقامَهُ بعنايتِهِ نائباً عن جَدِّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ » . انتهى .

بِنَاءُ طَرِيقَتِهِ على الأَصْلَيْنِ

الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

أقولُ : إنَّ طريقَتَنَا .. هي طريقةُ المصطفى صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وحقيقَتَنا .. العملُ بأعمالِهِ ، والتَّحَلِّي بأحوالِهِ ، صلواتُ اللهِ عليه وعلى آله ورجالِهِ .

وقد برَّأَ اللهُ طريقَنا هذا من لَوْثِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ ، ودسائِسِها الخفيَّةِ ، وأخطارِهَا الجليَّةِ .

وما هو إلاَّ طريقٌ يُعْرِبُ عَنْ حالٍ محمديٍّ ، سَوَاءٌ فيه عندَنا العربيُّ والعَجَميُّ ، والأبيضُ والأسودُ ، والرَّفيعُ والوضيعُ ، إلاَّ في حدودِ اللهِ وحقوقِهِ .

ولم يُشَبْ منهاجُنا هذا ـ والحمدُ للهِ ـ بِطَلَبِ أمرٍ أو نَهْيٍ دُنْيَوِي ، ولم يُدَنَّسْ بِغَرَضٍ من أغراضِ الأكوانِ ، ولم يَلْحَقْهُ غُبارٌ تَفْرَحُ بهِ نفوسُ أهلِ الحِجابِ .

وإنما كُلُّهُ دِينٌ ويقينٌ ، ووقوفٌ على جادَّةِ السُّنَّةِ السَّنِيَّةِ ، واشتغالٌ بتهذيبِ النُّفوسِ الفاسدةِ والنفُوسِ السقيمةِ عن طريقِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ ، والتعاونِ على البرِّ والتقوىٰ ، والتباعُدِ عنِ الإثْمِ والعُدوانِ ، ومعرفةِ قَدْرِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وإعظامِ ما كان عليه ،

والعملِ بسُنَّتِهِ طلباً لمرضاةِ اللهِ تعالى ، وفناءً بمحبَّةِ رسولِهِ عليه الصَّلاةُ والسلامُ .

وهنا غايةُ الموفَّقينِ ، وبغيةُ الصادقين ، وإنَّ اللهَ مع المتقين[١] .

هذه هي طريقَتُنا التي سُقْنا القلوبَ إليها ، وعَوَّلْنا في المسيرِ إلى اللهِ عليها ، وهي طريقةُ المُتمسِّكينَ ، بِسُنَّةِ سيِّدِ المرسلينَ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ .

قال السيِّدُ الإمامُ الكبيرُ أحمدُ الرِّفاعيُّ الحسينيُّ رضي اللهُ عنه :

« السُّنَّةُ المحمديَّةُ . . رُوحُ العارفِ ، بها يَقومُ ، وبِها يَقْعُدُ ، وهي منارُ ألبابِ العارفين ؛ فإنَّ مُشيِّدَ أركانِها ، ورافعَ بُنيانِها ـ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ لم ينطقْ عنِ الهوىٰ ، بل هو جَلْجَلَةُ[٢] : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .

وقال لولدِ بنتِهِ المُقرَّبِ ، أبي إسحاقَ السيِّدِ إبراهيمَ الأعزبِ ، الرفاعيُّ قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ العزيزَ :

ما أخذَ جَدُّكَ طريقاً للهِ إلاَّ اتِّباعُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ؛ فإنَّ مَنْ صَحَّتْ صُحْبَتُهُ معَ سِرِّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ . . اتَّبعَ آدابَهُ وأخلاقَهُ وشريعتَهُ وسُنَّتَهُ .

---

(١) « رفرف العناية » ص (١٣٢ ـ ١٣٣) ، طبعة شيخنا الإمام الوالد الماجد ، قدس اللهُ روحَه .

(٢) الجَلْجَلَةُ : التحريكُ وشِدَّةُ الصوتِ ، « قاموس » ٣ / ٣٦١ ، مادة « جل » .

ومَنْ سقط من هذه الوجوهِ . . فقد سلكَ سبيلَ الهالكين »[١] .

وقال الحافظُ الرفاعيُّ الثاني السيّدُ الروّاسُ ـ رضي اللهُ عنه ـ في كتابه « رفرف العناية »[٢] . . ما نصُّهُ :

« وقد رأى العارفون في أقطارِ مُلْكِ اللهِ : أنَّ العملَ بالسُّنَّةِ . . هو السَّبَبُ الأعظمُ لهبوطِ العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ إلى قلوبِهم ، وبه يعلمون أسرارَ الكتابِ العزيزِ .

فكأنَّ السُّنَّةَ السَّنِيَّةَ بمنزلةِ المِفْتاحِ للكنزِ الفُرقاني ، بِها يُلْهَمُ المُوفَّقُ موعظةً وذِكرى من حُكْمِ النَّصِّ .

ولا يَصِحُّ له الأخذُ بما يَعِظُهُ به قلبُهُ ، أو يُذَكِّرُهُ بِهِ إلاّ إذا عَرَضَ ذلك على السُّنَّةِ ؛ إذْ هي المُفَسِّرَةُ لكتابِ اللهِ تعالى ، والمُتَرْجِمَةُ لأسرارِهِ .

ومنها جرتْ ينابيعُ الحِكْمَةِ إلى قلوبِ أهلِ الصفاءِ ، الذين علَّمَهُمْ نبيُّهم ـ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ حُكْمَ الإخلاصِ ، وحلاَّهم بِحِلْيَةِ الإقبالِ على اللهِ تعالى ، وأَصْلَتَهُمْ بيدِ قدرتِهِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ سُيوفاً مُهَنَّدَةً قاضيةً بما قضىٰ اللهُ ، مُريدةً لِما أرادَهُ ، حُجَجاً على عبادِهِ ، وما هُمْ إلاّ العلماءُ به ، العاملونَ بِسُنَّةِ نبيِّهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ » .

وقال سِبْطُهُ السَّجّادُ ، مولانا الجَدُّ السيدُ عزُّ الدِّين أحمدُ الصيادُ دفينُ مِتكين ـ رضي اللهُ عنه ـ في كتابه الماتعِ « المعارف المحمدية في الوظائف الأحمدية »[٣] . . ما نصُّه :

---

(١) « رفرف العناية » ص (١٣٩ ـ ١٤٠) .

(٢) ص (١١٣ ـ ١١٤) .

(٣) ص (٤١ و ٦٨) .

« وكان ـ رضي اللهُ عنه ـ يأمرُ بملازمةِ الكتابِ والسُّنَّةِ واتِّباعِ آثارِ السَّلفِ الصَّالحِ ، وينهى عن الغُلُوِّ وانتحالِ المُحدَثاتِ ، ويقولُ :

الغُلُوُّ والشَّطْحُ وما شاكَلَهُما . . زَنْدَقَةٌ بشكلِ تَصَوُّفٍ ، والحقُّ أبلجُ من هذا وهذا ، واللهُ يتولَّى الصَّالحين .

وكان يقول : ما رأينا من عواقبِ أهلِ الغُلُوِّ والشَّطْحِ وأتْباعِهِمْ . . إلاّ أنَّهُمْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا ، وما رأينا من عواقبِ التشَرُّعِ . . إلاّ السلامةَ . . .

وكان ـ رضي اللهُ عنه ـ مُقتفياً آثارَ النبيِّ ـ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ وآثارَ أصحابِهِ رضوانُ اللهِ تعالى عليهم ، لا يخرجُ عما كانوا عليه ، ولا عمّا كانوا يعملونَهُ مما وردَ به الكتابُ والسُّنَّةُ .

وكان قصدُهُ إحياءَ سُنَّتِهِمْ ، وإقامةَ طريقتِهم ، وإيضاحَ مهاجِهِمْ ، ويقتدي بقولِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ » .

وقال في موضعٍ آخرَ من كتابه[1] : « وهذه الطَّريقةُ المباركةُ . . بُنِيَتْ على الكتابِ والسُّنَّةِ بالأُصولِ والفُروعِ ، أسرارُها عجيبةٌ ، وأحوالُها غريبةٌ ، وهِمَمُ رِجالِهَا تَتَدَكْدَكُ منها الجبالُ » . انتهى .

وقال الرافعيُّ الشافعيُّ في مُختصره « سواد العينين »[2] عند ذكرِهِ . . ما مُلخَّصُهُ :

« قال لي شيخُنا سَنَدُ المُحدِّثين ، عبدُ السميعِ الهاشميُّ الواسطيُّ ببغداد

---

(١) ص (١٢١) .

(٢) ص (٥٩) .

وقد جرى ذِكْرُ السَّيِّدِ أحمدَ ابنِ الرِّفاعيِّ رضي اللهُ عنه :

أي عبدَ الكريم! كان السيِّدُ أحمدُ آيةً من آياتِ اللهِ ، ومعجزةً من معجزاتِ رسولِ اللهِ يمشي على وجْهِ الأرضِ .

ما وقعتِ الأبصارُ على نظيرِهِ في عصرِهِ ، قلَّ في السَّلَفِ مَثِيلُهُ! ولا يُوجَدُ في الخَلَفِ عديلُهُ! .

كان طريقُهُ الكتابَ والسُّنَّةَ ، كان فعَّالاً لا قوَّالاً ، شَرِبَهَا وحَكَمَ عليها ، قَهَرَ حَالَهُ ، وغَلَبَ طَوْرَهُ .

كان إماماً ، عالِماً ، عَدْلاً ، لو رأيتَهُ . . لرأيتَ كُلَّ السَّلَفِ .

وَلَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ

وقال السيِّدُ الصيَّادُ في « المعارف »[١] : « حدَّثتني والدتي وسيِّدتي البرَّةُ التقيَّةُ ، الشريفةُ الفاطِميَّةُ ، أُمُّ الرِّجالِ ، السيِّدةُ زينبُ بنتُ الإمامِ الأكبرِ السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ ـ رضي اللهُ عنها ـ عن أبيها أنه قال لها يوماً :

يا بنتاهُ! مَنْ حُرِمَ معرفةَ قَدْرِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فلا سبيلَ له إلى معرفةِ اللهِ ، ولا إلى محبَّتِهِ تعالى .

ومَنْ ضَلَّ عن طريقِهِ وسُنَّتِهِ . . فكُلُّ طريقِهِ ضلالٌ .

يا بنتاهُ! حدِّثي عن أبيكِ أنَّهُ يقولُ : لو بَلَغَنَا أنَّ رسولَ اللهِ ـ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ أمرَ بقصِّ الأعناقِ . . لقَصَصْنَاها امتثالاً لأمرِهِ الشَّريفِ .

---

(١) ص (١٣)

ونقلَ عنه « جامعُ البُرهان »[1] ، عليه الرحمةُ والرضوانُ : أنه قالَ : أطلُبُوا اللهَ بمتابعةِ رسولِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

إيّاكُمْ وسُلوكَ طريقِ اللهِ بالنَّفْسِ والهوىٰ ، فَمَنْ سلكَ الطريقَ بِنَفْسِهِ . ضَلَّ في أوَّلِ قَدَمٍ » . انتهى .

وجاءَ في « حِكَمِهِ »[2] . . ما نصُّهُ :

« كُلُّ حقيقةٍ خالَفَتِ الشَّريعةَ . . فهي زَنْدَقَةٌ .

الشيخُ . . مَنْ يُلْزِمُكَ الكتابَ والسُّنَّةَ ، ويُبْعِدُكَ عنِ المُحْدَثَةِ والبِدْعَةِ .

الشيخُ . . ظاهِرُهُ الشَّرْعُ ، وباطِنُهُ الشَّرْعُ

الطَّريقةُ . . الشريعةُ . لوْثُ هذه الخِرْقَةِ كَذَّابٌ ، قال : الباطنُ غيرُ الظاهرِ ! العارفُ يقولُ : الباطنُ باطنُ الظاهرِ ، وجوهرُهُ الخالصُ .

القرآنُ . . بحرُ الحِكَمِ كُلِّها ، ولكنْ أينَ الأُذُنُ الواعيةُ ؟ » . انتهى .

وفي « ترياق المحبين »[3] للحافظِ الواسطيِّ ما نصُّهُ : « وسألتُ ذاتَ يومٍ من شيخِنَا إمامِ العلماءِ والمُحدِّثين ، شيخِ الحُفَّاظِ ، أحمدَ عِزِّ الدِّين الفَارُوثيِّ الواسطيِّ . . عن سببِ ارتفاعِ منزلةِ السيِّدِ أحمدَ على الأولياءِ الذين اشتهرَ أمرُهُمْ ، وسارَ في الخافقينِ ذكرُهُم ؟ فقال :

لِتَمَكُّنِهِ في مقامِ الأدبِ المحمَّديِّ ، والاتِّباعِ المحضِ للجنابِ النبويِّ ،

---

(١) ص (١٤٥ـ١٤٦) .

(٢) ص (١٤ و ٢٠ ـ ٢١) .

(٣) ص (١١ ـ ١٢) .

ولبراءَةِ ساحتِه من دَنَسِ الدَّعوىٰ والأنانيَّةِ ، ولتَرَفُّعِهِ عن وَهْدَةِ الشطحِ وبَلِيَّةِ السُّكْرِ والتجاوزِ ، ولسلامتِهِ من عيبِ التَّبَجُّحِ ، ولِتَجَرُّدِهِ من علائقِ نَفْسِهِ وعوائقِها ، وانسلاخِهِ من جميعِ شوائبِها كانسلاخِ الثوبِ عنِ البَدَنِ .

أي ولدي! صاحَبْنَا الشيوخَ ، ورأينا أصحابَ مَنْ لم نُصاحِبْهُمْ ، وطالعْنَا أخبارَ القومِ ، وسيرةَ السَّلفِ ، وميَّزْنَا بِمِحَكِّ الشريعةِ الحقَّ منَ الباطلِ ، فما بلغَ علمُنا ، ولا عَرَفْنا شَيْخَاً بعدَ الصحابةِ وأئمةِ الآلِ الاثني عشر أعظمَ خُلُقاً ، وأكبرَ منزلةً ، وأصحَّ اتِّباعاً للنبيِّ ـ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ منَ السيدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ رضي اللهُ عنه .

ولولا جهلُ العامَّةِ . . لحَدَّثْتُكَ عنْ هذا السيِّدِ العظيمِ القَدْرِ بما يَكِلُّ له سمعُكَ ، ويَذْهَلُ عن تحمُّلِهِ فهمُكَ ، وتنقطعُ دونَ إدراكِهِ حِيلَتُكَ ؛ فإنَّ اللهَ وهبَهُ منَ المراتبِ أعلاها ، ومنَ المشاربِ أحلاها ، ومنَ السلطانِ أعظمَهُ ، ومنَ المقامِ أكرمَهُ ، ومنَ الحالِ أكملَهُ ، ومنَ السلوكِ أفضلَهُ .

وهو المجدِّدُ لأمرِ هذا الدِّينِ ، والنائبُ عنْ جَدِّهِ سيِّدِ المرسلينَ ، ولولاه . . لانقطعَتْ طريقَةُ الحقِّ في هذه الأعصارِ ، لانكبابِ الناسِ على أقوالِ أهلِ الشطحِ والجُموحِ والافتخارِ ، وتباعُدِهِمْ عنِ الذُّلِّ والانكسارِ ، وطريقةِ النبيِّ المختارِ ، وآلِهِ الأبرارِ ، وأصحابِهِ الأخيارِ .

وقد صِرْنا في زمنٍ كِدْنا أنْ لا نسمعَ به إلاَّ كلمةً دخيلةً في دينِ اللهِ ، أو عقيدةً مُخالِفَةً لأمرِ اللهِ ، أو سُنَّةً سَيِّئَةً قاطعةً عنِ اللهِ . . لولا تَقَلُّبُ ذِكْرِ خُلُقِ السيِّدِ أحمدَ في الأوراقِ ، والتبرُّكُ بسيرةِ انكسارِهِ وما كان عليه منَ الشأنِ النبويِّ الذي عمَّ نورُهُ الآفاقَ ، وسبقَ به أهلَ اللهِ على الإطلاقِ .

فجزاهُ اللهُ عن أُمَّةِ جَدِّهِ سيِّدِ الأنبياءِ خيرَ الجزاءِ ، وجزاه اللهُ عن السُّنَّةِ السَّنِيَّةِ ، والشريعةِ المحمديَّةِ ، والطريقةِ المرضيَّةِ خيراً » . انتهى .

وجاء في « إرشاد المسلمين »[١] للعِزِّ الفَارُوثِيِّ الحافظِ . . ما يلي :

« وكان طريقُهُ العملَ بالكتابِ والسُّنَّةِ ، وبما كان عليه أصحابُ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وكان محمديَّ القَدَمِ والمَشْرَبِ والطَّوْرِ والحالِ ، لا مُشَدِّداً ، ولا مُوَسِّعاً ، يسلُكُ الطريقَ الوسَطَ ، ويقول : نحنُ أُمَّةٌ وَسَطٌ » . انتهى .

ونقَلَ عنه صاحبُ « التِّرياق »[٢] قولَهُ : « طريقُنا . الكتابُ والسُّنَّةُ ، إلاَّ أنَّ الفقيرَ على الطريقِ . . ما دامَ على السُّنَّةِ ، فمتى انحرفَ عنها . . ضَلَّ عنِ الطريقِ » . انتهى .

وقال سِبْطُهُ الصيَّادُ ـ رضي اللهُ عنه ـ في « معارفه[٣] » . . ما نصُّهُ :

« إنَّ آفاتِ طُرُقِ الصوفيَّةِ أربعةٌ : القولُ بالوَحْدَةِ المُطْلَقَةِ ، والشَّطْحُ ، والغُلُوُّ ، والبَطَالَةُ ، تعَزُّزاً بالشيوخِ .

وقد صانَ اللهُ طريقَةَ هذا السيِّدِ الأيِّدِ من هذه الآفاتِ الأربعةِ ؛ لأنَّه هدَمَ جِدارَ الوَحْدَةِ ، وأحكَمَ منزلةَ العبديَّةِ ، وطَمَسَ هيكَلَ الشَّطحِ ، وتمكَّنَ في مقامِ العبوديَّةِ ، وأوضحَ الحدودَ ، فهشَّمَ وَجْهَ الغُلُوِّ ، وساقَ إلى العملِ الصَّالحِ بحالِهِ وفِعالِهِ وأقوالِهِ ، وأوقفَ بِسَرَيَانِ أنكـارِهِ وعزمِ عزيمتِهِ وتمكُّنِهِ

(١) ص (٤١) .
(٢) ص (١٠) .
(٣) ص (٦٤) .

بِعَبْدِيَّتِهِ سَيْرَ نفوسِ أتباعِهِ عنِ الجُموحِ إلى الشَّطحِ والغُلُوِّ والبَطالةِ واعتقادِ الوَحْدةِ .

فأمِنُوا بِبَرَكَتِهِ مِنْ داهيةِ الزَّيغِ والفسادِ وسوءِ الاعتقادِ .

وأخَذَ بأزِمَّةِ قلوبِهِم ، وحبالِ هِمَمِهِمْ إلى التَّمسُّكِ بالشَّرعِ الطَّاهرِ ، في الباطنِ والظَّاهرِ ، فما فرَّقوا بينَ ظاهرِ الشريعةِ وباطنِ الحقيقةِ ، ولا خافوا غيرَ اللهِ ، ولا سأَلُوا إلاَّ اللهَ ، ولا عوَّلُوا على طريقٍ سِوى طريقِ رسولِ اللهِ ، صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فصاروا أنصارَ اللهِ ، وأنصارَ رسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ » . انتهى .

وقال العلاَّمةُ السيِّدُ محمود الألوسيُّ ـ رحمه اللهُ تعالى ـ في كتابه « الأسرار الإلهيَّة »[1] . . ما هو بحروفه .

« ولم نسمع عنِ السيِّدِ الرِّفاعيِّ ـ قُدِّسَ سِرُّهُ العالي ـ أنه صدَرَ منه ما يقتضي الدَّلالَ كما صدَرَ من غيرِهِ .

بل لم يزَلْ ـ رضي اللهُ تعالى عنه ـ قائماً على ساقِ العبوديَّةِ والذُّلِّ ، معَ كمالِ الأدبِ الذي هو مبنى الطريقِ الموصِلِ إلى الرَّبِّ .

بل ولا نُقِلَ عنه الشَّطْحُ ؛ فإنَّهُ عندَهم عبارةٌ : عن كلمةٍ عليها رائحةُ رعونةٍ ودعوىً ، يُفصح بها العارفُ من غيرِ إذنٍ إلهيٍّ ، وهو من زلاَّتِ المُحقِّقين » . انتهى .

---

(١) ص (٥١) .

وقال العِزُّ الحافظُ الفَارُوثيُّ في « النفحة المسكية »[1] :

« قال شيخُ أساتذتِنَا الشيخُ مكِّيٌّ الواسطيُّ : بِتُّ مع السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ ليلةً في أمِّ عَبِيْدَة ، فأحصيتُ له أربعينَ خَصْلَةً من خصالِ المصطفى صلى اللهُ عليه وسلَّم[2] ، وهذا الذي أدْرَكْتُهُ منْ ظاهِرِ أحوالِهِ ، فكيفَ بباطِنِها ؟! » . انتهى .

نَشَاطُهُ العِلْمِيُّ :

قال سِبْطُهُ السيِّدُ الصيَّادُ ـ رضي اللهُ عنه ـ في « المعارفِ »[3] :

« ثُمَّ بَرَعَ واشتهرَ وَمَهَرَ ، وانتهتْ إليه رِياسَةُ وقتِهِ : عِلْمَاً وعمَلاً ، وتمَكُّناً وفضلاً ، ولم يكنْ في زمنِهِ مِثْلُهُ .

وبَلَغَتْ مُرِيدُوهُ الشرقَ إلى الغايةِ منه ، والغربَ إلى الغايةِ منه ، والجنوبَ والشُّمالَ إلى غايتِهِمَا .

وما بقِيَ منْ بلادِ المُسلمين المعمورةِ ، ودِيارِها المسكونةِ قُطْرٌ أو محَلٌّ يخلُو رَبْعُهُ من أتباعِهِ وأصحابِهِ ورجالِهِ العارفين .

واتَّسعَ أمرُ إرشادِهِ ، وصارتْ دارُهُ كعبةَ السَّالكينَ ، وصارَ رِواقُهُ أربعةَ آلافِ قنطرةٍ ، وبناؤُهُ أربعَ حِلَقٍ ، كُلُّ حَلْقَةٍ تَضُمُّها حَلْقَةٌ أخرى ، بينَ ساريةِ القَنْطرةِ والسَّاريةِ الثانيةِ . . ثلاثةُ أذْرُعٍ بالبغدادي ، ومِنْ فَمِ القَنْطَرةِ إلى

---

(١) ص (٩٥) .

(٢) أقول : هي خِصالٌ ليليَّةٌ .

(٣) ص (٥٨) .

صدرِها. . أربعةُ أذْرُعٍ بالبغدادي ، وبينَ الحَلْقَةِ الأولى والثانيةِ. . سَبْعٌ وعِشْرونَ ذِراعاً بالبغدادي ، وبينَ الثانيةِ والثالثةِ. . ثلاثون ذِراعاً ، وبينَ الثالثةِ والرابعةِ. . عِشرونَ ذِراعاً .

ووراءَ ظَهْرِ القُبَّةِ السَّعيدةِ بُستانُ الرِّواقِ ، المدعوُّ بُستانَ الشيخِ يحيى النجاريِّ ، يأخذُ إلى بستانِ القنوري طولاً ، ولذيلِ نهرِ الرِّواقِ عرْضاً .

وفيهِ كُلُّ ما وصَلَ منَ الجهاتِ أو يصِلُ منها من أنواعِ الفواكهِ .

ويجمَعُ الرِّواقُ المُباركُ المذكورُ كُلَّ يومٍ أكثَرَ من عِشرينَ ألفاً منَ الناسِ ، ويُمَدُّ لهمُ السِّمَاطُ صباحاً ومساءً .

وما رُؤِيَ يوماً مُغِبساً ولا مُغْضَباً ، بل كان معَ كُلِّ هذه الوُسْعَةِ لا يملِكُ شيئاً مِنْ عَرَضِ الدُّنيا » . انتهى .

وقال الرافعيُّ في مختصرِهِ « سواد العينين »[1] عندَ ذِكْرِ نشاطِهِ العِلْمِيِّ. . ما لفظُهُ :

« أخبرني الفقيهُ العالِمُ الكبيرُ ، بقيَّةُ الصَّالحينَ ، أبو زكريا ، يحيى بنُ الشيخِ الصالحِ يوسفَ العسقلانيِّ الحنبليُّ ، قال :

كنتُ في أُمِّ عَبِيْدَةَ زائراً عندَ السَّيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ ، وفي رِوَاقِهِ وحولَهُ منَ الزَّائرينَ أكثرُ منْ مئةِ ألفِ إنسانٍ! .

فيهِمُ الأمراءُ والعلماءُ والشُّيوخُ والعامَّةُ ، وقد احتَفَلَ بإطعامِهِمْ وإكرامِهِمْ وحُسْنِ البِشْرِ لهم كُلٌّ على حالِهِ .

---

(١) ص (٥٥ ـ ٥٧) .

وكان يصعَدُ الكُرْسِيَّ بعدَ الظُّهْرِ فيعِظُ الناسَ ، والناسُ حِلَقاً حِلَقاً حولَهُ .

فَصَعِدَ الكُرْسِيَّ ظُهْرَ خَميسٍ ، وفي مجلسِهِ وُعَّاظُ واسطَ ، وجَمٌّ غفيرٌ مِنْ علماءِ العراقِ وأكابرِ القومِ .

فبادَرَهُ قومٌ بأسئلةٍ مِنَ التفسيرِ ، وآخَرونَ بأسئلةٍ من الحديثِ ، وجماعةٌ مِنَ الفقهِ ، وجماعةٌ مِنَ الخلافِ[1] ، وجماعةٌ مِنَ الأُصولِ ، وجَمَاعةٌ مِنْ علومٍ أُخَرَ .

فَأجابَ عن مئتَي سُؤالٍ مِنْ عُلومٍ شَتَّىٰ ، ولم يتغيَّرْ حالُهُ حالَ الجَوابِ ، ولا ظَهَرَ عليه أثَرُ الحِدَّةِ .

فأخذَتْنِي الغَيْرَةُ من سائِليه! فقمتُ وقلتُ : أمَا كَفَاكُمْ هذا ؟! واللهِ لو سألتموهُ عن كُلِّ عِلْمٍ دُوِّنَ . . لأجابَكُمْ بإذْنِ اللهِ بلا تكَلُّفٍ .

فتَبَسَّمَ وقالَ : دَعْهُمْ يا أبا زكريا! فَلْيَسْأَلُوني قبلَ أنْ يَفْقِدُوني ؛ فإنَّ الدُّنيا زوالٌ ، واللهُ مُحَوِّلُ الأحوالِ .

فبكىٰ الناسُ ، وتلاطَمَ المجلسُ بأهلِهِ ، وعلا الضَّجيجُ ، وماتَ في المجلسِ خمسُ رجالٍ ، وأسلَمَ من الصَّابئين والنصارىٰ واليهودِ ثمانيةُ آلافِ رجلٍ أو أكثَرَ ، وتابَ أربعون ألف رجل .

فَبَعْدَ أن صلَّى صلاةَ العصرِ بالناسِ ، قامَ ابنُ جرادةَ الواسطيُّ ، ووقفَ تُجاهَهُ ، وقال مُرتجلاً :

---

(١) أي : الفِقْهِ المقارَن .

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ النَّدْبُ الَّذِي شَهِدَتْ ... لَـهُ المَـآثِـرُ والأَفْعَـالُ بِـالشَّـرَفِ

خَلَفْتَ جَدَّكَ خَيْرَ الخَلْقِ بِالخُلُقِ الـ ... ـعَالِي، فَأَنْعِمْ بِذَاكَ السَّبْقِ وَالخَلَفِ!

وَأَنْـتَ مُعْجِـزَةٌ يَـابْـنَ الـرَّسُـولِ لَـهُ ... فَافْخَرْ غَدَاً يَا أَخَا العَلْيَا لَدَى السَّلَفِ!

* * *

فبكى ـ رضي اللهُ عنه ـ وقال :

يَا نَفْسُ جِدِّي وَخَلِّي الكَذْبَ وَانْصَرِفِي ... عَـنِ الغُـرُورِ وَظَـنِّ المُخْلِـصِ الـبَالِي

رَآكِ أَحْسَـنَ مِنْـهُ فَـأَثْنَـى بِثَنَـا ... عَلَيْـكِ ، واللهُ أَدْرَى مِنْـهُ بِـالحَـالِ

* * *

فقالَ ابنُ جَرَادَةَ أيضاً :

نَفْسٌ زَكَتْ وَذَكَتْ فِي النَّاسِ سِيرَتُها[1] ... وَأَعْرَضَتْ عَنْ صُنُوفِ القِيلِ وَالقَالِ

طَابَتْ بِنَفْحَةِ سِرِّ الكَوْنِ وَالدُّهَا ... وَلَقَّنَتْ حَالَهُ العَالِي مِنَ الخَالِ

لَهَـا مِـنَ اللهِ حِفْـظٌ لاَ دِفَـاعَ لَـهُ ... طَهَـارَةٌ خُصِّصَـتْ بِـالنَّـصِّ لِـلآلِ

* * *

فَدعَا لابنِ جرادةَ بخيرٍ ، ودعا لأهلِ المجلسِ وللمسلمين ، وأمَّنَ على دُعائِهِ الحاضرون » . انتهى .

---

(١) زَكَتْ : أي : صَلَحَتْ ، « مصباح » ص (٢٥٤) ، مادة : « زكا » .
وَذَكَتْ : أي : غدت ذَكِيَّةً ، « لسان » ٦ : ٣٨ ، مادة : « ذكا » .

وقال سِبْطُهُ السيّدُ الصَّيّادُ في « معارفه »[١] عند ذِكْرِ نشاطِهِ العِلْميّ . . ما نصُّهُ :

« وكان الشيخُ جمالُ الدّينِ الخطيبُ الحدّاديُّ يقولُ : انتهت نوبةُ الفضائلِ للسيّدِ أحمدَ الرّفاعيّ ـ رضي الله عنه ـ في عصره .

وكان إذا جلَسَ للدّرْسِ على كُرْسِيّهِ . . تُحيطُ به أئمةُ العلماءِ ، وفحولُ الفُضلاءِ ، وصُنوفُ أهلِ المعارفِ والعلومِ .

فإذا ابتدرَ الكلامَ . . أخرسَ المُتكلّمينَ ، وأبهَتَ الجاحدينَ ، وحيّرَ العارفين ، وأرقصَ السّالكين ، وأبكى الخاشعين ، وأذهلَ المُتمكّنينَ ، وأتى بجوامعِ الكَلِمِ وراثةً مِنْ جَدّهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ ، وبرَزَ لِجُلاّسِهِ بِكُلّ فَنٍّ .

فالأدباءُ تأخُذُ نصيبَها من فصاحتِهِ ، والعلماءُ من معارفِهِ ، والفلاسفةُ من تحقيقِهِ ، والمتكلّمونَ من تبيانِهِ ، والبُلغاءُ من رقائقِه ، والأولياءُ من حقائقِهِ ، والعقلاءُ من حِكَمِهِ ، والفقراءُ من أدبه ، والصُّلَحاءُ من مواعظِهِ ، وكُلُّهُمْ في حَيْرَةٍ منه ، لِمَا مَنَّ اللهُ عليه بِهِ من عظيمِ مواهبِهِ .

ليسَ على وجْهِ الأرضِ في هذا العصرِ مِنْ مجلسٍ في عِلْمِ الحقيقةِ ، معمورِ الأطرافِ بلُبابِ الشريعةِ ، يُرَدُّ به الشّارِدُ ، وتحصُلُ به الفوائدُ ، وتطيرُ به القلوبُ إلى علاّمِ الغيوبِ ، لا عُلُوَّ فيه ولا غُلُوَّ ، ولا تُشَمُّ منه رائحةُ الدّعوى . . إلاّ مجلسَ السيّدِ أحمدَ الرّفاعيِّ رضي اللهُ عنه .

---

(١) ص (٤٣) .

فإنَّهُ مدرسةٌ للعلماءِ ، ورباطٌ للفقراءِ ، ورياضةٌ للسَّالكينَ ، ومحَجَّةٌ للعارفينَ ، ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ » . انتهى

وقال العِزُّ الحافظُ الفَارُوثيُّ في « إرشاده »[(١)] : « أخبرني والدي ـ قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ وروحَهُ ـ : أنَّ ليلةَ مُحَيَّا السيّدِ أحمدَ بكُلِّ ليلةِ جُمُعَةٍ ينعقدُ ، ويجمعُ ميعادُ المُحَيَّا المباركِ أكثرَ من مئةِ ألفِ إنسانٍ ، يضربون الأخبيةَ والخيامَ في صحارىٰ أُمِّ عَبِيْدَة .

ورِوَاقُهُ الشريفُ يجمعُ كُلَّ يومٍ أكثرَ من عِشْرِين ألفَ مُرِيدٍ ، ويُمَدُّ لهمُ السِّماطُ صباحاً ومساءً ، ويقوم بكفايةِ الزائرينَ جميعاً بعونِ اللهِ .

وكانتْ أملاكُهُ وأحباسُ رِوَاقِهِ الشريفِ أكثرَ من أملاكِ الأمراءِ والملوكِ ، وكُلُّ ما يحصُلُ منها يُنفَقُ في سبيلِ اللهِ تعالى على فقراءِ الرِّوَاقِ وواردِيهِ منَ المسلمينَ ، وهو وأولادُهُ وعِيالُهُ لا يملكونَ شيئاً من عَرَضِ الدُّنيا ، وهمْ كآحادِ فقراءِ الرِّواق » . انتهى ، وتمامُهُ فيه .

وقال ـ أيضاً ـ في « إرشاده »[(٢)] : « حدَّثَنا شيخُنا الوالدُ محيي الدِّين إبراهيم ، عن أبيهِ أبي الفرَجِ عمرَ الفَارُوثيِّ قدَّسَ اللهُ رُوحَيْهِمَا .

وحَدَّثَ الشيخُ الكبيرُ الإمامُ أبو المظفَّرِ ، عن أبيهِ الشيخِ العارفِ عليِّ بنِ نُعيمٍ البغداديِّ الحنبليِّ .

وأخبرَنا الشيخُ عبدُ الرحيمِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ جعفرٍ الحداديُّ .

---

(١) ص (٣٩) .

(٢) ص (٤٩) .

وأخبرنا الشيخُ عبدُ اللهِ بنُ مكّيٍّ ، عن الشيخِ الجليلِ تقيِّ الدِّينِ الفقيهِ ، المعروفِ بـ الفُقَيرِ ـ بالتَّصغيرِ ـ النَّهرونديِّ .

وأخبرنا الشيخُ الصالحُ الحُجَّةُ أحمدُ بنُ محمدٍ الغَزلانيُّ ، عن شيخِهِ الشيخِ عبدِ الملكِ بن حَمَّادٍ المَوْصِلِيِّ قُدِّسَ سِرُّهُ .

وأنبأَنَا الشيخُ أبو السُّعودِ الغزاليُّ ، عنِ الشيخِ العظيمِ القَدْرِ أبي شُجاعٍ الفقيهِ ، كُلٌّ يروي بمعنىً واحدٍ وألفاظٍ قليلةِ التبايُنِ :

أنَّ مُريدي السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ الذين بايعوهُ في اللهِ بيدِهِ المباركةِ . . بلغوا عامَ وفاتِهِ إلى أربعٍ وعشرينَ مئةِ ألفٍ وزيادة .

وأنَّ خلفاءَهُ وخُلفاءَهُمْ بلَغوا إلى مئةٍ وثمانينَ ألفاً .

وزادَ جَدِّي أبو الفرجِ عمرُ الفَارُوثيُّ طاب ثَراهُ ، والشيخُ الجمالُ الخطيبُ ـ عُطِّرَ مَرْقَدُهُما ـ وهُما من أخصِّ أصحابِهِ ، وكلاهُما ثِقَةٌ وعُمْدَةٌ : أنَّ الذين أسلموا على يديه ـ رضي اللهُ عنه ـ منَ اليهودِ والنصارىٰ والصَّابئينَ والخوارجِ المُتَزَنْدِقِينَ . . أكثرُ مِنْ مئةِ ألفٍ ، يُعْرَفُونَ أكثرُهُمْ بأسمائِهِم وأشخاصِهِم .

وأنَّ وِرْدَهُ الخاصَّ بأصحابِ الحُضُورِ فيه خمسةُ آلافٍ ، والحِلَقَ الحافلةَ في أروقةِ الرِّباطِ تجمعُ سِتَّةَ عشر ألفاً .

ولم يكن في بلاد المسلمين وأرضِها المسكونةِ في العربِ والعجَمِ ناحيةٌ تخلو من أتباعه ومُريديهِ ومُحبِّيهِ ، رضي اللهُ عنه وعنهم أجمعين .

قلتُ : وَقَدْ جَدَّدَ اللهُ به وبِأصحابِهِ أمرَ الدِّينِ ، وأيَّدَ بهم شريعةَ سيِّدِ المُرسلينَ ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وهل يمكنُ أن يكونَ التجديدُ فوقَ ما ذُكِرَ من حالِهِ ، وما وَفَّقَهُ اللهُ له ، نفعنا اللهُ بعلومِهِ ومَدَدِهِ والمسلمين ، وفيه أقولُ :

لَكَ في صُفُوفِ العَارِفِيْنَ لِواءُ ... هُمْ تَحْتَهُ وَالسَّالِكُونَ سَوَاءُ
يَا أَحْمَدَ الأَقْطَابِ يَا مَنْ فَضْلُهُ ... كَالشَّمْسِ حَاشَا يَعْتَرِيْهِ خَفَاءُ!
أَنْتَ الرِّفَاعِيُّ الإِمَامُ المُرْتَجَىٰ ... إِنْ مَسَّ جِيْنَا غُصَّةٌ دَهْمَاءُ
لِلأَوْلِيَاءِ مَنَاقِبٌ ، وَبِكُلِّهَا ... لَكَ فِي النِّهَايَاتِ اليَدُ البَيْضَاءُ
جَدَّدْتَ سُنَّةَ أَحْمَدٍ بِطَرِيْقَةٍ ... هِيَ فِي السُّلُوكِ مَحَجَّةٌ بَيْضَاءُ
يَا بْنَ النَّبِيِّ وَيَا أَبَا الهِمَمِ الَّتِي ... شَهِدَتْ بِبَاهِرِ طَوْلِهَا الأَعْدَاءُ
بِكَ لِلطَّرِيْقَةِ وَالحَقِيْقَةِ مَفْخَرٌ ... بَهِجٌ ، عَلَيْهِ مِنَ الجَلَالِ رِدَاءُ
وَلأَنْتَ شَيْخُ الأَوْلِيَاءِ وَتَاجُهُمْ ... وَالأَوْلِيَاءُ لِبَعْضِهِمْ أَكْفَاءُ

* * *

شُيُوخُهُ :

١ـ الشيخُ الوَرِعُ المُقرِئُ الصّالحُ عبدُ السميعِ الحربونيُّ .

قرأ عليه القرآنَ ، وأكملَهُ حِفظاً وترتيلاً بقريةِ حَسَن .

٢ـ الشيخُ الفقيهُ العلاَّمَةُ المُقرئُ المُفَسِّرُ الواعِظُ المُحَدِّثُ الرُّحْلَةُ الصُّوفيُّ الكبيرُ الشَّأْنِ ، عليٌّ أبو الفضلِ الواسطيُّ رضي اللهُ عنه ، (ت ٥٣٩ هـ) .

قرأ عليه ، وقام بتربيتِهِ وتأديبِهِ وتعليمِهِ امتثالاً للأمرِ النبويِّ .

٣ـ الشيخُ الكبيرُ أبو بكرٍ الواسطيُّ ، خالُهُ ومُعلِّمُهُ ، وأخو الشيخِ منصورٍ .

٤ـ الوليُّ الجليلُ ، العارفُ الكبيرُ الأصيلُ ، البازُ الأشهبُ ، التِّرياقُ المُجرَّبُ ، السيِّدُ الشيخُ منصورُ بنُ الشيخِ يحيى النجاريُّ الأنصاريُّ ، رضي الله عنه ، (ت ٥٤٠ هـ) .

تربَّى بتربيتِهِ ، وتخرَّجَ بِصحبتِهِ ، ولم يغفُلْ عن ملاحظتِهِ وإصلاحِ أمرِهِ ساعةً قطُّ أدباً معَ رسولِ اللهِ ، صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وأخذَ علومَ الشريعةِ وتفقَّهَ عن جماعةٍ من أعيانِ الواسطيِّين[1] .

خُلفاؤُهُ :

قال سِبْطُهُ السيِّدُ الصيَّادُ في « المعارفِ »[2] عندَ ذِكرِ خُلفائِهِ . . ما نصُّهُ :

« انتهتْ إليه مكارمُ الأخلاقِ ، وبلغتْ عِدَّةُ خُلفائِهِ وخُلفائِهِمْ في حياتِهِ مئةً وثمانينَ ألفاً ، منهم :

١ـ الشيخُ عبدُ اللهِ أبو الحَسَنِ البغداديُّ ، ٢ـ والشيخُ فضلٌ البطَائحيُّ ، ٣ـ والشيخُ يوسفُ الحسينيُّ السَّمَرْقَنْدِيُّ ، ٤ـ والشيخُ أبو حامدٍ عليُّ بنُ نُعيمٍ البغداديُّ ، ٥ـ والشيخُ حياةُ بنُ قيسٍ الحَرَّانيُّ ، ٦ـ والشيخُ عمرُ الهَرَويُّ الأنصاريُّ ، ٧ـ والشيخُ أبو شُجاعٍ الفقيهُ الشافعيُّ ، ٨ـ والشيخُ عُمرُ

---

(١) « المعارف المحمدية » ص (٣١) ، و « إرشاد المسلمين » ص (٣١) ، و « ترياق المحبين » ص (٥) .

(٢) ص (٣٥) .

الفَارُوثيُّ ، ٩ـ والشيخُ جمالُ الدِّينِ الخطيبُ الحداديُّ ، وخُلَّصُ العصرِ ، رضي اللهُ عنهم » . انتهى .

قلتُ : ومِنْ خُلفائِهِ أيضاً .. سِبْطُهُ السيِّدُ الصَّيَّادُ ؛ فإنه قال في « معارفه »[١] :

« ومِنْ مِنَنِ اللهِ عليَّ ، ولُطْفِهِ فِيَّ : أَنِّي وُلِدْتُ قبلَ وفاتِهِ ـ أي : وفاةِ جَدِّهِ السيِّدِ أحمدَ ـ رضي اللهُ عنه بأربعِ سنينَ ، وحملَنِي والدي إلى حضرتِهِ المُباركةِ .

فأخذَني إلى حِجْرِهِ ، ونَفَخَ في فَمِي ، ودَعَا لي بالبركةِ ، وبشَّرَ والدي فِيَّ بما هو معروفٌ عندَ رِجالِ هذه الطائفةِ المُباركةِ ، وأجازَني وأنا ابنُ أربعِ سنينَ إجازةً عامَّةً ، وأوصىٰ أخي السَّيِّدَ أبا الحَسَنِ عبدَ المحسنِ بإكمالي وتربيتي ، وأمرَ والدي ـ أيضاً ـ بإجازتي ، فأجازَني ، وَنِلْتُ مِنْ عوارفِهِ ومعارفِه .. ما شَرَّفَنِي اللهُ به بينَ القومِ ، وأكملَ لي أمري » . انتهى .

أقولُ : ولستُ بصَدَدِ تَعْدادِ خُلفائِهِ الذين وقفتُ على مواردِ ذِكْرِهِمْ ؛ فإنَّ لذلك موضعاً آخرَ غيرَ هذا المحلِّ .

وقال أبو الحَسَنِ الواسطيُّ في « خلاصته »[٢] عندَ ذِكْرِ خُلفائِهِ .. ما نصُّهُ :

« ولم يكنْ في بلادِ المُسلمينَ المعمورةِ مدينةٌ أو بُلَيْدَةٌ أو قُطْرٌ .. تخلو

---

(١) ص (٣٩) .

(٢) ص (٧٢) .

رُبُوعُهُ من زواياه ومُحبِّيهِ وتلامذتِهِ العارفِينَ المَرْضِيِّينَ ، رضي اللهُ تعالى عنه وعنهم أجمعين » . انتهى .

إجَازَاتُهُ :

قال الرَّافعيُّ في « سواد العينين »[1] عندَ ذِكْرِ إجازاتِهِ . ما نَصُّهُ :

« حدَّثني الشيخُ الإمامُ أبو شُجاعٍ الشافعيُّ فيما رواه قائلاً :

كان السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ ـ رضي اللهُ عنه ـ عَلَمَاً شامخاً ، وجبلاً راسخاً ، وعالِمَاً جليلاً محدِّثاً ، فقيهاً مُفَسِّراً ، ذا رواياتٍ عاليات ، وإجازاتٍ رفيعات » . انتهى .

وقال العِزُّ الحافظُ الفَارُوثيُّ في « إرشاده »[2] : « أجازَهُ شيخُهُ عليٌّ أبو الفضلِ مُحَدِّثُ واسطَ وشيخُها إجازةً عامَّةً بجميعِ علومِ الشريعةِ والطَّريقةِ ، وألبَسَهُ خِرْقَتَهُ المُباركةَ ، ونَوَّهَ بذكرِهِ ، وأعظمَ شأنَهُ ، ولَقَّبَهُ بـ أبي العَلَمَيْنِ لإشارةٍ سَمَاوِيَّةٍ ظهرتْ له ، فَهِمَ منها أنه قائدُ أهلِ الظَّاهرِ والباطنِ ، وبابُ النجاحِ في أَمْرَيِ الدُّنيا والآخرةِ » . انتهى

وقال العِزُّ ـ أيضاً ـ في « النفحة المسكية »[3] : « وهو لبسَ الخِرْقَةَ ، وأخذَ العهدَ والطريقةَ من شيخِهِ الشيخ عليٍّ الواسطيِّ القارئِ .

وهو لَبِسَهَا منَ الشيخِ أبي الفضلِ بنِ كامخ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ

---

(١) ص (٥٥) .

(٢) ص (٣١) .

(٣) ص (٢٦٩ ـ ٢٧٢) ، هي ضمن كتابنا « الرَّشحات الحَسَنية على النفحة المسكية » .

غُلامِ بنِ تُرْكانَ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ أبي عليٍّ الرُّوذباري ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ عليٍّ العجميِّ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ أبي بكرٍ الشِّبْلي ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ الإمامِ أبي القاسمِ الجُنَيْدِ .

وهو لَبِسَها منْ خالِهِ الشيخِ سَرِيٍّ السَّقَطي ، وهو لَبِسَها من الشيخِ معروفٍ الكَرْخيِّ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ داودَ الطائيِّ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ حبيبٍ العجميِّ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ أبي سعيدٍ سيِّدِنا الحَسَنِ البصريِّ .

وهو لَبِسَها منْ زوجِ البتولِ ، وابنِ عمِّ الرَّسولِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، مولانا وسيِّدِنا الإمامِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ، كرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، ورضي اللهُ عنه وعنهم أجمعين .

وهو لَبِسَها منَ النبيِّ الأعظمِ ، والرَّسُولِ المُكَرَّمِ ، صلى اللهُ عليه وسلَّمَ .

وَمِنْ طريقٍ آخَرَ . أخَذَ سيِّدُنا السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ الكبيرُ ـ رضي اللهُ عنه ـ الطريقةَ ، ولَبِسَ الخِرْقَةَ من يدِ خالِهِ شيخِ الشُّيوخِ ، صاحبِ الفتحِ الصَّمدانيِّ ، سيِّدِنا منصورٍ البطائحيِّ الرَّبَّانيِّ .

وهو لَبِسَها من خالِهِ سيِّدِنا الشيخِ أبي المنصورِ الطَّيِّبِ ، وهو لَبِسَها من ابْنِ عمِّهِ الشيخِ أبي سعيدٍ يحيى النجاريِّ الأنصاريِّ .

وهو لَبِسَها من الشيخِ أبيِّ القُرْمُزِيِّ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ أبي القاسمِ السُّندوسيِّ الكبيرِ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ أبي محمدٍ رُوَيْمٍ البغداديِّ ، وهو لَبِسَها منَ الشيخِ الإمامِ تاجِ العارفين أبي القاسمِ الجُنَيْدِ البغداديِّ .

وهو لَبِسَها من خالِهِ الشيخِ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ ، وهو لَبِسَهَا منَ الشيخِ

معروفٍ الكَرْخِيِّ ، وهو لَبِسَها من إمامِ الزَّمانِ ، وحُجَّةِ أهلِ العِرفانِ ، الإمامِ ابنِ الإمامِ عليٍّ الرِّضا .

وهو لَبِسَها مِنْ أبيهِ نُورِ حَدَقَةِ العِنايةِ والإمامةِ ، ونورِ حَدَقَةِ الوِلَايةِ والكرامةِ ، ملجأِ الأولياءِ الأعاظمِ ، الإمامِ أبي الحَسَنِ موسى الكاظمِ .

وهو لَبِسَها من أبيهِ صاحبِ القَدَمِ السَّابقِ ، الإمامِ جعفرٍ الصَّادقِ ، وهو لَبِسَها من أبيهِ صاحبِ السِّرِّ الطَّاهرِ ، الإمامِ محمدٍ الباقرِ .

وهو لَبِسَها من أبيهِ كهفِ المحتاجين ، وإمامِ الأفرادِ ، أبي محمدٍ ، الإمامِ زَيْنِ العابدينَ عليٍّ السَّجَّادِ .

وهو لَبِسَها من أبيهِ سِبْطِ رسولِ اللهِ ، شهيدِ كَرْبَلاءَ ، الإمامِ الحُسينِ أبي عبدِ اللهِ .

وهو لَبِسَها من أبيهِ إمامِ الائمةِ ، ومِجَنِّ هذه الأمَّةِ ، صاحبِ القَدْرِ العظيمِ والشرفِ الجَلِيِّ ، أميرِ المؤمنينَ الإمامِ أبي الحَسَنِ عليٍّ ، رضي اللهُ عنه وعنهم أجمعين .

وهو لَبِسَهَا من سيِّدِ المُرسلين ، وأكرمِ المخلوقين ، وحبيبِ رَبِّ العالمين ، صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهرين أجمعينَ ، آمين » . انتهى .

عُلُوُّ قَدْرِهِ :

قال في « سواد العينين »[١] : « .. وانعقَدَ عليه إجماعُ الطوائفِ ،

(١) ص (٥٤) .

وقال بِتَقَدُّمِهِ على جميعِ رجالِ عصرِهِ.. الموافقُ والمخالفُ.

وأطبقَ على عُلُوِّ قَدَمِهِ ورِفعَةِ رُتبَتِهِ وكرمِ خُلُقِهِ وتَرَقِّيهِ عن منزلةِ القُطبيَّةِ الكبرىٰ، والغوثيَّةِ العظمىٰ.. جَحاجِحَةُ الأرضِ المقدَّسةِ الحجازِ والشَّامِ.

واعترفَ رجالُ وقتِهِ بالعَجْزِ عن دَرْكِ مُنتهاه في السَّيْرِ، وقال بذلك الخواصُّ والعَوامُّ.

وقال فيه الشيخُ منصور: وَزَنْتُهُ بجميعِ أصحابي وبي أيضاً.. فرجَحَنا جميعاً.

ويكفيكَ أنَّ مِنْ أصحابِهِ: الشيخَ حمَّاداً الدَّبَّاسَ البغداديَّ، أجلَّ أشياخِ الشيخِ عبدِ القادرِ الجِيليِّ، والشيخَ عثمانَ البطائحيَّ، والشيخَ خميساً، والشيخَ مَكِّيّاً الطَّستانيَّ، وأمثالَهم.

ويُعجبُني ما قال فيه الفيروزآبادي مُفرَداً:

أَبا العَلَمَيْنِ أَنْتَ الفَرْدُ، لَكِنْ إِذَا حُسِبَ الرِّجَالُ.. فَأَنْتَ حِزْبُ!

.. أخبرني شيخُنا الإمامُ الحُجَّةُ القُدوةُ، عمرُ أبو حفصٍ، شهابُ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيُّ، عن عمِّه الوليِّ العارفِ، شيخِ الشيوخِ، أبي النجيبِ، عن شيخِه الإمامِ الهُمامِ، البحرِ الطَّامِّ، محمد بنِ عبدِ البَصْرِيِّ - رضي اللهُ عنهم - قال:

كُلُّ الأولياءِ أدركْنا مَقاماتِهِمْ وما وصلوا إليه، وعرفْنا مُنتهاهُمْ في السَّيْرِ.. إلاَّ السيِّدَ أحمدَ الرِّفاعيَّ؛ فإنَّهُ لا يُعْرَفُ مُنتهاهُ في السَّيْرِ، وإنما رجالُ عصرِنا على الإطلاقِ يعرفون الوِجْهَةَ التي اتَّجهَ إليها، ومَنِ ادَّعىٰ

الوصولَ إلى مرتبتِهِ ، أو الاطِّلاعَ على رُتْبتِهِ . فكَذِّبُوهُ .

أي إخواني! هذا رجلٌ لا يُعْرَفُ ولا يُحَدُّ ، هذا رجُلٌ انسلَخَ مِنْ علائقِ بَشَرِيَّتِهِ وعوائِقِ نَفْسِهِ كانسلاخِ الثوبِ عنِ البَدَنِ .

والأولياءُ في عصرِنا هذا ، كِبارُهُم وصِغارُهم ، المشارقةُ والمغاربةُ ، الأعاربُ والأعاجمُ . . عِيالٌ عليهِ ، يستمِدُّونَ منه ، ويأخذون عنه .

وهو شيخُ الكُلِّ في الكُلِّ ، يَسُحُّ النَّوالُ من حُجْرَةِ جَدِّهِ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ على قلبِهِ ، وهو يَقْسِمُهُ على الرِّجال في الأرْضِين .

ولا ينقطعُ مَدَدُهُ بإذن اللهِ ، والدَّولةُ له ولِذُرِّيَّتِهِ إلى يومِ القيامةِ ، معَ طِيبِ نَفْسِ المُحِبِّ ، ورَغْمِ أنفِ الحاسدِ ، يفعلُ اللهُ ما يشاءُ ، لا رَادَّ لأمرِهِ ، ولا مُنازِعَ لِحُكْمِهِ » . انتهى .

وقال سِبْطُهُ الفَرْدُ الجوادُ ، مولانا الجَدُّ السيِّدُ عِزُّ الدِّين أحمدُ الصيَّادُ ـ رضي اللهُ عنه ـ في « معارفه »[1] . . ما هو بحروفِهِ :

« وقال شيخُهُ الشيخُ عليٌّ الواسطيُّ فيه . أرواحُ الأولياءِ تطيرُ إلى حضراتِ القُدسِ بأجنحةٍ مختلفةٍ ، أطولُها ريشاً ، وأنهضُها عَزْماً ، وأقربُها مرمىً من سِدْرَةِ الوصلِ . . روحُ السيِّدِ أحمدَ بنِ السيدِ أبي الحَسَنِ عليٍّ الرِّفاعيِّ في هذا العصرِ .

ولولا سِرُّ الامتثال . . لأخذتُ عنه ، ولا ريبَ! فأنا شيخُه في الصُّورةِ ، وهو شيخي في المعنى .

---

(١) ص (٣١ ـ ٣٣) .

وقال فيه أيضاً : السيِّدُ أحمدُ سَلَكَ إلى اللهِ تعالى طريقاً أتعبَ به السَّالكينَ ، وأقصرَ ألْسُنَ المُتكلِّمينَ ، وأخرسَ في ديوانِ التفتيشِ المحمَّديِّ أهلَ الدَّعوىٰ .

أذلَّ نَفْسَهُ فعزَّ ، وأخَّرَهَا فتقدَّمَ ، وطَمَسَ أنانيَّةَ استراقِ النَّفْسِ السَّمْعَ . فصارَ نوراً يُستضاءُ بِهِ ، وجبلاً أبلقَ يُلْتَجأُ إِلَيْهِ[١] .

وإنه لَوَجِيْهُ الوَجْهِ عندَ اللهِ ورسولِهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ، نحنُ أشياخُه بالاسمِ ، وهو شيخُنا وشيخُ الوقتِ بِالحُكْمِ .

ومرَّ به يوماً وهو نائمٌ في بعضِ زوايا الرِّواقِ ، مُلتَفٌّ بإزاره ، ورأسُهُ على الترابِ ، فنادى . يا لَلرِّجالِ! .

فَفَزِعَ إليه أصحابُه وقالوا : أي سيِّدَنا! ما الخَبَرُ ؟ فقال :

هَلُمُّوا وتَفَكَّرُوا واعتَبِرُوا ، إنِّي رأيتُ طوائفَ العيوبِ تُظِلُّ هذا المُسَجَّىٰ ، وأعلامَ الحضرةِ المحمديةِ منشورةٌ أثوابُها فوقَهُ ، وعندَ رأسِهِ عَلَمٌ ، وعندَ قَدَمَيْهِ عَلَمٌ آخرُ مَسَّ هلالُ كِلاَهُما سَطْحَ السماءِ ، فَفَزِعْتُ لهذا ، فَنُودِيْتُ مِنَ العُلَىٰ :

أَنْ تَأَدَّبْ! هذا شيخُكَ وشيخُ أصحابِكَ وشيخُ أهلِ الحضراتِ بعدَكَ ، وصاحبُ البِساطِ الأحمديِّ الذي لا يُطوى إلى يومِ القيامةِ » . انتهى .

وقال العِزُّ الحافظُ في « إرشاده »[٢] : « وقال الشيخُ عبدُ الواحدِ بنُ

---

(١) البَلَقُ : سوادٌ وبياضٌ ، « مختار الصِّحاح » ص (٦٤) ، مادة : « بلق » .

(٢) ص (٤٧ ـ ٤٨) .

زيدِ بنِ شهابِ الدِّينِ أحمد الكيسانيُّ رحمه اللهُ :

رأيتُ وليَّ اللهِ الشيخَ أبا مَدْيَنَ المغربيَّ ـ رحمه اللهُ ـ بمكَّةَ حرسَها اللهُ ، فقلتُ : عندنا في العراقِ شيخٌ عظيمٌ من الصُّوفيَّةِ ، شريفُ النَّسبِ ، اسمُهُ السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ ، هل سمعتمْ به في المغربِ ؟ .

فانزعجَ من كلامي وقال لي : سبحانَ اللهِ! كيف لا وهو إمامُ الصِّدِّيقينَ ، وغوثُ الزَّمانِ ، وَظِلُّهُ على المغربِ والمشرقِ ، وهو سَيِّدُ الأولياءِ المحمديِّين اليومَ ، وكُلُّ وليٍّ للهِ في هذا العصرِ . مِنْ جُنْدِهِ وتحتَ رايَتِهِ .

فقلتُ : أي سيِّدي! باركَ اللهُ بكَ ، لا تُؤاخذني! لم نسمع من فمِ هذا السيِّدِ الجليلِ كلمةً تُشيرُ إلى ما قلتَه! .

فقال : هذا الرجلُ المتمكِّنُ ، الذي شَرِبَها ، وغلَبَ عليها ، وقهر أسرارَهُ ، وملَكَ أطوارَهُ ، وما ألْيَقَهُ بمعنى قولِ القائلِ .

ولَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدبَّ دَبِيبُهَا إلى موضعِ الأَسْرَارِ . قُلْتُ لَهَا : قِفِي!
مَخَافَةَ أَنْ يَسْطُو عَلَيَّ مُدَامُهَا فَتَظْهَرَ جُلاَّسِي عَلَىٰ سِرِّيَ الخَفِي

* * *

وكان الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ البصريُّ الإمامُ العارفُ باللهِ ـ رضي اللهُ عنه ـ يقولُ :

العصرُ الذي يكونُ فيه السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ ـ رضي الله عنه ـ لا يُلْتَجأُ فيه إلى غيرِهِ .

وهو وَجْهٌ لا يُخْزِيهِ اللهُ في أتباعِهِ أبداً .

وقال الوليُّ الكبيرُ الشيخُ عثمانُ السلمابادي قدَّسَ اللهُ روحَهُ :

ظَهَرَ السيِّدُ أحمدُ ، وأغلقَ أبوابَ الصَّالحين ، والدولةُ الغَيبيَّةُ له وَلِذُرِّيَّتِهِ إلى يومِ القيامةِ بإذنِ اللهِ تعالى .

ومرَّ الإمامُ الأكبرُ تاجُ العارفينَ أبو الوفا محمدٌ الحُسينيُّ ـ رضي اللهُ عنه ـ بِأُمِّ عَبِيْدَة ، فوقَفَ عليها قليلاً وقال :

لا إلهَ إلاّ اللهُ ، سَيَظْهَرُ عَنْ قريبٍ في هذه القريةِ السَّعيدةِ رجلٌ كريمٌ على صَحْبِهِ ، عزيزٌ على رَبِّهِ ، تُشَدُّ إليهِ الرِّحالُ ، وَتُذَلُّ له رِقابُ الرِّجالِ ، يتواضعُ له كُلُّ صاحبِ سَجَّادةٍ على وجْهِ الأرضِ ، ويُضْرَبُ داغُ إرشادِهِ على جَبَهاتِ الذَّراري في أصلابِ الآباء .

فقام رجلٌ وقال : أي سيدي! مَنْ ذلكَ الرَّجلُ ، وما آسْمُهُ ؟ .

فقال له : هو الرِّفاعيُّ ، وآسْمُهُ أحمدُ ، مَنْ أهلِ بيتِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ، سيجيءُ إلى الدُّنيا ، ويَكْبَرُ ، وتراهُ أنتَ ، وتصيرُ مِنْ أصحابِهِ ، فإذا رأيتَهُ . فَبَلِّغْهُ سَلامي ، وسَلْهُ ليَ الدُّعاءَ .

فَعَاشَ الرجلُ حتى وُلِدَ سيِّدي أحمدُ ، وكَبِرَ ، وظَهَرَ أمرُهُ ، فذهبَ إليهِ ، وَبَلَّغَهُ سلامَ السيِّدِ أبي الوفا تاجِ العارفين ، وصارَ مِنْ خَاصَّةِ أصحابِهِ رضي اللهُ عنه وعنهم » . انتهى .

وَنُقِلَ عنِ الوليِّ الصَّفِيِّ الشيخِ عليٍّ الهِيتيِّ ـ قدَّسَ اللهُ روحَهُ ـ أنه قال : دخلتُ يوماً مجلسَ الشيخِ الكبيرِ منصورِ البطائحيِّ الرَّبَّانيِّ رضي اللهُ عنه ، وجرى بيننا حديثُ سَلْبِ الأحوالِ ، وكان ابنُ أختِهِ سيِّدُنا السيِّدُ أحمدُ

الرِّفاعيُّ دونَ العِشْرِينَ جالساً في طَرَفِ المجلسِ ، فطالَ بينَنا الكلامُ ، وكُلٌّ تَكَلَّمَ بما يعلَمُ .

فالتَفَتَ سيِّدي منصورٌ إلى السيِّدِ أحمدَ وقال : وأنتَ يا حبيبي قل شيئاً! .

فقال : حالٌ يُطْمَسُ بسببٍ ، والمُسَبِّبُ هو المُتَصَرِّفُ الفَعَّالُ ، وبعدَهُ فالسالبُ خائفٌ ، والمسلوبُ خائفٌ ، وله تعالى الأمرُ .

وإنِّي أرى أنَّ السالبَ بعدَ وقوعِ السَّلْبِ على يديه إنْ كان عارفاً . . لا بُدَّ أن يقومَ وَيَقْعُدَ خائفاً ، والمسلوبَ إنْ كان مرحوماً . . لا بُدَّ أن يقومَ ويَقْعُدَ راجياً .

فَخَوْفُ السالبِ أَمْنٌ ، ورَجَىٰ المسلوبِ عِنايةٌ ، وفي الكُلِّ القُوَّةُ والقُدرةُ والفعلُ للهِ رَبِّ العالمين .

فبكى الشيخُ منصورٌ ، ودار في المجلس حالٌ عظيمٌ ، وعَلِمْنَا أنَّ هذا الكلامَ لا يَصْدُرُ إلاَّ مِنْ قلبٍ أيَّدَهُ اللهُ بالعنايةِ الخاصَّةِ ، وقدَّمَ صاحِبَهُ ـ وهو صغيرُ السِّنِّ ـ على المشايخِ من كبارِ أهلِ الخصائصِ ، رضي اللهُ عنه وعنهم » . انتهى .

نُصْحُهُ للأمراءِ والمُلُوكِ

قال العزُّ الحافظُ في « إرشاده »[1] . . ما نصُّه : « وفي سَنَةِ سبعٍ وخمسين وخمسِ مئةٍ . . وجَّهَ الخليفةُ المستنجدُ باللهِ ـ رحمه اللهُ تعالى ـ

---

(١) ص (٣٦) .

حاجِبَه نصرَ بنَ عمادٍ إلى أُمِّ عبيدةَ بكتابٍ منه إلى سيِّدِنا السيِّدِ أحمدَ رضي اللهُ عنه ، يطلبُ به منه النَّصيحةَ .

ومن جملةِ ما كتبَ له : أسألُكَ باللهِ أنْ تُكثِرَ منَ النَّصيحةِ لي بجوابك ؛ فإنِّي في حاجةٍ لنصيحتِكَ ، وأيُّ حاجةٍ .

ولا ريبَ عندي بحصولِ بَرَكَةِ نُصْحِكَ لي إن شاءَ اللهُ .

وقال في الكتابِ أيضاً : فإنَّكَ مَهْبِطُ الفتحِ اليومَ .

فلمّا وصلَ الحاجبُ . . أمرَ السيِّدُ ـ رضي اللهُ عنه ـ خادمَه الشيخَ عليَّ بنَ الطَّريِّ أن يكتبَ ما يُملِيْ عليه ، فكتبَ وهو يُملي ، حتى كتبَ كتاباً طويلاً ، وهو مشهورٌ ومتداوَلٌ بأيدي النَّاسِ » انتهى .

أقولُ : ذكرَه العلامةُ السيِّدُ محمد أبو الهدى الصيَّاديُّ ـ رحمة الله عليه ـ في كتابه الماتعِ « الكُلِّيَّات الأحمدية »[(١)] ، فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ، والصلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ خلقِهِ محمدٍ عبدِهِ وحبيبِهِ ومصطفاهُ .

أما بعدُ ، منَ الفقيرِ إلى اللهِ أحمدَ بنِ عليٍّ أبي الحسنِ[(٢)] ، كان اللهُ له ،

---

(١) ص (١٧٦ ـ ١٨٠) .

(٢) أسقطَ الفاءَ التي تتعلَّقُ بجوابِ الشَّرطِ على تقديرِ القولِ ، أي : أما بعدُ ، فأقولُ : من الفقير . . إلخ . ومنه قوله صلى الله عليه وسلَّم : « أما بعدُ ، ما بالُ رجالٍ يَشترِطُونَ شروطاً ليسَتْ في كتابِ اللهِ » البخاري (٤٤٤) ، أي : أما بعدُ ، فأقولُ : ما بالُ رجالٍ . انظر « ابن عقيل » ٤ . ٥٢ ، =

إلى الإمامِ الخليفةِ المُطاعِ أميرِ المؤمنين ، أبي أحمد ، المستنجدِ باللهِ العباسيِّ الهاشميِّ ، أيّدَه اللهُ بما أيّدَ به عبادَه الصَّالحين آمين .

وصلَنا كتابُكَ الآمرُ بالنَّصيحةِ ، والحديثُ الشريفُ .

« الدِّينُ النَّصيحةُ ، الدِّينُ النَّصيحةُ ، الدِّينُ النَّصيحةُ »[1] .

ولولا هذا الحديثُ . . لَمَا تصدَّرْتُ لِنُصْحِكَ ؛ لأنَّ نصيحةَ مِثْلِكَ ـ بارَكَ اللهُ بكَ ـ لها شرطانِ :

الإخلاصُ منَ النَّاصِحِ ، والقَبُولُ ، بشرطِ العَمَلِ بالنَّصيحةِ من أخيهِ ، أيّدكَ اللهُ بتوفيقهِ .

يا أميرَ المؤمنينَ! إنْ أنتَ أنفذتَ أحكامَ كتابِ اللهِ ـ تعالى وتقدَّسَ ـ في نفسِكَ . . نفذَتْ أحكامُ كُتُبِكَ في مُلْكِهِ .

وإنْ عظَّمْتَ أمرَ اللهِ تعالى باتِّباعِ رسولِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، واحتَفَلْتَ بشأنِهِ الكريمِ . . عظَّمَ الناسُ أعمالَكَ ، ووُلَاةَ الأمورِ مِنْ قِبَلِكَ .

ولا تنظُرْ ـ يا أميرَ المؤمنينَ ـ لِما عليهِ القياصِرَةُ وملوكُ المجُوسِ مِنَ القُوَّةِ في مُلْكِهِمْ معَ أنسلاخِهِم وبُعْدِهم عن كُلِّ ما ذكرْتُهُ لكَ . . فإنَّهم جَهِلوا الحقَّ ، فأبْعَدَهم عنه ، وقرَّبَهم منَ الدُّنيا ، وقرَّبَها منهُم ، وولَّاهم أمرَ مَنْ شاءَ مِنْ خَلْقِهِ .

= فصل : أمّا ، ولولا ، ولَوْمَا .

(١) رواه ابنُ حبان في « صحيحه » (٤٥٧٤) ، وأبو عوانه ١ / ٣٧ ، والطبراني (١٢٦١) ، وأبو داود (٤٩٤٤) .

فإنْ ساسُوهم بما تَسْكُنُ إليه أفئدتُهم ، وتطمئِنُّ له طِباعُهم.. دامَ أمرُهم في حجابِ دُنياهم ، إلى أنْ تنقطِعَ حبالُ آجالِهم .

وإنْ لم يَسُوسُوهم بالرِّفقِ والمُداراةِ ، وأوقعُوا فيهم ما يُثقِلُ عليهم.. سلَّطَهم عليهم ، فسلَبَ دُنيا قومٍ بقومٍ ، والنَّارُ مأوى الكافرين .

وأمّا أنتَ يا أميرَ المؤمنينَ.. فحافِظُ ثُغُورٍ ، وحارسُ دماءٍ وأموالٍ ، هزَّت بِكُلِّ مَفَازاتِها سُيوفُ الإسلامِ ، لا عِلْماً بقدومِكَ بعدَ حينٍ ، ولا تمهيداً لكَ لتفعَلَ برأيِكَ ، إنما كان ذلك للهِ ولرسولِهِ .

فافْزَعْ في كُلِّ أمورِكَ إلى اللهِ ، وعظِّمْ في كُلِّ شُؤونِكَ أمرَ رسولِ اللهِ ، وأنتَ حينئذٍ ـ في أمانِ اللهِ وظِلِّ نبيِّهِ ـ نافذُ الأمرِ ، ثابتُ السُّلطان ، مؤيَّدٌ بِجُنْدِ اللهِ وكلماتِهِ ، و ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

ثُمَّ زِنْ ـ يا أميرَ المؤمنينَ ـ كُلَّ ما يَصِلُ إلى خُوَيْصَّةِ نفسِكَ في هذه الدَّارِ من طعامٍ تأكُلُه ، وشرابٍ تشرَبُهُ ، ورداءٍ تَرْتَدِيه ، وظِلٍّ تستظِلُّه ، وأجْمِلِ الشَّرَهَ على الدُّنيا بِقَدْرِ ذلك .

وإيَّاكَ وَظُلْمَ العِبادِ! وإذا اسْتَفَزَّكَ الشَّيطَانُ ، ورام نزغَك إلى الظُّلْمِ.. فسَلْ نفسَكَ أنْ لو كُنتَ مسجوناً أو مظلوماً أو مقهوراً أو مكذوباً عليكَ ، ما الذي تُرِيدُهُ لنفسِكَ مِنْ سُلْطانِكَ ؟ .

وعامِلِ الناسَ بما تُرِيدُهُ لِنَفْسِكَ ؛ فإنَّكَ إنْ فعلتَ ذلكَ.. وَفَّيْتَ العَدْلَ والآدميَّةَ حقَّهما .

واعلَمْ أنَّ مَا أنتَ فيهِ منَ المُلْكِ والدَّولةِ.. شيءٌ يسيرٌ مِنْ مُلْكِ اللهِ ، وأنتَ جُزْءٌ صغيرٌ منه .

فإنْ رأيتَ لكَ شيئاً ونسيتَهُ وقُمتَ تفعلُ فِعْلَ مَنْ يَزْعُمُ مشاركتَهُ في مُلْكِهِ ، فأهملتَ حقَّهُ ، وغَدَرْتَ خَلْقَهُ . . يَصْرِفُ عنكَ عونَهُ ونصرَهُ ، ولكَ فيمَنْ بادَ عِبْرَةٌ .

ولا تنظُرْ - يا أميرَ المؤمنين - إلى مَنْ صَرَفَهم عن مَشْغَلَةِ الدُّنيا من أحبابِهِ المقرَّبين إليه ، كبعضِ الصَّحابةِ الذين نازَعَهُمُ الناسُ ، وانتزعوا أَزِمَّةَ الدُّنيا من أيديهم ؛ لأنَّ أولئكَ قومٌ اجتذَبَهُم إليه ، وولَّى على الناسِ مَنْ يُشارِكُهم في أعمالِهِم ، وكُلٌّ عَنْ عَمَلِهِ مسؤول ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ .

يا أميرَ المؤمنين! ظِلُّكَ ما أظلَّكَ ، ورِداؤُكَ ما سَتَرَكَ ، وطعامُكَ ما أشبَعَكَ ، ومالُكَ . . ما لَكَ منه شيءٌ ، و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ، إنَّ رَبِّي على ما يشاءُ قديرٌ .

نَعَمْ! أنتَ خاتَمٌ من خواتِمِ القَدَرِ ، يُطْبَعُ على ألواحِ الصُّوَرِ ، فيرفَعُ اللهُ به ويَضَعُ ، ويصِلُ به ويقطَعُ .

فإنْ أنتَ لزِمْتَ الأدبَ معَ الفعَّالِ المُطْلَقِ برعايةِ حقِّ شَرْعِهِ الذي شرعَ لعبادِهِ . . أثابَكَ وأدارَ مِحْوَرَ الوَهْبِ بِكَ وبأهلِكَ بمدَدٍكَ .

وإنْ أهْمَلْتَ أمرَهُ ، وهتكْتَ سِتْرَ خَلْقِهِ . . دخلتَ في أعدادِ الظَّالمين ، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ .

يا أميرَ المؤمنين! أهلُ الفَهْمِ السَّليمِ والذَّوقِ الصَّالحِ . . تجتمعُ هِمَّتُهمْ على الحقِّ ، ويَتَرَعْرَعُونَ في بُحْبُوحَةِ العَدْلِ والإحسانِ .

فكبيرُهُم وصغيرُهُم ، أميرُهُم ومأمورُهم ، حُرُّهم وعبدُهم في الدِّين سَواءٌ ، ولِكُلٍّ منهم مَقَامٌ معلومٌ .

لا تَشِبُّ فيهم نارُ الشِّقاقِ ، ولا يتحكَّمُ فيهم سُلطانُ سُوءِ الأخلاقِ .

يَحْكُمُونَ بما أنزَلَ اللهُ ، ولا يَزالونَ في أمانِ اللهِ ، ولوِ احتالُوا في الحُكْمِ فجعلُوا له وَجْهاً في الظَّاهِرِ ، وأبطَنُوا الباطِلَ . . يقولُ لَهُمُ الحَكَمُ العَدْلُ .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ .

فإذا أظهروا الباطلَ ، وهيَّأُوا له سبيلاً شرعيّاً ، أدخلَتْهُ غَلَبَتُهم وشَوْكَتُهُم في الحُكْمِ . . قال الحقُّ تعالى لهم :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

فإذا أظهروا الباطلَ ، وانتحلُوا له سبيلاً من الرأيِ استصغاراً لِحِكْمَةِ الشَّرْعِ ، وتعزُّزاً بالأمرِ ، فحكمُوا به . . قال لهُمُ المُنتقِمُ الجَبّارُ :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

يا أميرَ المؤمنين! أروِقَةُ الأعمالِ . . لا تُعْمَرُ بأيدي الخيالِ .

ولا يُصَانُ حيٌّ . . إلاّ بمادةٍ جامعةٍ تُلصِقُ القلوبَ ببعضِها ، وتدفَعُ النِّزاعَ والتفرِقَةَ .

وما هيَ ـ واللهِ! ـ إلاّ الشَّرْعُ العَادلُ ، والسُّنَّةُ المحمديَّةُ الصَّالحةُ .

وكُلُّ ذلكَ أمرُ اللهِ الذي طَبَعَ الطِّباعَ ، وعَلِمَ ما يَطِيبُ له ، وبه يرتاحُ الضَّعيفُ لِطَلَبِ حقِّه من خَصْمِهِ القويِّ .

وأنتَ تدري ـ يا أميرَ المؤمنين ـ أنَّ ابنَ عمِّكَ ، إمامَ المسلمين عليّاً أميرَ المؤمنين ، كرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، ورضيَ اللهُ تعالى عنه . . حدَّثَ عن ابنِ عمِّهِ سيِّدِ المخلوقين : أنَّهُ قالَ :

« لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذُ للضَّعيفِ فيها حَقُّهُ مِنَ القَوِيِّ غيرَ مُتَعْتَعٍ »[١]
والأمرُ واللهِ كذلك .

وعلمتَ ـ يا أميرَ المؤمنين ـ مِنْ سِيرةِ عمرَ بنِ الخطَّابِ الفاروقِ الجليلِ رضي الله تعالى عنه : أنه لم يُرْهِبْ فارسَ والرُّومَ والمغربَ والصِّينَ والهندَ والبَرْبَرَ بِفُرُشِ الدِّيباجِ ، وبُسُطِ الحريرِ ، وكُؤوسِ الجوهرِ ، والخُيُولِ المُسَوَّمَةِ[٢] ، والبيوتِ الشَّاهقةِ ، والأقواسِ المُذَهَّبَةِ

إنَّما أرهبَهم بالعَدْلِ المحضِ ، وأفحمَ شُوسَ رجالِهم بالحِكمةِ البالغةِ[٣] ، ألا وهي : شريعةُ نبيِّكَ سيِّدِ الحكماءِ ، وبُرهانِ العقلاءِ ، وإمامِ الأنبياءِ ، محمدٍ صلَّى اللهُ تعالى عليه وسلَّمَ .

ولْتَعْلَمْ ـ أمطرَ اللهُ قلبَكَ سَحابَ الإلهامِ المُباركِ والتوفيقِ ، وأحكَمَ أمرَكَ بالأعوانِ الصَّالحين أهلِ الحِكمةِ والنَّجدةِ ـ :

أَنَّ الحقَّ كمينٌ تحتَ ضُلُوعِ الخاصَّةِ والعامَّةِ ، المُحِقُّ منهم والمُبْطِلِ .

فَرُبَّمَا أعانَك عدُوُّكَ على باطِلِكَ بيدِهِ ولسانِهِ انقياداً لوقتِكَ ، وأنكرَهُ

(١) رواه الطبرانيُّ في « الكبير » ١٩ : ٣٨٥ عن معاوية ، والبيهقيُّ في « السنن الكبرى » ٦ : ٩٥ عن بُريدة ، وابنُ حِبَّان بنحوه (٥٠٥٩) من حديث جابرٍ رضيَ اللهُ عنهم أجمعين .

(٢) يعني الرَّاعيةَ في المُروجِ والمَسَارِحِ ، قاله سعيدُ بن جُبير رضي الله عنه ، « تفسير القرطبي » ٥ : ٥٢ .

(٣) الشُّوسُ : جمعُ الأَشْوَسِ ، وهو الرَّافعُ رأسَهُ تكبُّراً ، والجريءُ على القِتالِ الشَّديدِ ، « لسان » ٨ : ١٦٠ ـ ١٦١ ، مادة : « شوس » .

عليكَ بِسِرِّهِ ، وأضمرَ قلبُهُ لكَ بعدَها السُّوءَ .

فلا يُزَكِّي ذِكرُكَ لديه ولو جعلتَهُ حُرّاً ، ثُمَّ أكبرتَهُ ، ثم آستوزرْتَهُ ، بل ولو كان أشدَّ منكَ باطلاً ، وهذا سِرُّ اللهِ المُضْمَرُ في الحقِّ .

وٱعْلَمْ ـ أيْ سيِّدي ـ أنَّ جيشَ المُلوكِ . . العَدْلُ ، وحُرّاسهم . . أعمالُهم ، ودفاترَ أحوالِهم . . عُمّالُهم وأصحابُهم .

وهذه الدَّفاتِرُ في أيدي العامَّةِ ، فأصْلِحْ دفترَ أحوالِكَ ، وأَحْكِمْ حراستَكَ ، وأيِّدْ جيشَكَ .

وعليكَ بأهلِ العقلِ والدِّينِ! وإيّاكَ وأرْبابَ القَسوةِ والغَدْرِ والضَّلالةِ ، فهم أعداؤُكَ .

وصُنْ أمرَكَ مِنْ أنْ تلعبَ به النِّساءُ والأحداثُ والذينَ لا نَخْوَةَ لهم . . فإنَّهم مِنْ دواعي الخَرابِ والاضمحلالِ .

وإذا أحببْتَ . . فَحَكِّمِ الإنصافَ في عَمَلِكَ حتى لا تُقَدِّمَ غيرَ مُحِقٍّ ، أو ترفَعَ بغَيْرِ الحقِّ .

وإذا كَرِهْتَ . . فٱذْكُرِ اللهَ .

وَنَزِّهْ طَبْعَكَ مِنْ جَوْرِ الغَدْرِ ؛ فإنَّ مكانَكَ مكانُ الأمنِ ، يَدُورُ صاحبُهُ معَ الحقِّ لا معَ الغَرَضِ .

وإذا غضِبْتَ . . فٱجْنَحْ للعَفْوِ ، فإنْ أخطأتَ فيه . . خيرٌ مِنْ أنْ تُخْطِىءَ في العقوبةِ .

وٱجْعَلْ بَذْلَكَ وَنَوالَكَ لأهلِ الدِّينِ والحِكمةِ والغَيْرَةِ للإسلامِ .

وٱخْتَرْ منهم : أشرفَهم طبعاً ، وأكبرَهم عقلاً ، وأوجزَهم رأياً وَنُطقاً ، وأثبتَهم حُجَّةً ، وأعلمَهم باللهِ ورسولِهِ .

وساوِ النَّاسَ بَرّاً وفاجراً ، مؤمناً وكافراً في باب عَدْلِكَ .

وٱحفظْ حُرْمَةَ الدِّينِ وأهلِهِ .

وٱعْمَلْ عَمَلاً تُحْسِنُ به عاقِبتَكَ إذا لَقِيْتَ رَبَّكَ .

واللهُ وليُّ التوفيقِ ، ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ، والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ » . انتهى .

قلتُ : قال الفاروثيُّ الحافظُ في « إرشاده »[1] : « نَقَلَ الحاجبُ ابنُ عمادٍ : أنَّ الخليفةَ قرأَ الكتابَ وبكىٰ ، ثم قرأَهُ وبكىٰ ، ثم قرأَهُ وبكىٰ ، وقال :

واللهِ! إنَّ في لسانِ السَّيِّدِ أحمدَ نغمةً مِنْ لسانِ جَدِّهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

ولا شَكَّ! فهو بَرَكَةُ بلادِ اللهِ اليومَ » . انتهى[2] .

مُؤَلَّفَاتُهُ :

قال سِبطُهُ الجليلُ مولانَا السيِّدُ عِزُّ الدِّينِ أحمدُ الصَّيَّادُ ـ رضي اللهُ عنه ـ

---

(١) ص (٣٦ ـ ٣٧) .

(٢) وذكره أيضاً الحافظُ تقيُّ الدِّين الواسطيُّ في كتابه « ترياق المحبين » ص (٣١ ـ ٣٤) .

في « المعارف »[1] عِنْدَ ذِكْرِ تواليفِهِ . ما نصُّهُ :

« هذا ما تَيَسَّرَ جَمْعُهُ الآنَ من أحزابِ سيِّدي الجَدِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ وأورادِهِ الشَّريفةِ .

وقد أفردَ لها بعضُ السَّالكينَ مجموعاً لطيفاً ، وعددُها اثنان وستونَ وَسِتُّ مئةٍ .

وقد ألَّفَ ـ رضي اللهُ عنه ـ كُتُباً ، ونُقِلَ عنه من مجالسِهِ المباركةِ أبحاثٌ ، دَوَّنَها بعضُ الأكابرِ ، منها :

١ ـ « الصِّراطُ المستقيمُ ، في معاني : بسم الله الرحمن الرحيم » .

٢ ـ و « البرهان المؤيِّدُ لصاحبِ مَدِّ اليدِ » .

٣ ـ و « حالةُ أهلِ الحقيقةِ معَ اللهِ » .

٤ ـ و « البهجة » .

٥ ـ و « شرح التنبيه » ، في الفقه الشافعيِّ .

٦ ـ و « المجالس الأحمديَّة » . وغيرُ ذلك رضي اللهُ عنه ، ونفعَنا وأُمَّةَ جَدِّهِ بِعلومِهِ » . انتهى .

وقال شيخُ الإسلامِ السيِّدُ محمد سراجُ الدِّينِ الرِّفاعيُّ الحُسينيُّ ـ رضي اللهُ عنه ـ في كتابه « صَحاح الأخبار »[2] عند ذِكْرِهِ لشرح « التنبيه » هذا . ما هو بحروفه :

---

(١) ص (١٠٩)

(٢) ص (٩٠ ـ ٩١) .

« أخبرني ابنُ الصَّفَّارِ بسندِهِ إلى الشريفِ ابنِ الصَّناديقيِّ : أنَّ أباه حدَّثَهُ أنَّه اعتنى بجمعِ مُؤلَّفاتِ سيِّدِنا السيِّدِ أحمدَ وأخبارِهِ وَنَسَبِهِ وآثارِهِ ، ومنها :

« شرح التنبيه » ، لأبي إسحاق ، في المذهب الشافعيِّ ، كتابٌ جليلٌ ، يحوي سِتَّ مجلَّداتٍ ، وهو من أندرِ الكتبِ .

ومنها : كتاب « البرهان المؤيَّدُ » ، وهو سِفْرٌ مختصرٌ ، جمَعَهُ رِوايَةً عنه في مجالسِ وَعْظِهِ الشريفُ أبو طالبٍ ، شَرَفُ الدِّينِ بنُ عبدِ السميعِ بنِ عبدِ اللهِ ، أبي تمَّام ، العبَّاسيُّ الواسطيُّ » . انتهى .

صِفَاتُهُ الخِلْقِيَّةُ :

قال سِبْطُهُ الجَدُّ السيِّدُ الصيَّادُ في « معارفه »[1] : « وكان ـ رضي اللهُ عنه ـ رَبْعَةً منَ القومِ ، أسمرَ ، أزهرَ ، خفيفَ العارِضَيْنِ[2] ، وسيعَ الجبهةِ ، أسودَ العينينِ ، مُدَوَّرَ الوَجْهِ ، حَسَنَ المَبْسَمِ .

إذا تَكَلَّمَ . . سَلَبَ القلوبَ ، وإذا سَكَتَ . . أهابَهَا ، اتَّبَعَ سُنَنَ المصطفى صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ ، وَسَلَكَ مسالِكَهُ ، وكانَ على قَدَمِهِ ومَشْرَبِهِ ، إبراهيميُّ الشَّأْنِ والحالِ ، محمديُّ القَدَمِ والمنهجِ . . .

وكان يَلْبَسُ قميصاً أبيضَ ، ورداءً أبيضَ ، وخُفّاً منْ صوفٍ أبيضَ ،

---

(١) ص (٣١ و ٤٣) .

(٢) العَارِضَانِ : للإنسان صَفْحَتا خَدَّيْهِ ، فقولُ الناس : خفيفُ العارِضَيْنِ . . فيه حذفٌ ، والأصلُ : خفيفُ شَعْرِ العَارِضَيْنِ ، « مصباح » ص (٤٠٤) ، مادة : « عرض » .

ويتعمَّمُ بِعمامةٍ سوداءَ دسماءَ ، وفي بعضِ الأحيانِ يتعمَّمُ بالبياضِ .

وكان رفيعَ القَوَامِ ، نحيفَ الوجودِ ، كثيرَ التَبَسُّمِ ، قليلَ الضَّحِكِ ، مَكِيناً في طَوْرِهِ ، ذا هيبةٍ عظيمةٍ ، لا يتمكَّنُ جليسُهُ من إباحةِ النَّظرِ إليه .

هذا مَعَ رِفْقِهِ وَظَرَافَةِ طَبْعِهِ وَخُلُقِهِ ، وَرِقَّةِ شِيَمِهِ ، وذلك لِمَا ٱشتملَ عليه مِنَ العِلمِ ، والعقلِ ، والعبادةِ ، والكمالِ ، والفضائلِ ، والمجدِ ، وعُلُوِّ النَّسبِ ، والكَرَمِ ، والخوارقِ الغُرِّ ، والحِكمةِ البارعةِ ، والسَّنَنِ المحمَّديِّ ، وَرِفْعَةِ القَدْرِ ، وبُعْدِ الصِّيتِ والشُّهْرَةِ ، والشَّأْنِ الوحيدِ في عصرِهِ ، نفعَنَا اللهُ به والمسلمينَ آمين » . انتهى .

أَخْلاَقُهُ وتَوَاضُعُهُ

قال العِزُّ الحوافظُ في « النَّفحة المِسْكِيَّة »[1] عندَ ذِكْرِ أخلاقِهِ . . ما نصُّهُ :

« وأمّا أخلاقُهُ . . فقد وافقَها أعراقُهُ ، طابَ أصلاً وَخَلْقَاً ، وَحالاً وخُلُقَاً .

كان خُلُقُهُ السُّنَّةَ المحمديَّةَ ، ومَشْرَبُهُ الحالةَ النبويَّةَ .

لم يُعْهَدْ ولم يُسْمَعْ في طبقاتِ القومِ مِنْ بعدِ الصحابةِ وأئمَّةِ الآلِ ـ رضي اللهُ عنهم ـ عنْ أحدٍ منَ الرِّجالِ : أنه بلَغَ ما بلغَهُ ـ قُدِّسَتْ أسرارُهُ ـ منَ الصفاءِ ، والزُّهدِ ، والصِّدْقِ ، والتواضُعِ ، والانكسارِ ، والحَيْرَةِ ، والافتقارِ .

أتى بِكُلِّ أخلاقِ أهلِ عصرِهِ وعباداتِهِم ، ولم يأتِ كُلُّهم بِكُلِّ أخلاقِهِ

---

(١) ص (٣٩٣)

وعباداتِهِ ، وجاءَ بِكُلِّ كراماتِهِمْ ومناقِبِهم ، ولم يجئْ كُلُّهم بِكُلِّ كراماتِهِ ومناقِبِهِ .

فالحمدُ للهِ الذي مَنَّ علينا باتِّباعِهِ ، وجَعَلَنَا مِنْ أتباعِهِ » . انتهى .

وقال العزُّ ـ أيضاً ـ في « إرشاده »[1] : « وسألَه الفقيهُ العظيمُ ابنُ بختيارٍ الواسطيُّ عن مشايخِ بغدادَ والرِّجالِ الذين رآهم ؟ .

فقال : أُمَّةٌ خيرٍ ، وكُلُّهم على خيرٍ .

واللهِ يابنَ بختيار! ما وقعَ بَصَري على مخلوقٍ دُوني .

رضي اللهُ عنه ، ونفعَنا به وبِسَلَفِهِ الطاهرِ ، وجعلَنا مِنَ العارفين بحقِّهِ ، المُتمسّكينَ بِخُلُقِهِ ، وحشرَنا معَه تحتَ لواءِ جَدِّهِ ـ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ والمسلمين أجمعين ، آمين » . انتهى .

وقال سِبْطُهُ في « المعارف »[2] من قصيدةٍ له مَدَحَ بها جَدَّهُ السيِّدَ المُترجَمَ . . ما لفظُهُ : «

أَوْصَافُ كُلِّ العَارِفِيْنَ بِهِ انْطَوَتْ   وَصِفَاتُهُ فِي كُلِّهِمْ لَمْ تُوْجَدِ »

وفيه أيضاً[3] : « كان السيِّدُ أحمدُ ـ رضي اللهُ عنه ـ على جانبٍ عظيمٍ مِنَ الحِلْمِ والرِّفقِ والتواضُعِ .

وما خاطَبَ صغيراً ولا كبيراً قطُّ إلا بـ : أي سيِّدي .

---

(١) ص (٣٩) .

(٢) ص (٦٢) .

(٣) ص (٤٣ و ٧٦ ـ ٧٧) .

وما رأى نفسَهُ شيئاً قطُّ ، ولا شَهِدَ له مزيّةً على أحدٍ منَ الخَلْقِ .

وكان يَبْذُلُ بَذْلَ المُلُوكِ ، وَعَيْشُهُ في أهلِهِ وعِيالِهِ عَيْشَةَ الفقراءِ ، ويقولُ :

« اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ »(١) .

وكان يغسِلُ ثوبَهُ بالأُشْنانِ والصَّابُونِ ، ويَغْسِلُ يَدَهُ بهما بعدَ أكلِ الطعامِ ، ولا يستخدِمُ أحداً في حاجةٍ لنفسِهِ ، ويقولُ :

أنا اخترتُ الخِدمةَ ، كيفَ يكونُ للخادمِ خادِمٌ ؟! .

ولا يَجمعُ بينَ نوعينِ منَ الطعامِ ، ولا يأكُلُ أكثرَ من قُرصٍ أو نصفِهِ ، ويقولُ :

إذا أكلتُ أكثرَ منْ ذلكَ .. أنامُ في الليلِ شبعانَ ، ويكونُ في الموضِعِ أناسٌ جِياعٌ ، فأُطالَبُ بذلكَ ، ويمكنُ أنْ تُؤَدِّيَ المطالبةُ إلى المؤاخذةِ .

وكان إذا أُتِيَ له بِتَمْرٍ أو رُطَبٍ .. يتناولُ الرديءَ منه ، ويقولُ : أنا أحقُّ به ؛ فإنه شبيهي » . انتهى .

وقال شيخُ الإسلامِ أحمدُ بنُ جلالٍ اللأَّرِيُّ الحنفيُّ في كتابه « جِلاءَ الصَّدئ »(٢) .. ما نصُّهُ :

« كان السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ ـ رضي اللهُ تعالى عنه ـ هَيِّنَ المؤُونَةِ ، عَنِيَّ النَّفسِ ، حَسَنَ المُعاشرةِ ، دائمَ الإطراقِ ، كثيرَ الحياءِ ، كاتماً للسِّرِّ ،

---

(١) رواه البخاري (٣٥٨٦) ، ومسلم (١٨٠٤) .

(٢) ص (١٢٢ ـ ١٥٢) ، الباب الرابع .

حافظاً للعهدِ ، كثيرَ الدُّعاءِ للمسلمينَ ، هيِّناً ، لَيِّناً .

يَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، ويُعطي مَنْ مَنَعَهُ ، ويَعفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، ويُحْسِنُ مُجاورةَ مَنْ جَاوَرَهُ ، ويَصْفَحُ عنْ سَيِّئاتِ الإخوانِ ، ويُطعمُ الجائعَ ، ويَكْسُو العُريانَ ، ويعودُ المريضَ بَرّاً كان أو فاجراً ، ويُشَيِّعُ الجنائزَ ، ويُجالسُ الفقراءَ ، ويُواسي المساكينَ ، ويصبرُ على الأذىٰ ، ويَبْذُلُ معروفَهُ ، ويَنْصَحُ عَدُوَّهُ ، ويَبْدَأُ مَنْ لاَقَاهُ بالسَّلامِ » . انتهىٰ .

وقال الذهبيُّ في « سِيَرِهِ »[1] عند ذكرِهِ . . ما نصُّهُ :

« أقسَمَ على أصحابِهِ إنْ كانَ فيه عيبٌ يُنَبِّهُونَهُ عليهِ ؟ فقالَ الشيخُ عمرُ الفَارُوثِيُّ :

يا سيِّدي! أنا أعلمُ فيكَ عيباً . قالَ : ما هوَ ؟ قالَ : يا سيِّدي! عَيْبُكَ أنَّنا مِنْ أصحابِكَ .

فبكىٰ الشيخُ والفقراءُ ، وقالَ : أي عمرُ! إنْ سَلِمَ المَرْكَبُ . . حَمَلَ مَنْ فِيهِ .

وإنَّ هِرَّةً نامتْ على كُمِّ الشيخِ أحمدَ ، وقامتِ الصَّلاةُ ، فقصَّ كُمَّهُ ، وما أزعجَهَا ، ثُمَّ قَعَدَ فوصَلَهُ ، وقالَ : ما تغيَّرَ شيءٌ .

وتوضَّأَ ، فنزلَتْ بَعُوضَةٌ على يَدِهِ ، فوقفَ لها حَتَّىٰ طارَتْ » . انتهىٰ .

أقولُ : وللوقوفِ على مزيدٍ من هذهِ الأخلاقِ . . اِلْزَمْ كتابَنا « الرَّشحاتِ

---

(١) ٢١ : ٧٨ـ٧٩ .

الحَسَنِيَّةَ على النفحةِ المسكيَّةِ »[١] ، ففيه الوفاءُ بهذا المبحثِ ، واللهُ أعلم .

عِبَادَتُهُ :

قالَ سِبطُهُ الوليُّ الكبيرُ في « المعارف »[٢] . . ما نصُّهُ :

« وقال الشيخُ الكبيرُ الحاج ماهان ، خادمُ سيِّدِنا السيِّدِ أحمدَ قدَّسَ اللهُ روحَه ، ورضيَ عنه :

خَطَرَ لي ليلةً منَ الليالي الدُّخولُ على سيِّدي السيِّدِ أحمدَ والجلوسُ معَه في جوفِ الليلِ ، فرأيتُ كأنَّما جاذِبَني جاذِبٌ إلى نحوِهِ بِعِنَانِي .

فقمتُ وأتيتُ إلى أن وصلتُ إلى بابِ الرِّوَاق ، فرأيتُهُ مفتوحاً ، فدخلتُ ، وَصَعِدتُ إليه وهو في غرفةٍ له بعيدةٍ عنِ الناسِ .

فلمّا وقفتُ على بابِ الغُرفةِ . . سمعتُ له بكاءً عالياً ، وتردُّدَ زَفَراتٍ ، وتَصَعُّدَ أنفاسٍ وشهيقٍ ! .

فلم أَجْسُرْ أنْ أتكلَّمَ ، والصقتُ خَدِّي مَعَ البابِ ، وإذا به ـ قدَّسَ اللهُ تعالى روحَهُ ـ قد لَزِمَ لِمَّتَهُ بِيمينِهِ[٣] ، وقد وارى خَدَّهُ على الأرضِ ، وجعَلَ يُمَرِّغُ خَدَّهُ وشيبَتَهُ على الترابِ ، ويقولُ :

إلٰهي ! أنا العبدُ الضعيفُ الذليلُ ، الذي قَصَمَتِ الذُّنوبُ ظَهرَهُ ، وحَيَّرَتِ

---

(١) ص (١٥٩ ـ ١٧٥) .

(٢) ص (٧١ ـ ٧٢) .

(٣) اللِّمَّةُ : الشَّعرُ الذي يُجاوِزُ شحمةَ الأذن ، « مختار الصّحاح » ص (٦٠٥) ، مادة : « لمم » .

الخطايا فِكْرَهُ ، وقلَّ لضعْفِهِ عملُهُ ، ونهبتْ أيدي المَنُونِ أجلَهُ .

أناالذي لا قُدرةَ ولا قُوّةَ له ، ولا حولَ له ، ولا عُذْرَ له .

إلٰهي! مَنْ أنا ؟ وأَيْشٍ أنا ؟ إنْ أنا إلاّ جِيفةٌ لا قيمةَ لها ، ونُطفةٌ قَذِرَةٌ لا أصلَ لها .

إلٰهي! إنْ أطعتُكَ .. فبإرادتِكَ ، وأنتَ المحمودُ على مِنَّتِكَ ، فأنتَ المَنَّانُ عليّ ، وإنْ عصيتُكَ .. فَحِلْمُكَ غَرَّنِي ، فلَكَ الحُجّةُ البالغةُ عليّ .

إلٰهي! لم أعصِكَ اجتراءً منّي عليكَ ، ولكنْ أطمَعَنِي سِتْرُكَ الجميلُ ، وعلمتُ أنَّ المقدورَ كائنٌ ، وذلك الذي لا مخرجَ منه إلاّ لِمَنْ أردتَ ، وبرحمتِكَ عَصَمْتَ ، فاجْتَرَأْتُ على نَفْسِي .

وهَا أنا قد مددتُ إليكَ كَفَّ النَّدمِ ، يا مَنْ لا ملجأَ منه إلاّ إليهِ ، فارحمْ عبداً آبِقاً لم يجدْ لنفسِهِ ناصراً ولا سَنَداً إلاّ أنتَ ، يا أرحمَ الراحمينَ .

قال : وهو معَ ذلك يتمرَّغُ في الغُرفةِ طُولاً وعَرْضاً ، ولم يَزَلْ كذلكَ زماناً طويلاً حتى بَكَيْتُ رحمةً له ، وقلتُ : سبحانَ اللهِ! قتلَ هذا الشيخُ نَفْسَهُ ، وليس له ذنبٌ ولا خطيئةٌ ، ومتى سكتَ عنه .. هلكَ .

قال : فعندَ ذلك تَنَحْنَحْتُ ، فلمّا سمعَنِي .. قَعَدَ وقالَ : مَنْ أنتَ ؟ فقلتُ له : ماهان ، فقالَ لي : عنيتَ نَفْسَكَ أي ماهان! .

قال : فدخلتُ وسلَّمتُ عليه ، فلمّا استقرَّ بِنا الجلوسُ .. قال : يا أخي ماهان! متى جئتَ ؟ فقلتُ له : منْ أوّلِ الليلِ أي سيِّدي ، وقد سمعتُ منكَ كذا وكذا .

قال : أسمعتَ ؟! فقلتُ : نعم ، فأمسكَ ، فقلتُ له : سيِّدي! حدَّثَتْكَ نَفْسُكَ أمراً ، أم تخافُ أنْ يُعذِّبَكَ ربُّكَ ، أم ترى ما صحَّتِ البيعةُ ، أَخْبِرْني بحياةِ الشيخِ منصور ، قدَّسَ اللهُ تعالى روحَه .

قال : فقال : يا شيخ ماهان! ما لكَ وللسؤالِ ؟ فقلتُ له : أي سيِّدي! لي معَكَ صُحبةٌ ، ولي عليك حقُّ خِدْمَةٍ ، فَبِحَقِّ الصُّحبةِ إلاَّ ما حَدَّثْتَني .

فقالَ : يا ماهان! كيفَ لا يبكي حُمَيْدُهُ ، ويُجيبُ معَهُ مَنْ يبكي وقد هَتَكَهُ اللهُ تعالى ، وجعلَ المظلومَ يستغيثُ به ، والظالمَ يستغيثُ به ، ويقولُ : يا سيِّدي أحمد .

حتى إنَّ النَّعْجَةَ يأخذُها الذِّئبُ من طريقِها وهو يأكلُها ـ وقد أُذِنَ له فيها ـ وهي تستغيثُ وتقولُ بلغتِها : أي سيِّدي أحمد ، وإنَّ جماعةً مِنَ الناسِ يعملونَ الفواحشَ ، ويستغيثُونَ به .

قال : ثم قال له سيِّدي السيِّدُ أحمدُ قدَّسَ اللهُ تعالى روحَهُ :

أي سيدي! أي أخي ماهان! ما عَرَفَ اللهَ مَنْ لَذَّ له في الدُّنيا عيشٌ ، ولا وجَدَ راحةً ولا قراراً .

أي أخي ماهان! كم يكونُ جُهْدُ حُمَيْدِهِ ؟ ومَنْ هو ، أَيْشٍ هو طَعْمُهُ .

يا ماهان! كُلُّ هذا لِسَوادِ وَجْهِي معَ العزيزِ ، وخَجْلَتِي بينَ يديهِ ، ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

أي ماهان! كيف لا يتمزَّقُ حُمَيْدُهُ لِربِّهِ ، ويستغيثُ إليه في كُلِّ وقتٍ ؟ .

أي ماهان! الحقُّ ـ سبحانَه ـ لا يُؤْمَنُ مَكْرُهُ ، ولا نِقِمَاتُهُ ، ولا سَطَوَاتُهُ ، فادْعُ لي بالسلامةِ ، وأنْ لا يُؤاخِذَ الناسَ بذنبي .

قال : فقلتُ له : أي سيِّدي! إذا قلتَ هذا وأنتَ أنتَ ، فما نقولُ ونحنُ أهلُ الخطايا والاجترام ، وأنتَ بنا تُؤخذ ؟! .

فقال : أي ماهان! الأمرُ عظيم ، فنسألُ اللهَ السلامةَ .

فإذا كان هذا السيِّدُ المحتشَمُ معَ ما قد أعطاه اللهُ تعالى مِنْ عُلُوِّ القَدْرِ والمنزلةِ ، فقد جعَلَ اسْمَهُ في الشرقِ والغربِ والبحرِ والبرِّ ، وعلى ألسنةِ العرَبِ والعَجَمِ ، ويُجري هذا البكاءَ ، ويتمرَّغُ بالترابِ سِرّاً وجهراً ، وآخِرتُهُ محفوظَةٌ ، وحركَاتُها كُلُّها للهِ :

فينبغي للمُريدِين له ، والتابعينَ لأثَرِه وكُلِّ مَنْ يتعلَّقُ بِجنابِهِ وَسُنَّتِهِ : أنْ يُطَهِّرُوا سرائرَهُمْ ، وَيُصَفُّوا بَوَاطِنَهُمْ ، وَيَنُوحُوا على أنفسهم ؛ لأنَّهم أصحابُ الذنوبِ والخطايا والزَّلَلِ ، وصاحبُ هذه الأفعالِ أحقُّ بالبكاءِ على نَفْسِهِ ، وأنْ يتذكَّرَ ظُلْمَ اجْتِرَائِهِ على المحارمِ ، وقُدومَهُ على المآثمِ ، وغُرورَهُ بالطَّمَعِ الكاذِبِ والأماني الفاسدةِ ، ولم يكن له سابقةُ عَمَلٍ ، ولا اسْتِدْرَاكُ ما فاتَ ، ولا نَدَمٌ يَجُبُّ به حَوْبَاتِهِ بالإقلاعِ عنْ إصرارِهِ[١] .

فيا ليتَ شِعْرِي! ماذا غرَّهُ بِحُكْمِ : ﴿ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

---

(١) الجَبُّ : القَطْعُ ، ومنه الحديثُ : « إنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قَبْلَهُ ، والتوبةُ تَجُبُّ ما قَبْلَهَا » أي : يَقْطَعانِ وَيَمْحُوانِ ما كانَ قبلَهما مِنَ الكُفْرِ والمعاصي والذُّنوبِ » .
« لسان » ٣ : ٦٤ ، مادة : « جب » .
وَالحَوْبَةُ : الخطيئةُ ، « مصباح » ص (١٥٥) ، مادة : « حاب » .

فالعاقلُ ينبغي له سياسةُ نَفْسِهِ ، وإنَّ العاقلَ العارفَ مَنْ قَوِيَ على مُخالفةِ هواهُ ، وتركَ المُكَوَّنَاتِ أجمعَ ، وأقبلَ على مُكَوِّنِها » . انتهى .

شَفَقَتُهُ على الأيتامِ والأرَامِلِ

قال سِبطُهُ في « المعارف »[١] : « كان شيخُنا السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ ـ رضي اللهُ عنه ـ أبا الأيتامِ ، ربيعَ المساكينِ ، للأراملِ كالوليِّ العزيزِ ، وللضَّوائعِ كالكهفِ الحريزِ[٢] .

ملجَأً المُحتاجين ، وكعبةَ القاصدين ، ومنهلاً عَذْباً للواردين .

يَجْبُرُ اليتيمَ ويُربِّيهِ ، ويُقَرِّبُ المسكينَ ويَحْويهِ ، يُعطي الأراملَ مِنْ غيرِ سُؤالٍ ، ويمنحُ الضَّرائعَ مِنْ غيرِ إمهالٍ ، ويُسعفُ المُحتاجَ مِنْ غير إعمالٍ ، ويتحنَّنُ على القاصدين بشَفَقَتِهِ ، ويتَلَذَّذُ إلى العاذِرِ بعُذُوبَتِهِ ، ويتقرَّبُ للخَلْقِ بقضاءِ حوائِجِهِمْ ، وإيصالِ الراحةِ إلى قلوبهم ، ولم يَزَلْ إذا قال قولاً . . أَتْبَعَهُ بِصِحَّةِ الفعلِ وصدقِ القولِ ، ولم يخالفْ قولُهُ فِعْلَهُ . .

وكان ـ نَوَّرَ اللهُ مَرْقَدَهُ ـ إذا رَجَعَ مِنْ بعضِ الأماكنِ وقَرُبَ مِنْ أُمِّ عَبِيْدَة . . يقفُ وَيَشُدُّ وسَطَهُ ، وَيَلُفُّ كُمَّيْهِ ، ويأخُذُ حبلاً يكونُ مُدَّخراً له مِنْ بعضِ أصحابِهِ الفقراءِ ، فَيَمُدُّهُ على الأرضِ ، ثم يجمَعُ عليه حَطَباً ، وَيَشُدُّ حُزْمَتَهُ ، فَيُبَادِرُ الفقراءُ فيصنَعونَ مثلَهُ ، ثم يجمعون معَه ويحملونَ الحَطَبَ

---

(١) ص (٧٣ ـ ٧٤) .

(٢) أي : كالموضعِ الحَصِينِ ، « مختار الصِّحاح » ص (١٣٠) ، مادة : « حرز » .

على رُؤُوسِهِمْ فَيَحُطُّونَهُ عندَ بابِ الرِّوَاقِ ، ثم يُفَرِّقُهُ السيِّدُ على الأرامِلِ والمساكينِ والمَرْضَىٰ والزَّمْنَىٰ والمشايخِ باتِّفاقِ الفقراءِ ، ويقولُ : الشَّفَقَةُ على الإخوانِ .. مِمَّا يُقَرِّبُ إلى اللهِ تعالى » . انتهى .

زُهْدُهُ في الدُّنيا

قال العِزُّ الحافظُ في « إرشاده »[1] : « حدَّثني الشيخُ أبو الحسينِ السَّمَرْقَنْدِيُّ ، عنِ الشيخِ الكبيرِ عبدِ الصمدِ الحربوني ، أحدِ وكلاءِ الرِّوَاقِ العامرِ الأحمديِّ : أنه قال له سَنَةَ سبعٍ وستين وخمسِ مئةٍ :

بَلَغَ رَيْعُ أملاكِ السيِّدِ أحمدَ وأوقافُهُ المحبوسةُ على رِوَاقِهِ هذه السَّنَةَ إلى تسعِ مئةِ ألفِ درهمٍ فضَّةٍ ديوانيٍّ ، وعِشْرين ألفَ قطعةِ ذهبٍ .

وجاءَ في هذه السَّنَةِ باسمِ جنابِهِ الشَّريفِ من الأقاليمِ .. ثمانونَ ألفَ رِداءٍ ، وخمسونَ ألفَ تمشكة ، وعِشرونَ ألفَ مِسْحٍ عَجَمِيٍّ ، واثنانِ وثلاثون ألفَ عِمامةِ كتَّان ، وإحدى عَشْرَةَ ألفَ قطعةِ ذهبٍ دوانيقيَّة ، وألفٌ وسَبْعُ مئةِ كِساءٍ هنديٍّ .

وها هو اليومَ غَسَلَ ثوبَهُ بشاطىءِ نهرِ الرِّوَاقِ ، واستَتَرَ بِفُوطَتِهِ ، وأخذَ ثوبَهُ على عصىً يُنَشِّفُهُ لِيَلْبَسَهُ ، ولم يكنْ في خِزَانَةِ رِواقِهِ ولا دِرْهَمٌ واحدٌ .

وكُلُّ الذي ذكرتُهُ لكَ تصدَّقَ به على الضُّعفاءِ ، ووهبَهُ للمستحقِّينَ والسائلينَ والفقراءِ والمساكينِ ، رضيَ اللهُ عنه .

وكان جَدِّي الشيخُ أبو الفَرَجِ عمرُ الفَاروثيُّ ـ رحمه اللهُ ـ يقولُ :

---

(١) ص (٣٩ ـ ٤٠) .

جمَعَ اللهُ لسيِّدِنَا السيِّدِ أحمدَ ـ رضي اللهُ عنه ـ الأضْدَادَ ، جاءَتْهُ الدُّنيا راغمةً فأنفقَها على الناسِ ، وبقيتْ عنْ نَفْسِهِ النَّفيسةِ مَمْسُوكَةً كشأنِ جَدِّهِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ .

وبلَّغَهُ اللهُ مِنْ مراتبِ العِزِّ أشمخَ مرتبةٍ ، حتى تواضعَ بينَ يديه الخلفاءُ ، وهابَهُ ملوكُ واسطَ وسلاطينُ فارس ، وخشَعَ بحضرتِهِ الأولياءُ والعلماءُ ، وهو في نفسه ذليلٌ مُنْكَسِرٌ .

يخدُمُ ضيفَهُ ، ويخصِفُ نعلَهُ ، ويجمعُ الحَطَبَ ويَشُدُّهُ بِحَبْلٍ مُدَّخَرٍ له عندَ بعضِ خُدَّامِهِ ، فيحمِلُهُ بنفسِهِ إلى بيوتِ الأراملِ والمساكينِ وأصحابِ الحاجاتِ ، ويقدِّمُ للعُميانِ نعلَهُم ، ويقودُهُمْ إذا لقِيَ منهم أناساً إلى محلِّ مطلوبِهم .

ويُكْرِمُ الشيوخَ ، ويرأفُ باليتيمِ ، ويَبكي لحالِ الفقراءِ ، ويفرحُ لفرحِهِم ، ويتواضعُ لهم كُلَّ التَّواضُعِ ، ويَعُدُّ نَفْسَهُ منهم ، ويقولُ في المحافلِ :

إنْ عُدَّتْ أصحابُ الحِرَفِ ، وذهَبَ كُلُّ أهلِ حِرْفَةٍ زُمْرَةً زُمْرَةً . . فأنا فقيرٌ ، وفي زُمرةِ الفقراءِ » . انتهى .

وجاءَ في « المعارف »[1] لِسِبْطِهِ القطبِ السيِّدِ الصيَّادِ ـ رضي اللهُ عنه ـ ما يلي :

« وكان ـ رضي اللهُ عنه ـ يُرسِلُ عندَ الاحتياجِ إلى الشيخِ الحاج ماهان ،

---

(١) ص (٤١) .

أو إلى الشيخِ عليِّ بنِ الطَّري ، أو إلى الشيخِ عبدِ الصمدِ الأنصاريِّ ـ رحمهُمُ اللهُ ـ فيقولُ :

عندكُمْ مِنْ أجلِ اللهِ لوالدتكُمْ أمّ صالح دانقٌ للحاجةِ الفُلانيةِ ، أو لأختِكُمْ أمّ إبراهيمَ ، أو لأختِكُمْ أمّ شَمْسِ الدِّين ، أو لِفُلانٍ مِنْ إخوانكم ، يعني أسباطَهُ ، أو لنفسِهِ الطَّاهرةِ ، فيُعطونَهُ ـ رضي اللهُ عنه ـ ما يأمُرُ بِهِ ، فَلا يَمَسُّهُ بيدِهِ » . انتهى

أَقْوالُ العُلَمَاءِ في شَخْصِهِ الفَذِّ الشَّرِيفِ

قالَ الشيخُ الجليلُ عبدُ الوهابِ السُّبكيُّ ـ رحمةُ اللهِ عليه ـ في « طبقاته »[١] عند ذِكْرِهِ الشريفِ . . ما نصُّهُ :

« أحدُ أولياءِ اللهِ العارفين ، والسَّاداتِ المُشَمِّرين ، أهلِ الكراماتِ الباهرةِ .

ولو أرَدْنا استيعابَ فضائلِهِ . . لضاقَ الوقتُ . . .

ومناقبُهُ أكثرُ مِنْ أنْ تُحصَرَ ، وقد أفردَ لها بعضُ الصُّلحاءِ كتاباً يَخُصُّها » . انتهى .

وقال فيه الإمامُ الذهبيُّ في « سِيَرِهِ »[٢] عند ذِكْرِهِ . . ما هو بِحروفِهِ :

« الإمامُ ، القُدْوةُ ، العابدُ ، الزَّاهدُ ، شيخُ العارفين ، أبو العبَّاسِ ، أحمدُ بنُ أبي الحسن عليٌّ الرِّفاعيُّ المغربيُّ ثم البطائحيُّ .

---

(١) ٦ : ٢٣ ـ ٢٤ و ٢٧ .

(٢) ٢١ : ٧٧ ـ ٧٨ و ٨٠ .

كان كثيرَ الاستغفارِ ، عاليَ المِقدارِ ، رقيقَ القلبِ ، غزيرَ الإخلاصِ » . انتهى .

وقال ابنُ ناصرِ الدِّين في « توضيح المُشْتَبِه »[١] عند ذِكْرِهِ :

« ومنهُمُ الشيخُ أبو العباس ، أحمدُ بنُ الشيخ أبي الحسنِ عليٍّ . .

صارَ قُدْوَةً ، صاحبَ أحوالٍ وكراماتٍ ، وإليه تنتمي الطائفةُ المعروفةُ » . انتهى .

وقال العلامةُ المُنَاويُّ في « الكواكب الدُّرِّيَّة »[٢] : « الشيخُ الزَّاهدُ الكبيرُ ، أحدُ الأولياءِ المشاهيرِ .

شريفٌ نما روضُ شرَفِهِ ، وهمَىٰ على العالَمِ غيثُ سَلَفِهِ .

كان سيِّداً جليلاً ، صُوفيّاً عظيماً نبيلاً . . ويُضْرَبُ به المَثَلُ في تحمُّلِ الأذَىٰ » . انتهى .

وقال ابنُ خَلِّكان في « وَفَيَاتِ الأعيان »[٣] : « كان رجلاً صالحاً ، فقيهاً ، شافعيَّ المذهبِ .

إنْضَمَّ إليه خَلْقٌ عظيمٌ منَ الفقراءِ ، وأحسنوا الاعتقادَ فيه وتَبِعُوهُ .

وَالطَّائفةُ المعروفةُ بالرِّفاعيَّةِ والبطَائِحِيَّةِ منَ الفقراءِ . . منسوبةٌ إليه » . انتهى .

---

(١) ٤ : ٢١٣

(٢) ٢ : ٢١٨ و ٢٢٠ .

(٣) ١ : ١٧٠ ـ ١٧١ .

وذكَرَهُ الذهبيُّ في « الإشارة »[1] عند ذِكْرِ وَفَيَاتِ سنةِ (٥٧٨ هـ) ، فقال :

« الشيخُ الكبيرُ أبو العباس ، أحمدُ بنُ عليٍّ الرِّفاعيُّ » .

وذكَرَهُ ـ أيضاً ـ في « دُوَلِ الإسلامِ »[2] فقال : « وفيها ـ أي : سنةِ (٥٧٨ هـ) ـ تُوفِّيَ سيِّدُ العارفين ، الشيخُ أحمدُ بنُ أبي الحسَنِ عليٍّ الرِّفاعيُّ » . انتهى .

وقال فيهِ العِزُّ الحافظُ المُتْقِنُ أحمدُ بنُ إبراهيمَ الفَارُوثيُّ في « النفحة المِسْكِيَّة »[3] . . ما هو بحروفِهِ :

« شيخُ المشايخِ ، الجبلُ الراسخُ ، صاحبُ المناقبِ العظيمةِ ، والمآثِرِ الكريمةِ ، تاجُ أهلِ القَبُولِ ، المُتَشَرِّفُ بتقبيلِ يَدِ الرَّسُولِ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ .

أبو العَلَمَيْنِ ، غوثُ الثقلَيْنِ ، مَنْ ثَبَتَتْ كراماتُهُ بالتواترِ في المشرقَيْنِ والمغربَيْنِ .

الخاشعُ الخاضِعُ ، والشَّريفُ المُتواضِعُ ، ملجأُنا ، ومَفْزَعُنا ، وشيخُنا ، السيِّدُ الشيخُ أحمدُ أبو العباس ، الكبيرُ الرِّفاعيُّ الحُسينيُّ ، رضي اللهُ عنه » .

---

(١) ص (٢٩٨) .

(٢) ٢ : ٨٤ .

(٣) ص (٢٨٢) .

وقال فيه في « إرشاده »[١] : « سيِّدُنا ، وشيخُنا ، وإمامُ طريقتِنا ، القُطبُ الغوثُ الجامعُ ، الإنسانُ الكاملُ ، الوارثُ المحمديُّ ، سلطانُ العارفين ، مُحيي الدِّين ، شيخُ الطرائقِ ، السيِّدُ أحمدُ أبو العباسِ ، الكبيرُ الرِّفاعيُّ الحُسينيُّ العَلَويُّ ، رضي اللهُ عنه » . انتهى .

وقال فيه الشيخُ الجليلُ الواسطيُّ في « ترياق المحبين »[٢] :

« القطبُ الغوثُ الكبيرُ ، السيِّدُ الشريفُ ، النَّسيبُ الحسيبُ الغِطْريفُ ، مِنَّةُ اللهِ الكبرىٰ في عصرِهِ على الأنامِ ، شيخُ مشايخِ الإسلامِ ، وليُّ اللهِ ، سيِّدُنا وشيخُنا ومَفْزَعُنَا ، السيِّدُ أحمدُ مُحيي الدِّين ، أبو العباسِ الرِّفاعيُّ » .

وقال فيه الإمام أحمدُ بنُ محمدٍ الوِتْريُّ ـ رحمةُ اللهِ عليه ـ في كتابه « روضة الناظرين »[٣] . . ما هو بلفظِهِ :

« شيخُنا وسيِّدُنا ، خلاصةُ الصَّالحين ، قُرَّةُ عينِ أهلِ اليقينِ ، بَرَكَةُ الإسلامِ والمسلمين ، شَرَفُ الزَّاهدين ، حُجَّةُ اللهِ على أوليائِهِ المُتَمَكِّنين ، مُقَبِّلُ يَدِ جَدِّهِ سيِّدِ المخلوقينَ .

القُطبُ الغوثُ الأعظمُ ، الكنزُ الرَّبَّانيُّ المُطَلْسَمُ ، صاحبُ العَلَمَيْنِ ، مُحيي الدِّين ، أبو العباسِ ، السيِّدُ أحمدُ الكبيرُ الرِّفاعيُّ الحُسينيُّ ، رضي اللهُ عنه » .

---

(١) ص (٢) .

(٢) ص (٣) .

(٣) ص (٥١) .

وقال فيه الإمامُ الحافظُ الشهير ، مولانا السيوطيُّ ـ رضي اللهُ عنه ـ في كتابه « الشَّرَف المُحَتَّم »[١] . . ما نصُّه :

« والذي أدينُ اللهَ به : أنَّ السيِّدَ أحمدَ ابنَ الرِّفاعي ، الشريفَ الفاطميَّ الحُسينيَّ رضي اللهُ عنه ـ . كان جبلاً راسخاً ، وبطلاً جَحْجاحاً ، ووليّاً عظيماً ، وبحراً من بحارِ السُّنَّةِ عَجَّاجاً ، وسيِّداً سَنَداً .

انتهتْ إليه رياسةُ طريقِ القومِ ، وانعقدَ عليه إجماعُ العلماءِ والأولياءِ ، وقال بتقديمِهِ رجالُ عصرِهِ كافَّةً ، ومشى أكابرُ قاداتِ عصرِهِ تحتَ لواءِ إرشادِهِ .

تمكَّنَ مِنَ الاتِّباعِ للنبيِّ عليه السلامُ ، وصحَّ فيه قَدَمُهُ ، وانتهى إليه التواضُعُ ومكارمُ الأخلاقِ :

هَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِي الزَّمانُ بِمِثْلِهِ   إِنَّ الزَّمانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلُ

نفعَنا اللهُ بعلومِهِ وإمدادِهِ ، وحالِهِ وإرشادِهِ ، وجعلَنا اللهُ في زمرتِهِ مع إخوانِهِ أولياءِ اللهِ تحتَ لواءِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ » . انتهى .

وقال فيه الرافعيُّ القَزْوينيُّ الشافعيُّ الكبيرُ في « سواد العينين »[٢] . . ما نصُّه :

« الشيخُ الأكملُ ، والغوثُ المُبَجَّلُ ، قطبُ الدَّوائرِ ، أوَّلُ الأقطابِ

---

(١) ص (٢٣) ، طبعة شيخنا الإمام الوالد ، رحمةُ اللهِ عليه .
(٢) ص (٤٩) .

الأئمّةِ الأكابرِ ، أوحدُ الأولياءِ ، إمامُ الصُّلحاءِ ، واحدُ الأُمّةِ ، سَنَدُ الأئمّةِ ، الذي يُفْزَعُ إليهِ في المَهَمَّةِ .

وليُّ اللهِ ، المُغيثُ بإذنِ اللهِ ، مولانا السيّدُ الشّريفُ ، أحمدُ أبو العَلَمَيْنِ ، ابنُ عليٍّ أبي الحَسَنِ ، الرِّفاعيُّ الحُسينيُّ ، رضي اللهُ عنه » .

وقال فيه أبو الحسن الواسطيُّ في كتابه « خلاصة الإكسير »[١] .

« غوثُ الأُمّةِ ، ومُقْتَدَىٰ الأئِمّةِ ، عَلَمُ الأعلامِ ، شيخُ الإسلامِ ، بَرَكَةُ الخواصِّ والعوامِّ ، حُجّةُ اللهِ على أوليائِهِ الكرامِ .

سيِّدُنا ومولانا وشيخُنا وبَرَكَتُنا ، الذي شرَّفَنا اللهُ بطريقَتِهِ ، وعَصَمَنا بحَبْلِهِ ، أبو العباسِ ، مُحيي الدِّين ، السيِّدُ أحمدُ بنُ السيّدِ أبي الحَسَنِ عليٍّ ، الكبيرُ الرِّفاعيُّ ، رضي اللهُ عنه » .

وقال فيه الإمامُ الشّعرانيُّ في « طبقاتِهِ »[٢] : « انتهتْ إليه الرِّياسةُ في علومِ الطريقِ وشرحِ أحوالِ القومِ وكشفِ مُشكلاتِ مُنازَلاتِهِم .

وبِهِ عُرِفَ الأمرُ بتربيةِ المُريدينَ بالبَطائِحِ ، وتخرَّجَ بِصحْبَتِهِ جماعةٌ كثيرةٌ ، وتتلمَذَ له خلائقُ لا يُحْصَوْنَ ، ورِثاهُ المشايخُ والعلماءُ .

وهو أحدُ مَنْ قَهَرَ أحوالَهُ ، وملَكَ أسرارَهُ ، وكان له كلامٌ عالٍ على لسانِ أهلِ الحقائقِ » .

وقال فيه الشيخُ العارفُ شِهابُ الدِّينِ عمرُ السُّهْرَوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ :

---

(١) ص (٢٩) .

(٢) ص (٢٠٦) .

« وعظيمِ جلالِ اللهِ! ما سَبقَهُ الجُنَيْدُ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ إلاّ بأنْ جاءَ قَبْلَهُ ، وإلاّ ففي مَرتبةِ التَّمكينِ .. أعجزَ اللاّحقينَ ، وسَبقَ السَّابقين .

وللهِ وضعُ الفَضْلِ كَما يَشاءُ ، وحيثُ يَشاءُ ، يفعَلُ ما يُريدُ ، ﴿ لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ » .

وقال فيه شيخُ الشُّيوخِ ، العارفُ الكبيرُ ، مولانا الإمامُ السيِّدُ عبدُ القادرِ الجِيْلانيُّ رضيَ اللهُ عنه :

السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ : حُجّةُ اللهِ على أوليائِهِ اليومَ ، وصاحبُ هذهِ المَأْدُبَةِ ، وأَنْشَدَ :

هَذَا الَّذِي سَبَقَ القَوْمَ الأُولَى ، وَإِذَا رَأَيْتَهُ .. قُلْتَ : هَذَا آخِرُ النَّاسِ»[١]

وقال فيه ـ أيضاً ـ وقد سُئِلَ عنه ؟ : « أي فقيرُ! هذا رجُلٌ لا يُعْرَفُ ولاَ يُحَدُّ ، ولا يَصِلُ إلى معرفةِ مقامِهِ غيرُ ربِّهِ أحدٌ .

هذا رجلٌ خُلُقُهُ الشَّرْعُ والكتابُ ، وقلبُهُ مشغولٌ بِرَبِّ الأربابِ ، تَرَكَ الكُلَّ ، فنالَ الكُلَّ .

خُلُقُهُ حَسْرَةُ الرِّجالِ ، وحالُهُ مُنتهى الأحوالِ ، ومَقَامُهُ غايةُ الآمالِ ، وبابُهُ مَحَطُّ الرِّجالِ .

مَنْ أرادَ أن يرىٰ الرَّجُلَ المُتَمَكِّنَ الذي لا تُحَرِّكُهُ الزَّعازِعُ[٢] .. فَلْيَذْهَبْ

---

(١) « ترياق المحبين » ص (٩) .

(٢) أي : الشَّدائِدُ ، « لسان » ٧ : ٣٢ ، مادة : « زعع » .

إلى أُمِّ عَبِيْدَة ؛ فإنَّ صاحِبَها الرَّجُلُ المُتَمَكِّنُ في كُلِّ مقامٍ وَطَوْرٍ ، وَدُونَهُ الرِّجالُ .

وإنَّ اللهَ يَرْحَمُ الوقتَ[١] الذي يكونُ فيه مِثْلُ هذا الجِهْبِذِ »[٢] .

سَبَبُ تسميتِهِ بـ : أبي العَلَمَيْنِ

أقولُ : قدْ مَرَّ بِكَ عن شيخِهِ أبي الفضلِ عليٍّ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ سَبَبُ تكنيتِهِ بـ : أبي العَلَمَيْنِ ، لإشارةٍ فُهِمَ منها المقصود[٣]

وجاءَ في « سواد العينين »[٤] للرَّافعيِّ ما يُشيرُ إلى ذلكَ بوضوحٍ ، ونصُّ قولِهِ :

« سألتُ الشيخَ العارفَ باللهِ رُكْنَ الدِّينِ بنَ نبهانٍ الشَّيبانيَّ عن سَبَبِ اشتهارِ السَّيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ بـ : أبي العَلَمَيْنِ ؟ فقالَ :

لأنَّ عَلَمَ الغَوْثِيَّةِ العُظمىٰ ، والقُطْبِيَّةِ الكُبرىٰ . . رُفِعَ له مَرَّتينِ في الأكوانِ .

وهو أنَّ الغوثَ أحمدَ بنَ خَلَفٍ البَلْخِيَّ الحُسينيَّ نزيلَ بغدادَ لمَّا ماتَ . . رُفِعَ لواءُ الغوثيةِ للسيِّدِ أحمدَ الكبيرِ ، فوقفَ في بابِ اللهِ ، وتَذَلَّلَ وتَمَلْمَلَ على عَتَبَةِ جَدِّهِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقالَ : العَفْوَ العَفْوَ!

---

(١) أي : أهلَ الوقتِ ، على حذفِ مضافٍ ، فافهم

(٢) « سواد العينين » ص (٦١ ـ ٦٢) . والجِهْبِذُ : النَّقَّادُ الخَبِيرُ ، « قاموس » ١ : ٣٦٥ .

(٣) ص (٤٠ و٦٣) .

(٤) ص (٦٧ ـ ٧٠) .

فَقَبِلَ الحقُّ منه مقالَهُ ، فتمكَّنَ في مَقَامِ غَوْثِيَّتِهِ بالتَّرَقِّي إلى ما هو فوقَ الغوثيَّةِ والقُطبيةِ .

فَرُفِعَ لواءُ الغوثيةِ إلى الشيخِ عبدِ القادرِ الجِيْلانِيِّ وهو في صحراءِ العراقِ ، ولَهُ مِنَ العُمُرِ خمسٌ وثمانونَ سَنَةً . . .

وتُوفِّيَ في بغدادَ سنةَ إحدىٰ وسِتِّينَ وخمسِ مئة ، عن إحدىٰ وتسعينَ سنةً .

فَرُفِعَ عَلَمُ الغوثيةِ والتصرُّفِ في الأكوانِ مرَّةً ثانيةً للسيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ .

فوقَفَ على البابِ ، فأحاطَ بهِ النِّداءُ مِنْ كُلِّ جانبٍ يقولُ لهُ :

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ .

فَلَزِمَ البابَ مُمْتَثِلاً ، وامْتَدَّتْ مُدَّةُ غوثيَّتِهِ الثانيةِ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً وأشهراً على الصَّحيحِ .

فلهذا اشْتُهِرَ بينَ أولياءِ اللهِ في الكونينِ بـ : أبي العَلَمَيْنِ » . انتهى .

أقولُ : وجاءَ في « طبقاتِ الشعراني »[1] عندَ ذِكْرِ مقامِهِ وعظيمِ مرتبتِهِ . . ما نصُّهُ :

وقالَ له شخصٌ من تلامذتِهِ : يا سيِّدي! أنتَ القُطْبُ ؟ فقالَ :

نَزِّهْ شيخَكَ عنِ القُطْبِيَّةِ . فقالَ له : وأنتَ الغوثُ ؟ فقالَ : نَزِّهْ شَيْخَكَ عنِ الغوثيَّةِ .

---

(١) ص (٢١٢) .

قلتُ(١) : وفي هذا دليلٌ على أنه تعدَّىٰ المقاماتِ والأطوارَ ؛ لأنَّ القُطبيةَ والغوثيَّةَ مقامٌ معلومٌ ، ومَنْ كان معَ اللهِ وباللهِ . فلا يُعْلَمُ له مقامٌ ، وإنْ كان له في كُلِّ مقامٍ مُقَامٌ ، واللهُ أعلمُ » . انتهى .

أقولُ : وللجَلاَلِ السُّيوطيِّ الحافظِ العارفِ المُتْقِنِ جُزْءٌ في حقيقةِ هذه المُسَمَّياتِ ، ذَكَرَها بأدِلَّتِها ، وأوضَحَها بشواهِدِها وأخبارِها ، وَسَمَّاهُ : « الخَبَرَ الدَّال ، على وجُودِ القُطْبِ والأوتادِ والنُّجَباءِ والأَبْدَالِ » .

فلا يُعَوَّلُ على إنكارِ أهلِ العِنادِ ، واللهُ المُوَفِّقُ الهادي إلى سُبُلِ الرَّشادِ .

أقولُ : وليسَ الغَرَضُ مِنْ إيرادِ كلامِ العلماءِ بشأنِهِ الكبيرِ استيفاءَ المقصَدِ والوصولَ إلى الغايةِ ، فلذلكَ محلٌّ آخرُ عسى اللهُ أن يَمُنَّ علينا به في وقتِهِ ، معَ العافيةِ التامَّةِ ، والسلامةِ من الميلِ إلى غيرِهِ ، وهو وليُّ المؤمنين .

زَوَاجُهُ وعَقِبُهُ :

قال الحافظُ العِزُّ الفَارُوثيُّ في « إرشادِهِ »(٢) : « وأمّا شيخُنا ووسيلتُنا وقُدْوتُنا السيِّدُ أحمدُ الرِّفاعيُّ رضي اللهُ عنه . فإنَّهُ تزَوَّجَ في بدايتِهِ بالشَّيْخَةِ العارفةِ الصَّالحةِ ، وليَّةِ اللهِ تعالى وبنتِ وليِّهِ ، السِّتُّ خديجةَ بنتِ سيِّدِنا الإمامِ العارفِ الكبيرِ الشيخِ أبي بكرٍ الواسطيِّ النَّجاريِّ ، أخي الإمامِ البازِ الأشهبِ الشيخِ منصورٍ الرَّبَّانيِّ النَّجاريِّ .

---

(١) القائلُ : الشعرانيُّ ، رحمةُ اللهِ عليهِ .

(٢) ص (٩٠ ـ ٩٣) .

/ فأَوْلَدَهَا السيِّدَةَ فاطمةَ ذاتَ النُّورِ ، والسيِّدَةَ زينبَ أُمَّ المكارِمِ ، والدةَ الأقطابِ رضي اللهُ عنهم أجمعين .

ثُمَّ تُوفِّيَتْ سنةَ ثلاثٍ وخمسينَ وخمسِ مئة ، ودُفِنَتْ بمشهدِ أبيها وجَدِّهَا بِأُمِّ عَبِيْدَةَ .

وكانت دَيِّنَةً صابرةً صالحةً حليمةً سليمةً ، ذاتَ حَسَبٍ ودِينٍ ، رَوَتْ عن أبيها شيخِ الفريقَينِ الشيخِ أبي بكرٍ الواسطيِّ ، وعن خالِ أُمِّها الفقيهِ محمدِ بنِ أبي بكرٍ ، وروى عنها أخوها الشيخ يحيى ، وجَدَّتي الفاضلةُ زينبُ الفَارُوثيَّةُ ، وغيرُ واحدٍ .

ثُمَّ تزوَّجَ سيِّدُنا السيِّدُ أحمدُ بعدَها بأُخْتِهَا البَرَّةِ النقيَّةِ ، وليَّةِ اللهِ تعالى ، السيِّدَةِ رابعةَ أُمِّ الفقراءِ .

فأوْلَدَهَا السيِّدَ صالحاً قطبَ الدِّينِ رضي اللهُ عنه .

وُلِدَ سنةَ ثلاثةٍ وخمسين وخمسِ مئة ، وماتَ سنةَ سبعينَ وخمسِ مئةٍ بِأُمِّ عَبِيْدَةَ ، ودُفِنَ في مشهدِ جَدِّ أبيهِ لأُمِّهِ سيِّدِي الشيخِ يحيى النَّجاريِّ .

وقد شهِدَ له سيِّدِي السيِّدُ أحمدُ بمقامِ السلطنةِ ، ورمَقَهُ القومُ بأبصارِ التعظيمِ ، وقالوا :

زاحمَ قَدَمُهُ قَدَمَ أبيهِ في التَّرَقِّياتِ القلبيةِ ، والمُطَالَعَاتِ الغيبيَّةِ ، وكان يُرِيدُ العِلْمَ والمخدَّةَ ، وعَظُمَ أمرُهُ ، وَخَشَعَ بينَ يديهِ الأكابرُ منْ مشايخِ الجمعِ . . .

قال الجمالُ الحدَّاديُّ الكبيرُ قُدِّسَ سِرُّهُ : زوَّجَهُ والدُهُ ، وأعقبَ ولداً اسمُهُ منصورٌ ، وله ذُرِّيَّةٌ .

والمُعْتَمَدُ عليهِ : أنَّهُ لم يتزوَّجْ ، وهكذا تُوفي رضي اللهُ عنه .

وعاشت والدتُهُ سيِّدَتي رابعةُ أمُّ الفقراءِ بعدَهُ زماناً طويلاً ، وماتَتْ في خِلافَةِ سيِّدي السيدِ شمسِ الدِّينِ محمد ـ رضي اللهُ عنه ـ ليلةَ الجُمُعَةِ ، النِّصفَ العاشرَ من شهرِ شوَّال ، سنةَ ثلاث عَشْرَةَ وستِّ مئة ، ودُفنَتْ في المشهدِ المُبارَكِ الأحمديِّ .

وكانت جليلةَ القَدْرِ ، عظيمةَ الشأْنِ ، مُباركَةَ القلبِ واللِّسانِ ، مسموعةَ الكلمةِ .

وكانتْ تقفُ على ضريحِ زوجِها سيِّدِنا السيِّدِ أحمدَ ، وتُكَلِّمُهُ ، وتأخُذُ منهُ الجوابَ .

ولم يُكْرَمْ أحدٌ منَ القومِ بالوِلايةِ بعدَ وفاةِ زوجِها . . إلاَّ وكانت عارفةً به وبطريقِهِ ، رضي اللهُ عنها .

/ وأمّا السيِّدَةُ فاطمةُ ، والسيِّدَةُ زينبُ رضي اللهُ تعالى عنهما . . فإنَّ سيِّدَنا السيِّدَ أحمدَ ـ قدَّسَ اللهُ أسرارَهُ ـ زوَّجَ السيِّدَةَ فاطمةَ بابنِ أُخْتِهِ السيِّدَةِ ستِّ النَّسبِ ، أعني مولانا السيِّدَ عليّاً مُهَذَّبَ الدَّولةِ ، ابنَ السيِّدِ سيفِ الدِّينِ عثمانَ(١) .

---

(١) وقد لقَّبَه بهذا اللَّقبِ . . الخليفةُ الناصرُ لدينِ اللهِ أحمدُ ، كما أفادَه الإمامُ أبو الحسنِ الواسطيُّ في « خُلاصته » ص (٧٢) .

وقد كان السَّادةُ الرِّفاعيَّةُ بعد وفاةِ السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ ـ رضي اللهُ عنه وعنَّا به ـ يتوارثُونَ الولايةَ على البلادِ ، كما يتوارثون الولايةَ القلبية

وكان الوالي يُرْسَلُ مِنْ قِبَلِ الخليفةِ بشرطِ كونه تحت نَظَرِ شيخِ رُوَاقِ أُمِّ عَبِيْدَة =

وزوَّجَ السيِّدَةَ زينبَ بأخيهِ لأمٍّ وأَبٍ مولانا السيِّدِ عبدِ الرحيمِ مُمَهِّدِ الدَّولةِ .

فالسيِّدُ عليٌّ . . أعقبَ منَ السيِّدَةِ فاطمةَ القُطْبَيْنِ الجليلينِ ، العالِمَيْنِ العَلَمَيْنِ : السيِّدَ مُحيي الدِّين ، إبراهيمَ الأعزبَ ، والسيِّدَ نَجْمَ الدِّين أحمدَ الأخضر ، ولم تُعْقِبْ غَيْرَهُما .

وتُوفيتْ بِأُمِّ عَبِيْدَةَ سنةَ تسعٍ وستِّ مئةٍ[١] ، ودُفِنَتْ بالقُبَّةِ الأحمديَّةِ المُباركةِ ، وكانت من أهلِ الخصائصِ الجليلةِ ، والكراماتِ الجزيلةِ ، والقَبُولِ العظيمِ .

رأىٰ جَدِّي الشيخُ عمرُ رسولَ اللهِ ـ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ في المنامِ والسيِّدَةُ فاطمةُ هذه وأُخْتُهَا السيِّدَةُ زينبُ بين يديه عليه الصلاةُ والسلامُ ، فقال :

فاطمةُ فاطمتي ، وزينبُ زينبي ، بِنْتَايَ وبنتا وَلَدِي ، أنا أُحِبُّ أهلَ هذا البيتِ يا عمرُ .

= وهذه الألقابُ ومِثْلُها كانت تُمْنَحُ لمشايخِ رُوَاقِ أُمِّ عَبِيْدَةَ مِنْ قِبَلِ الخليفةِ في زمنِ كُلِّ واحدٍ منهم ، « خلاصة الإكسير » ص (٧١ و ٧٢) ، نقلاً عن الحداديِّ من كتابه « ربيع العاشقين » .

(١) قال الشيخ الجليلُ أبو الحسن الواسطيُّ ـ (ت ٧٣٣ هـ) ـ في كتابه « روح الإكسير » ص (٢٢) عند ذكر وفاتها . . ما نصُّهُ :

« وأمّا ما ذكروا من أنها توفيت فوق الست مئة . . فهفوةُ مُؤرِّخٍ لا يُعْبَأُ بها ، والتي توفيت فوقَ الست مئة . . زوجتُهُ الثانيةُ » .

قلتُ : سيأتي ذِكرُها بعد أسطرٍ ، فافطنْ له .

فأفاقَ مندهشاً ، وغُشِيَ عليه الليلَ كُلَّه ، فلمَّا أصبحَ . . استأْذَنَ على السيِّدَةِ فاطمةَ ، فلمّا صارتْ وراءَ حجابِهَا . . قالتْ له بصوتٍ حزينٍ ، وخشيةٍ وأنينٍ ، قبلَ أن يتكلَّمَ :

جدُّنا بَرٌّ رحيمٌ ، صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

وكانت قارئةً ، مُحَدِّثَةً ، صالحةً ، كثيرةَ الخشيةِ والعبادةِ والزُّهدِ ، قال لي والدي :

حدَّثتني أُختي الصَّالحةُ خديجةُ الفَارُوثيَّةُ أنَّها سمعتِ السيِّدَةَ فاطمةَ تَنْشُدُ في مجلسِ دَرْسِهَا :

نَمُوتُ على التَّقْوَىٰ ونُحْشَرُ فِي غَدٍ عَلَىٰ خَالِصِ الإيمانِ والبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ

تَزوَّجَ السيِّدُ عليٌّ بعدَها بنفيسةَ بنتِ سيِّدي محمدِ بنِ القاسميَّةِ ، وهو من أرحامِهِم ، فأولَدَها :

السيِّدَ إسماعيلَ ، والسيِّدَ عثمانَ ، والسيِّدَةَ عائشةَ ، والسيِّدَةَ زينبَ ، والسيِّدَةَ خديجةَ ، والسيِّدَةَ فاطمةَ ، وعَقِبُهُم مُنتشرٌ[1] .

---

(١) **أقول** : أما السيِّدُ المعروفُ بـ الكيَّالِ ، فهو ابنُ السيدةِ فاطمةَ ذاتِ النورِ ، بنتِ الإمامِ الكبيرِ السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعي رضي اللهُ عنهم أجمعين ، وكذلك أختُهُ السيدةُ خديجةُ .

قال أبو الحسن الواسطيُّ في « روح الإكسير » ص (٢٤ ـ ٢٥) . . ما نصُّهُ :

توفيت والدتُهُ وهو ابنُ سَنَتَيْنِ ، وكانت ولادتُهُ يومَ الجمعةِ ، الثامن عشر من ربيع الأوَّل ، سنةَ ثلاث وسبعين وخمسٍ مئة ، بحياةِ جَدِّهِ السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعي ، رضي اللهُ عنهما ، بعد ولادةِ أختِهِ السيِّدَةِ خديجةَ بسنةٍ واحدةٍ ، فربَّتْهُما الستُّ نفيسةُ زوجةُ =

= أبيهما ، وكثيراً ما يقولان لها : يا أُمّاهُ ، فلذلك ظنّ أكثرُ المؤرّخين أنهما ولدا نفيسة المذكورةِ ، وذكرُوهما في كتبهم ، كشيخِنا الفَارُوثيّ ـ قُدّسَ سِرُّهُ ـ في « نفحته » ، بأن قال بعد ذكر وَلَدَي فاطمةَ السيّدِ إبراهيمَ الأعزبِ ، والسيّدِ أحمدَ نجمِ الدّين :

وتوفّيت ولم تُخلّفْ غيرَهما ، وتزوّجَ بعدَها بنفيسةَ بنتِ سيدي محمد بن القاسميّةِ ، فأولدَها : السيّدَ إسماعيلَ ، والسيّدَ عثمانَ ، والسيّدَةَ عائشةَ ، والسيّدَةَ زينبَ ، والسيّدَةَ فاطمةَ ، والسيّدَةَ خديجةَ ، وعَقِبُهُمْ معلومٌ .

وتَبِعَ أثَرَهُ السيّدُ نظامُ الدّينِ ، نقيبُ واسطَ في « ثَبَتِهِ » ، وحَذَا حَذْوَهُ ، وكذا منه وعنه نقلتُ في مؤلّفي « خلاصة الإكسير » ـ ص (٣٤ ـ ٣٥) ـ .

وتواتر ذلك عن غيرِ صحةٍ يقينٍ ، والحقُّ ما قلناهُ هُنا ، لما سَبَبُهُ مُوضّحاً لِيُعْلَمَ .

وهو أنّهُ لمّا منّ اللهُ عليّ بصحبةِ القطبِ الأمجدِ ، والفردِ الأوحدِ ، سليلِ العُنْصُرِ المحمديِّ ، وطِرَازِ العِقْدِ الأحمديِّ ، شيخِ الإسلامِ والمسلمين ، وبَرَكَةِ الأنامِ والمُوَحِّدين ، سيّدِنا ومولانا أبي صالحٍ السيّدِ محمدٍ شمسِ الدّين ، بنِ القطبِ الوليِّ السيّدِ صَدْرِ الدّينِ عليّ بنِ القطبِ الجوادِ ، السيّدِ عزّ الدّين أحمدَ الصيّادِ ، بنِ السيّدِ عبدِ الرحيمِ الرّفاعيِّ ، قُدّسَتْ أسرارُهُم ، ونفعَنا والمُسلمينَ ببركَتِهِمْ آمين ، المذكورِ في صدرِ هذا الكتابِ ـ ص (٥) ـ ، وقرأتُ عليه كتابي المُسمّى بـ « خلاصة الإكسير » ، فلمّا وصلتُ إلى ذكرِ السيّدِ إسماعيلَ في عبارَتِهِ المعلومةِ . قال :

أمسكْ! فنظرتُ إليه فرأيتُهُ قد غضِبَ غَضَباً شديداً ، وتغيّرَتْ أحوالُهُ ، وقالَ فَوْراً :

دَعْهُمْ يَخُوضُوا في الخِلافِ بِزَعْمِهِمْ ⁂ إنَّ الصَّـوابَ لَنَـا لِعِلْمِـكَ مُشْتَهَـرْ

وَاسْمَـعْ مَقَـالَـةَ جَـدِّنَـا وَاصْغِـي لَـهُ : ⁂ الحَقُّ يَنْطِقُ عَنْ لِسَانِكَ يا عُمَرْ

* * *

وقال : فكيفَ جعلتَه ابناً لغيرِ والدتِهِ السيدةِ فاطمةَ ، وهو آخِرُ أولادِها ، وأختُهُ السيدةُ خديجةُ ؟! .

=

وأمّا السيّدُ عبدُ الرحيمِ . فإنه أعقبَ منَ السيِّدةِ زينبَ بنتِ الإمامِ الرِّفاعيِّ ـ رضي اللهُ عنهم ـ ساداتِنا :

السيِّدَ شمسَ الدِّينِ مُحَمَّداً ، والسيِّدَ قطبَ الدِّينِ أحمدَ ، والسيِّدَ أبا الحسنِ علياً ، والسيِّدَ عبدَ المُحسنِ أبا الحسنِ ، والسيِّدَ أحمدَ أبا القاسمِ ، والسيِّدَ عزَّ الدِّينِ أحمدَ الصيَّادَ ، والسيِّدَةَ عائشَةَ ، والسيِّدَةَ فاطمةَ ، ولقبُها : مَلِكَة ، قدَّسَ اللهُ أرواحَهُم ، ونفعنا بهم .

وتُوفيتِ السيِّدَةُ زينبُ بـ أُمِّ عَبِيْدَةَ سنةَ ثلاثين وستٍّ مئة ، ودُفنتْ بالقُبَّةِ المُباركةِ الأحمديةِ .

وكانتْ من أعظمِ العارفاتِ باللهِ ، حَفِظَتِ القرآنَ ، وتفقَّهتْ ، وسمِعَتْ منْ أبيها ومن خالِها الشيخِ أبي البدرِ الأنصاريِّ الواسطيِّ ، وسمعَ منها جَدِّي الشيخُ الجليلُ عمرُ الفَارُوثيُّ ، وأخذَ عنها أولادُها الأئمةُ

ولها خوارقُ وكراماتٌ كثيرةٌ ، رواها الثِّقاةُ ، منها :

= فالسيِّدُ إسماعيلُ قد توفيتْ والدتُهُ السيِّدَةُ فاطمةُ ـ رضي اللهُ عنها ـ وهو رضيعٌ ، وأختُهُ خديجةُ كان عمرُها ثلاثَ سنين ، وقد ربَّتْها زوجَةُ والدِهما الستُّ نفيسةُ ، ونشأ في حِجْرِها ، وتَربَّيا معَ أولادِها الآخرين ، فلذلك أوهم بعضَ المؤرِّخين .

ولقد سألتُ والدي السيِّدَ صدرَ الدِّينِ ؟ فأخبرني عن والدِهِ القطبِ السيِّدِ عزِّ الدِّين أحمدَ الصيَّادِ ، عن ابنِ عمِّهِ السيِّدِ أحمدَ نجمِ الدِّينِ الرِّفاعيِّ : بأنَّ السيِّدَ إسماعيلَ الأخَ الأصغرَ . . هو مِنْ أبيه وأُمِّه ، وكذا أُخْتُهُ خديجةُ ، وليس لنفيسةَ إلاَّ السيِّدُ عثمانُ ، والسيِّدَةُ عائشةُ ، والسيِّدَةُ زينبُ ، والسيِّدَةُ فاطمةُ ، وقال :

يا أخي! هذه هَفْوَةُ قَلَمٍ ، فلا يغُرَّنَّكَ قولُ بعضِ المؤرِّخين ، فكم سابقٍ يكبو ، وكمْ صارمٍ ينبو » . انتهى ، وتمامُهُ فيه .

أنه أقبَلَ على زُرُوعِ واسطَ والبطائِحِ الجَرَادُ ، فالتجأَ الناسُ إليها ، فتقَنَّعَتْ ، وصَعِدَتِ السَّطْحَ ، وقالتْ :

إلهي! عَبِيْدُكَ ساقَهُمْ حُسْنُ الظَّنِّ إليَّ ، وأنتَ الذي ألقيتَ ذلك في قلوبِهِم ، وإني أقلُّ منْ أنْ أسألَكَ لِذُنُوبي وسوادِ وَجْهِي ، وأنتَ أكرمُ مِنْ أنْ تَرُدَّ المنكسرينَ ، يا أرحمَ الرَّاحمين .

فَرَمَّ الجَرَادُ زَمَّةً واحدةً ، وكأنه إبِلٌ ساقَها رُعَاتُها ، حتى لم يبقَ منه في الدِّيارِ الواسطيَّةِ جرادةٌ واحدةٌ ، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ » . انتهى .

أقول : وللإمامِ الرِّفاعيِّ أولادٌ أُخَرُ ذكرَهم في كتابه « البرهان »[١] هذا ، ماتُوا كُلُّهم أطفالاً ، قال سِبْطُهُ في « المعارف »[٢] عند ذكرِهِمْ :

« ورُزِقَ القاسمَ ، وإبراهيمَ ، وعبدَ المُحسنِ ، وصالحاً قطبَ الدِّينِ ، وماتوا كُلُّهم أطفالاً ، سوى السيِّدِ صالحٍ قطبِ الدِّينِ ، بلغَ إلى دونِ السَّبْعَ عَشْرَةَ سنةً ، وتُوفِّيَ في حياةِ أبيهِ » . انتهى .

أقولُ : وأمّا قولُ المُناويِّ في « الكواكب الدُّرِّيَّةِ »[٣] : « ولم يُعْقِبْ ، وإنما المشيخةُ لابنِ أُخْتِهِ ، رضي اللهُ تعالى عنهم » .

وقولُ ابنِ خَلِّكانَ في « وَفَيَاتِ الأعيانِ »[٤] : « ولم يكنْ له عَقِبٌ ، وإنما العَقِبُ لأخيهِ ، وأولادُهُ يتوارثون المشيخةَ والولايةَ على تلكَ الناحيةِ

---

(١) ص (٢٥١) .

(٢) ص (٥٨ـ٥٩) .

(٣) ٢ : ٢٢٧ .

(٤) ١ : ١٧٢

إلى الآنِ » . فليس بصحيحٍ . لِما علمتَ ، قال سِبطُهُ في « معارفه »[١] :

« وبقيتْ ذُرِّيَّتُهُ الطَّاهرةُ من بِنْتَيْهِ الكريمتَيْنِ الولِيَّتَيْنِ العارفتَيْنِ باللهِ ، السيِّدَةِ زينبَ وهي والدتي وإخوتي رضي اللهُ عنها ، وأُخْتِها السيِّدَةِ فاطمةَ ، وهي أُمُّ سيدي إبراهيمَ الأعزبِ ، وسيِّدي نجمِ الدِّينِ أحمدَ ، نفعني اللهُ بهم .

وذُرِّيَّةُ السيِّدَتَيْنِ المُقَدَّمَتَيْنِ المذكورتَيْنِ . من آبْنَي العَمِّ لأبيهما ، أعني والدي وعمِّي ، رحمهما اللهُ ، ورضيَ عنهما » . انتهى .

قلتُ : وسببُ غَلَطِهِمْ في هذا الأمرِ . عدمُ وقوفهم على حياتِهِ بالمعنى الصحيحِ ، والاختصاصِ الصَّريحِ ، ولعلَّ في كلامِ الشيخِ الجليلِ أحمدَ القليوبيِّ الشافعيِّ في كتابه « تحفة الرَّاغب »[٢] بلاغاً لمن تدبَّرَ ، فإنَّهُ قال :

« ولا يخفى عليكَ : أنَّ المؤرِّخينَ منَ الأدباءِ والعلماءِ ورجالِ الطَّبقاتِ . على قسمينِ :

الأوَّلُ منهم : وهمُ الأدباءُ ، قِسْمٌ صَرَفَ هِمَّتَهُ لِسَرْدِ حوادثِ الملوكِ والحروبِ والوقائعِ ، معَ دَرْجِ اللطائفِ الأدبيَّةِ ، والفُكَاهةِ الشِّعريَّةِ ، فأهملَ حقوقَ مثلِ هذا السيِّدِ الجليلِ ، واختصرَ ترجمتَهُ ، فقال :

وفي سنةِ كذا مات فلان . وتكلَّفَ كُلَّ التكلُّفِ فكتبَ بشأنه سطراً أو سطرين ، ورَجَعَ لِما هو عليه من طريقتِهِ التي ذكرناها .

---

(١) ص (٥٩) .

(٢) انظر « التاريخ الأوحد » ص (٢٩ و ٣٣ ـ ٣٤) ، للسيِّدِ الجليلِ محمد أبي الهدى الصيَّاديِّ ، رحمَةُ اللهِ عليه

والثاني : وهمُ العُلماءُ ، منهم على الغالبِ متى أتَوا بذكرِ شيخٍ منَ الزُّهّادِ والصُّوفيةِ . . أعيَتْهُمُ الحِيَلُ ، وحاروا! فتارةً يمدحون ، وتارةً يعترضون ، ويريدون الإطالةَ ويمنعُهُمُ التَّعَصُّبُ لمذهبِهم ومَشْرَبِهم ، وإذا اقتصروا . . سُدَّ بابُ الفائدةِ .

فترى تراجمَ الشيوخِ الكاملينَ مذكورةً في التواريخِ والطَّبقاتِ ولكنْ كأنها لم تُذكرْ بسببِ هاتَيْنِ العِلَّتَيْنِ البَارِدَتَيْنِ (١) .

/ ولذلك فما بقيَ للوقوفِ على حقائقِ أنسابِهم وأحسابِهم ومذاهبِهم ومشاربِهم . . إلاّ مطالعةُ كتُبِهم وآثارِهم ، والكُتُبِ التي ألَّفَها بشأنِهم جماعةٌ مِنْ كُمَّلِ أتباعِهم وأنصارِهم » . انتهى .

كَرَامَاتُهُ :

قال سِبطُهُ الفَرْدُ المُقَدَّمُ ، مولانا الجَدُّ السيِّدُ عِزُّ الدِّينِ أحمدُ الصيَّادُ ـ رضي الله عنه ـ في كتابه « المعارف »(٢) عند ذِكرِها . . ما نصُّه :

« وأمّا ما منَّ اللهُ به عليه مِنْ قَلْبِ الأعيان ، وَخَرْقِ العادةِ ، وسَرَيانِ السِّرِّ فيه وباسمِهِ أيضاً . . فهو شائعٌ مشهورٌ ، متواترٌ على ألسُنِ العربِ والعجمِ ، وفي الهندِ والعراقِ والحجازِ والدَّيلم :

وليسَ يَصِحُّ في الأذهانِ شيءٌ ... إذا احْتَاجَ النَّهارُ إلى دَليلِ

---

(١) كقولِ ابنِ خَلِّكان في « وَفَياتِ الأعيان » ١ : ١٧٢ عند ذكر عقِبِ السَّادةِ الرِّفاعية رضي اللهُ تعالى عنهم :

« وأمورُهُم مشهورةٌ مستفيضة ، فلا حاجةَ إلى الإطالةِ فيها! » .

(٢) ص (٥٩) .

وسيّدُ كراماتِهِ . تقبيلُ يَدِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فقد أُفعِمَتْ بها بطونُ الدفاترِ ، ورَعَفَتْ بها ألسنُ الأقلامِ ، وسالتْ بها دموعُ المحابرِ ، سارتْ بها الرُّكبانُ ، وتواترَ خبرُها في البُلدان[١] .

ومِنْ أبرعِ كراماتِهِ . كلماتُهُ الممزوجَةُ بعُذوبةِ لسانِ النُّبوَّةِ ، القائمةُ بالإعجازِ لعجائبِ ما فيها من حُسْنِ الانسجامِ ورِقَّةِ المعنى وحُسْنِ البيانِ » . انتهى .

أقولُ : إنَّ تقبيلَ الإمامِ الرِّفاعيِّ السيِّدِ أحمدَ ـ رضي اللهُ عنه ـ يَدَ جَدِّهِ سنةَ خمسٍ وخمسينَ وخمسِ مئةٍ (٥٥٥ هـ) . تواتر ذكرُها ، واشتهرَ أمرُها ، وبلغَتْ مبْلَغَ القَطْعِ البَتِّ .

ولم يمتَرِ فيها إلاّ مَنْ أحالَها على العقلِ ، واستبعدَ وقوعَها وتَصَوُّرَ حدوثِها ، واستعجزَ قُدْرَةَ اللهِ تعالى .

ولقد طلبَ لها المنكرون أسانيدَ كأسانيدِ الحديثِ الشريفِ ، ولم يفرقوا بينهَا وبينَهُ ؛ لأنَّ الحديثَ كلامُ المصطفى صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وفيه التشريعُ والأحكامُ والأعمالُ الزائدةُ ، وإحداثُ الشيءِ في الدِّين الذي لم يكنْ ليكونَ إلاّ من طريقه صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

أمّا قِصّةُ مَدِّ اليَدِ النبويةِ للسيدِ أحمدَ ، فهيَ حادثةٌ تاريخيّةٌ ، وواقعةٌ زمانيةٌ ، لا يُشترطُ لها ما يُشتَرطُ للحديثِ الشريفِ ، فلها مَنْ يُصَدِّقُها ،

---

(١) للوقوف على قصةِ مدِّ اليَدِ النبويةِ الشريفةِ لمولانا السيدِ الكبيرِ أحمدَ الرفاعي رضي اللهُ عنه . عليك بكتاب « الكنز المطلسم » ، للسيد محمد أبي الهدى الصيادي رحمة الله عليه ، بتحقيقنا ، ففيه الوفاءُ بهذا الأمر .

ويُوجد مَنْ يُنكِرُها ، ولم تُؤثَرْ عنْ غيرِهِ رضي الله عنه .

وقد أَلَّفَ بشأنِها كثيرٌ من أهلِ العِلْمِ والفضلِ والصَّلاحِ والوِلايةِ ، وناهيكَ منهم بالإمامِ الحافظِ العِزِّ الفَارُوثيِّ ، أحمدَ بنِ إبراهيمَ بنِ عمرَ .

ترجَمَ له الإمامُ السُّبكيُّ وغيرُهُ[١] ، ونوَّهَ بذكرِهِ ، ورفَعَ من شأنِهِ ، وأشارَ إلى فضلِهِ وعلمِهِ وزُهدِهِ وورَعِهِ .

فقد ذكرَ القصةَ في كتابه « إرشاد المسلمين » ، ورسالتِهِ « النفحة المِسْكيّةِ » ، ونصَّ على وقوعِها ، وذكرَ أنه شاهدَ خمسةَ رجالٍ ممَّنْ رأَوْا اليَدَ النبويَّةَ يومَ أنْ مُدَّتْ للسيِّدِ أحمدَ ، وذكرَ مَنْ حضرَها مِنْ أهلِ العِلْمِ والطَّريقةِ .

وقد جمعَ مصادرَها واستوعبَها في مؤلَّفٍ . . مولانا العلامةُ السيدُ محمدُ أبو الهدى الصياديُّ في كتابه النافعِ « الكنز المطلسم » .

فَمَنْ طالعَ الكتابَ المذكورَ ، وقرأَهُ بإنصافٍ دون اعتسافٍ . . يعلمُ أنَّ لهذه الواقعةِ واقعاً وُجِدَ وكانَ ، ونقلَهُ الأئمَّةُ الأعيانُ ، واستودعوهُ في تواليفهم لِمَنْ بعدَهم من أهلِ الإيمانِ والإذعانِ .

قال الحافظُ العِزُّ الفارُوثيُّ في كتابه « إرشاد المسلمين »[٢] عند ذِكرِها . . ما نصُّه :

« ولا زالَ ـ رضي الله عنه ـ ينشُرُ كلمةَ الحقِّ ، ويعِظُ الأُمَّةَ ، وينوبُ عنِ

---

(١) في « طبقاته » ٨ : ٦ ـ ١٥ .

(٢) ص (٣٣ ـ ٣٥) .

النبيِّ ـ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ بإحياءِ السُّنَّةِ ، ويُنهِضُ هِمَمَ السَّالكين إلى اللهِ . حتى جاءَتْ سنةُ خمسٍ وخمسينَ وخمسِ مئةٍ .

وكان في جماعةٍ من أعاظِمِ أولياءِ العصرِ ، كانوا مجتمعين عندَه في زيارته ، وقد خرَجَ بهم إلى شاطىءِ نهرِ دَقْلَىٰ ، وجلسوا جميعاً يتحادثونَ بغرائبِ الأسرارِ الإلهيّةِ .

وفي ذلك المجلسِ . . صاحَ السيّدُ أحمدُ : اللهُ! .

ثُمَّ قامَ وجلسَ مُصْفَرَّ اللَّونِ ، غائباً عَنْ نَفْسِهِ زماناً طويلاً ، فلمّا حَضَرَ . . سألُوه عن الوارِدِ السَّماويِّ الذي ظَهَرَ له ؟ فقال :

نُوديتُ مِنَ العُلَىٰ : أنْ يا أحمدُ! قُمْ وَزُرْ جَدَّكَ المصطفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ . . فإنَّ هُناكَ أمانةً يُؤدِّيها إليكَ ، وخُذْ مَعَكَ مَنْ شئتَ .

والتفتَ بعدَ هذا إلى الحاضرين ، وقال : ما قولُكم في هذه الإشارةِ ؟

فقام رجلٌ منهم[١] ، وقال :

مُـرْ كُـلَّ أمـرٍ فـإنّـا لا نُخـالِفُـهُ   وَخُـذْ حَـذاً فـإنّـا عِنْـدَهُ نَقِـفُ

فقام مِنْ مجلسِه ، وقامَ معَه الجماعةُ ، وجاءَ إلى رِباطِهِ السَّعيدِ ، واشتغلَ بالتهيُّؤِ إلى السفرِ إلى الحجازِ .

فتهيّـأَ معَـه خَلْـقٌ لا يُحْصَـوْنَ لكثـرتِهـم ، وغُصَّـتْ صَحـارى واسـطَ بالقوافِلِ .

حَدَّثني الشيخُ الصَّالحُ الثّقةُ أبو المُظَفَّرِ بنُ الشيخِ عليٍّ الطبري ، عن

---

(١) وهو السيدُ عبدُ الرزّاقِ الحُسينيُّ ، كما في « ترياق المحبين » ص (١٢)

الشيخِ ماهانَ أبي الفتحِ العباداني ، خادمِ سيدِنا السيِّدِ أحمدَ رضي اللهُ عنه ، قال :

مِنْ حينِ خرجْنا مِنْ أُمِّ عَبِيدَةَ إلى أن صَعِدْنَا جَبَلَ عَرَفَاتٍ ودَخَلْنَا الحَرَمَ المُبارَكَ المَكِّيَّ ، والحَرَمَ الشَّرِيفَ النَّبوِيَّ ، لم أرَ سيِّدي السيِّدَ أحمدَ أكَلَ طعاماً ، ولا هجَعَ الليلَ ، ولا رأيتُهُ قَعَدَ للخَلاءِ ، فقلتُ له في ذلك ؟ فقال :

أي ولدي! باركَ اللهُ بكَ! أُكْتُمْ ما أراكَ اللهُ ، ولا تَقُلْ لأحدٍ .

أي ماهان! لو أكلتُ . . لأعياني الأكلُ ، وقد حماني رَبِّي بفضلِهِ وكرَمِهِ ، وتلا قولَهُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ ، الآيةَ .

وكان وَجْهُهُ الشريفُ يتهلَّلُ بالنُّورِ ، ولم يُغَيِّرْهُ الجُوعُ ، فعجِبْتُ في سِرِّي لهذا الأمرِ ، فكُوشِفَ بما في سِرِّي ، فقال :

أي حاج ماهان! لا تعجَبْ! فإني بشرٌ ضعيفٌ ، واللهُ ـ تعالى ـ مِنْ كَرَمِهِ يُسْعِفُ الضُّعفاءَ ، ويُصَبِّرُهُم ، وهو لهم سُبحانَه[1] .

---

(١) قال الشيخُ الجليلُ التاجُ السُّبكيُّ في « طبقاته » ٨ : ٨ ما نصُّه :

« وأخبرنا أبو عبدِ اللهِ الحافظُ إذْناً خاصّاً : أنَّ علاءَ الدِّين الكِنْدِيَّ ذكرَ له : أنَّ الشيخَ عِزَّ الدِّين الفَارُوثِيَّ شاهَدَ بالعراقِ رجلاً مَكَثَ سنين لا يأكُلُ ولا يَشْرَبُ .

قال شيخُنا أبو عبدِ اللهِ : وقد حدَّثني عددٌ أثِقُ بهم : أنَّ امرأةً كانت بالأنْدَلُسِ بَقِيَتْ نحواً من عِشرينَ سنةً لا تأكُلُ شيئاً ، وأمرُها مشهورٌ

ذكرَ شيخُنا ذلك في ترجمةِ أبي العبّاس عيسى بن محمد بن عيسى الطَّهْمانِيِّ اللُّغَوِيِّ ، وقد أوردَ ما ذكره الحاكمُ أبو عبد اللهِ الحافظُ في « تاريخ نَيْسَابُور » : مِن أنه سَمِعَ أبا زكريا العَنْبَرِيَّ يقولُ :

وكان جَدِّي الإمامُ الفقيهُ أبو الفَرَجِ عمرُ الفَارُوثيُّ مِنْ حُجّاجِ ذلك العامِ .

أخبرني أبي الحافظُ مُحيي الدِّين أبو إسحاقَ إبراهيمُ ، عن أبيهِ الشيخِ عمرَ أنه قالَ له :

كنتُ معَ سيِّدنا وَمَفْزَعِنَا وشيخِنا السيِّدِ أحمدَ الكبيرِ الرِّفاعيِّ الحُسينيِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ عامَ حَجِّه الأوَّلِ ، وذلك سنةَ خمسٍ وخمسينَ وخمسِ مئةٍ ، وقد دَخَلَ المدينةَ المنوَّرَةَ يومَ دخولِهِ إليها قوافلُ الزُّوَّارِ منَ الشامِ والعراقِ واليمنِ والمغربِ والحجازِ وبلادِ العجمِ ، وقد زادوا عن تسعينَ ألفاً .

فلمّا أشرَفَ على المدينةِ المنوَّرَةِ . ترجَّلَ عن مَطِيَّتِهِ ، ومشىٰ حافياً إلى أن وصَلَ الحَرَمَ الشريفَ المحمديَّ ، ولا زالَ حتى وقفَ تُجاهَ الحُجْرَةِ العَطِرَةِ النبويَّةِ ، فقالَ :

السَّلامُ عليكَ يا جَدِّي . فقالَ لهُ ـ عليه أفضلُ الصَّلَواتِ وأزكى التسليماتِ ـ : وعليكَ السَّلامُ يا ولدي .

سمعَ كلامَهُ الشريفَ كُلُّ مَنْ في الحَرَمِ النبويِّ .

فتواجَدَ لهذه المِنْحَةِ العظيمةِ ، والنِّعمةِ الكبرىٰ ، وحَنَّ ، وأَنَّ ، وبكىٰ ، وجَثَا على رُكْبَتَيْهِ مرتعِداً ، ثم قامَ وقالَ ـ غائباً عن نَفْسِهِ ، حاضراً معَ أُنْسِهِ ـ :

= سمعتُ أبا العبّاس ، فذكَرَ قصةَ المرأةِ التي لا تأكُلُ ولا تشرَبُ » . انتهى .

قلتُ . وساقَ الإمامُ السُّبكيُّ قِصَّتَها كما وردتْ في « تاريخ » الحاكم ، فارجع إليها إذا شئتَ .

فِي حَالَةِ البُعْدِ رُوحِي كُنْتُ أُرْسِلُهَا   تُقَبِّلُ الأَرْضَ عَنِّي وَهْيَ نَائِبَتِي
وَهَذِهِ دَوْلَةُ الأَشْبَاحِ قَدْ حَضَرَتْ   فَامْدُدْ يَمِينَكَ كَيْ تَحْظَى بِهَا شَفَتِي

* * *

فَمَدَّ لَه رسولُ اللهِ ـ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ يَدَهُ الشَّرِيفةَ النُّورانيَّةَ مِنْ قبرِهِ الأزهَرِ الكريمِ ، فقبَّلَها والناسُ ينظُرون .

وقد كان في الحرمِ الشريفِ الأُلوفُ حينَ خُروجِ اليَدِ الطَّاهرةِ المحمديَّةِ .

وكان مِنْ أكابِرِ العصرِ فيمَنْ حضَرَ : الشيخُ حياةُ بنُ قيسٍ الحَرَّانيُّ ، والشيخُ عَدِيُّ بنُ مسافرٍ ، والشيخُ عقيلُ المَنْبِجيُّ .

وهؤلاءِ الثلاثةُ . لَبِسُوا خِرْقَةَ السيِّدِ أحمدَ ـ رضي اللهُ عنه وعنهم ـ بذلك اليومِ ، واندرجوا بِسِلْكِ أتباعِهِ .

وكان فيمَنْ حضَرَ : الشيخُ أحمدُ الكبيرُ الزَّعفرانيُّ ، والشيخُ عبدُ القادرِ الجِيلانيُّ ، والشيخُ أحمدُ الزَّاهدُ الأنصاريُّ ، والشيخُ شَرَفُ الدِّينِ أبو طالب بنُ عبدِ السميعِ الهاشميُّ العباسيُّ ، وخلائقُ .

وكُلُّهم تَبَرَّكُوا وتشرَّفوا برؤيا اليَدِ المحمديَّةِ بِبَرَكَتِهِ رضي اللهُ عنه ، وبايعوه هم ومَنْ حَضَرَ على المشيخةِ عليهم وعلى أتباعهم ، رحمَهُمُ اللهُ تعالى » . انتهى .

قلتُ : قال العِزُّ في « النفحة »[1] عند ذكرِها : « وقد أدركتُ ـ بحمدِ اللهِ ـ

---

(١) ص (٢٨٩)

خمسةَ رجالٍ من حُجّاجِ ذلكَ العامِ ، ومِنَ الذين تشرَّفوا بذلكَ المشهدِ الكريمِ ، نفعنا اللهُ بهم » . انتهى .

أقول : ذكرَهم بأسمائهم في « الإرشاد »[١] فقال :

« ومِنْ نِعَمِ اللهِ عليَّ : أنَّ والدي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ توجَّهَ من الفَارُوثِ سنةَ اثنين وعِشرين وسِتِّ مئةٍ إلى أمِّ عَبِيْدَةَ ، وعُمْري يومئذٍ ثمان سنين .

فحمَلَني معَه للزِّيارةِ والتشرُّفِ بالموسمِ الأحمديِّ ، فدخلنا أُمَّ عَبِيْدَةَ في خلافةِ شيخِنا ومولانا السيِّدِ شمسِ الدِّينِ محمدِ الرِّفاعيِّ ، سِبْطِ النَّفْسِ النَّفيسةِ الرِّفاعية .

فأفرَدَ لوالدي غُرْفَةً في الرِّوَاق ، وقد ضربَ الوفُودُ والمُحِبُّون الأخصاصَ[٢] والخيامَ حولَ أُمِّ عَبِيْدَةَ ، وقد امتلأَتِ الصَّحارىٰ والبلادُ والنَّواحي منَ الزُّوَّارِ .

ففي يومِ الجمعة . . فتحوا قُبَّةَ المشهدِ الشَّريفِ الأحمديِّ ، وجاءَ الناسُ ألوفاً ألوفاً للزِّيارةِ .

فأخذَ أبي بيدي ، ووقَفْنا ، وإذا بشيخٍ كبيرِ السِّنِّ ، جليلِ القَدْرِ ، فحملَني والدي إليه ، وقبَّلَ والدي يَدَهُ ، وأمرني فقبَّلْتُ يَدَهُ ، وسأله لي وله الدُّعاءَ ، فدعا لنا ومشىٰ .

فقال لي والدي هذا الشيخُ : أحمدُ بنُ عبدِ المحمود الرَّبْعيُّ ، هو مِنَ

---

(١) ص (٣٥ ـ ٣٦) .

(٢) جمعُ : خُصٍّ ، وهو البيتُ منَ القَصَبِ ، « مختار الصَّحاح » ص (١٧٧) ، مادة : « خصص » .

الذين كانوا عامَ مُدّتْ يَدُ النبيِّ ـ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ ـ للسيّدِ أحمدَ الرّفاعيِّ رضي الله عنه ، ورآها فيمَنْ تشرّفَ برؤيتِها .

وبعدَ قليلٍ . . جاءَ شيخٌ آخرُ ، ففعلَ والدي كما فعلَ أوّلاً ، وقبّلَ يَدَهُ ، وأمرَني بتقبيلِ يدِهِ ، وبعدَ انصرافِهِ للزّيارةِ ، قالَ لي :

وهذا مِنْ حُجّاجِ عامِ مَدِّ اليدِ ، وهو الشيخُ ، مُبَارَكُ بنُ جعفرٍ الأُونيوي .

وبعدَ قليلٍ . . جاءَ شيخٌ آخرُ ، ففعَلَ والدي كالأوّلِ ، وبعدَ ذهابِهِ قال لي : وهذا مِنْ حُجّاجِ عامِ مَدِّ اليدِ ، وهو الشيخُ : عبدُ الرّحمنِ بنُ علي الأُصيبنيُّ .

ثم جاء رجلٌ آخرُ ، ففعَلَ والدي كالأوّلِ ، وبعدَ ذَهَابِهِ قال لي : وهذا من أولئك ، وهو الحاجُّ : رمضانُ بنُ عبدِ البَرِّ بنِ عبدَوَيْهِ .

ثم جاءَ رجلٌ آخرُ فقبّلَ يَدَهُ ، وفَعَلَ كما فَعَلَ بالأوّلِ ، وبعدَ ذهابِهِ للزّيارةِ قالَ لي : وهذا منهم ، وهو الشيخُ الجليلُ : عبدُ المحسنِ الأنصاريُّ الواسطيُّ رضي الله عنهم .

ورأيتُ الناسَ يزدحمونَ على كُلِّ واحدٍ منهم ، ويُقَبِّلُونَ يَدَهُ وقَدَمَيْهِ ، ويعلو النَّحيبُ والبُكاءُ منَ الجميعِ ، وذلكَ لِتَذْكَارِ عهدِ اليَدِ الشّريفَةِ وَمَنْ مُدّتْ له ، رضي اللهُ عنه .

أَمُــرُّ بِقِيْعَــانِ الحِمَــىٰ بَعْــدَ أَهْلِهَــا   أُعَفِّــرُ شَيْبِــي بَــاكِيــاً بِثَــرَاهُــمُ
وَأَطْــرُقُ أَطْــرَافَ الطَّــرِيْــقِ مُــوَلَّهــاً   لَعَلِّــي أَرَاهُــمْ أَوْ أَرَىٰ مَــنْ رَآهُــمُ

* * *

سَلامُ اللهِ ورضوانُهُ على هذا السَّيِّدِ الأصيلِ ، الذي نَصَبَهُ اللهُ نائباً عن جَدِّهِ صاحبِ جبريلَ ، عليهِ صلواتُ المَلِكِ الجليلِ .

وقد خضَعَ بعدَ هذه العنايةِ المحمديَّةِ للحضرةِ الرِّفاعيَّةِ رِقابُ القومِ ، وصارَ بابُهُ مُستمَدَّ أكابِرِهم مِنْ عهدِهِ الشَّريفِ إلى اليومِ .

ولا بَرِحَتْ هذه النِّعمةُ هاطلةً ، والعنايةُ متواصلةً .

وقد عوَّلَ عليه رجالُ عصرِهِ ، واندرجوا في مقامِ التربيةِ تحتَ سَطْوَةِ نَهْيِهِ وأَمْرِهِ .

فهم أتباعُهُ في العَقْدِ والحَلِّ ، وهو شيخُهم بل وشيخُ الكُلِّ في الكُلِّ :

كَتَبَتْ يَدُ الإِحْسَانِ رُقْعَةَ عَهْدِهِ ... بِمِدَادِ بُرْهَانٍ جَلِيٍّ لَمْ يَزَلْ

أَبَدِيَّةٌ تِلْكَ السَّعَادَةُ ، كَوْنُهَا ... قَامَتْ بِإِحْسَانِ القَدِيمِ مِنَ الأَزَلْ »

* * *

وقال شيخُ الإسلامِ السيِّدُ محمد سراجُ الدِّين الرِّفاعيُّ الحُسينيُّ ثم المخزوميُّ ـ رضي اللهُ عنه ـ في كتابه « صَحاح الأخبار »[1] .. ما هو بحروفِهِ :

« وأما كراماتُهُ رضي اللهُ عنه .. فأعظمُها مَدُّ يَدِ النبيِّ ـ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ جِهاراً على رؤوسِ الأشهادِ ، وكلامُهُ معه والناسُ ينظرونَ ويسمعون .

ومن كراماتِهِ العليَّةِ .. ما رواه الجَمُّ الغفيرُ مِنَ السَّلفِ الصَّالحِ ، ونقَلَهُ

---

(١) ص (١٣٧ ـ ١٣٨) .

الثِّقاتُ الأثباتُ في كتبٍ كثيرةٍ ، وهو : أنَّ السيِّدَ أحمدَ ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ كان على شاطئِ نهرِ أُمِّ عَبِيْدَةَ مع جَمٍّ غفيرٍ من أصحابِهِ ، فقال :

نشتهي اليومَ أنْ نأكُلَ سَمَكاً . فما تَمَّ كلامُهُ حتى خرجَ إلى شاطئِ النهرِ منَ الأسماكِ ما لم يُرَ مثلُهُ قبلَ ذلكَ اليومِ .

فأخَذَهُ الفقراءُ ، وشَوَوْهُ ، وأكلوا حتى شَبِعُوا ، وبقيَ منْ هذه السمكةِ رأسُها ، ومنْ هذهِ بعضُها ، فقالَ بعضُ أصحابِهِ :

أي سيِّدي! ما علامةُ الرَّجلِ المُتَمَكِّنِ ؟ .

قال : علامَتُهُ أنْ يقولَ لهذه الأسماكِ التي في الطواجنِ : قُومِي وآسْعَيْ بإذنِ اللهِ ، فتقومُ وتسعى .

ثم آلتفَتَ إلى الطواجنِ ، وأشارَ إلى بقيَّةِ الأسماكِ ، وقال : أيَّتُها العِظَامُ! عُودي كما كنتِ بإذنِ اللهِ تعالى .

فوثَبَتِ الأسماكُ صحيحةً حيَّةً كما كانتْ ، وذهبتْ في الماءِ من حيثُ أتَتْ .

قالَ الإمامُ عبدُ الكريمِ الرافعيُّ حينَ ذَكَرَ هذه المَنْقَبَةَ : ولا يخفى ما في هذه الكرامةِ منَ المُشابهةِ الجليلةِ بمعجزةِ عيسى عليه السلامُ .

والقاعدةُ المُقَرَّرَةُ عندَ العُلماءِ : ما جازَ أنْ يكونَ معجزةً لنبيٍّ . جازَ أنْ يكونَ كرامةً لِوَلِيٍّ ، كما هو معلومٌ . انتهى .

قال شيخُنا الإمامُ عبدُ الكريمِ الرافعيُّ القَزوينيُّ ، وشيخُنا الإمامُ الجليلُ سلطانُ المُحَدِّثين الشيخُ عِزُّ الدِّين أحمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ عمرَ الفَارُوثيُّ

الكَازَرُونيُّ ، وشيخُنا الحافظُ تقيُّ الدِّينِ الواسطيُّ ، وجماعةٌ يُعَوَّلُ في النقولِ الدِّينيَّةِ عليهم ، ويرجعُ في الأصولِ الشرعيَّةِ إليهم :

بلغَتْ كراماتُ السيِّدِ أحمدَ الرِّفاعيِّ وولايتُهُ وصِحَّةُ طريقِهِ وَفَرْدَانِيَّتُهُ في وقتِهِ مَبْلَغَ القَطْعِ ، وثبتَتْ بالتواترِ البَتِّ ، نقلَها السَّلَفُ عنِ الخَلَفِ ، وهي مُستفيضةٌ لا يَمتري فيها غيرُ الممقوتين ، ولم يبلغْ وليٌّ منَ الأولياءِ هذا المَبْلَغَ ، واللهُ أعلمُ .

قلتُ : أنا أقولُ بذلك كذلك ، وأقول فوقَ ذلكَ :

عَلَى ضَوْءِ النَّهارِ لَنَا دليلٌ وفوقَ دليلِنَا ضَوْءُ النَّهارِ

أقولُ : وليسَ هذا المحلُّ مكانَ بَسْطِها والإشارةِ إلى جُمَلِها ، والمُوَفَّقُ المؤمنُ يَقْنَعُ بواحدةٍ ، والجاحِدُ المُنْكِرُ لا يُؤمنُ بِكُلِّ واحدةٍ منها ولو جاءتهم حتى تُصيبَهُ منَ اللهِ غفلةٌ ، ويَلْحَقَهُ طَرْدٌ وَبُعْدٌ منه ، نعوذُ باللهِ من ذلك .

وَفَاتُهُ :

قال سِبْطُهُ السيِّدُ الصَّيَّادُ في « معارفِهِ »[١] : « تُوفِّيَ سيِّدُنا ومولانا المُشارُ إليه ، رضوانُ اللهِ عليه : سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وخمسِ مئةٍ بـ أُمِّ عَبِيْدَةَ ، وكان آخرُ كلامِهِ . لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، محمدٌ رسولُ اللهِ ، صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وَدُفِنَ بمرقَدِهِ السعيدِ في رِوَاقِهِ المُبارَكِ بِقُبَّةِ جَدِّهِ لأُمِّهِ الشيخِ الأعظمِ

(١) ص (٦٤) .

يحيى النَّجاريّ الأنصاريّ ـ رضي اللهُ عنه ـ مُحاذِياً له ، إلاّ أنَّ رأسَ قبرِه المُبارَكِ ، يَسْبِقُ قبرَ جَدِّهِ نحوَ البابِ بمقدارِ ذِراعٍ إجلالاً لمقامِهِ ، نفعَنا اللهُ بهم أجمعين » . انتهى .

وقال شيخُ الإسلامِ السيِّدُ السِّراجُ ـ رضي اللهُ عنه ـ في « صَحاحه »[1] :

« وَتُوفِّيَ ـ رضي اللهُ عنه ـ يومَ الخميسِ ، الثاني والعِشرينَ مِنْ جُمادَى الأُولى ، سنةَ ثمانٍ وسبعينَ وخمسِ مئةٍ ، ببلدةِ أُمِّ عَبِيْدَةَ . . . وله مِنَ العُمْرِ سِتٌّ وسِتُّونَ سَنَةً وأشهرٌ » .

وقال أبو الحَسَنِ الواسطيُّ في « الخلاصةِ »[2] : « . . . وله منَ العمرِ ستٌّ وستُّونَ سنةً ، وسِتَّةُ أشهرٍ » .

قلتُ : فقولُ الإمامِ الشعرانيِّ في « طبقاتِهِ »[3] : « تُوفي سنةَ سبعينَ و . مئةٍ » .

وقولُ الإمامِ الذهبيِّ في « دول الإسلامِ »[4] : « وقد قارب الثمانين » . . ليس فيه منَ الصِّحَّةِ شيءٌ ، وإنما الصوابُ ما ذكرتُهُ لكَ ، والحقُّ ما سطَّرْتُهُ في هذه الترجمةِ المُباركةِ ، واللهُ أعلمُ .

قال الإمامُ الحافظُ في « ترياق المحبين »[5] : « كنتُ في دمشقَ أقرأُ

---

(١) ص (١٣٨ ـ ١٣٩) .

(٢) ص (٦٩) .

(٣) ص (٢١٣) .

(٤) ٢ : ٨٤ .

(٥) ص (٣٧) .

الوعظَ في جامِعِها ، فذكرتُ السيِّدَ أحمدَ الرِّفاعيَّ رضي اللهُ عنه ، فقامَ رجلٌ من أهلِ دمشقَ وقال :

كم كانَ عُمُرُ السيِّدِ أحمدَ ؟ يعني : كم عاشَ منَ السِّنين ، فقلتُ : عُمُرُهُ.. شُغْلُهُ مُدَّةَ عُمُرِهِ .

فأشْكَلَ عليهِ ، فقال . وما شُغْلُهُ مُدَّةَ عُمُرِهِ ؟ فقلتُ : اللهُ . فَفَطِنَ لها بعضُ الحاضرين ، وأحْصَوْها بِعَدَدِ أبجد ، فَعَرَفُوا أنَّ عُمُرَهُ : سِتٌّ وسِتُّون سَنَةً .

وقد رَثاهُ يومَ وفاتِهِ الشعراءُ والعلماءُ ، وأكثرُوا حتَّى بلغتْ مراثيهِ إلى ألفِ قصيدةٍ ، جمعَهَا بعضُ مُحِبِّيهِ في ثلاثِ مُجَلَّدَاتٍ .

منها : ما قاله حينَ لَحْدِهِ شاعرُ الرِّوَاقِ الأحمديِّ ، نجمُ الدِّينِ أبو الغنائمِ الواسطيُّ ، وهي هذه القصيدةُ الفريدةُ .

تَنَصَّلَ طَوْرُ العَصْرِ مِنْ رَوْنَقِ الشَّكْلِ ... وَدُكَّ ضُحَىً طَوْدِ المَكَارِمِ وَالفَضْلِ
وَكُوِّرَتِ الشَّمْسُ المُنِيْرَةُ في الثَّرَىٰ ... وَحُلَّتْ عُرَىٰ العِرْفانِ وَالعَقْدِ وَالحَلِّ
وَقَدْ خُسِفَ البَدْرُ الَّذي عِنْدَ بُرْجِهِ ... مَوَاقِعُ زُهْرِ الأُفْقِ كَالهَامِ وَالرِّجْلِ
وأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا وَحَلَّ بِأَهْلِهَا ... مُصَابٌ، طَوَىٰ جَمْرَ التَّلَهُّفِ في الكُلِّ
قَضَىٰ نَخْبَةُ الفَرْدُ الرِّفَاعِيُّ أَحْمَدُ ... سِرَاجُ بِلَادِ اللهِ في الوَعْرِ والسَّهْلِ
سَلِيْلُ رَسولِ اللهِ إِبْنُ آبْنِ عَمِّهِ ... أَبُو العَلَمَيْنِ الطَّيِّبُ القَوْلِ والفِعْلِ
إمامُ الهُدَىٰ شيخُ الطَّرائِقِ ، قُطْبُهَا ... سَحَابُ النَّدَىٰ بحرُ العَوَارِفِ وَالبَذْلِ
بَقِيَّةُ فرعِ أكرَمَ الخَلْقُ أصْلَهُ ... فَأَكْرِمْ بِفَرْعٍ نابَ فينا عنِ الأصلِ!

وَجَدَّدَ أمرَ الدِّينِ أعلى دِعَامَةَ الـ ... ـشَّريعةِ ، أحيا بِالتُّقَى رُمَّةَ النَّقْلِ
وأوضَحَ أسرارَ السُّلوكِ، وقَدْ مَحَا الـ ... ـشُّكُوكَ بِعِرْفانٍ ثَوَىٰ سِدْرَةَ العقلِ
على فَتْرَةٍ حَيًّا فَأَحْيَا كما الحَيَا ... قُلوباً عَفَتْ بالإنكِسارِ وَبالذُّلِّ
هَوَتْ قُبَّةُ الإحسانِ يومَ وفاتِهِ ... وَكَبْكَبَةُ العَلْيَا مُمَزَّقَةُ الشَّمْلِ
وَمُقْلَةُ دِينِ اللهِ حُزْناً بكَتْ دَماً ... لِصَمْصَامِ عِلْمٍ قَدَّ سِلْسِلَةَ الجَهْلِ
وأُمُّ العُلَىٰ الثَّكْلَىٰ تُحَاوِلُ مِثْلَهُ ... وَقَدْ عَقِمَتْ أُمُّ الزَّمانِ عنِ المِثْلِ
يَدٌ كانَ للرحمنِ قَبْضَةُ عَهْدِهَا ... متىٰ انْبَسَطَتْ فَالوابِلُ انْهَلَّ بِالطَّلِّ
وَجُودٌ وأخلاقٌ عِظَامٌ وَحِكْمَةٌ ... وَدِينٌ بِحَبْلِ اللهِ مُتَّصِلُ الحَبْلِ
وَصِدْقٌ وَصَبْرٌ خالِصٌ وتواضُعٌ ... وَزُهْدُ ذوي الأغراضِ عنْ موطىءِ النَّعْلِ
وَسَيْرٌ على إثْرِ الرَّسولِ وَسِيْرَةٌ ... تُنَالُ بِها القُرْبَىٰ مِنَ الحَكَمِ العَدْلِ
وَعَزْمٌ حُسَيْنِيُّ الوَحَا وعزيمةٌ ... يُزَلْزِلُ رَضْوَىٰ، وَهْيَ ثابِتَةُ الشَّكْلِ(١)
وعقلٌ له رأيٌ يُديرُ رَحَى الوَرَىٰ ... وصدرٌ غدا أنقىٰ ضميراً مِنَ الطِّفْلِ
وبأسٌ لَدَيْهِ الأُسْدُ صَرْعَىٰ ، وَهِمَّةٌ ... بِها قامَ زَرْعُ الخيرِ للخَصْمِ والخِلِّ
وفَتْحٌ بِلا شَطْحٍ وَجِدٌّ بِلا هَوَىً ... وَفِعْلٌ بِلا قولٍ ووصْلٌ بِلا فَصْلِ
وَوَجْهٌ بِهِ نُسْقَىٰ الغَمامَ ، وَنِيَّةٌ ... لقدْ عَدَلَتْ إلاَّ عنِ الحقِّ والعَدْلِ
وَذِكْرٌ بألواحِ المَعالي مُخَلَّدٌ ... ووعظٌ على الألبابِ أمضىٰ مِنَ النَّصْلِ(٢)

---

(١) رَضْوَىٰ : جبلٌ بالمدينة ، « مختار الصّحاح » ص (٢٤٦) ، مادة : « رضى » .

(٢) النَّصْلُ : نصلُ السَّهمِ والسَّيفِ والسِّكِّين والرُّمح ، « مختار الصّحاح » ص (٦٦٣) ، مادة : « نصل » .

وأنـوارُ بُـرهـانٍ وعِـزُّ خـوارِقٍ ... بِها وافقَ المَدَّاحَ ذُو الحِقْدِ والغِلِّ
وسَارَتْ بِها الرُّكبانُ شَرْقاً وَمَغْرِباً ... فَعطَّرتِ الأكوانَ بِالنَّقْلِ والنَّقْلِ[1]
مضى ومضى الإخلاصُ والصِّدْقُ والصَّفَا ... وَخِصْبُ ربيعِ المجدِ بُدِّلَ بالمَحْلِ
ومات فمَاتَتْ سيرةُ السَّلَفِ الأُلَى ... وَظَلَّتْ عُيونُ البُعْدِ تبكي على القَبْلِ
فَقَدْنَا عَلِيّاً والحُسَيْنَ وَجَعْفَراً ... وَلا بِدْعَ طَوْرُ اللَّيْثِ يُعْرَفُ بالشِّبْلِ!
وَكُنّا نرى مِنْ آلِ ياسينَ سيِّداً ... يُذَكِّرُنا المَاضِينَ مِنْ خُلَّصِ الأهْلِ
تَسِيلُ المَعالي مِنْ جَداوِلِ كَفِّهِ ... فَتُفْرِغُ طَبْعَ الجُودِ في قَالَبِ البُخْلِ
عَطَاءٌ بِلا مَنٍّ وَوُدٌّ بِلا جَفَا ... وَوَعْدٌ بِلا خُلْفٍ وَجِدٌّ بِلا هَزْلِ
مَلاذُ سَلاطينِ الشُّيوخِ ، وشَيْخُهُمْ ... وشَمسُ هُدَىً يَمْحُو سَنَاهَا غِشَا الظِّلِّ
فِداءٌ لَهُ الأرواحُ لو أمكَنَ الفِدَا ... وَمَنْ في الدُّنَا جُزْءٌ أجَلُّ مِنَ الكُلِّ ؟!
سَقَى اللهُ قبراً ضَمَّ هَيْكَلَهُ الَّذي انْـ ... ـجَلَى سُنَّةً في صُورةِ البَطَلِ الفَحْلِ
وَحَيَّا مُحَيَّاهُ الكريمَ برحمةٍ ... إلى قلبِهِ أسرارَ كَشْفِ الغِطَا تُمْلِي
وأوْصَلَهُ بالمصطفى الطُّهْرِ جَدِّهِ ... لِيَبْلُغَ ما يَرْجُوهُ مِنْ ذلكَ الوَصْلِ »

* * *

قلتُ : هذا ما أردتُ تسطيرَهُ في هذه الوَرَقَاتِ ، ولِسَيِّدِنا الكبيرِ الرِّفاعيِّ - رضي اللهُ عنه - مناقبُ تَزيدُ على المُجَلَّداتِ ، ولولا الإطالةُ في هذا

---

(١) النَّقْلُ الأوَّلُ : هو ذكرُها في المصادر والكتب والمجاميع ، والثاني : هو تحويلُهُ من موضعٍ إلى موضعٍ آخر ، كما في « مختار الصِّحاح » ص (٦٧٧) ، مادة : « نقل » .

المقامِ . لفتحتُ أبواباً هي للمُحِبِّينَ قُرَّةُ عينٍ ، وللمُنْكِرينَ دواءٌ للبَيْنِ ، وكيفَ لا تكونُ وصاحبُها السيِّدُ الكبيرُ النَّدْبُ أبو العَلَمَيْنِ ؟! .

وما ذكَرْتُهُ كفايةُ المُوَفَّقِ ، واللهُ وليُّ المؤمنين ، والحمدُ للهِ رَبِّ العالمين .

* * *

بيانُ حالِ راوي كتابِ « البرهان »

الإمامِ أبي طالب ، عبدِ الرحمنِ بنِ محمدٍ الهاشميِّ

٥٣٨ـ٦٢١هـ

قال الإمامُ الذهبيُّ في « سِيَرِ أعلام النُّبلاء »[1] عند ذِكْرِهِ . . ما نصُّهُ :

« الإمامُ ، العَدْلُ ، المأمونُ ، المُقرِىءُ ، المُجَوِّدُ ، المُحَدِّثُ ، شيخُ واسطَ ، أبو طالب ، عبدُ الرحمن بنُ محمدِ بنِ عبدِ السّميعِ ، بنِ أبي تمّام عبدِ اللهِ بنِ عبدِ السميعِ ، القُرشيُّ الهاشميُّ الواسطيُّ المعدّل .

وُلِدَ سنةَ ثمانٍ وثلاثين .

وتلا على أبي السّماداتِ أحمدَ بنِ عليّ ، وأبي حُمَيد عبدِ العزيزِ بنِ عليٍّ الشّماتيّ .

وسَمِعَ من جَدِّه ، ومِنْ محمدِ بنِ محمدِ بنِ أبي زنبقةَ ، وخَلْقٍ بواسطَ ، وهبةِ اللهِ بنِ أحمدَ الشِّبلي ، وابنِ البَطِّي ، وابنِ تاج القُرّاءِ ، والشيخِ عبدِ القادرِ ، وعِدَّةٍ .

وكتبَ ، وجَمَعَ ، وَصَنَّفَ ، وروى الكثيرَ ، وكان صَدْرَاً نبيلاً ، عالِماً ، ثِقَةً ، حَسَنَ النَّقلِ .

حَدَّثَ عنه أبو الطّاهرِ بنُ الأنماطيّ ، وعبدُ الصمدِ بنُ أبي الجيش ، وعزُّ الدّين الفَارُوثيُّ ، وابنُ الدُّبيثي ، وجماعةٌ .

---

(١) ٢٢ : ١٨٥ـ١٨٦ .

وبالإجازةِ : أبو المعالي الأَزْقُوهيّ .

ماتَ في سادسِ المحرَّم ، سنةَ إحدىٰ وعِشرين وستّ مئة .

وله أُرجوزةٌ في الاعتقاد ، يتطرَّقُ إليها الانتقادُ ، ويُلَقَّبُ بـ : الشَّيباني ـكما نُظِمَ فيهـ :

شَرَفُ الـدِّيـنِ شَيْخُنَـا شـافِعِـيٌّ   شـاعـرٌ شـاهِـدٌ شـريـفٌ شُـرُوطـي

وله كتاب « لُباب المنقول في فضائل الرَّسول » .

وكتابٌ : « فضائل الأيام والشُّهور » .

وكتابٌ : « تعبيرُ الرُّؤيا » .

و « النُّخَبُ ، في الخُطَب » ، وأشياء » . انتهى .

قلتُ : ورَدَ ذِكْرُهُ في « السِّيَرِ » في عِدَّةِ مواضعَ ، منها : ١٩ : ٣٩٧ـ ٣٩٨ و ٥٦٩ .

ومنها : ٢٠ : ٤٨٨ و ٥١٩ .

ومنها : ٢١ : ٤٧ ، و ٢٣ : ٦٩ .

* * *

سَنَدِي المُبَارَكُ بهذا الكتاب

الطَّرِيقُ الأَوَّلُ

لنا ـ بحمدِ اللهِ تعالى ـ سَنَدٌ مُبارَكٌ بهذا الكتاب العُجاب ، منْ طريقِ شيخِنا الإمامِ الوالدِ الماجدِ ، قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ .

وهو أَخذَهُ عنِ الشيخِ المُعَمَّرِ الصَّالحِ الوَرِعِ الزَّاهِدِ المُفتي محمد سعيدِ النَّعسان ، عن شيخِهِ العارفِ الوليِّ النابغةِ الفَذِّ العلأمةِ السيِّدِ محمد أبي الهدى الصيَّاديِّ الرِّفاعيِّ الحُسينيِّ .

عن شيخِهِ شيخِ الجَماعةِ ، وإمامِ عصرِهِ ، الحافظِ الفقيهِ المُتقِنِ ، الرِّفاعيِّ الثاني ، السيِّدِ محمد مهدي بن عليٍّ الرِّفاعيِّ الحُسينيِّ ، الشهير بـ « الرَّوَّاسِ » ، قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ .

عن شيخِهِ السيِّدِ إبراهيمَ الرِّفاعيِّ البصريِّ ، عن شيخِهِ السيِّدِ أحمدَ ، عن أبي البركاتِ عبدِ اللهِ البصريِّ العباسيِّ .

عن السَّيِّدِ نُورِ الدِّينِ حبيبِ اللهِ الحَدِيثِيِّ الرِّفاعي ، عنِ السيِّدِ حُسَيْنٍ بُرْهَانِ الدِّينِ آلِ خُزامِ الرِّفاعيِّ نقيبِ البصرةِ .

عَنْ أخيهِ النقيبِ السيِّدِ نُورِ الدِّينِ ، عنْ ابنِ عمِّهِ الشِّهابِ الثَّاقِبِ حِزامِ الدِّين بنِ خُزَامِ الرِّفاعيِّ البصريِّ .

عنِ ابنِ عمِّهِ السيِّدِ شعبانَ نقيبِ البصرةِ ، عنْ عمِّه السيدِ تاجِ الدِّينِ النقيبِ ، عنِ ابْنِ عمِّهِ شيخِ مشايخِ الإسلامِ ، القُطبِ الغوثِ السيدِ سراجِ

الدِّينِ الرِّفاعيِّ ثُمَّ المخزوميُّ ، دفينِ صَدرية بغداد .

عن شيخِهِ السيدِ جمالِ الدِّينِ السُّلَيْميِّ الرِّفاعي ، عنِ السيدِ قطبِ الدِّينِ الرِّفاعي .

عنِ الشيخِ عمرَ الصغيرِ الفَارُوثيِّ ، عن أبيهِ وليِّ اللهِ عزِّ الدِّينِ أحمدَ الفَارُوثيِّ ، عن أبي الفضلِ مُحيي الدِّين إبراهيمَ المصطفويِّ الفَارُوثيِّ .

عنِ الإمامِ شَرَفِ الدِّينِ أبي طالبِ بنِ عبدِ السميعِ العباسيِّ الهاشميِّ ، الذي تلقَّىٰ « البُرهانَ المؤيّد » كتابَ سيِّدنا السيِّدِ أحمدَ الكبيرِ الرِّفاعيِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ منْ مجالسِ وَعْظِ الإمامِ الرِّفاعي ، مجلساً مجلساً ، ودَوَّنَهُ ، ولَهُ بِهِ التَلَقِّي عَنْ صاحبِهِ رضي اللهُ عنه .

ولَنا من هذا الطريقِ الإجازةُ بقراءةِ « البرهان المؤيّد » .

الطريقُ الثاني

ومن طريقٍ آخَرَ : عن شيخي الوالدِ الإمامِ ، إلى السيِّدِ قطبِ الدِّينِ الرِّفاعيِّ المذكورِ آنفاً .

وهو عنِ الشمسِ محمدِ الصيَّادي ، وهو عن شيخِ الإسلامِ الصَّدْرِ عليٍّ الصيَّاديِّ .

وهو عنِ القُطبِ الغوثِ أبيه السيِّدِ عزِّ الدِّينِ أحمدَ الصيَّادِ ابنِ الرِّفاعيِّ ، سِبْطِ الحضرةِ الرِّفاعيَّةِ .

عنْ مُدَوِّنِ « البرهان » ، عن صاحبِهِ ، رضي اللهُ عنه[١]

---

(١) « بوارق الحقائق » ص (٥٧٢) ، بعنايتنا .

السلسلة الرفاعية (٢٦)

البرهان المؤيد

لصاحب مد اليد مولانا الغوث الشريف الرفاعي أحمد

الإمام الحافظ الفقيه المفسر الرحلة الحجة

السيد الكبير أبي العباس أحمد بن علي الرفاعي الحسيني

إمام الطريقة الأحمدية الرفاعية

٥١٢ - ٥٧٨ هـ

جمعه رواية عنه في مجالس وعظه

الشريف الحافظ أبو طالب شرف الدين

عبد الرحمن بن محمد بن عبد السميع الهاشمي الواسطي

٥٢٨ - ٦٢١ هـ

اعتنى به

شرف الدين

حسن بن عبد الحكيم عبد الباسط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ رَاوِي الكتاب

الحَمْدُ للهِ حَمْداً يُوَافِي نِعَمَهُ ، وَيُكَافِىءُ مَزِيدَهُ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ الدُّرَّةِ النَّبَوِيَّةِ الفَرِيدَةِ ، جِسْمِ الوُجُودِ ، وَعِلَّةِ كُلِّ مَوْجُودٍ ، سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا وَقُرَّةُ عُيُونِنَا وَنَبِيِّنَا ، الرَّسُولِ المُكَرَّمِ ، حَبِيبِ الرَّحْمنِ مُحَمَّدٍ صلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ .

وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَعِتْرَتِهِ وَأَحْبَابِهِ ، وَتَابِعِيهِ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ، آمينَ آمينَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَيَقُولُ العَبْدُ الفَقِيرُ إِلَىٰ رَحْمَةِ اللهِ ، شَرَفُ الدِّينِ بنُ عبدِ السَّمِيعِ ، الهَاشِمِيُّ الوَاسِطِيُّ ، كَانَ اللهُ لَهُ ، وَغَفَرَ بِفَضْلِهِ ذَنْبَهُ وَزَلَلَهُ :

قَدْ تَلَقَّيْنَا مَعَ جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنَ المُحِبِّينَ ، وَالإِخْوَانِ الصَّالِحِينَ : هَذَا الكِتَابَ المُبَارَكَ / رِوَايَةً مِنْ فَمِ شَيْخِنَا وَمَلْجَإِنَا ، بَرَكَةِ الإِسْلاَمِ ، وَأُسْتَاذِ الخَوَاصِّ وَالعَوَامِّ .

القُطْبِ الغَوْثِ المُقَدَّمِ ، الَّذِي امْتَازَهُ اللهُ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ بِتَقْبِيلِ يَدِ النَّبِيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، صَاحِبِ الأَيَادِي الجَلِيلَةِ ، وَالخَوَارِقِ الجَزِيلَةِ ، حَامِلِ الخَفِيفَةِ وَالثَّقِيلَةِ .

سَيِّدِنَا الشَّيْخِ الكَبِيْرِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ ، بنِ السَّيِّدِ أَبِي الحَسَنِ عَلِيٍّ الرِّفَاعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

ابنِ السَّيِّدِ يَحْيَىٰ ، بنِ السَّيِّدِ الثَّابِتِ ، بنِ السَّيِّدِ الحَازِمِ ، بنِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ ، بنِ السَّيِّدِ عَلِيٍّ ، بنِ السَّيِّدِ أَبِي المَكَارِمِ الحَسَنِ ، المَعْرُوفِ بـ : رِفَاعَةَ المَكِّيِّ .

ابنِ السَّيِّدِ المَهْدِيِّ ، بنِ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ أَبِي القَاسِمِ ، بنِ السَّيِّدِ الحَسَنِ ، بنِ السَّيِّدِ الحُسَيْنِ ، بنِ السَّيِّدِ مُوسَىٰ الثَّانِي ، ابنِ الإِمَامِ إِبْرَاهِيمَ المُرْتَضَىٰ ، ابنِ الإِمَامِ مُوسَىٰ الكَاظِمِ ، ابنِ الإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ .

ابنِ الإِمَامِ مُحَمَّدٍ البَاقِرِ ، ابنِ الإِمَامِ عَلِيٍّ زَيْنِ العَابِدِيْنَ ، بنِ إِمَامِ المُسْلِمِيْنَ ، وَزُبْدَةِ آلِ النَّبِيِّ الأَمِيْنِ ، الَّذِي امْتُحِنَ بِأَنْوَاعِ البَلاَءِ ، أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ ، أَبِي عَبْدِ اللهِ ، الإِمَامِ الحُسَيْنِ ، الشَّهِيْدِ بـ : كَرْبَلاَءَ .

ابنِ سَيِّدِ الأُمَّةِ ، وَسَنَدِ الأَئِمَّةِ ، زَوْجِ البَتُولِ ، وَصِهْرِ الرَّسُولِ ، الَّذِي قَدْرُهُ كَاسْمِهِ حَسَنٌ وَعَلِيٌّ ، أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ ، أَبِي الحَسَنَيْنِ ، الإِمَامِ عَلِيٍّ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ .

وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِيْنَ وَخَمْسِ مِئَةٍ ، السَّنَةِ الَّتِي عَادَ بِهَا مِنْ سَفَرِ حَجِّهِ المُبَارَكِ ، قَدَّسَ اللهُ أَسْرَارَهُ ، وَضَاعَفَ إِرْشَادَهُ وَأَنْوَارَهُ ، فِي رِبَاطِهِ الشَّرِيْفِ بـ : أُمِّ عَبِيْدَةَ[1] ، عَلَىٰ كُرْسِيِّ وَعْظِهِ فِي مَجَالِسَ

---

(١) أي : في رِوَاقِهِ الشَّرِيفِ ، ووجْهُ تسميتِهِ رِبَاطًا . أنَّهُ مِنَ الرَّبْطِ ، أي : الملازمةِ على الأمرِ ، ومنهُ سُمِّيَ المُقَامُ فِي ثَغْرِ العَدُوِّ : رِبَاطاً ومنْهُ قولُهُ تعالى : ﴿وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ . ومعناه . انْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، =

مَعْدُودَةٍ ، جَمَعْنَاهَا فِي هَذَا الجُزْءِ ، وَسَمَّيْنَاهُ :

« البُرْهَانَ المُؤَيِّدَ لِصَاحِبِ مَدِّ اليَدِ مَوْلاَنَا الغَوْثِ الشَّرِيْفِ الرِّفَاعِيِّ أَحْمَدَ »

وَهَا هِيَ[1] كما تَلَقَّيْنَاهَا مِنْهُ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ نَفَعَنَا اللهُ بِهِ :

• لقولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ :

« فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ » . أفاده في « القاموس » ٢ : ٣٧٤ ، مادة : « ربط » .

(١) الضميرُ يعودُ على المجالسِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الإِمَامِ الرِّفَاعِيِّ

/ الحَمْدُ للهِ حَمْداً يَرْضَاهُ لِذَاتِهِ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَىٰ سَيِّدِ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَرَضِيَ اللهُ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالآلِ ، وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْعِ وَالحَالِ ، وَالسَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ .

الزُّهْدُ أَوَّلُ قَدَمِ القَاصِدِينَ إِلَىٰ اللهِ

أَيْ سَادَةُ[1] ! الزُّهْدُ . . أَوَّلُ قَدَمِ القَاصِدِينَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَسَاسُهُ . . التَّقْوَىٰ ، وَهِيَ : خَوْفُ اللهِ رَأْسُ الحِكْمَةِ .

وَجِمَاعُ كُلِّ ذَلِكَ . . حُسْنُ مُتَابَعَةِ إِمَامِ الأَرْوَاحِ وَالأَشْبَاحِ ، السَّيِّدِ المُكَرَّمِ رَسُولِ اللهِ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَوَّلُ طَرِيقِ المُتَابَعَةِ ، حُسْنُ القُدْوَةِ ، عَمَلاً بحديثِ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ »[2] .

---

(١) وفي « صحيح مسلم » (٢٥٢) من حديثِ أُمِّنا السيِّدةِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها . . قولُهُ ـ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ لأُمِّنا السيِّدةِ خديجةَ رضيَ اللهُ عنها :

« . . أيْ خديجةُ ! ما لِي ؟ » . الحديث ، أي : يا خديجةُ ما لي .

وفي « البخاري » (١٤٠٨) ، ومسلم (١٥٠) : « أَقْبِلْ أَيْ سَعْدُ . . . » . أي : تعالَ يا سَعْدُ .

(٢) سيأتي بتمامه مُخرَّجاً ص (١٤٤) .

أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ـ صلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ كَيْفَ قَالَ لِرَجُلٍ قَالَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللهِ! رَجُلٌ يُرِيْدُ الجِهَادَ ، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا[1] ؟فقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« لاَ أَجْرَ لَهُ » . فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ! فَقَالُوا لِلرَّجُلِ : عُدْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهِمْهُ . فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللهِ! رَجُلٌ يُرِيْدُ الجِهَادَ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، وَهُوَ يُرِيْدُ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا ؟ قَالَ :

« لاَ أَجْرَ لَهُ » . فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ! وَقَالُوا : عُدْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ الثَّالِثَةَ : رَجُلٌ يُرِيْدُ الجِهَادَ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا ؟ فَقَالَ :

« لاَ أَجْرَ لَهُ » . رواهُ الثِّقَاتُ وَصَحَّحُوهُ[2] .

نَتَائِجُ العَمَلِ تَحْسُنُ وَتَقْبُحُ بِالنِّيَّةِ

فَمِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ . عَلِمْنَا : أَنَّ نَتَائِجَ العَمَلِ تَحْسُنُ وَتَقْبُحُ بِالنِّيَّةِ .

فَعَامِلُوا اللهَ بِحُسْنِ النِّيَّاتِ ، وَاتَّقُوهُ فِي الحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ .

صَوْنُ العَقَائِدِ عَنِ المُتَشَابِهَاتِ

وَصُونُوا عَقَائِدَكُمْ عَنِ التَّمَسُّكِ بِظَاهِرِ مَا تَشَابَهَ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ[3] ؛

---

(١) أي : مَتاعاً ، كما في « المِصْبَاحِ المُنير » ص (٣٢٩) ، مادة : « عرض » .

(٢) رواه أبو داود (٢٥١٦) .

(٣) في المطبوع ص (١٧) : « مِنَ التَّمَسُّكِ بِظَاهِرِ . . » ، وهو تصحيف ، والصحيحُ المُثبتُ ، تقولُ : صانَ الرَّجُلُ عِرضَهُ عَنِ الدَّنَسِ . قالَهُ الفَيُّومِيُّ في =

لأنَّ ذَلِكَ مِنْ أُصُولِ الكُفْرِ ، قَالَ تَعالَىٰ :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ .

وَالوَاجِبُ عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰ كُلِّ مُكَلَّفٍ فِي المُتَشَابِهِ . الإِيمَانُ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، أَنْزَلَهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ، وَمَا كَلَّفَنَا ـ سُبْحانَه وتعالى ـ تَفْصِيلَ عِلْمِ تَأْوِيلِهِ ، قَالَ ـ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ ! ـ :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ .

فَسَبِيلُ المُتَّقِينَ مِنَ السَّلَفِ . تَنْزِيهُ اللهِ تَعَالَىٰ عَمَّا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُهُ ، وَتَفْوِيضُ مَعْنَاهُ المُرَادِ مِنْهُ إِلَىٰ الحَقِّ تَعَالَىٰ وَتَقَدَّسَ ، وَبِهَذَا سَلاَمَةُ الدِّينِ .

سُئِلَ بَعْضُ العَارِفِينَ عَنِ الخَالِقِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ؟! فَقَالَ لِلسَّائِلِ :

إِنْ سَأَلْتَ عَنْ ذَاتِهِ . . فـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ .

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ صِفَاتِهِ ، فَهُوَ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنِ اسْمِهِ . . فـ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

وَإِنْ سَأَلْتَ عَنْ فِعْلِهِ . . فـ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

وَقَدْ جَمَعَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ جَمِيعَ مَا قِيلَ فِي التَّوْحِيدِ بِقَوْلِهِ :

= « المِصباحِ المُنير » ص (٢٩٠) ، مادة : « صون » .

مَنِ انْتَهَضَ لِمَعْرِفَةِ مُدَبِّرِهِ ، فَانْتَهَىٰ إِلَىٰ مَوْجُودٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِكْرُهُ . . فَهُوَ مُشَبِّهٌ .

وَإِنِ اطْمَأَنَّ إِلَىٰ العَدَمِ الصِّرْفِ . . فَهُوَ مُعَطِّلٌ .

وَإِنِ اطْمَأَنَّ لِمَوْجُودٍ ، وَاعْتَرَفَ بِالعَجْزِ عَنْ إِدْرَاكِهِ . . فَهُوَ مُوَحِّدٌ .

تَنْزِيهُ اللهِ عَنْ سِمَاتِ المُحْدَثِينَ

أَيْ سَادَةُ! نَزِّهُوا اللهَ عَنْ سِمَاتِ المُحْدَثِينَ ، وَصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ ، وَطَهِّرُوا عَقَائِدَكُمْ مِنْ تَفْسِيرِ مَعْنَىٰ الاسْتِوَاءِ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ : بِالاسْتِقْرَارِ ، كَاسْتِوَاءِ الأَجْسَامِ عَلَىٰ الأَجْسَامِ ، المُسْتَلْزِمِ لِلْحُلُولِ ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَٰلِكَ .

وَإِيَّاكُمْ وَالقَوْلَ بِالفَوْقِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ وَالمَكَانِ ، وَاليَدِ وَالعَيْنِ : بِالجَارِحَةِ ، وَالنُّزُولِ بِالإِتْيَانِ وَالانْتِقَالِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَا جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا يَدُلُّ ظَاهِرُهُ عَلَىٰ مَا ذُكِرَ . . فَقَدْ جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِثْلُهُ مِمَّا يُؤَيِّدُ المَقْصُودَ .

فَمَا بَقِيَ إِلَّا مَا قَالَهُ صُلَحَاءُ السَّلَفِ : **وَهُوَ الإِيمَانُ بِظَاهِرِ كُلِّ ذَٰلِكَ ، وَرَدُّ عِلْمِ المُرَادِ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ ، مَعَ تَنْزِيهِ البَارِي ـ تَعَالَىٰ ـ عَنِ الكَيْفِ وَسِمَاتِ الحُدُوثِ** . وَعَلَىٰ ذَٰلِكَ دَرَجَ الأَئِمَّةُ .

وَكُلُّ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ . . فَتَفْسِيرُهُ : قِرَاءَتُهُ وَالسُّكُوتُ عَنْهُ[1] ، لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَهُ . . إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ وَرَسُولُهُ .

وَلَكُمْ حَمْلُ المُتَشَابِهِ عَلَىٰ مَا يُوَافِقُ أَصْلَ المُحْكَمِ ؛ لِأَنَّهُ أَصْلُ الكِتَابِ ، وَالمُتَشَابِهُ لَا يُعَارِضُ المُحْكَمَ .

---

(١) في المطبوع ص (١٩) : « وقراءته » ، وهو خطأ ، وما أُثبِتَ هو الصحيحُ .

سَأَلَ رَجُلٌ الإِمَامَ مَالِكَ بنَ أَنَسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ؟ .

فَقَالَ : الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ ، وَالكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، وَالإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، وَمَا أَرَاكَ إِلاَّ مُبْتَدِعاً . وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُخْرَجَ .

وَقَالَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ لَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ؟ :

آمَنْتُ بِلاَ تَشْبِيهٍ ، وَصَدَّقْتُ بِلاَ تَمْثِيلٍ ، وَاتَّهَمْتُ نَفْسِي فِي الإِدْرَاكِ ، وَأَمْسَكْتُ عَنِ الخَوْضِ فِيهِ كُلَّ الإِمْسَاكِ .

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : مَنْ قَالَ : لاَ أَعْرِفُ اللهَ أَفِي السَّمَاءِ هُوَ أَمْ فِي الأَرْضِ . . فَقَدْ كَفَرَ ؛ لأَنَّ هَذَا القَوْلَ . . يُوهِمُ أَنَّ لِلْحَقِّ مَكَاناً ، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ لِلْحَقِّ مَكَاناً . . فَهُوَ مُشَبِّهٌ .

وَسُئِلَ الإِمَامُ أَحْمَدُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنِ الاسْتِوَاءِ ؟ فَقَالَ :

اِسْتَوَىٰ كَمَا أَخْبَرَ ، لاَ كَمَا يَخْطُرُ لِلْبَشَرِ .

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ الإِمَامِ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ :

مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ فِي شَيْءٍ ، أَوْ مِنْ شَيْءٍ ، أَوْ عَلَىٰ شَيْءٍ . . فَقَدْ أَشْرَكَ ؛ إِذْ لَوْ كَانَ عَلَىٰ شَيْءٍ . . لَكَانَ مَحْمُولاً ، وَلَوْ كَانَ فِي شَيْءٍ . . لَكَانَ مَحْصُوراً ، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ . . لَكَانَ مُحْدَثاً .

طَلَبُ اللهِ بِالقَلْبِ مَعَ الإِخْلاَصِ حَالَةَ ذِكْرِهِ

أَيْ سَادَةُ! اُطْلُبُوا اللهَ بِقُلُوبِكُمْ ، هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَبْلِ الوَرِيْدِ ، أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً .

« الدِّينُ النَّصِيحَةُ »(١) . إِذَا قُلْتُمْ : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ . . فَقُولُوهَا بِالإِخْلَاصِ الخَالِصِ مِنَ الغَيْرِيَّةِ ، وَمِنْ خُطُورَاتِ التَّشْبِيهِ وَالكَيْفِيَّةِ ، وَالتَّحْتِيَّةِ وَالفَوْقِيَّةِ ، وَالبُعْدِيَّةِ وَالقُرْبِيَّةِ .

وَخُذُوا نَتَائِجَ الأَعْمَالِ بِخَالِصِ النِّيَّةِ ، فَقَدْ قَالَ سَيِّدُ البَرِيَّةِ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ :

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَىٰ ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ . . فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا . . فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »(٢) .

وُجُوبُ إِحْكَامِ الأَعْمَالِ عَلَىٰ الأَرْكَانِ الخَمْسَةِ

أَحْكِمُوا أَعْمَالَكُمْ عَلَىٰ الأَرْكَانِ الخَمْسَةِ ، الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا الإِسْلَامُ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ البَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ »(٣) .

« إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ »(٤) ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ :

---

(١) رواه مسلم (٥٥) .

(٢) رواه البخاريّ (١) ، ومسلمٌ (١٩٠٧) .

(٣) رَواه البخاريّ (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٤) هي جُملةٌ مِنْ حديثٍ سيأتي بتمامِهِ ص (١٤٨) .

« مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ . . فَهُوَ رَدٌّ »[١] .

عَامِلُوا اللهَ بِالتَّقْوَىٰ ، وَعَامِلُوا الخَلْقَ بِالصِّدْقِ وَحُسْنِ الخُلُقِ ، وَعَامِلُوا أَنْفُسَكُمْ بِالمُخَالَفَةِ ، وَقِفُوا عِنْدَ الحُدُودِ .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ .

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

التَّحْذِيرُ مِنَ الكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ وَالخَلْقِ

إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ عَلَىٰ اللهِ وَالخَلْقِ ؛ فَإِنَّ الدَّعْوَىٰ . . كَذِبٌ عَلَىٰ اللهِ وَخَلْقِهِ .

كُلُّ العُبُودِيَّةِ . مَعْرِفَةُ مَقَامِ العَبْدِيَّةِ .

الدِّينُ . . عَمَلٌ بِالأَوَامِرِ ، وَاجْتِنَابٌ عَنِ النَّوَاهِي ، وَخُضُوعٌ وَانْكِسَارٌ فِي الأَمْرَيْنِ .

العَمَلُ بِالأَوَامِرِ . . يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللهِ ، وَالاجْتِنَابُ عَنِ النَّوَاهِي . . خَوْفٌ مِنَ اللهِ .

طَلَبُ القُرْبِ بِلاَ أَعْمَالٍ . . مُحَالٌ ، وَأَيُّ مُحَالٍ .

الخَوْفُ مَعَ الجُرْأَةِ . . فَضِيحَةٌ .

طَلَبُ اللهِ بِمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ (ﷺ)

أُطْلُبُوا اللهَ بِمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .

إِيَّاكُمْ وَسُلُوكَ طَرِيقِ اللهِ بِالنَّفْسِ وَالهَوَىٰ ، فَمَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ بِنَفْسِهِ ، ضَلَّ فِي أَوَّلِ قَدَمٍ .

وُجُوبُ تَعْظِيمِ النَّبِيِّ (ﷺ)

أَيْ سَادَةُ! عَظِّمُوا شَأْنَ نَبِيِّكُمْ ، هُوَ البَرْزَخُ الوَسَطُ الفَارِقُ بَيْنَ الخَلْقِ وَالحَقِّ .

عَبْدُ اللهِ ، حَبِيبُ اللهِ ، رَسُولُ اللهِ ، أَكْمَلُ خَلْقِ اللهِ ، أَفْضَلُ رُسُلِ اللهِ .

الدَّالُّ عَلَىٰ اللهِ ، الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ ، المُخْبِرُ عَنِ اللهِ ، الآخِذُ مِنَ اللهِ ، بَابُ الكُلِّ إِلَىٰ الحَضِيرَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ ، وَسِيلَةُ الكُلِّ إِلَىٰ الحَضِيرَةِ الصَّمَدَانِيَّةِ .

مَنِ اتَّصَلَ بِهِ.. اتَّصَلَ ، وَمَنِ انْفَصَلَ عَنْهُ . انْفَصَلَ ، قَالَ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ :

« لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ »[1] .

نُبُوَّةُ النَّبِيِّ (ﷺ) بَاقِيَةٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ

أَيْ سَادَةُ! اِعْلَمُوا أَنَّ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بَاقِيَةٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، كَبَقَائِهَا حَالَ حَيَاتِهِ ، إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا[2] .

---

(١) رَوَاهُ الحافظُ أبو بكرِ بنُ عاصمٍ في « السُّنَّة » (١٥) ، والبَغَوِيُّ في « شرح السُّنَّةِ » ١ : ٢١٣ .

(٢) قال العلاَّمةُ الخَفَاجِيُّ في « نسيم الرِّياض » ١ : ١٣٢ ، ما نصُّه :
« اِعْلَمْ . . . أنَّهُ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حَيٌّ في قَبْرِهِ ، باقٍ على ما كانَ عليهِ ، حتى سُئِلَ النَّوَوِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تعالى ـ عَمَّنْ رَآهُ ـ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ في مَنامِهِ يأمُرُهُ =

وَجَمِيعُ الخَلْقِ . مُخَاطَبُونَ بِشَرِيعَتِهِ النَّاسِخَةِ لِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ .
وَمُعجِزَتُهُ بَاقِيَةٌ ، وَهِيَ القُرْآنُ ، قَالَ تَعَالَى :
﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾ .

حُكْمُ مَنْ رَدَّ أَخْبَارَهُ الصَّادِقَةَ

أَيْ سَادَةُ ! مَنْ رَدَّ أَخْبَارَهُ الصَّادِقَةَ . كَمَنْ رَدَّ كَلاَمَ اللهِ تَعَالَىٰ .

آمَنَّا بِاللهِ ، وَبِكِتَابِ اللهِ ، وَبِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ .

أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ عَلَىٰ التَّرْتِيبِ

أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ . سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ
ثُمَّ سَيِّدُنَا عُمَرُ الفَارُوقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .
ثُمَّ عُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ثُمَّ عَلِيٌّ المُرْتَضَىٰ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَرَضِيَ عَنْهُ .

= بِأَمْرٍ ، هل يَجِبُ عليهِ أَمْ لاَ ؟ .

فَأَجَابَ : بِأَنَّهُ إِنْ لم يُخالِفِ الشَّرْعَ ، وكانَ لَهُ في خاصَّةِ نَفْسِهِ . يَنبغي العَمَلُ به ، وإِنَّمَا لم يَجِبْ ؛ لأَنَّ النائِمَ لَمْ يَضبِطْ ما قِيلَ لَهُ ، ورُبَّمَا لم يَفهَمْهُ ، أو يَكُونُ إشارةً لِمَا يَحتاجُ للتَّأويلِ .

وهو كَلامٌ حَسَنٌ ، فَلا يُنافِي قولَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ رَآنِي ، فَقَدْ رَآنِي حَقًّا » . الحديثَ . انتهى .

الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ هُدَىً

وَالصَّحَابَةُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ كُلُّهُمْ عَلَىٰ هُدَىً ، رُوِيَ عَنْهُ ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ أَنَّهُ قَالَ :

« أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ ، بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمْ . اهْتَدَيْتُمْ »[١] .

وُجُوبُ الإِمْسَاكِ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

يَجِبُ الإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، وَذِكْرُ مَحَاسِنِهِمْ ، وَمَحَبَّتُهُمْ ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

فَأَحِبُّوهُمْ ، وَتَبَرَّكُوا بِذِكْرِهِمْ ، وَاعْمَلُوا عَلَىٰ التَّخَلُّقِ بِأَخْلاَقِهِمْ ، قَالَ النَّبِيُّ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ لأَصْحَابِهِ :

« أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ . فَسَيَرَىٰ اخْتِلاَفاً كَثِيراً .

فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ » .

وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ »[٢] .

---

(١) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (٣٨١) : « رواه البيهقيُّ ، وأسندهُ الدَّيلَمِيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ بلفظ : « أَصْحَابِي بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ . » » .

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧) ، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٨) ، وقال : « حديث حسن صحيح » .

النَّوَاجِذُ : هي الأَنْيَابُ ، وقيلَ : الأَضْرَاسُ . « رياض الصالحين » ص (٩٧) .

البِدْعَةُ : ما عُمِلَ على غيرِ مِثَالٍ سَبَقَ ، « رياض الصالحين » ص (٩٨) .

تَنْوِيرُ القَلْبِ لاَ يَكُونُ إِلاَّ بِمَحَبَّةِ آلِهِ

وَنَوِّرُوا كُلَّ قَلْبٍ مِنْ قُلُوبِكُمْ بِمَحَبَّةِ آلِهِ الكِرَامِ ، عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ ، فَهُمْ أَنْوَارُ الوُجُودِ اللاَّمِعَةُ ، وَشُمُوسُ السُّعُودِ الطَّالِعَةُ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ .

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . « اللهَ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي »[1] .

مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْراً . أَلْزَمَهُ وَصِيَّةَ نَبِيِّهِ فِي آلِهِ ، فَأَحَبَّهُمْ ، وَاعْتَنَى بِشَأْنِهِمْ ، وعَظَّمَهُمْ ، وَحَمَاهُمْ ، وَصَانَ حِمَاهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ مُرَاعِياً ، وَلِحُقُوقِ رَسُولِهِ فِيهِمْ رَاعِياً ، « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[2] .

وَمَنْ أَحَبَّ اللهَ . . أَحَبَّ رَسُولَ اللهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ رَسُولَ اللهِ . . أَحَبَّ آلَ رَسُولِ اللهِ .

وَمَنْ أَحَبَّهُمْ . . كَانَ مَعَهُمْ ، وَهُمْ مَعَ أَبِيهِمْ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ

قَدِّمُوهُمْ عَلَيْكُمْ ، وَلاَ تَقَدَّمُوهُمْ ، وَأَعِينُوهُمْ ، وَأَكْرِمُوهُمْ ، يَعُدْ[3] خَيْرُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ .

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨) ، وأحمدُ ٤ : ٣٦٦ عن زيدِ بنِ أرْقَمَ مرفوعاً بلفظ : « أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي » . ثلاثاً .

(٢) رواه البخاريُّ (٦١٧٠) ، ومسلم (٢٦٤٠) .

(٣) في المطبوع ص (٢٤) : « يعودُ » بالرفع ، وهو خطأ ؛ لكونه مجزوماً جواباً للطَّلَبِ .

وُجُوبُ صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ

اِلْصَقُوا بِأَوْلِيَاءِ اللهِ ، ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

الوَلِيُّ .. مَنْ وَادَّ اللهَ ، وَآمَنَ بِهِ واتَّقَاهُ ، فَلاَ تُحَادُّوا مَنْ وَادَّ اللهَ ، جَاءَ فِي بَعْضِ الكُتُبِ الإِلٰهِيَّةِ :

« مَنْ آذَىٰ لِي وَلِيّاً .. فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ »[1] .

اِنْتِقَامُ اللهِ لِمَنْ يُؤْذِي أَوْلِيَاءَهُ

اللهُ يَغَارُ لأَوْلِيَائِهِ ، يَنْتَقِمُ لَهُمْ مِمَّنْ يُؤْذِيهِمْ ، ويُكْرِمُهُمْ بِصَوْنِ مُحِبِّيهِمْ وَعَوْنِ مَنْ يَلُوذُ بِهِمْ[2] .

هُمْ أَخَصُّ المُخَاطَبِينَ بِآيَةِ : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ .

عَلَيْكُمْ بِمَحَبَّتِهِمْ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ ، تَحْصُلْ لَكُمْ بِهِمُ البَرَكَةُ .

كُونُوا مَعَهُمْ ، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) ، بلفظ : « مَنْ عَادَىٰ .. » .

(٢) في المطبوع ص (٢٤) : « فيهم » ، وهو تصحيف ، تقولُ : لاذَ بِهِ يَلُوذُ لَوْذاً .. لَجَأَ إليه ، وعاذَ بِهِ .
وفي حديث الدُّعاءِ : « اللَّهُمَّ .. بِكَ أَلُوذُ » . لاَذَ بِهِ .. إذا الْتَجَأَ إليهِ ، وَانْضَمَّ وَاسْتَغَاثَ . قاله ابنُ منظورٍ في « اللسان » ٥ : ٤٤ ، مادة : « لوذ » ، رحمة الله عليه .

تَحْدِيدُ مَرَاتِبِ الأَنْبِيَاءِ

أَيْ سَادَةُ! حُدُّوا المَرَاتِبَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ . أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ .

أَشْرَفُ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ .. الأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَشْرَفُ الأَنْبِيَاءِ .. نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَشْرَفُ الخَلْقِ بَعْدَهُ .. آلُهُ وَأَصْحَابُهُ .

وَأَشْرَفُ الخَلْقِ بَعْدَهُمْ .. التَّابِعُونَ أَصْحَابُ خَيْرِ القُرُونِ .

هَذَا عَلَى وَجْهِ الإِجْمَالِ ، وَأَمَّا عَلَى وَجْهِ الإِفْرَادِ .. فَالنَّصُّ النَّصُّ! .

التَّحْذِيرُ مِنَ الأَخْذِ بِالرَّأْيِ فِي الدِّينِ

وَإِيَّاكُمْ وَالأَخْذَ بِالرَّأْيِ ، فَمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ .. إِلاَّ بِالرَّأْيِ .

هَذَا الدِّينُ لاَ يُحْكَمُ فِيهِ بِالرَّأْيِ أَبَدًا .

حَكِّمُوا آرَاءَكُمْ فِي المُبَاحَاتِ ، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ، الآيَةَ .

وُجُوبُ ذِكْرِ الأَوْلِيَاءِ بِخَيْرٍ وَعَدَمُ المُفَاضَلَةِ بَيْنَهُمْ

اُذْكُرُوا الأَوْلِيَاءَ بِخَيْرٍ ، إِيَّاكُمْ وَتَفْضِيلَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ! رَفَعَ اللهُ ـ تَعَالَى ـ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لَكِنْ لاَ يَعْرِفُهَا غَيْرُهُ ، وَمَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ .

تَأْيِيدُ الطَّائِفَةِ بِتَرْكِ الدَّعْوَىٰ وَإِحْيَاءِ السُّنَّةِ

أَيِّدُوا هَـٰذِهِ العِصَابَةَ بِتَرْكِ الدَّعْوَىٰ[1] .

شَيِّدُوا أَرْكَانَ هَـٰذِهِ الطَّرِيقَةِ المُحَمَّدِيَّةِ . . بِإِحْيَاءِ السُّنَّةِ ، وَإِمَاتَةِ البِدْعَةِ .

أَيْ سَادَةُ! الفَقِيرُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ مَا دَامَ عَلَىٰ السُّنَّةِ ، فَمَتَىٰ حَادَ عَنْهَا . . زَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ .

سَبَبُ تَسْمِيَةِ هَـٰذِهِ الطَّائِفَةِ بِـ : الصُّوفِيَّةِ

قِيلَ لِهَـٰذِهِ الطَّائِفَةِ : الصُّوفِيَّةُ ، وَٱخْتَلَفَ النَّاسُ فِي سَبَبِ التَّسْمِيَةِ ؟ .

وَسَبَبُهَا غَرِيبٌ ، لاَ يَعْرِفُهُ الكَثِيرُ مِنَ الفُقَرَاءِ

وَهُوَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُضَرَ ، يُقَالُ لَهُمْ : بَنُو الصُّوفَةِ ، وَهُوَ الغَوْثُ بنُ مُرِّ بنِ أُدِّ بنِ طَابِخَةَ الرَّبِيطُ ، كَانَتْ أُمُّهُ لا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ ، فَنَذَرَتْ إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ . . لَتَرْبِطَنَّ بِرَأْسِهِ صُوفَةً ، وَتَجْعَلَهُ رَبِيطَ الكَعْبَةِ

وَقَدْ كَانُوا يُجِيزُونَ الحَاجَّ[2] ، إِلَىٰ أَنْ مَنَّ اللهُ بِظُهُورِ الإِسْلَامِ ، فَأَسْلَمُوا ، وَكَانُوا عُبَّاداً ، وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

---

(١) **العِصَابَةُ** : هي الجماعةُ مِنَ النَّاسِ ، « المصباح المنير » ص (٣٣٧) ، مادة : « عصب » .

والمرادُ بالعِصَابَةِ . . طائفةُ الصُّوفيَّةِ

(٢) أي : يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عليه .

فَمَنْ صَحِبَهُمْ . سُمِّيَ بـ : الصُّوفِيِّ ، وَكَذَلِكَ مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَهُمْ ، أَوْ تَعَبَّدَ وَلَبِسَ الصُّوفَ مِثْلَهُمْ . يَنْسُبُونَهُ إِلَيْهِمْ فَيُقَالُ : صُوفِيٌّ .

مَعْنَى التَّصَوُّفِ :

وَنَوَّعَ الفُقَرَاءُ الأَسْبَابَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : التَّصَوُّفُ : الصَّفَاءُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : المُصَافَاةُ . وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَكُلُّهُ صَحِيحٌ مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهُ ؛ لأَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الخِرْقَةِ . اِلْتَزَمُوا الصَّفَاءَ وَالمُصَافَاةَ ، وَعَمِلُوا بِالآدَابِ الظَّاهِرَةِ ، وَقَالُوا : إِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الآدَابِ البَاطِنَةِ .

وَقَالُوا : حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ . عُنْوَانُ أَدَبِ البَاطِنِ .

وَقَالُوا : مَنْ لَمْ يَعْرِفْ أَدَبَ الظَّاهِرِ ، لاَ يُؤْتَمَنُ عَلَى أَدَبِ البَاطِنِ .

الآدَابُ كُلُّهَا مُنْحَصِرَةٌ فِي مُتَابَعَتِهِ (ﷺ)

كُلُّ الآدَابِ مُنْحَصِرَةٌ فِي مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَوْلاً وَفِعْلاً ، وَحَالاً وَخُلُقاً .

فَالصُّوفِيُّ آدَابُهُ تَدُلُّ عَلَى مَقَامِهِ .

زِنُوا أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ وَأَحْوَالَهُ وَأَخْلاَقَهُ بِمِيزَانِ الشَّرْعِ ، يُعْلَمْ لَدَيْكُمْ ثِقَلُ مِيزَانِهِ وَخِفَّتُهُ .

خُلُقُ النَّبِيِّ ـ (ﷺ) ـ القُرْآنُ

خُلُقُ النَّبِيِّ . القُرْآنُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾

الجِنْسُ يَعْرِفُهُ الجِنْسُ

مَنِ الْتَزَمَ الآدَابَ الظَّاهِرَةَ .. دَخَلَ فِي جِنْسِيَّةِ القَوْمِ ، وَحُسِبَ فِي أَعْدَادِهِمْ .

وَمَنْ لَمْ يَلْتَزِمِ الآدَابَ الظَّاهِرَةَ .. فَهُوَ فِيهِمْ غَيْرٌ ، لاَ يَلْتَبِسُ حَالُهُ عَلَيْهِمْ ؛ لأَنَّ اسْتِعْمَالَ الآدَابِ .. دَلِيلُ الجِنْسِيَّةِ (١) ، بَلْ تَكُونُ عِلَّةَ الضَّمِّ (٢) .

قَالَ رُوَيْمٌ : التَّصَوُّفُ كُلُّهُ أَدَبٌ . وَهَذَا الأَدَبُ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ الطَّائِفَةُ .. أَدَبُ الشَّرْعِ .

كُنْ مُتَشَرِّعاً ، وَدَعْ حَاسِدَكَ يَكْذِبُ عَلَيْكَ ، وَيَنْسُبُ مَا يُحِبُّ إِلَيْكَ :

وَلَسْتُ أُبَالِي مِنْ زَمَانِي بِرِيبَةٍ ... إِذَا كُنْتُ عِنْدَ اللهِ غَيْرَ مُرِيبِ

---

(١) وَمِنْهُ قَوْلُ الإمامِ الحافظِ الوليِّ السيِّدِ محمد مهدي الصَّيَّاديِّ الرِّفَاعيِّ الحُسينيِّ ، الشهيرِ بـ : الرَّوَّاسِ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، كما في ديوانه « مِشْكَاةِ اليقين » ص (٢٢٥) بعنايتنا : «

إِذَا كُنْتَ فِي بَابِ النَّبِيِّ فَلاَ تَخَفْ ... وَإِنْ عَارَضَتْكَ الجِنُّ ـ يَا خِلُّ ـ وَالإِنْسُ
وَإِنْ كُنْتَ مَبْسُوطَ الفُؤَادِ بِحُبِّهِ ... فَوَقْتُكَ فِي كُلِّ الشُّؤُونِ بِهِ أُنْسُ
تَقَرَّبْ لأَقْوَامٍ يَدِينُونَ وُدَّهُ ... وَبَاعِدْ أُنَاساً قَدْ تَخَبَّطَهُمْ مَسُّ
فَإِنَّ مُحِبَّ الحَقِّ يَأْوِي لأَهْلِهِ ... بِلاَ رِيبَةٍ ، وَالجِنْسُ يَعْرِفُهُ الجِنْسُ

* * *

(٢) ومنهُ قولُهُ ـ أيضاً ـ مِنْ قصيدةٍ في ديوانِهِ المذكورِ ص (٣٨٥) : «

نَعَمْ إِنَّنَا مِنْهُمْ ، وَفِطْرَةُ جِنْسِنَا ... غَدَتْ عِلَّةً فِي النَّحْوِ تَسْتَلْزِمُ الضَّمَّا »

* * *

إِذَا كَـانَ سِـرِّي عِنْـدَ رَبِّي مُنَـزَّهـاً ... فَمَـا ضَـرَّنِـي وَاشٍ أَتَـىٰ بِغَـرِيـبِ!

* * *

التَّحْذِيرُ مِنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ وَالغُرُورِ

أَيُّهَا السَّالِكُ! إِيَّاكَ وَرُؤْيَةَ النَّفْسِ! إِيَّاكَ وَالغُرُورَ! إِيَّاكَ وَالكِبْرَ! فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ مُهْلِكٌ .

مَا دَخَلَ سَاحَةَ القُرْبِ .. مَنِ ٱسْتَصْغَرَ النَّاسَ ، وَٱسْتَعْظَمَ نَفْسَهُ .

مَنْ أَنَا ، وَمَنْ أَنْتَ ؟! .

أَيْ أَخِي! كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا .. مِسْكِينٌ ، أَوَّلُهُ مُضْغَةٌ ، وَآخِرُهُ جِيفَةٌ .

شَرَفُ جِسْمِ الإِنْسَانِ جَوْهَرُ عَقْلِهِ

شَرَفُ هَذَا العَرَضِ[١] .. جَوْهَرُ العَقْلِ ، العَقْلُ .. مَا عَقَلَ النَّفْسَ ،

---

(١) أرادَ بالعَرَضِ .. الجِسْمَ ، وهو خلافُ ما عليهِ أهلُ اللُّغةِ والمتكلِّمونَ ؛ لأنَّهُ عِندَهُمْ : ما يَعْرِضُ للإنسانِ مِنْ مَرَضٍ وَهَمٍّ وَشُغْلٍ .

وهُوَ ـ أيضاً ـ مِنْ أَحْدَاثِ الدَّهْرِ ، مِنَ المَوتِ وَالمَرَضِ ، والأمرُ يَعْرِضُ للرَّجُلِ يُبْتَلَىٰ بِهِ ، وما عَرَضَ للإنسانِ مِنْ أمرٍ يَحْبِسُهُ مِنْ مَرَضٍ أو لُصُوصٍ ، والآفةُ تَعْرِضُ في الشَّيءِ .

وهُوَ ـ أيضاً ـ حُطَامُ الدُّنيا وَمَتَاعُها ، والطَّمَعُ ، وأنْ يُصِيبَ الشَّيءَ على غِرَّةٍ .

وهوَ : ٱسْمٌ لِمَا لا دَوَامَ لَهُ .

وعندَ المتكلِّمينَ : ما يَقومُ بغيرِه ، كاللَّونِ والطُّعُومِ والرَّوائِحِ والأصواتِ والقُدَرِ والإراداتِ .

وهُوَ ـ أيضاً ـ العَطَاءُ والمَطْلَبُ ، كذا في « تاجِ العَرُوس » ١٨ . ٤٠١ـ٤٠٢ـ٤٠٣ »

وَأَوْقَفَهَا عِنْدَ حَدِّهَا ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَقْلُ المَرْءِ عَاقِلاً لِنَفْسِهِ ، مُوْقِفاً لَهَا عِنْدَ حَدِّهَا ، فِي أَخْذِهَا وَرَدِّهَا . . فَلَيْسَ بِعَقْلٍ .

وَإِذَا حُرِمَ المَرْءُ الجَوْهَرَ . . ذَهَبَ شَرَفُهُ ، وَبَقِيَ عَرَضاً ثَقِيلاً كَثِيفاً ، لاَ يَلِيقُ لِمَرْتَبَةٍ عَزِيزَةٍ ، وَلاَ لِمَنْصِبٍ نَفِيسٍ .

وإِذَا تَمَّ عَقْلُهُ وَكَمُلَ . . صَارَ الحُكْمُ فِيهِ لِلْجَوْهَرِ المَحْضِ ، فَصَلَحَ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ تِيجَانِ المُلُوكِ وَالأَكَاسِرَةِ .

مَرَاتِبُ العَقْلِ :

وَأَوَّلُ مَرَاتِبِ العَقْلِ . . الانْخِلاَعُ عَنِ الأَنَانِيَّةِ الكَاذِبَةِ ، والدَّعْوَىٰ البَاطِلَةِ ، وَصَوْلَةِ الفَتْقِ وَالرَّتْقِ ، وَالوَهْبِ وَالسَّلْبِ .

وَإِذَا حَكَمَهُ المَقَامُ ، وَصَارَ صِفَةً عَلِيَّةً أَيْضاً . . فَاللاَّزِمُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مُبْتَدَاهُ الطِّينِيَّ ، وَمُنْتَهَاهُ التُّرَابِيَّ ، وَأَنْ يَقِفَ بَيْنَ هَذِهِ البُدَاءَةِ وَالنِّهَايَةِ بِمَا يُنَاسِبُهُمَا مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ؛ لأَنَّ وَاعِظَ اللهِ . . فِي قَلْبِ كُلِّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ .

القَلْبُ الغَافِلُ لاَ يَنْتَفِعُ بِالمَوْعِظَةِ

مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ . . لَمْ تَنْفَعْهُ المَوَاعِظُ .

كَيْفَ يَنْتَفِعُ بِالمَوْعِظَةِ ، مَنْ كَانَ قَلْبُهُ غَافِلاً ؟ .

= و ٤٢٤ ، مادة : « عرض » .

ويُخَرَّجُ قولُ السيِّدِ رضيَ اللهُ عنهُ : على نَظْرةِ العَارِفِ المُبْصِرِ ؛ فإنَّهُ رَأى أنَّ الجِسْمَ . . ظِلٌّ زَائِلٌ لا دَوَامَ لَهُ ولا بَقَاءَ ، فَأَطْلَقَ عليهِ اسْمَ العَرَضِ ، وقد تَخفَى هذهِ النُّكْتَةُ على الكثيرِ ، فَافْهَمْ .

قَالَ سَهْلٌ : الغَفْلَةُ.. سَوَادُ القَلْبِ ، وَقَالَ السَّيِّدُ الأَمِينُ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مِنْ حَدِيثٍ :

« . . . أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ . . صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ . . فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ »[1] .

كَيْفَ يُنْتَفَعُ بِالمَوْعِظَةِ ؟

أَيْ أَخِي! تَنْتَفِعُ مِنْ مَوْعِظَتِي ، وَأَنْتَفِعُ مِنْ مَوْعِظَتِكَ.. إِذَا أَخْلَصَ كُلٌّ مِنَّا .

تَوَاضُعُ السَّيِّدِ وَأُسْلُوبُهُ فِي تَهْذِيبِهِ غَيْرَهُ

أَيْ أَخِي! أَنْتَ أَحْسَنُ مِنِّي ، رَحِمَتْكَ ذِلَّةُ التَّلَقِّي ، وَأَنَا أَخَذَتْنِي سَكْرَةُ التَّعْلِيمِ .

أَيْ أَخِي! إِنْ أَنَا غَلَبْتُ نَفْسِيَ المِسْكِينَةَ ، وَقُلْتُ لَهَا : عَلَّمَكِ اللهُ ، وأَوْجَبَ عَلَيْكِ تَعْلِيمَ الإِخْوَانِ ، وَكَاتِمُ العِلْمِ.. يُلْجَمُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ، فَتَعَبٌ لَكِ ، فَقِفِي عِنْدَ حَدِّكِ ، رُبَّمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ عِنْدَ اللهِ أَجَلُّ مِنْكِ ، أَخْفَاهُ عَنْكِ لِيَخْتَبِرَكِ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ : سَكَنَتْ ثَائِرَتُهَا الكَاذِبَةُ ، وَعَرَفَتْ قَدْرَهَا ، وَوَقَفَتْ عِنْدَ طَوْرِهَا.. فَلَهَا الحَظُّ الأَوْفَرُ ، وَكَذَلِكَ أَنْتَ .

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

كَيْفَ يَفُوزُ الفَقِيرُ ؟

أَيْ أَخِي! إِنْ غَلَبْتَ نَفْسَكَ ، وَأَلْزَمْتَهَا التَّعَلُّمَ ، وَذَبَحْتَ الهَوَىٰ بِسِكِّينِ الاقْتِدَاءِ ، وَأَخَذْتَ الحِكْمَةَ غَاضاً طَرْفَكَ عَنْ شَرَفِكَ وَعِلْمِكَ ، وَحَسَبِكَ وأَبِيْكَ ، وَمَالِكَ وَحَالِكَ . . فَقَدْ فُزْتَ فَوْزاً عَظِيْماً .

كَيْفَ يَثْبُتُ فِي دِيْوَانِ الرِّجَالِ

مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ عَلَىٰ كُلِّ نَفَسٍ وَيَتَّهِمْهَا . . لَمْ يُثْبَتْ عِنْدَنَا فِي دِيْوَانِ الرِّجَالِ (١) .

تَوَاضُعُ السَّيِّدِ لِإِخْوَانِهِ وَنَفْيُهُ التَّقَدُّمَ عَلَيْهِمْ

أَيْ سَادَةُ! أَنَا لَسْتُ بِشَيْخٍ! لَسْتُ بِمُقَدَّمٍ عَلَىٰ هَذَا الجَمْعِ! لَسْتُ بِوَاعِظٍ! لَسْتُ بِمُعَلِّمٍ! .

---

(١) فيه إشارةٌ إلى أنَّهُ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ رئيسُهم ، وقائدُ رَكْبِهِمْ ، ومنه قولُ الحافظِ الوليِّ السيِّدِ محمد مهدي الصَّيادِيِّ الحُسينيِّ ، الشهيرِ بـ : الرَّوَّاسِ ـ رضي اللهُ عنهُ ـ مِنْ قصيدتينِ ، مدحَ فيهما جَدَّهُ الإمامَ صاحبَ « البُرهانِ » ، كما في ديوانِهِ « مِشْكاةِ اليقينِ » ص (٦٦ و ٦٨) ، ونصُّهُ : «

فَحْلُ كُبَّارِهِمْ ، عَظِيْمُ المَزَايَا ... المُفَدَّىٰ رَبُّ اليَدِ البَيْضَاءِ
عَلَمُ الأَوْلِيَاءِ ذُخْرِي أَبُو العَـ ... ـبَّاسِ ، لَيْثُ الكَتِيْبَةِ الصَّمَّاءِ
يَا رَئِيسَ الأَقْطَابِ حَيّاً وَمَيْتاً ... يَا بْنَ بِنْتِ النَّبِيِّ يَا مَوْلَاتِي

* * *

وَصَبْرَهُ عَنْ سَيِّدِ الرُّسْلِ نَائِباً ... وَوَرَّثَهُ فِي حَالِهِ أَنْبِيَاءَهُ »

* * *

حُشِرْتُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ / إِنْ خَطَرَ لِي أَنِّي شَيْخٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ ، فَأَكُونَ كَآحَادِ المُسْلِمِينَ [١] .

بَابُ القَبُولِ إِلَى اللهِ الإِسْلاَمُ

مُتْ مُسْلِماً وَلاَ تُبَالِ! الإِسْلاَمُ . . حَبْلُ الوُصْلَةِ إِلَى اللهِ

لَوْ عَبَدَ اللهَ غَيْرُ المُسْلِمِ بِعِبَادَةِ الثَّقَلَيْنِ [٢] . . بَعِيدٌ عَنِ اللهِ ، مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ .

وَلَوْ أَتَى العَبْدُ المُسْلِمُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ . . لَهُ مِنَ اللهِ حَظُّ العُبُودِيَّةِ ، ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ، الآيَةَ .

أَحْكِمُوا رَابِطَةَ الوُصْلَةِ مَعَ اللهِ ، بِشَرَائِطِ الإِسْلاَمِ .

« المُسْلِمُ . . مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ » [٣] .

مِنْ كَمَالِ الإِيمَانِ وَالصِّدْقِ وَعْظُكَ نَفْسَكَ

أَيْنَ أَهْلُ الصِّدْقِ ، الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ ، وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ ؟ .

---

(١) سيأتي مِثْلُهُ في ص (٢٠٥) ، قال العارفُ الوَلِيُّ عليٌّ الخَوَّاصُ رضيَ اللهُ عنهُ : « مِنْ علامةِ فَقْدِ النَّفْسِ في حقِّ الفقيرِ : عَدَمُ شَهْوَتِهِ لِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا والآخرةِ » ، « لواقحُ الأنوارِ في طبقاتِ الأخيارِ » ص (٥٢٥) (ترجمة : علي الخواص) ، للإمامِ العارفِ الشَّعْرانيِّ ، رحمةُ اللهِ عليهما .

(٢) الثَّقَلاَنِ : الجِنُّ وَالإِنْسُ .

(٣) رواه البخاريُّ (١٠) ، ومسلمٌ (٤٠) .

أَيْنَ أَهْلُ الإِيمَانِ الكَامِلِ ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الحِكْمَةَ ، وَلاَ يَقِفُ نَظَرُهُمْ عِنْدَ مَوْضِعِهَا ؟ .

مِنْ كَمَالِ الإِيمَانِ وَالصِّدْقِ . . وَعْظُكَ نَفْسَكَ ، وَنَفْعُكَ غَيْرَكَ ، وَأَخْذُكَ الحِكْمَةَ أَيْنَ وَجَدْتَهَا .

ذِكْرُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لاَ شَيْءَ !

كُلُّ الفُقَرَاءِ وَرِجَالِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ . . خَيْرٌ مِنِّي .

أَنَا حُمَيْدُ اللأَشُ ، أَنَا لاَشُ اللأَشِ ، لَكِنَّ الحَقَّ يُقَالُ ، الصُّوفِيُّ : مَنْ صَفَىٰ سِرُّهُ مِنْ كُدُورَاتِ الأَكْوَانِ ، وَمَا رَأَىٰ لِنَفْسِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ مَزِيَّةً .

هَكَذَا كَتَبَ اللهُ وَحَكَمَ ، وَهَذَا ـ وَاللهِ ـ خُلُقُ عَبِيدِهِ ، الَّذِينَ طَهَّرَهُمْ مِنْ رُؤْيَةِ غَيْرِهِ .

الإِنْسَانُ غَيْرٌ وَمَا يَخْتَلِجُ بِسِرِّهِ فَهُوَ غَيْرُ رَبِّنَا

أَيْ أَخِي ! أَنْتَ غَيْرٌ ، وَنَفْسُكَ غَيْرٌ ، وَغَيْرُكَ غَيْرٌ ، كُلُّ مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُكَ ، وَٱخْتَلَجَ بِشَكْلِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ سِرُّكَ . . فَهُوَ غَيْرُ رَبِّنَا .

لاَ تُكَيِّفُهُ الأَفْكَارُ ، وَلاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ .

خَوْفُهُ عَلَىٰ أَحْبَابِهِ مِنَ الفَرَحِ بِالكَرَامَةِ .

أَيْ أَخِي ! أَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ الفَرَحِ بِالكَرَامَةِ وَإِظْهَارِهَا .

الأَوْلِيَاءُ يَسْتَتِرُونَ مِنَ الكَرَامَةِ . . كَٱسْتِتَارِ المَرْأَةِ مِنْ دَمِ الحَيْضِ .

أَيْ أَخِي ! الكَرَامَةُ . . عَزِيزَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المُكْرِمِ ، لَيْسَتْ بِشَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ

لَنَا ؛ لأَنَّ هَذَا الإِكْرَامَ لَمَّا وَرَدَ مِنْ بَابِ الكَرِيمِ . . عَظُمَ وَعَزَّ ، وَتَلَقَّتْهُ القُلُوبُ بِالإِجْلاَلِ .

وَلَمَّا تَحَوَّلَ لَفْظُ النِّسْبَةِ إِلَىٰ العَبْدِ . . هَانَ الأَمْرُ ، وَاسْتَتَرَ الكَامِلُ مِنْ هَذِهِ النِّسْبَةِ ، الَّتِي تَحَوَّلَ أَمْرُهَا مِنْ بَابِ قَدِيمٍ إِلَىٰ بَابِ حَادِثٍ ، خِيفَةً مِنِ اسْتِحْسَانِ النِّسْبَةِ الثَّانِيَةِ ؛ فَإِنَّ قَبُولَهَا سُمٌّ قَاتِلٌ .

لَيْسَ لِلْعَاقِلِ إِلاَّ قَرْعُ بَابِ الكَرَمِ

كُلُّنَا عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَاهُ ، كُلُّنَا جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمَهُ ، كُلُّنَا ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَاهُ .

لَيْسَ لِلْعَاقِلِ . . إِلاَّ قَرْعُ بَابِ الكَرَمِ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ .

المَخْلُوقُ . . ضَعْفٌ ، عَجْزٌ ، فَقْرٌ ، حَاجَةٌ ، عَدَمٌ مَحْضٌ .

أَكْرَمَ اللهُ أَحْبَابَهُ المُتَّقِينَ ، وَأَظْهَرَ عَلَىٰ أَيْدِيهِمُ الخَوَارِقَ ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِهِ ، وَرَفَعَ مَنَارَهُمْ ، فَاشْتَغَلُوا بِهِ ـ تَعَالَىٰ ـ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ .

خَافُوا اللهَ ، فَأَسْكَنَهُمْ جَنَّةَ قُرْبِهِ ، وَأَكْرَمَهُمْ إِذْ نَزَلُوا بِهِ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ الكَرِيمِ :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

القَوْلُ بِتَأْثِيرِ غَيْرِهِ شِرْكٌ

شَرُّ الهَوَىٰ . . رُؤْيَةُ الأَغْيَارِ ، وَالاشْتِغَالُ عَنِ الخَالِقِ بِالمَخْلُوقِ ! .

مَا الَّذِي يَرَاهُ العَاقِلُ مِنَ الاشْتِغَالِ بِغَيْرِهِ ؟ .

القَوْلُ بِتَأْثِيرِ غَيْرِهِ فِي كُلِّ أَثَرٍ مَا ، قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ ، كُلِّيٍّ أَوْ جُزْئِيٍّ . . شِرْكٌ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا :

« يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : اِحْفَظِ اللهَ . . يَحْفَظْكَ ، اِحْفَظِ اللهَ . . تَجِدْهُ تُجَاهَكَ .

إِذَا سَأَلْتَ . . فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ . . فَاسْتَعِنْ بِاللهِ .

وَاعْلَمْ! أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ . . لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ .

وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ . . لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »[1] .

تَفَرَّقَتِ الطَّوَائِفُ شِيَعاً

أَيْ سَادَةُ! تَفَرَّقَتِ الطَّوَائِفُ شِيَعاً ، وَحُمَيْدٌ / بَقِيَ مَعَ أَهْلِ الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ ، وَالمَسْكَنَةِ وَالاضْطِرَارِ .

تَحْذِيرُهُ مِنَ الكَذِبِ وَقَوْلُهُ فِي الحَلَّاجِ

إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ عَلَى اللهِ! ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

يَنْقُلُونَ عَنِ الحَلَّاجِ أَنَّهُ قَالَ : أَنَا الحَقُّ! أَخْطَأَ بِوَهْمِهِ! لَوْ كَانَ عَلَى الحَقِّ . . مَا قَالَ : أَنَا الحَقُّ! .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦) ، وقال : « حديث حسن صحيح » .

يَذْكُرُونَ لَهُ شِعْراً يُوهِمُ الوَحْدَةَ ، كُلُّ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ بَاطِلٌ .

مَا أَرَاهُ رَجُلاً وَاصِلاً أَبَداً ، مَا أَرَاهُ شَرِبَ ، مَا أَرَاهُ حَضَرَ ، مَا أَرَاهُ سَمِعَ إِلاَّ رَنَّةً أَوْ طَنِيناً ، فَأَخَذَهُ الوَهْمُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ .

مَنِ ازْدَادَ قُرْباً وَلَمْ يَزْدَدْ خَوْفاً . . فَهُوَ مَمْكُورٌ .

إِيَّاكُمْ وَالقَوْلَ بِهَذِهِ الأَقَاوِيلِ ! إِنْ هِيَ إِلاَّ أَبَاطِيلُ .

دَرَجَ السَّلَفُ عَلَىٰ الحُدُودِ بِلاَ تَجَاوُزٍ .

بِاللهِ عَلَيْكُمْ ! هَلْ يَتَجَاوَزُ الحَدَّ . . إِلاَّ الجَاهِلُ ؟ .

هَلْ يَدُوسُ عَثْرَةً فِي الجُبِّ . . إِلاَّ الأَعْمَىٰ ؟ .

مَا هَذَا التَّطَاوُلُ ؟! وَذَلِكَ المُتَطَاوِلُ . . سَاقِطٌ بِالجُوعِ ، سَاقِطٌ بِالعَطَشِ ، سَاقِطٌ بِالنَّوْمِ ، سَاقِطٌ بِالوَجَعِ ، سَاقِطٌ بِالفَاقَةِ ، سَاقِطٌ بِالهَرَمِ ، سَاقِطٌ بِالعَنَاءِ .

أَيْنَ هَذَا التَّطَاوُلُ / مِنْ صَدْمَةِ صَوْتِ : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ؟ .

تَجَاوُزُ العَبْدِ حَدَّهُ مَعَ إِخْوَانِهِ يُعَدُّ نَاقِصاً

العَبْدُ مَتَىٰ تَجَاوَزَ حَدَّهُ مَعَ إِخْوَانِهِ ، يُعَدُّ فِي الحَضْرَةِ نَاقِصاً .

التَّجَاوُزُ . عَلَمُ نَقْصٍ ، يُنْشَرُ عَلَىٰ رَأْسِ صَاحِبِهِ ، يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِالدَّعْوَىٰ ، يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِالغَفْلَةِ ، يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِالزَّهْوِ ، يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِالحِجَابِ .

الوِلَايَةُ لَيسَتْ بِفِرْعَوْنِيَّةٍ

يَتَحَدَّثُ القَوْمُ بِالنِّعَمِ ، لَكِنْ مَعَ مُلَاحَظَةِ الحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ ، الحُقُوقُ الإِلٰهِيَّةُ . . تَطْلُبُهُمْ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ .

الوِلَايَةُ . . لَيسَتْ بِفِرْعَوْنِيَّةٍ ، وَلَا بِنُمْرُوْدِيَّةٍ! قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ . وَقَالَ قَائِدُ الأَوْلِيَاءِ ، وَسَيِّدُ الأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« لَسْتُ بِمَلِكٍ »[1] . نَزَعَ ثَوْبَ التَّعَالِي وَالإِمْرَةِ وَالفَوْقِيَّةِ .

كَيْفَ يَتَجَرَّأُ عَلَى ذَلِكَ العَارِفُونَ ، وَاللهُ يَقُولُ : ﴿وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ؟! .

وَصْفُ الافْتِقَارِ إِلَى اللهِ . . وَصْفُ المُؤْمِنِينَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ﴾ .

حَثُّهُ إِخْوَانَهُ عَلَى تَعَلُّمِ عِلْمِ القَوْمِ

هَذَا الَّذِي أَقُولُهُ . . عِلْمُ القَوْمِ ، تَعَلَّمُوا هَذَا العِلْمَ ؛ فَإِنَّ جَذَبَاتِ الرَّحْمٰنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ قَلَّتْ .

العَاقِلُ كُلُّ أَعْمَالِهِ للهِ

اِصْرِفُوا الشَّكْوَى إِلَى اللهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ .

---

(١) رواه الطبرانيُّ في « الأوسط » (١٢٨٢) ، والحاكم في « المستدرك » ٢ : ٤٦٦ ، وصحّحه ، ووافقه الذّهبيُّ ، وأورده الهيثميُّ في « مجمع الزوائد » ٨ : ٥٨٥ ، وقال : « رواه الطبرانيُّ في « الأوسط » ، وفيه : مَنْ لم أعرفْهُمْ » .

العَاقِلُ .. لاَ يَشْكُو لا إِلَىٰ مَلِكٍ ، وَلاَ إِلَىٰ سُلْطَانٍ ، العَاقِلُ .. كُلُّ أَعْمَالِهِ للهِ .

تَخَلُّقُهُ بِمَا يَقُولُ

أَيْ سَادَةُ! مَا قُلْتُ لَكُمْ إِلاَّ مَا فَعَلْتُهُ وَتَخَلَّقْتُ بِهِ ، فَلاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيَّ .

كَيْفِيَّةُ الأَخْذِ عَنِ الوُعَّاظِ

إِذَا رَأَيْتُمْ وَاعِظاً أَوْ قَاصًّا أَوْ مُدَرِّساً .. فَخُذُوا مِنْهُ كَلاَمَ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَكَلاَمَ رَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَلاَمَ أَئِمَّةِ الدِّينِ ، الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَدْلاً ، وَيَقُولُونَ حَقًّا ، وَاطْرَحُوا مَا زَادَ .

وَإِنْ أَتَىٰ بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. فَاضْرِبُوا بِهِ وَجْهَهُ .

تَحْذِيرُهُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ النَّبِيِّ (ﷺ)

الحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ النَّبِيِّ العَظِيمِ! صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

العِرَاقُ أَخَّاذَةُ المَشَايِخِ

كَانَ العِرَاقُ أَخَّاذَةَ المَشَايِخِ[1] ، وَعَيْبَةَ العَارِفِينَ[2] .

---

(١) أي : يَأْخُذُ إليهِ المشايخَ ، لكثرةِ ما فيه من عارفين ، وعلماء راسخين .

(٢) العَيْبَةُ : ما يُجْعَلُ فِيهِ الثيابُ ، وَوِعَاءٌ مِنْ أَدَمٍ يكون فيه المَتَاعُ . والعَيْبَةُ مِنَ =

حَثُّهُ إِخْوَانَهُ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ القَوْمِ

مَاتَ القَوْمُ ، اللهَ اللهَ بِمُتَابَعَتِهِمْ! أُخْلُفُوهُمْ بِحُسْنِ التَّخَلُّقِ ، أُعْقُبُوهُمْ بِصِحَّةِ الصِّدْقِ ، لاَ تَلْبِسُوا ثَوْبَ قَوْلِهِ :

﴿ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ .

يَطْلُبُ مِنْ إِخْوَانِهِ عَدَمَ تَخْجِيلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ

أَيْ إِخْوَانِي! لاَ تُخْجِلُونِي غَداً بَيْنَ يَدَيِ العَزِيزِ سُبْحَانَهُ ، وَقَدْ سَبَقَكُمْ أَصْحَابُ الأَعْمَالِ المَرْضِيَّاتِ .

كُلُّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الفَقِيرِ . أَعَزُّ مِنَ الكِبْرِيْتِ الأَحْمَرِ[١] .

إِيَّاكُمْ وَضَيَاعَ الأَوْقَاتِ ؛ فَإِنَّ الوَقْتَ سَيْفٌ ، إِنْ لَمْ يَقْطَعْهُ الفَقِيرُ . . قَطَعَهُ[٢] ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا﴾ .

الأَدَبُ بَابُ الأَرَبِ

عَلَيْكُمْ بِالأَدَبِ ؛ فَإِنَّ الأَدَبَ . . بَابُ الأَرَبِ ، حُكِيَ عَنْ سَعِيْدِ بنِ المُسَيِّبِ أَنَّهُ قَالَ :

---

* الرَّجُلِ : هو موضِعُ سِرِّهِ ، وفي الحديث :

« الأَنْصَارُ عَيْبَتِي وَكَرِشِي » . أي : خَاصَّتِي وموضِعُ سِرِّي ، قالَهُ الزَّبِيدِيُّ في « تاج العروس » ٣ : ٤٤٩ ، مادة : « عيب » .

(١) مرَّ بكَ بيانُ معناه ص (٩) .

(٢) في المطبوع ص (٣٤) : « إنَّ قَطَعَهُ الفقيرُ ، قَطَعَهُ » . والمُثْبَتُ هو الظَّاهِرُ ، واللهُ أعلمُ .

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَا للهِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَمْ يَتَأَدَّبْ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ .. كَانَ مِنَ الأَدَبِ فِي عُزْلَةٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

سُئِلَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ عَنْ أَنْفَعِ الأَدَبِ ؟ فَقَالَ : التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا ، وَالمَعْرِفَةُ بِحُقُوقِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عَبْدِهِ .

وَقَالَ سَهْلُ بنُ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : مَنْ قَهَرَ نَفْسَهُ بِالأَدَبِ .. عَبَدَ اللهَ بِالإِخْلَاصِ .

الأَدَبُ مَعَ المَشَايِخِ

وَمِنَ الأَدَبِ أَيْضاً : الأَدَبُ مَعَ المَشَايِخِ ؛ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ قُلُوبَ المَشَايِخِ .. سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِ الكِلَابَ الَّتِي تُؤْذِيهِ .

مَرَاتِبُ الأَدَبِ :

أَدَبُ صُحْبَةِ مَنْ فَوْقَكَ .. الخِدْمَةُ ، وَمَنْ هُوَ مِثْلُكَ .. الإِيثَارُ وَالفُتُوَّةُ ، وَمَنْ دُونَكَ .. الشَّفَقَةُ وَالتَّرْبِيَةُ وَالمُنَاصَحَةُ .

شَأْنُ العَارِفِ مَعَ اللهِ وَنَفْسِهِ وَغَيْرِهِ

صُحْبَةُ العَارِفِ مَعَ اللهِ .. بِالمُوَافَقَةِ ، وَمَعَ الخَلْقِ .. بِالمُنَاصَحَةِ ، وَمَعَ النَّفْسِ .. بِالمُخَالَفَةِ ، وَمَعَ الشَّيْطَانِ .. بِالعَدَاوَةِ .

إشارتُه إلى ولايته

إنْكَارُ العَبْدِ نِعْمَةَ اللهِ . . مِنْ مُوْجِبَاتِ السَّلْبِ .

أنَا مِنَ الَّذِينَ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

إنَّ اللهَ إذَا وَهَبَ عَبْدَهُ نِعْمَةً . . مَا اسْتَرَدَّهَا .

شُكْرُ النِّعْمَةِ . . مَعْرِفَةُ قَدْرِهَا .

مَنْ أَرَادَ أَنْ تَدُومَ نِعْمَتُهُ . . فَلْيَعْرِفْ قَدْرَهَا . . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَهَا ، فَلْيَشْكُرْهَا .

مَعْنَىٰ الشُّكْرِ :

الشُّكْرُ ـ مَا قَالَهُ الجُنَيْدُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ وَهُوَ : أَنْ لاَ يَسْتَعِينَ العَبْدُ بِنِعْمَتِهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ .

الشُّكْرُ . وُقُوفُ القَلْبِ عَلَىٰ جَادَّةِ الأَدَبِ مَعَ المُنْعِمِ

الشُّكْرُ . أَنْ يَتَّقِيَ العَبْدُ رَبَّهُ حَقَّ تُقَاتِهِ ، وَذَلِكَ أَنْ يُطَاعَ فَلاَ يُعْصَىٰ ، وَيُذْكَرَ فَلاَ يُنْسَىٰ ، وَيُشْكَرَ وَلاَ يُكْفَرَ .

الشُّكْرُ . اجْتِنَابُ مَا يُغْضِبُ المُنْعِمَ تَعَالَىٰ .

الشُّكْرُ . رُؤْيَةُ المُنْعِمِ ، لاَ رُؤْيَةُ النِّعْمَةِ .

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : « أَتَانِي رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي لَيْلَةٍ ، فَدَخَلَ مَعِي فِي لِحَافِي ، حَتَّىٰ مَسَّ جِلْدِي جِلْدَهُ ، ثُمَّ قَالَ :

« يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ! ذَرِينِي أَتَعَبَّدْ لِرَبِّي » .

قُلْتُ : إنِّي أُحِبُّ قُرْبَكَ ، وَأَذِنْتُ لَهُ ، فَقَامَ إِلَىٰ قِرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ ، فَتَوَضَّأَ ، وَأَكْثَرَ صَبَّ المَاءَ ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَبَكَىٰ حَتَّىٰ سَالَتْ دُمُوعُهُ عَلَىٰ صَدْرِهِ ، ثُمَّ رَكَعَ فَبَكَىٰ ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَىٰ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَبَكَىٰ ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ جَاءَ بِلاَلٌ فَآذَنَهُ بِالصَّلاَةِ .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ! مَا يُبْكِيكَ ؟ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! فَقَالَ :

« أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟! »[1] .

قَالَ دَاودُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : أَيْ رَبِّ! كَيْفَ أَشْكُرُكَ ، وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِكَ ؟! .

فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ : الآنَ شَكَرْتَنِي .

الشُّكْرُ . . طَلَبُ المُنْعِمِ ، وَرَفْضُ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا .

طَلَبُ المُنْعِمِ . . يَصِحُّ بِالزُّهْدِ ، وَالزَّاهِدُ . . مَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا ، وَلاَ يُبَالِي مَنْ أَخَذَهَا ، قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ ، رُضْوانُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلاَمُهُ :

دُنْيَا تُخَادِعُنِي كَأَنْــــي لَسْتُ أَعْرِفُ حَالَهَا
ذَمَّ الإِلَهُ حَرَامَهَا وَأَنَا اجْتَنَبْتُ حَلاَلَهَا

(١) رواه بهذا اللفظِ القُشَيْرِيُّ في « رسالتِهِ » ١ : ٥٤٥ ـ ٥٤٦ ، باب الشكر ، وبنحوِهِ ابنُ حِبَّانَ (٦٢٠) ، وابنُ كثيرٍ في « تفسيره » ١ : ٤٤١ ، وانظر « مواردَ الظمآن » ١ : ١٣٩ ، و« البيان والتعريف » ١ : ١٢٥ .

بَسَطَتْ إِلَـيَّ يَمِينَهَا فَكَفَفْتُهَا وَشِمَالَهَا
وَرَأَيْتُهَا مُحْتَاجَةً فَوَهَبْتُ جُمْلَتَهَا لَهَا

***

مَعْنَى الزُّهْدِ :

قَالَ العَارِفُونَ : الزُّهْدُ .. قِصَرُ الأَمَلِ ، لَيْسَ بِأَكْلِ الغَلِيظِ ، وَلاَ لُبْسِ العَبَاءَةِ .

مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا .. وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً يَغْرِسُ الحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

كُلُّ الخَيْرِ فِي التَّقْوَىٰ

كُلُّ الخَيْرِ جَعَلَهُ اللهُ فِي بَيْتٍ ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ التَّقْوَىٰ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ .

تَحْذِيرُهُ مِنَ الدُّنْيَا وَتَرْغِيبُهُ فِي الرُّكُونِ إِلَىٰ المَوْلَىٰ

أَيْ سَادَةُ! أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا! وَأُحَذِّرُكُمْ رُؤْيَةَ الأَغْيَارِ! الأَمْرُ صَعْبٌ ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ .

إِيَّاكُمْ وَهَٰذِهِ البَطَالاَتِ! إِيَّاكُمْ وَهَٰذِهِ الغَفَلاَتِ! إِيَّاكُمْ وَالعَوَالِمَ! إِيَّاكُمْ وَالمُحْدَثَاتِ! .

اُطْلُبُوا الكُلَّ ، بِتَرْكِ الكُلِّ ، مَنْ تَرَكَ الكُلَّ . . نَالَ الكُلَّ ، وَمَنْ أَرَادَ الكُلَّ . . فَاتَهُ الكُلُّ .

كُلُّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّلَبِ . . لاَ يُصْلِحُهُ إِلاَّ تَرْكُهُ وَالوُقُوفُ وَرَاءَهُ .

وَحِّدُوا المَطْلُوبَ ، تَنْدَرِجْ تَحْتَ تَوْحِيْدِكُمْ كُلُّ المَطَالِبِ .

مَنْ حَصَلَ لَهُ اللهُ . . حَصَلَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ فَاتَهُ اللهُ . . فَاتَهُ كُلُّ شَيْءٍ .

بِاللهِ عَلَيْكُمْ هَذِهِ المَعْرِفَةُ تَمُرُّ ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! مَنْ خَرَجَ عَنْ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ، وَصَفَعَ أُبَّهَةَ طَبْعِهِ . . تَخَلَّصَ مِنْ قَيْدِ الجَهْلِ .

لَيْسَ الأَمْرُ جُبَّةَ صُوْفٍ

لَيْسَ الأَمْرُ ـ كَمَا تَظُنُّونَ ـ جُبَّةَ صُوْفٍ ، وَتَاجاً ، وَثَوْباً قَصِيْراً .

جُبَّةُ حُزْنٍ ، وَتَاجُ صِدْقٍ ، وَثَوْبُ تَوَكُّلٍ ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ .

العَارِفُ ظَاهِرُهُ الشَّرِيْعَةُ وَبَاطِنُهُ المَحَبَّةُ

العَارِفُ لاَ يَخْلُو ظَاهِرُهُ مِنْ بَوَارِقِ الشَّرِيْعَةِ ، وَبَاطِنُهُ مِنْ نِيْرَانِ المَحَبَّةِ ، يَقِفُ مَعَ الأَمْرِ ، وَلاَ يَنْحَرِفُ عَنِ الطَّرِيْقِ ، وَقَلْبُهُ يَتَقَلَّبُ عَلَى جَمْرِ الوَجْدِ ، وَجْدُهُ إِيْمَانٌ ، وَوُقُوفُهُ إِذْعَانٌ .

« الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[1] . هَكَذَا أَخْبَرَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ .

---

(١) رواه مسلم (٨) .

أَلْزَمَنَا الإِحْسَانُ . . أَنْ نَقِفَ أَمَامَهُ وُقُوفَ مَنْ يَرَاهُ ، وَهُوَ لاَ تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

عِلْمٌ ، وأَمْرٌ ، وَإِرَادَةٌ ، وَبَعْدَهَا الإِمْكَانُ ، وَبَعْدَ الإِمْكَانِ : التَّكْوِينُ ، وَبَعْدَهُ التَّكْلِيفُ ، وَبَعْدَهُ : الفَصْلُ أَوِ الوَصْلُ .

صِدْقُ العُبُودِيَّةِ التَّسْلِيمُ

صِدْقُ العُبُودِيَّةِ . . أَنْ يُسَلِّمَ العَبْدُ لِسَيِّدِهِ .

الفَقِيرُ إِذَا انْتَصَرَ لِنَفْسِهِ . . تَعِبَ ، وَإِذَا سَلَّمَ الأَمْرَ لِمَوْلاَهُ . . نَصَرَهُ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَةٍ وَلاَ أَهْلٍ .

نِيَابَتُهُ عَنْ جَدِّهِ المُصْطَفَىٰ (ﷺ)

أَقَامَنَا اللهُ أَئِمَّةَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ بِالنِّيَابَةِ عَنْ نَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

مَنِ اقْتَدَىٰ بِنَا . . سَلِمَ ، وَمَنْ أَنَابَ إِلَىٰ اللهِ بِنَا . . غَنِمَ .

نَحْنُ أَهْلَ بَيْتٍ يُدَافِعُ اللهُ عَنْهُمْ

الحَقُّ يُقَالُ : نَحْنُ ـ أَهْلَ بَيْتٍ ـ مَا أَرَادَ سَلْبَنَا سَالِبٌ . . إِلاَّ وَسُلِبَ ، وَلاَ نَبَحَ عَلَيْنَا كَلْبٌ . . إِلاَّ وَجَرِبَ ، وَلاَ هَمَّ عَلَىٰ ضَرْبِنَا ضَارِبٌ . . إِلاَّ وَضُرِبَ ، وَلاَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ حَائِطِنَا حَائِطٌ . . إِلاَّ وَخَرِبَ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

إِنْكَارُ بَوَارِقِ الفَتَّاحِ جَهْلٌ بِهِ

إِنْكَارُ بَوَارِقِ الأَرْوَاحِ . . جَهْلٌ بِمَدَدِ الفَتَّاحِ ، لاَ تَعْطِيلَ لِكَلِمَةِ اللهِ :

﴿ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ .

يَتَوَلَّىٰ أُمُورَهُمْ وَأُمُورَ مُنَادِيهِمْ وَمَنْ يَنْزِلُ بِنَادِيهِمْ ، حَالَ حَيَاتِهِمْ وَبَعْدَ مَمَاتِهِمْ ، بِلُحُوقِ عِلْمٍ مِنْهُمْ ، وَبِغَيْرِ لُحُوقِ عِلْمٍ مِنْهُمْ .

الْعَبْدُ إِذَا كَانَ رَاحِماً . يَسْتُرُ النَّائِمَ ، وَلاَ يَذْكُرُ لَهُ ذَلِكَ ، يُوصِلُ الْخَيْرَ إِلَىٰ الْفَقِيرِ ، وَلاَ يُعَرِّفُهُ الْخَبَرَ .

اللهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ، الْعَظِيمُ الْكَرِيمُ ، يَنْتَصِرُ لِعَبْدِهِ الْوَلِيِّ مِنْ حَيْثُ لاَ يَدْرِي ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

تَعْصِمُهُ جِبَالُ عِنَايَتِهِ مِنْ مَاءِ غَرَقِ الأَكْدَارِ وَالاقْتِدَارِ ، تَدْفَعُ عَنْهُ وَعَنْ مُحِبِّيهِ الأَقْدَارَ بِالأَقْدَارِ ، لاَ بِهِ! وَلَكِنْ لَهُ التَّنَزُّلاَتُ الْمُحْكَمَةُ :

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ .

الاعْتِصَامُ بِاللهِ فَوْزٌ لِلْعَبْدِ

مَنِ اعْتَصَمَ بِاللهِ . عُصِمَ ، وَمَنْ وَقَفَ مَعَ الأَغْيَارِ . نَدِمَ .

قَالَ سَيِّدِي الشَّيْخُ مَنْصُورٌ الرَّبَّانِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : الاعْتِصَامُ بِاللهِ . ثِقَتُكَ بِهِ ، وَتَنْزِيهُ خَوَاطِرِكَ عَنْ غَيْرِهِ .

الْقَوْمُ أَرْشَدُونَا ، دَلُّونَا عَلَىٰ الطَّرِيقِ ، كَشَفُوا لَنَا حِجَابَ الإِغْلاَقِ عَنْ خَزَائِنِ دُرَرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، عَرَّفُونَا حِكْمَةَ الأَدَبِ مَعَ اللهِ وَرَسُولِهِ .

« هُمُ الْقَوْمُ ، لاَ يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »[١] .

---

(١) رواه مسلمٌ (٢٦٨٩) .

مَنْ آمَنَ بِاللهِ ، وَعَرَفَ شَأْنَ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَحَبَّهُمْ وَأَتْبَعَهُمْ .

القَوْمُ بَايَعُوا اللهَ بِصِدْقِ النِّيَّاتِ

أَيْ سَادَةُ! القَوْمُ . بَايَعُوا اللهَ بِصِدْقِ النِّيَّاتِ ، وَخَالِصِ الطَّوِيَّاتِ عَلَىٰ كَثْرَةِ المُجَاهَدَاتِ ، وَمُلاَزَمَةِ المُرَاقَبَاتِ وَالطَّاعَاتِ ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ جَمِيعِ المَكْرُوهَاتِ ، وَقَالَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ فِيهِمْ :

﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

بَادَرُوا رُكُوبَ العَزَائِمِ بِالعَزْمِ ، وَقُوَّةِ الحَزْمِ ، فَهَجَرُوا المَنَامَ ، وَتَرَكُوا الشَّرَابَ وَالطَّعَامَ ، وَقَامُوا بِالخِدْمَةِ فِي حَنَادِسِ اللَّيْلِ وَالظَّلاَمِ ، وَخَدَمُوا بِالخُشُوعِ وَالسَّهَرِ وَالقِيَامِ ، وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالصِّيَامِ ، وَتَمَلَّلُوا فِي مَحَارِيبِهِمْ ، بَيْنَ يَدَيْ مَحْبُوبِهِمْ ، لِنَيْلِ مَطْلُوبِهِمْ ، حَتَّىٰ وَصَلُوا إِلَىٰ مَقَامِ القُرْبِ وَمَحَلِّ الأُنْسِ ، وَظَهَرَ لَهُمْ سِرُّ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ :

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

فَأَعْطَاهُمُ الدَّرَجَةَ العُلْيَا ، وَالمَحَلَّ الأَدْنَىٰ ، وَلاَ رَيْبَ! .

فَالقَرِيبُ مِنَ القَرِيبِ . قَرِيبٌ ، وَالمُحِبُّ عِنْدَ أَحْبَابِ الحَبِيبِ . . حَبِيبٌ .

حَبِيبٌ لَهُمْ ، حَبِيبٌ لِمُحِبِّيهِمْ ، مَحْبُوبٌ عِنْدَ اللهِ ، تَرْفَعُهُ بَرَكَةُ مَحَبَّتِهِ إِلَىٰ دَرَجَةِ المَحْبُوبِيَّةِ : « مَا شَاءَ اللهُ كَانَ »[1] .

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٥) .

حَثُّهُ إخْوَانَهُ عَلَىٰ التَّقَرُّبِ إلَىٰ أَوْلِيَاءِ اللهِ

أَيْ سَادَةُ! عَلَيْكُمْ بِالتَّقَرُّبِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ! مَنْ وَالَىٰ وَلِيَّ اللهِ . . وَالَىٰ اللهَ ، وَمَنْ عَادَىٰ وَلِيَّ اللهِ . . عَادَىٰ اللهَ .

مَنْ أَحَبَّ عَدُوَّكَ . . هَلْ تُحِبُّهُ يَا أَخِي ؟ لاَ واللهِ! اللهُ أَغْيَرُ مِنَ الخَلْقِ ، يَغَارُ ، وَيَفْعَلُ ، وَيَنْتَقِمُ ، وَيَقْهَرُ .

مَنْ أَحَبَّ مُحِبَّكَ . . هَلْ تُبْغِضُهُ ؟ لاَ وَاللهِ! اللهُ أَكْرَمُ مِنَ الخَلْقِ ، يُحْسِنُ ، وَيُجْمِلُ ، وَيُنْعِمُ ، وَيُكْرِمُ ، وَهُوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

نِعَمُ اللهِ تَعَالَىٰ تُذْكَرُ ، مَنْ قَرَّبَتْهُ مِنَ العَزِيزِ . . فَهُوَ قَرِيبٌ ، وَمَنْ أَبْعَدَتْهُ عَنْهُ . . فَهُوَ بَعِيدٌ .

المُوَفَّقُ مَنْ جَذَبَتْهُ العِنَايَةُ إلَىٰ الوَلِيِّ

أَيُّهَا البَعِيدُ عَنَّا ، المَمْقُوتُ مِنَّا ، مَا كَانَ هَذَا مِنْكَ يَا مِسْكِينُ ؟ .

لَوْ كَانَ لَنَا فِيكَ مَقْصَدٌ يَشْهَدُ بِحُسْنِ ٱسْتِعْدَادِكَ وَخَالِصِ حُبِّكَ إلَىٰ اللهِ وَأَهْلِهِ . . اِجْتَذَبْنَاكَ إلَيْنَا ، وَحَسَبْنَاكَ عَلَيْنَا ، شِئْتَ . . وَإلاَّ ، لَكِنَّ الحَقَّ يُقَالُ :

حَظُّكَ . . مَنَعَكَ ، وَعَدَمُ ٱسْتِعْدَادِكَ . . قَطَعَكَ ، لَوْ حَسَبْنَاكَ مِنَّا . . مَا تَبَاعَدْتَ عَنَّا .

كُشِفَ لِي قَبْلَكَ

خُذْ مِنِّي ـ يَا أَخِي! ـ عِلْمَ القَلْبِ ، خُذْ مِنِّي عِلْمَ الذَّوْقِ ، خُذْ مِنِّي عِلْمَ الشَّوْقِ .

أَيْنَ أَنْتَ مِنِّي يَا أَخَا الحِجَابِ ؟! كُشِفَ لِي قَبْلَكَ .

أَيْ أَخِي! لو سَمِعْتَ نُصْحِي .. لَتَبِعْتَنِي ، لاَ تَقُلْ : لَوْ أَخَذْتَنِي .. تَبِعْتُكَ ، أَنَا عَلَىٰ النَّصِيحَةِ ، وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ .. عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَعَ وَتَتَّبِعَ .

إِعْمَلْ بِطَاعَةِ اللهِ ، وَأَرْضَ بِقَضَاءِ اللهِ ، وَٱسْتَأْنِسْ بِذِكْرِ اللهِ .. تَكُنْ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللهِ .

مَنْ عَرَفَ اللهَ .. زَالَ هَمُّهُ .

العَارِفُ .. مَنْ هَاجَرَ وَتَجَرَّدَ مِنَ الخَلْقِ .

المَغْبُونُ مَنْ لَمْ يُطِعِ اللهَ

أَيْ سَادَةُ! المَغْبُونُ .. مَنْ أَنْفَقَ عُمْرَهُ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ .

وَالزَّاهِدُ .. مَنْ تَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ يَشْغَلُ عَنِ اللهِ .

وَالمُقْبِلُ .. مَنْ أَقْبَلَ إِلَىٰ اللهِ .

وَذُو المُرُوءَةِ .. مَنْ لَمْ يَنْزِلْ بِدُونِ اللهِ .

وَالقَوِيُّ .. مَنِ ٱسْتَقْوَىٰ بِاللهِ .

تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ :

عَلَيْكُمْ بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ! وَهُوَ : فِقْدَانُ رُؤْيَةِ مَا سِوَاهُ لِوَحْدَانِيَّتِهِ .

لَفْظُ الجَلاَلَةِ (اللهُ) هُوَ الاسْمُ الأَعْظَمُ

إِنْ قُلْتَ : يَا اللهُ! .. فَقَدْ ذَكَرْتَهُ بِٱسْمِهِ الأَعْظَمِ ، وَلَكِنْ حُرِمْتَ هَيْبَتَهُ ؟ لأَنَّكَ تَقُولُ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، لاَ مِنْ حَيْثُ هُوَ .

الغِنَىٰ الأَكْبَرُ الأُنْسُ بِاللهِ

الغِنَىٰ الأَكْبَرُ . الأُنْسُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .

وَالفَاقَةُ العُظْمَىٰ . دَوَامُ الأُنْسِ بِالمَوْتَىٰ (١) ، وَأَغْلَظُ حُجُبِ القُلُوبِ . . الاسْتِنَادُ إِلَىٰ المَرْبُوبِ .

مَرْكَزُ المَعْرِفَةِ القَلْبُ

مَعْدِنُ المَعْرِفَةِ . . القَلْبُ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾

التَّقْوَىٰ بَابُ المُشَاهَدَةِ وَالوُصْلَةِ

أَيْ سَادَةُ ! مَنْ يَتَّقِ اللهَ بِحِفْظِ السِّرِّ عَنْ آفَاتِ الالْتِفَاتِ إِلَىٰ السِّوَىٰ . . يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنْ حُجُبِ الإِبْعَادِ ، وَيَرْزُقْهُ المُشَاهَدَةَ وَالوُصْلَةَ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ .

سَبَبُ مَعْرِفَةِ العَبْدِ رَبَّهُ

سَبَبُ مَعْرِفَةِ العَبْدِ رَبَّهُ . . مَعْرِفَةُ العَبْدِ نَفْسَهُ .

« مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ » (٢) .

---

(١) أرادَ بالموتىٰ . . الأحياءَ مِنْ أهلِ الغَفْلَةِ ، فافهمْ .

(٢) ذَكَرَهُ المُلا عليٌّ القَارِي في كتابه « المَصْنُوع في معرفة الحديث الموضُوع » (٣٤٩) ، وقالَ : « موضُوعٌ » .

وقال الإمامُ أبو المظفَّر السَّمْعَانيُّ في كتابه « القواطع » في أصول الفقه : =

مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ لِرَبِّهِ .. أَفْنَىٰ كُلِّيَّتَهُ بِرَبِّهِ[١] .

أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : « أَلاَ مَنْ عَرَفَنِي .. أَرَادَنِي وَطَلَبَنِي ، وَمَنْ طَلَبَنِي .. وَجَدَنِي ، وَمَنْ وَجَدَنِي .. لَمْ يَخْتَرْ عَلَيَّ حَبِيباً سِوَايَ » .

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ : ذَكَرْتُ رَبِّي! وَهَلْ أَنْسَىٰ فَأَذْكُرُ مَا نَسِيتُ ؟
أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا وَلَوْلاَ مَاءُ وَصْلِكَ مَا حَيِيتُ
فَأَحْيَا بِالْمُنَىٰ وَأَمُوتُ شَوْقَاً فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ!
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْسَاً بَعْدَ كَأْسٍ فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَلاَ رَوِيتُ!

* * *

الذِّكْرُ مِغْنَطِيسُ الوَصْلِ

عَلَيْكُمْ ـ أَيْ سَادَةُ! ـ بِذِكْرِ اللهِ ؛ فَإِنَّ الذِّكْرَ .. مِغْنَطِيسُ الوَصْلِ ، وَحَبْلُ القُرْبِ .

مَنْ ذَكَرَ اللهَ .. طَابَ بِاللهِ ، وَمَنْ طَابَ بِاللهِ .. وَصَلَ إِلَىٰ اللهِ .

ذِكْرُ اللهِ .. يَثْبُتُ فِي القَلْبِ بِبَرَكَةِ الصُّحْبَةِ .

« المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ »[٢] .

= « إِنَّهُ لا يُعْرَفُ مَرْفُوعاً ، وإِنَّما يُحْكَىٰ عَنْ يَحْيَىٰ بنِ مُعَاذٍ » . يعني مِنْ قولِهِ . ذكرَهُ السَّخَاوِيُّ في « المقاصِدِ الحَسَنة » ص (٤١٩) .

(١) وَقَالَ العارفُ المُرْسِيُّ أبو العَبَّاسِ رضيَ اللهُ عنهُ : مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِذُلِّها وَعَجْزِهَا .. عَرَفَ اللهَ بِعِزِّهِ وَقُدْرَتِهِ . « لواقحُ الأنوار في طبقاتِ الأخيار » ص (٣١٤) ، للإمام العارفِ الشَّعْرَانِيِّ ، رضيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) رَوَاهُ أبو داودَ (٤٨٣٣) ، والتِّرمذيُّ (٢٣٧٩) بلفظ : « الرَّجُلُ .. » . =

صُحْبَةُ الأَوْلِياءِ تِرْيَاقٌ مُجَرَّبٌ

عَلَيْكُمْ بِنَا ، صُحْبَتُنَا . . تِرْيَاقٌ مُجَرَّبٌ[١] ، والبُعْدُ عَنَّا . . سُمٌّ قَاتِلٌ .

عِلْمٌ بِلاَ عَمَلٍ لاَ فَائِدَةَ مِنْهُ

أَيْ مَحْجُوبُ! تَزْعُمُ أَنَّكَ اكْتَفَيْتَ عَنَّا بِعِلْمِكَ ؟! .

مَا الفَائِدَةُ مِنْ عِلْمٍ بِلاَ عَمَلٍ ؟ مَا الفَائِدَةُ مِنْ عَمَلٍ بِلاَ إِخْلاَصٍ ؟ الإِخْلاَصُ عَلَىٰ حَافَّةِ طَرِيقِ الخَطَرِ .

مَنْ يَنْهَضُ بِكَ إِلَىٰ العَمَلِ ؟ مَنْ يُدَاوِيكَ مِنْ سُمِّ الرِّيَاءِ ؟ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الأَمِينِ بَعْدَ الإِخْلاَصِ ؟ ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . هَكَذَا أَنْبَأَنَا العَلِيمُ الخَبِيرُ .

تَظُنُّ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ ؟! لَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ . . مَا كُنْتَ مَحْجُوباً عَنْهُمْ ، لَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ . . مَا حُرِمْتَ ثَمَرَةَ الفِكْرِ ، صَدَّكَ حِجَابُكَ ، قَطَعَكَ عِلْمُكَ ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ »[٢] .

= وتَمامُهُ : « فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » . وقال التِّرمذيُّ : « هذا حديثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ » .

(١) التِّرْيَاقُ : هُو دواءُ السُّمومِ ، « لسان » ٢ : ٢٢٢ ، مادة : « ترق » .

(٢) رواهُ مسلم (٢٧٢٢) ، والنَّسائيُّ ٨ : ٢٦٠ ، و التِّرمذيُّ (٣٤٧٨) ، وقال : « حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هذا الوَجْهِ ، مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو » .

صَحَّتْ إنَابَةُ السَّيِّدِ إِلَىٰ اللهِ

لاَزِمْ أَبْوَابَنَا أَيْ مَحْجُوبُ! فَإِنَّ كُلَّ دَرَجَةٍ وَآوِنَةٍ تَمْضِي لَكَ فِي أَبْوَابِنَا . . دَرَجَةٌ وَإِنَابَةٌ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ .

صَحَّتْ إنَابَتُنَا إِلَىٰ اللهِ[١] ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ ﴾ .

هَٰذِهِ الطَّرِيقَةُ لاَ تُورَثُ إلاَّ بِالتَّقْوَىٰ

أَيُّهَا المُتَصَوِّفُ! لِمَ هَٰذِهِ البَطَالَةُ ؟ صِرْ صُوفِيّاً حَتَّىٰ نَقُولَ لَكَ : أَيُّهَا الصُّوفِيُّ .

أَيْ حَبِيبِي! تَظُنُّ أَنَّ هَٰذِهِ الطَّرِيقَةَ . . تُورَثُ مِنْ أَبِيكَ ؟ تُسَلْسَلُ مِنْ جَدِّكَ ؟ تَأْتِيكَ بِٱسْمِ بَكْرٍ وَعَمْرٍو ؟ تَصِيرُ لَكَ فِي وَثِيقَةِ نَسَبِكَ ؟ تُنْقَشُ لَكَ عَلَىٰ جَيْبِ خِرْقَتِكَ ؟ عَلَىٰ طَرَفِ تَاجِكَ ؟ .

حَسِبْتَ هَٰذِهِ البِضَاعَةَ ثَوْبَ شَعَرٍ ؟ وَتَاجاً ؟ وَعُكَّازاً ؟ وَدَلْقاً ؟ وَعِمَامَةً كَبِيرَةً ؟ وَزِيّاً صَالِحاً ؟ .

لاَ وَاللهِ! إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ كُلِّ هَٰذَا ، يَنْظُرُ إِلَىٰ قَلْبِكَ

كَيْفَ يُفْرِغُ فِيهِ سِرَّهُ ، وَبَرَكَةَ قُرْبِهِ ، وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ بِحِجَابِ التَّاجِ ، بِحِجَابِ الخِرْقَةِ ، بِحِجَابِ السُّبْحَةِ ، بِحِجَابِ العَصَا ، بِحِجَابِ المُسُوحِ؟![٢] .

---

(١) هذه المقولةُ كَأُخْتِهَا التي سبقَتْ ص (١٦٨) ، وهيَ : « أَنَا مِنَ الَّذِينَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » .

(٢) مُفْرَدُهُ : مِسْحٌ ، وهُوَ البِلاَسُ : ثَوْبٌ مِنَ الشَّعَرِ غَلِيظٌ ، وجمعُهُ : بُلُسٌ ، وبهِ سُمِّيَ المسيحُ الدَّجَّالُ ، لِذُلِّهِ وَهَوَانِهِ وَٱبْتِذَالِهِ ، كَالمِسْحِ الذي يُفْرَشُ في البيتِ =

أَيْشٍ هَذَا العَقْلُ الخَالِي مِنْ نُورِ المَعْرِفَةِ[١] .

أَيْشٍ هَذَا الرَّأْسُ الخَالِي مِنْ جَوْهَرِ العَقْلِ ؟! .

مَا عَمِلْتَ بِأَعْمَالِ الطَّائِفَةِ ، وَتَلْبَسُ لِبَاسَهُمْ يَا مِسْكِينُ ؟! .

الأَشْكَالُ مُؤْتَلِفَةٌ وَالقُلُوبُ مُخْتَلِفَةٌ

يَا أَخِي! لَوْ كَلَّفْتَ قَلْبَكَ لِبَاسَ الخَشْيَةِ ، وَظَاهِرَكَ لِبَاسَ الأَدَبِ ، وَنَفْسَكَ لِبَاسَ الذُّلِّ ، وَأَنَانِيَّتَكَ لِبَاسَ المَحْوِ ، وَلِسَانَكَ لِبَاسَ الذِّكْرِ ، وَتَخَلَّصْتَ مِنْ هَذِهِ الحُجُبِ ، وَبَعْدَهَا تَلَبَّسْتَ بِهَذِهِ الثِّيَابِ . كَانَ أَوْلَى لَكَ ثُمَّ أَوْلَى! .

لَكِنْ كَيْفَ يُقَالُ لَكَ هَذَا القَوْلُ ، وَأَنْتَ تَظُنُّ أَنَّ تَاجَكَ . كَتَاجِ القَوْمِ ، وَثَوْبَكَ . كَثَوْبِهِمِ ؟! .

كَلَّا! الأَشْكَالُ مُؤْتَلِفَةٌ ، وَالقُلُوبُ مُخْتَلِفَةٌ .

لَوْ كُنْتَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِكَ . . خَلَعْتَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ ، وَجَدَّكَ وَعَمَّكَ ، وَقَمِيصَكَ وَتَاجَكَ ، وَسَرِيرَكَ وَمِعْرَاجَكَ ، وَأَتَيْتَنَا بِاللهِ للهِ ، وَبَعْدَ حُسْنِ

= وبِهِ سُمِّيَ كَلِمَةُ اللهِ أيضاً ، لِلُبْسِهِ البِلَاسَ الأسودَ تَقَشُّفاً ، فهما وَجْهَانِ ذَكَرَهُما الزَّبِيدِيُّ في « تاج العروس » ٧ / ١٢٢ ، مادة « مسح » ، رحمةُ اللهِ عليهِ

(١) روى ابنُ أبي شيبةَ في « مصنَّفِهِ » (١١٦١٦) ، عَنْ ثَوْبَانَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« مَنْ تَبِعَ جِنَازَةً . . فَلَهُ قِيرَاطٌ ، وَمَنْ تَبِعَهَا حَتَّى تُدْفَنَ . . فَلَهُ قِيرَاطَانِ » .

قالوا : وَمِثْلُ / أَيْشٍ القِيراطُ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أَصْغَرُهُمَا . . مِثْلُ أُحُدٍ » .

ومعنى : أَيْشٍ : أَيُّ شَيْءٍ ، ومِثْلُ هذا كثيرٌ في قولِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، رضي اللهُ عَنْهُمْ .

الأَدَبِ لَبِسْتَ ، وَأَظُنُّكَ بَعْدَ الأَدَبِ ، تَقْطَعُ نَفْسَكَ عَنِ الثَّوْبِ وَالعَوَارِضِ القَاطِعَةِ .

أَيْ مِسْكِينُ! تَمْشِي مَعَ وَهْمِكَ! مَعَ خَيَالِكَ! مَعَ كَذِبِكَ! مَعَ عُجْبِكَ وَغُرُورِكَ! وَتَحْمِلُ نَجَاسَةَ أَنَانِيَّتِكَ ، وَتَظُنُّ أَنَّكَ عَلَى شَيْءٍ ؟! وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ؟! .

تَعَلَّمْ عِلْمَ التَّوَاضُعِ ، تَعَلَّمْ عِلْمَ الحَيْرَةِ ، تَعَلَّمْ عِلْمَ المَسْكَنَةِ وَالانْكِسَارِ .

أَيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لَكَ فِي كُلِّ دَعَاوِيكَ ؟

أَيْ بَطَّالُ! تَعَلَّمْتَ عِلْمَ الكِبْرِ! تَعَلَّمْتَ عِلْمَ الدَّعْوَى! تَعَلَّمْتَ عِلْمَ التَّعَالِي! .

أَيْشٍ حَصَلَ لَكَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ ؟ .

تَطْلُبُ هَذِهِ الدُّنْيَا الجِيفَةِ ، بِظَاهِرِ حَالِ الآخِرَةِ ؟ لَبِئْسَ مَا صَنَعْتَ! مَا أَنْتَ إِلاَّ كَمُشْتَرِي النَّجَاسَةِ بِالنَّجَاسَةِ .

كَيْفَ تُغْفِلُ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ ، وَتَكْذِبُ عَلَى نَفْسِكَ وَأَبْنَاءِ جِنْسِكَ ؟! .

حَالُ المُرِيدِ الصَّادِقِ مَعَ مَوْلاَهُ

لاَ يَقْرُبُ المُحِبُّ مِنْ مَحْبُوبِهِ . حَتَّى يَبْعُدَ مِنْ عَدُوِّهِ .

رَمَى بَعْضُ المُرِيدِينَ رَكْوَتَهُ فِي بَعْضِ الآبَارِ لِيَسْتَقِيَ المَاءَ[1] ، فَخَرَجَتْ

---

(١) الرَّكْوَةُ : دَلْوٌ صغيرةٌ . كذا في « المِصْباحِ المُنير » ص (٢٣٨) ، مادة : « رك » .

مَمْلُوءَةً بِالذَّهَبِ ، فَرَمَىٰ بِهَا فِي البِئْرِ وَقَالَ : يَا عَزِيزِي! وَحَقِّكَ لاَ أُرِيدُ غَيْرَكَ .

مَنْ أَثْبَتَ نَفْسَهُ مُرِيداً . . صَارَ مُرَاداً .

مَنْ أَثْبَتَ نَفْسَهُ طَالِباً . . صَارَ مَطْلُوباً .

مَنْ عَكَفَ عَلَىٰ البَابِ . . دَخَلَ الرِّحَابَ .

وَمَنْ أَحْسَنَ القَصْدَ بَعْدَ الدُّخُولِ . . تَصَدَّرَ فِي غُرْفَةِ الوُصْلَةِ .

دَخَلَ عَلِيٌّ ـ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ مَسْجِدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَرَأَىٰ أَعْرَابِيّاً فِي المَسْجِدِ يَقُولُ : إِلٰهِي! أُرِيدُ مِنْكَ شُوَيْهَةً ، وَرَأَىٰ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فِي زَاوِيَةٍ أُخْرَىٰ يَقُولُ : إِلٰهِي! أُرِيدُكَ .

شَتَّانَ مَا بَيْنَ المُرَادَيْنِ! شَتَّانَ مَا بَيْنَ الهِمَّتَيْنِ! .

تَلْعَبُ الآمَالُ بِالعُقُولِ ، تَلْعَبُ بِالهِمَمِ ، كُلٌّ يَطِيرُ بِجَنَاحِ هِمَّتِهِ إِلَىٰ أَمَلِهِ وَمَقْصَدِ قَلْبِهِ ، فَإِذَا بَلَغَ غَايَةَ هِمَّتِهِ . . وَقَفَ فَلَمْ يُجَاوِزْهَا ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ . أَيْ : عَلَىٰ نِيَّتِهِ وَهِمَّتِهِ .

العَارِفُ المُتَمَكِّنُ سُرُورُهُ بِرَبِّهِ

أَيْ أَخِي! لاَ تَجْعَلْ غَايَةَ هِمَّتِكَ وَمُنْتَهَىٰ قَصْدِكَ : أَنْ تَمُرَّ عَلَىٰ المَاءِ ، أَوْ تَطِيرَ فِي الهَوَاءِ ، يَصْنَعُ الطَّيْرُ وَالحُوتُ مَا أَرَدْتَ .

طِرْ بِجَنَاحِ هِمَّتِكَ إِلَىٰ مَا لاَ غَايَةَ لَهُ .

العَارِفُ المُتَمَكِّنُ . . لاَ شَيْءَ عِنْدَهُ مِنَ العَرْشِ إِلَىٰ الثَّرَىٰ . . أَعْظَمُ مِنْ

سُرُورِهِ بِرَبِّهِ ، وَالجَنَّةُ وَكُلُّ مَا فِيهَا فِي جَنْبِ سُرُورِهِ بِرَبِّهِ . أَصْغَرُ مِنْ خَرْدَلَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلاَةٍ .

العَارِفُونَ تَجَرَّدُوا عَنِ الدَّارَيْنِ

مِنْ خَسَاسَةِ النَّفْسِ وَدَنَاءَةِ الهِمَّةِ وَقِلَّةِ المَعْرِفَةِ . اشْتِغَالُكَ بِالنِّعْمَةِ عَنِ المُنْعِمِ .

العَارِفُونَ . . تَجَرَّدُوا عَنِ الدَّارَيْنِ ، وَطَلَبُوا رَبَّ العَالَمِينَ ، تَجَرَّدُوا عَنِ النَّفْسِ وَالوَلَدِ .

أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ يَعْقُوبَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ لَمَّا قَالَ :

﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ : إِلَىٰ مَتَىٰ تَذْكُرُ يُوسُفَ ؟! أَيُوسُفُ خَلَقَكَ ؟! أَوْ رَزَقَكَ ؟! أَوْ أَعْطَاكَ النُّبُوَّةَ ؟! فَبِعِزَّتِي! لَوْ كُنْتَ ذَكَرْتَنِي وَشُغِلْتَ بِي عَنْ ذِكْرِ غَيْرِي . . لَفَرَّجْتُ عَنْكَ مِنْ سَاعَتِكَ .

فَعَلِمَ يَعْقُوبُ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ أَنَّهُ مُخْطِىءٌ فِي ذِكْرِهِ يُوسُفَ ، فَأَمْسَكَ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ .

قَالَ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ : إِلٰهِي! أَقَرِيبٌ أَنْتَ فَأُنَاجِيكَ ، أَمْ بَعِيدٌ فَأُنَادِيكَ ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ :

« أَنَا جَلِيسٌ لِمَنْ ذَكَرَنِي ، وَقَرِيبٌ مِمَّنْ أَنِسَ بِي ، أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ »[1] .

---

(١) رواه ابنُ أبي شيبةَ ١ : ١٠٨ ، والبيهقيُّ في « الشُّعب » ١ : ٤٥١ ، وأبو نُعيم في « الحِلية » ٦ : ٣٧ من قولِ كعبِ الأحبار ، وليس فيه : « قريبٌ مِمَّنْ أَنِسَ . . » إلخ .

فَوَائِدُ الذِّكْرِ :

أَيْ سَادَةُ! قَالَ أَهْلُ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : مَنْ ذَكَرَ اللهَ . . فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ[١] ، وَعَلَىٰ طُمَأْنِينَةٍ مِنْ قَلْبِهِ[٢] ، وَعَلَىٰ سَلَامَةٍ مِنْ عَدُوِّهِ[٣] .

وَقَالُوا : ذِكْرُ اللهِ . . طَعَامُ الرُّوحِ ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ . . شَرَابُهَا ، وَالْحَيَاءُ مِنْهُ . . لِبَاسُهَا .

وَقَالُوا : مَا تَنَعَّمَ الْمُتَنَعِّمُونَ بِمِثْلِ أُنْسِهِ ، وَلَا تَلَذَّذَ الْمُتَلَذِّذُونَ بِمِثْلِ ذِكْرِهِ .

وجَاءَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الإِلٰهِيَّةِ : أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ :

« مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ . . ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ . . ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ ، وَمَنْ ذَكَرَنِي مِنْ حَيْثُ هُوَ . . ذَكَرْتُهُ مِنْ حَيْثُ أَنَا ، وَمَنْ سَأَلَنِي مِنْ حَيْثُ هُوَ . . أَعْطَيْتُهُ مِنْ حَيْثُ أَنَا » .

الْقَوْمُ شَغَلَهُمْ ذِكْرُ اللهِ

الْقَوْمُ . . شُغْلُهُمْ ذِكْرُهُ ، وَمَقْصَدُهُمْ هُوَ ، يَرَوْنَ أَنَّ الْحَوَادِثَ الْكَوْنِيَّةَ تَقُومُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَلَا يُعَارِضُونَهَا لَا بِقَلْبٍ وَلَا بِلِسَانٍ :

---

(١) قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

(٢) قال تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

قَالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : « مَا مِنْ مُؤْمِنٍ . . إلاَّ وَعَلَى قَلْبِهِ شَيْطَانٌ ، إِذَا ذَكَرَ اللهَ . . خَنَسَ ، وَإِذَا نَسِيَ اللهَ . . وَسْوَسَ »[1] .

لَوْ أَنَّ العَالَمَ فَرِيقَانِ

أَيْ سَادَةُ! لَوْ أَنَّ العَالَمَ فَرِيقَانِ : فَرِيقٌ يُبَخِّرُنِي بِالنَّدِّ وَالعَنْبَرِ ، وَفَرِيقٌ يُقَرِّضُ لَحْمِي بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ . . مَا نَقَصَ هَؤُلاَءِ عِنْدِي ، وَلاَ زَادَ هَؤُلاَءِ عِنْدِي ، لِعِلْمِي أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَجَارِي الأَقْدَارِ

التَّسْلِيمُ بَابُ ذِكْرِ اللهِ

إِذَا قَطَعْتُمْ حَبْلَ المُعَارَضَةِ بِسِكِّينِ التَّسْلِيمِ لَهُ . . ذَكَرْتُمُوهُ ، جَاءَ فِي الخَبَرِ :

« اُذْكُرُوا اللهَ ، حَتَّى يَقُولُوا : مَجْنُونٌ »[2] .

هَذِهِ الخَيَالاَتُ تَأْخُذُ العَبْدَ مِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ

أَيْ سَادَةُ! هَذِهِ الخَيَالاَتُ البَاطِلَةُ . . أَخَذَتْكُمْ مِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ ، وَهَذِهِ الحُجُبُ الغَلِيظَةُ . . حَوَّلَتْكُمْ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ .

---

(١) رواه ابنُ أبي شيبة ٧ : ١٣٥ ، والحاكمُ ٢ : ٥٩٠ ، والبيهقيُّ في « الشُّعب » ١ : ٤٤٩ .

(٢) رواه أبو يعلى (١٣٧٦) ، وابنُ حِبَّان (٨١٧) ، وابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » ٧٤ : ٢٢٠ .

لَيْسَتِ الهِمَّةُ أَنْ يَقِفَ الرَّجُلُ عِنْدَ حِجَابِهِ ، بَلِ الهِمَّةُ . . أَنْ يَفْتُقَ شِرَاعَ الحِجَابِ ، وَيَتَدَلَّىٰ إِلَىٰ الرِّحَابِ .

صَوَارِمُ الهِمَمِ . . تَفْعَلُ مَا لاَ يَمُرُّ بِالأَوْهَامِ .

حُجُبُ القُلُوبِ . . لاَ تُشَقُّ إِلاَّ بِسِهَامِ القُلُوبِ ، قَالَ عَلِيٌّ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ :

دَوَاؤُكَ مِنْـــكَ وَمَـــا تُبْصِـــرُ   وَدَاؤُكَ فِيـــكَ وَمَـــا تَشْعُـــرُ
وَتَـــزْعُـــمُ أَنَّـــكَ جِـــرْمٌ صَغِيـــرٌ   وَفِيـــكَ ٱنْطَـــوَىٰ العَـــالَـــمُ الأَكْبَـــرُ

* * *

العَالَمُ الأَكْبَرُ العَقْلُ

العَالَمُ الأَكْبَرُ . . العَقْلُ ، وَقَدِ ٱنْطَوَىٰ بِكَ ، وَمِنَ العَالَمِ المَطْوِيِّ فِيكَ . . يَظْهَرُ لَكَ جِرْمُكَ الَّذِي ٱسْتَصْغَرْتَهُ ؛ إِذْ لَوْلاَ وُصُولُ جِرْمِكَ إِلَىٰ الغَايَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِذَلِكَ العَالَمِ الأَكْبَرِ ، وَتَلِيقُ لَهُ . . لَمَا صَارَ مَحَلاًّ لِلْعَالَمِ المَذْكُورِ .

فَخُذْ بِالهِمَّةِ العَلِيَّةِ : عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا بَلَغَهُ جِرْمُ هَيْكَلِكَ مِنَ الإِحَاطَةِ بِالعَالَمِ الأَكْبَرِ ، الَّذِي يَمْتَدُّ شُعَاعُ مَادَّتِهِ إِلَىٰ كُلِّ مَقَامٍ ، وَتَنْتَهِي بَوَارِقُ رُسُلِهِ إِلَىٰ كُلِّ حِيطَةٍ ، وَتَشُقُّ عَزَائِمُ مَدَارِكِهِ صَفَّ كُلِّ مَعْمَعَةٍ[1] ، وَتَبْلُغُ نَجَائِبُ فِكْرَتِهِ إِلَىٰ كُلِّ حَضْرَةٍ[2] .

---

(١) المَعْمَعَةُ : صوتُ الحريقِ في القَصَبِ ونحوِه ، وصوتُ الأبطالِ في الحَرْبِ . كذا في « مختار الصّحاح » ص (٦٢٨) مادة : « م ع ع » .

(٢) النَّجَائِبُ : جمعُ نَجِيبٍ ، وهو مِنَ الإبلِ : القويُّ ، والخفيفُ السّريعُ ، =

بِهِ اللهُ يُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَيَصِلُ وَيَقْطَعُ ، وَيُفَرِّقُ وَيَجْمَعُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَعَلَيْهِ جُعِلَ مَدَارُ الأَكْوَانِ .

وَهُوَ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ مِنَ المَوَادِّ الكُبْرَىٰ الآدَمِيَّةِ ، أَنْبَأَنَا الحَبِيبُ الكَرِيمُ ، وَالسَّيِّدُ العَظِيمُ ، عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ : أَنَّ :

« **أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ . . العَقْلُ** »[1] .

فَإِذَا عَلِمْتُمْ مَا انْطَوَىٰ فِيكُمْ . . عَظَّمْتُمْ شَأْنَ ذَوَاتِكُمْ ، وَاحْتَفَلْتُمْ بِإِعْلَاءِ شَرَفِ صِفَاتِكُمْ ، حَتَّىٰ تَسْمُوا عَنْ مَنْزِلَةِ الحِجَابِ : بِالقُوَّةِ ، بِالجَمَالِ ، بِالمَالِ ، بِالأَهْلِ ، بِالعَشِيرَةِ ، بِالمَنْصِبِ ، بِالرِّيَاسَةِ ، قَالَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

وَكُلُّ رِيَاسَةٍ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ ... أَذَلُّ مِنَ الجُلُوسِ عَلَى الكُنَاسَهْ

العَقْلُ . . عَاقِلُ العِلْمِ .

لاَ يَتِمُّ شَرَفُ العِلْمِ لِلْمَخْلُوقِ . . إِلاَّ بِالعَقْلِ .

العَقْلُ أَجَلُّ مَرْتَبَةً مِنْ عِلْمِنَا

قَالَ جَمَاعَةٌ : بِإِعْلَاءِ قَدْرِ العِلْمِ عَلَى العَقْلِ ، وَلَكِنْ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللهِ ؛ لأَنَّ العِلْمَ . . صِفَتُهُ تَعَالَىٰ ، وَالعَقْلَ . . صِفَةُ المَخْلُوقِ .

= « لسان » ١٤ : ١٩٠ ، مادة : « نجب » .

وفي المطبوع ص (٥٠) : « نجاب » . وما أُثبتَ هُو الظَّاهِرُ الصحيحُ ، واللهُ أعلمُ .

(١) رواه الطبرانيُّ في « الكبير » ٨ : ٢٨٣ ، وفي « الأوسط » ٧ : ١٩٠ ، وقال في « كشف الخفاء » (٨٢٣) : « قال الصَّغاني : موضوعٌ باتِّفاق » .

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ عِلْمِنَا وَعَقْلِنَا . . فَعَقْلُنَا أَجَلُّ مَرْتَبَةً ، وَأَرْفَعُ مَنْزِلَةً مِنْ عِلْمِنَا ؛ إِذْ لَوْلَا الْعَقْلُ . . لَمَا تَمَّ لَنَا الْعِلْمُ .

الْعَاقِلُ . . يَكْبُو وَيُصْرَعُ ، وَلَكِنْ يُؤَمَّلُ لَهُ النَّجَاحُ ، وَيُرْجَىٰ لَهُ الْخَيْرُ ، وَالْأَحْمَقُ يُصْرَعُ وَيَكْبُو ، وَيُخْشَىٰ عَلَيْهِ الْقَطِيعَةُ وَعَدَمُ النَّجَاحِ .

الْعَاقِلُ . . مَنْ فَهِمَ حِكْمَةَ الدِّينِ .

بَلَغَنَا عَنِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ـ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ قَالَ :

« كُلُّ عَقْلٍ لَمْ يُحَطْ بِالدِّينِ . . فَلَيْسَ بِعَقْلٍ ! وَكُلُّ دِينٍ لَمْ يُحَطْ بِالْعَقْلِ . . فَلَيْسَ بِدِينٍ ! » .

هَذَا الدِّينُ أَتَىٰ بِأَحْكَامٍ أَلْزَمَنَا الْمُبَلِّغُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ الِاجْتِنَابَ عَنْهَا ، وَوَعَدَ وَأَوْعَدَ ، فَإِذَا تَرَيَّضَ الْعَقْلُ بِالْعَمَلِ وَالِاجْتِنَابِ . . يَصِلُ إِلَىٰ الْإِحَاطَةِ بِسِرِّ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ .

الْعَاقِلُ لَا يَجْهَلُ حِكْمَةَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الدِّينِيَّةِ

أَيْ سَادَةُ ! تَفَكَّرُوا ، هَلْ مِنْ عَقْلٍ ذَكِيٍّ ، قَرَّ بِطَبْعٍ سَلِيمٍ ، يَجْهَلُ حِكْمَةَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الدِّينِيَّةِ وَيَرُدُّهَا ؟ لَا وَاللهِ ! .

بَلْ كُلُّ عَاقِلٍ ذَكِيِّ الْعَقْلِ ، سَلِيمِ الطَّبْعِ . . تَعْكُفُ أَشِعَّةُ عَقْلِهِ عَلَىٰ عَتَبَةِ بَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، عِلْماً يَجْمَعُهَا بَيْنَ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَمَا بَقِيَ عِنْدَكُمْ . . إِلَّا مَا جَاءَ فِي الْوَعْدِ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَكَرَمِهِ ، وَفِيهِ أَبْحَاثٌ عَلِيَّةٌ ، تَذْكُرُ عَجَائِبَ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ .

وَمَا جَاءَ فِي الوَعِيدِ مِنْ بَطْشِ اللهِ وَعَدْلِهِ ، وَفِيهِ أَبْحَاثٌ غَامِضَةٌ ، تَذْكُرُ غَرَائِبَ عَظَمَةِ الأُلُوهِيَّةِ[1] ، يَشْهَدُ عَلَىٰ كَوْنِهَا طَبْعُكَ وَحِجَابُكَ ، وَفَهْمُكَ وَفِكْرُكَ .

المَشْهُودَاتُ لاَ تَنْكَشِفُ حَقِيقَتُهَا إِلاَّ بِالمُتَابَعَةِ

وَكُلُّ مَا تَرَاهُ مِنَ المَشْهُودَاتِ الكَوْنِيَّةِ : العُلْوِيَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ . . حَجَبَكَ عَنْ حَقِيقَةِ كَشْفِهَا . . عَدَمُ اسْتِعْدَادِكَ ، وَقِلَّةُ قَابِلِيَّتِكَ ، وَقَطِيعَتُكَ ، وَدَنَاءَةُ هِمَّتِكَ .

أَيْنَ الرِّيَاضَةُ الَّتِي جَلَتْ عَنْ مِرْآةِ عَقْلِكَ غُبَارَ غَفْلَتِكَ ؟ .

أَيْنَ مُتَابَعَةُ الدَّلِيلِ الأَعْظَمِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ قَوْلاً وَفِعْلاً ، وَحَالاً وَخُلُقاً ؟ .

هَاتِ هَذِهِ النُّقُودَ ، وَاطْلُبْ بَعْدَهَا البِضَاعَةَ! .

أَيَصِحُّ لِبَوَّابِ المَلِكِ أَنْ يُنْكِرَ عَلَى جُلَّاسِهِ مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ زِينَةِ دَارِهِ ، وَأَمْتِعَةِ بَيْتِهِ ، وَحُسْنِ أَلْبِسَتِهِ ، وَأَوَانِيهِ ، وَأَسْلِحَتِهِ ، وَمَخْزُونَاتِهِ ، وَشِدَّةِ عِقَابِهِ وَبَطْشِهِ فِيمَنْ يَغْضَبُ عَلَيْهِ ، وَكَثْرَةِ عَوَائِدِهِ وَفَوَائِدِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَىٰ مَنْ يُحِبُّهُ وَيُقَرِّبُهُ ؟ .

كَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ لِلْبَوَّابِ ، وَهُوَ مِسْكِينٌ ، مَحْجُوبٌ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ : أَنْ يَجْتَهِدَ لإِحْرَازِ رُتْبَةِ المُجَالَسَةِ ، كَيْ يَرَىٰ مَا رَآهُ جُلَّاسُ المَلِكِ ؟ .

---

(١) الصَّحيحُ : الإلهيَّةُ ؛ لأنَّ المصدرَ الصِّناعيَّ الذي يُصَاغُ من كلمةِ (إله) . . هو لفظُ الإلهيَّةِ ، لا أُلوهيَّة ، إذ جاءت هذه الكلمةُ لغةً بمعنى العبادة .

انظر « توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الإلهيَّة » ص (٩ـ ١٠و٤٩ـ ٥٠) ، للعلامة الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميدانيِّ ، رحمةُ اللهِ عليه .

هَذَا أَجْمَلُ مِنْ إِنْكَارِهِ ، أَعَمُّ مَكْرُمَةً وَأَحْسَنُ حَالاً ، وَأَسْلَمُ عَاقِبَةً ، وَأَصْلَحُ شَأْناً .

الغَفْلَةُ عَنِ اللهِ تَطْمِسُ وُجُوهَ الحَقَائِقِ

إِذَا طُبِعَتْ مِرْآةُ بَصِيرَةِ القَلْبِ بِتَرَاكُمِ صَدَأِ الغَفْلَةِ عَنِ الرَّبِّ . تَوَارَتْ وُجُوهُ الحَقَائِقِ عَنْ بَوَاطِنِ الأَفْهَامِ ، وَامْتَنَعَ عَنْهَا إِنْفَاذُ نُورِ الإِلْهَامِ ، فَأَظْلَمَ وَجْهُ البَيَانِ بِتَصَاعُدِ أَبْخِرَةِ الخَيَالاَتِ وَغَمَامَاتِ الأَوْهَامِ .

مَا يُغْنِي الشَّمْسُ عَنِ المَكْفُوفِ مَعَ كَمَالِ إِشْرَاقِهَا ، وَمَا لَهُ عُيُونٌ تَقْبَلُ مِنْهُ نُورَهَا وَبُرْهَانَهَا ؟ .

وَمَا يُجْدِي فَرْطُ الإِشْرَاقِ ، مَعَ ضَعْفِ الأَحْدَاقِ ؟ .

نَحْنُ فِي مَوْقِفِ إِشْرَاقِ شَمْسِ القُدْرَةِ ، وَعُيُونُ أَفْهَامِنَا ضَعِيفَةٌ ، وَبِغَمَامَاتِ الغَفْلَةِ مُحْتَجِبَةٌ .

فَمَا لَنَا عُيُونٌ تَصْلُحُ لِرُؤْيَةِ ذَلِكَ الجَمَالِ ، وَلاَ قُلُوبٌ تَحْمِلُ مَهَابَةَ تِلْكَ العَظَمَةِ ، وَعِزَّةَ ذَلِكَ الجَلاَلِ .

كُلُّنَا تَجْرِي بِنَا سُبُلُ الفَنَاءِ

كُلُّنَا تَجْرِي بِنَا سُبُلُ الفَنَاءِ ، وَتَقْذِفُنَا فِي أَغْوَارِ غَايَتِنَا المُغَيَّبَةِ عَنَّا ، المَحْجُوبَةِ دُونَنَا .

كُلُّنَا تَجْرِي سُفُنُ المَنَايَا بِرِيَاحِ حِرْصِنَا وَشِرَاعِ أَطْمَاعِنَا فِي بِحَارِ آمَالِنَا ، وَتَقْذِفُنَا فِي لُجَجِ آجَالِنَا ، وَهُمُومُنَا مُوَكَّلَةٌ بِقَضَاءِ مُهِمَّاتِنَا عَنْ عَاجِلِ أُمُورِنَا ، وَأَيْدِي الحَوَادِثِ تَتَلاَعَبُ بِنَا ، وَهَوَاتِفُ الفَنَاءِ تُزْعِجُنَا :

النَّـــاسُ فِـــي غَفَـــلاَتِهِـــمْ وَرَحَـــى المَنِيَّـــةِ تَطْحَـــنُ
مَـــا دُونَ دَائِـــرَةِ الـــرَّحَـــى حِصْـــنٌ لِمَـــنْ يَتَحَصَّـــنُ

* * *

كُلَّ يَوْمٍ يُنَادِي مَلَكُ المَوْتِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾ ، وَظُلُمَاتُ أَجْدَاثِنَا[1] ، تَنْتَظِرُ وُلُوجَ أَجْسَادِنَا ، وَنَحْنُ غَرْقَىٰ فِي غَمْرَةِ غَفَلاَتِنَا ، وَسَكْرَةِ شَهَوَاتِنَا .

فَيَا أَيُّهَا العَاقِلُ! إِلَىٰ مَتَىٰ تَصْرِفُ نَفْسَكَ عَنْ طَرِيقِ النَّجَاةِ إِلَىٰ سَبِيلِ المَعَاطِبِ وَالمُهْلِكَاتِ .

وَتَصْرِفُهَا عَنْ فُسْحَةِ الطَّاعَاتِ إِلَىٰ مَضَايِقِ المُخَالَفَاتِ ، وَتُعَرِّضُهَا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَتَسْقِيهَا مِنْ كُؤُوسِ الخَطِيئَاتِ وَأَدْنَاسِ السَّيِّئَاتِ ، وَتُورِدُهَا مَوَارِدَ الفِتَنِ وَالآفَاتِ ؟ .

العُمْرُ قَصِيرٌ :

أَيْ أَخِي! العُمْرُ قَصِيرٌ ، وَالنَّاقِدُ بَصِيرٌ ، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

يَـــا أَيُّهَـــا المَعْـــدُودُ أَنْفَـــاسُـــهُ لاَ بُـــدَّ يَـــوْمَـــاً أَنْ يَتِـــمَّ العَـــدَدْ
لاَ بُـــدَّ مِـــنْ يَـــوْمٍ بِـــلاَ لَيْلَـــةٍ وَلَيْلَـــةٍ تَـــأْتِـــي بِـــلاَ يَـــوْمِ غَـــدْ

* * *

(١) هي جَمْعُ : جَدَثٍ ، وَهُوَ القَبْرُ . « قاموس » ١ : ١٦٩ ، مادة « الجَدَث » .

الفِكْرُ أَوَّلُ أَعْمَالِ النَّبِيِّ (ﷺ)

أَيْ سَادَةُ! الفِكْرُ.. أَوَّلُ أَعْمَالِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ قَبْلَ فَرْضِيَّةِ المَفْرُوضَاتِ عِبَادَتُهُ التَّفَكُّرُ فِي آلاءِ اللهِ وَمَصْنُوعَاتِهِ ، حَتَّىٰ كُلِّفَ مَا كُلِّفَ ، عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ .

فَعَلَيْكُمْ بِالتَّفَكُّرِ فِي آلاءِ اللهِ ، وَأَخْذِ العِبْرَةِ مِنَ الفِكْرَةِ ؛ فَإِنَّ الفِكْرَةَ إِذَا خَلَتْ مِنَ العِبْرَةِ.. بَقِيَتْ وَسْوَاساً وَخَيَالاً ، وَإِذَا أَنْتَجَتِ العِبْرَةَ.. بَقِيَتْ وَاعِظاً وَحِكْمَةً .

أَحْكِمُوا الأَعْمَالَ بَعْدَ التَّفَكُّرِ عَلَىٰ أَصْلٍ صَحِيحٍ ، وَأَحْكِمُوا الأَخْلاقَ بَعْدَ الأَعْمَالِ عَلَىٰ طَرِيقٍ مَلِيحٍ ، وَزَيِّنُوا كُلَّ ذَلِكَ بِالنِّيَّةِ ، وَخُذُوا بِحِبَالِ السَّخَاءِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ عَلامَاتِ الزُّهْدِ ، وَأَقُولُ : هُوَ بَابُ الزُّهْدِ .

وَأَقُولُ : إِذَا صَحَّ وَعَلَتْ طَبَقَتُهُ.. كُلُّ الزُّهْدِ ، وَهُوَ أَوَّلُ قَدَمِ القَاصِدِينَ إِلَىٰ اللهِ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

تَعْمِيرُ الصَّالِحِينَ بِتَنْكِيسِهِمْ فِي الخَلْقِ

أَيِّدُوا عُقْدَةَ حَبْلِ الوُصْلَةِ مَعَ اللهِ ، بِغَضِّ الطَّرْفِ عَمَّا تَرَاهُ أَبْصَارُكُمْ مِنَ النَّكْسِ عِنْدَ الخَلْقِ ، طَمَعاً بِتَعْمِيرِ الحَقِّ ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ .

لاَ تَجْعَلُوا مُنْتَهَىٰ أَنْظَارِكُمْ ، وَغَايَةَ أَبْصَارِكُمْ . . رُؤْيَةَ الخَلْقِ . مُلُوكُهُمْ وَأَوَاسِطُهُمْ وَالطَّبَقَةُ السُّفْلَىٰ مِنْهُمْ . . عَلَىٰ حَالٍ وَاحِدٍ فِي العَجْزِ وَالفَقْرِ وَالمَسْكَنَةِ .

حُجُبٌ قَامَتْ عَلَىٰ العُيُونِ ، سَتَرَ بِهَا الخَالِقُ خَلْقَهُ ، وَقَضَىٰ فِيهِمْ بِأَمْرِهِ .

فَالعَاقِلُ . . مَنْ أَدْرَكَ هَذَا الشَّأْنَ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الحِجَابِ وَالمَحْجُوبِ ، وَالْتَجَأَ إِلَىٰ المُقِيمِ القَدِيمِ ، الَّذِي ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ .

إِمْسَاكُ الجَوَارِحِ عَنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُ اللهَ

لاَ تُطْلِقُوا أَلْسُنَ العُلَمَاءِ وَمَعَهَا قُلُوبُ الجَبَابِرَةِ ، وَجُرْأَةُ الزَّنَادِقَةِ ، وَفُجُورُ الكَفَرَةِ .

إِذَا أَطْلَقْتُمُ الأَلْسُنَ . . أَمْسِكُوا الجَوَارِحَ وَالقُلُوبَ عَنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُ المَلِكَ العَدْلَ اللَّطِيفَ الخَبِيرَ .

أَحْسَنُ حَالاً مَعَ اللهِ ، وَأَحْسَنُ مَعَ النَّاسِ ، وَأَحْسَنُ مَعَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ . . إِذَا خَلَوْتُمْ ، إِذَا جَلَوْتُمْ ، إِذَا مُتُّمْ ، إِذَا بُعِثْتُمْ ، إِذَا سُئِلْتُمْ .

هَذَا الكِتَابُ . . ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ .

اللهُ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ .

اللهَ اللهَ ! أَحَذِّرُكُمُ اللهَ امْتِثَالاً[1] ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ أَمْراً .

---

(١) أي : لأمرِهِ ، حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ . فانْظُرْ كيفَ يتناولُونَ الأَمْرَ بِبَابِ النُّصْحِ لِلْعِبَادِ ، رضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ونفعَنا اللهُ بِعِلْمِهِ وَحَالِهِ ، آمين

فَقَابِلُوا النَّصِيحَةَ بِالقَبُولِ ، وَقَابِلُوا الأَمْرَ المُطَاعَ بِالامْتِثَالِ .

وَإِيَّاكُمْ وَمُحَارَبَةَ اللهِ! فَمَا فَازَ مَنْ حَادَّ اللهَ ، وَلاَ ذَلَّ مَنْ وَالَى اللهَ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

تَلْقِينُ النَّبِيِّ (ﷺ) أَصْحَابَهُ ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

(إِعْطَاؤُهُ الطَّرِيقَ)[1]

صَحَّتْ أَسَانِيدُ الأَوْلِيَاءِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَلَقَّنَ مِنْهُ أَصْحَابُهُ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ جَمَاعَةً وَفُرَادَى ، وَاتَّصَلَتْ بِهِمْ سَلاَسِلُ القَوْمِ .

قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ : « كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ ؟ » . يَعْنِي : مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، قُلْنَا : لاَ يَارَسُولَ اللهِ ، فَأَمَرَ بِغَلْقِ البَابِ ، وَقَالَ : « ارْفَعُوا أَيْدِيكُمْ ، وَقُولُوا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ » . فَرَفَعْنَا أَيْدِيَنَا ، وَقُلْنَا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، ثُمَّ قَالَ :

« الحَمْدُ للهِ! اللَّهُمَّ إِنَّكَ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الكَلِمَةِ ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهَا الجَنَّةَ ، وَإِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ » . ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« أَلاَ أَبْشِرُوا! فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ »[2] .

هَذَا وَجْهُ تَلْقِينِهِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ ـ أَصْحَابَهُ جَمَاعَةً .

---

(١) أي : عَهْدَ الطَّرِيقِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى . ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ .

(٢) رَوَاهُ أحمدُ ٤ : ١٢٤ ، وقالَ الهيثميُّ في « مجمع الزوائد » ١ : ١٩ : « رَوَاهُ أحمدُ والطَّبَرَانِيُّ وَالبَزَّارُ ، ورِجَالُهُ مُوَثَّقُونَ » .

تَلْقِينُهُ (ﷺ) جَمَاعَةً مِنْهُمْ فُرَادَىٰ

وَأَمَّا تَلْقِينُهُ ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ جَمَاعَةً مِنْهُمْ فُرَادَىٰ . . فَقَدْ صَحَّ أَنَّ عَلِيّاً ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ سَأَلَ النَّبِيَّ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ :

« يَا رَسُولَ اللهِ! دُلَّنِي عَلَىٰ أَقْرَبِ الطُّرُقِ إِلَىٰ اللهِ ، وَأَسْهَلِهَا عَلَىٰ عِبَادِهِ ، وَأَفْضَلِهَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ ؟ فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« **أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي . . لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ** »(١) .

« **وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ ، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَلاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ فِي كِفَّةٍ . . لَرَجَحَتْ بِهِمْ : لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ** » (٢) .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَعَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ : اللهُ اللهُ** » (٣) .

فَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : كَيْفَ أَذْكُرُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ :

---

(١) رواه مالكٌ في « الموطأ » ١ : ٢١٤ ، والترمذيُّ (٣٥٨٥) ، وعبد الرَّزاق في « المصنَّف » ٤ : ٣٧٨ .

(٢) رواه النَّسائيُّ في « الكبرى » (١٠٩٨٠) ، وابنُ حِبَّان (٦٢١٨) عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه .

وأحمدُ ٢ : ١٦٩ ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » ص (١٩٢) عن عبدِ اللهِ بن عمرٍو رضي الله عنه .

(٣) روى بنحوه مسلمٌ (١٤٨) ، وأحمدُ ٣ : ١٦٢ .

« غَمِّضْ عَيْنَيْكَ ، وَٱسْمَعْ مِنِّي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قُلْ أَنْتَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ وَأَنَا أَسْمَعُ » .

فَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ / ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، مُغْمِضاً عَيْنَيْهِ ، رَافِعاً صَوْتَهُ ، وَعَلِيٌّ يَسْمَعُ ، ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ / ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، مُغْمِضاً عَيْنَيْهِ ، رَافِعاً صَوْتَهُ ، وَالنَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْمَعُ »[١] .

وَعَلَىٰ هَذَا تَسَلْسَلَ أَمْرُ القَوْمِ ، وَصَحَّ تَوْحِيدُهُمْ ، وَتَجَرَّدُوا عَنِ الأَغْيَارِ بِالكُلِّيَّةِ ، وَأَسْقَطُوا وَهْمَ التَّأْثِيرِ مِنَ الآثَارِ ، وَرَدُّوهَا بِيَدِ ٱعْتِقَادِهِمُ الخَالِصِ إِلَىٰ المُؤَثِّرِ ، وَقَامُوا عَلَىٰ قَدَمِ الاسْتِقَامَةِ ، فَكَمُلَتْ مَعْرِفَتُهُمْ ، وَعَلَتْ طَرِيقَتُهُمْ .

فَعَامِلُوا اللهَ كَمَا عَامَلُوهُ ، تَحْصُلْ لَكُمُ المُنَاسَبَةُ مَعَ القَوْمِ ، وَيَتِمَّ نِظَامُ أَمْرِكُمْ وَرَاءَهُمْ ، فَتَكُونَ أَقْدَامُكُمْ عَلَىٰ أَقْدَامِهِمْ .

سَمَاعُ القَوْمِ وَمَجَالِسُ إِنْشَادِهِمْ

حُكْمُ (الحَضْرَةِ)

القَوْمُ .. سَمِعُوا وَطَابُوا ، وَلَكِنَّهُمْ سَمِعُوا أَحْسَنَ القَوْلِ فَٱتَّبَعُوهُ ، وَسَمِعُوا غَيْرَ الحَسَنِ فَٱجْتَنَبُوهُ .

تَحَلَّقُوا ، وَفَتَحُوا مَجَالِسَ الذِّكْرِ ، وَتَوَاجَدُوا ، وَطَابَتْ نُفُوسُهُمْ ، وَصَعِدَتْ أَرْوَاحُهُمْ .

---

(١) لم أقفْ عليهِ ، والسيِّدُ الكبيرُ جمعَ بينَ عِدَّةِ أحاديثَ كما هو ظاهرٌ ، فافْهم .

لاَحَتْ عَلَيْهِمْ بَوَارِقُ الإِخْلاَصِ حَالَةَ ذِكْرِهِمْ وَسَمَاعِهِمْ .

تَرَىٰ أَنَّ أَحَدَهُمْ . . كَالغَائِبِ عَلَىٰ حَالِ الحَاضِرِ ، كَالحَاضِرِ عَلَىٰ حَالِ الغَائِبِ .

يَهْتَزُّونَ اهْتِزَازَ الأَغْصَانِ الَّتِي تَحَرَّكَتْ بِالوَارِدِ ، لاَ بِنَفْسِهَا! .

يَقُولُونَ : لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ ، وَلاَ تَشْتَغِلُ قُلُوبُهُمْ بِسِوَاهُ .

يَقُولُونَ : اللهُ ، وَلاَ يَعْبُدُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .

يَقُولُونَ : هُوَ ، وَبِهِ لاَ بِغَيْرِهِ يَتَبَاهَوْنَ .

إِذَا غَنَّاهُمُ الحَادِي . . يَسْمَعُونَ مِنْهُ التَّذْكَارَ ، فَتَعْلُو هِمَّتُهُمْ فِي الأَذْكَارِ .

مَا الَّذِي أَوْجَبَ أَنْ يُذْكَرَ الصَّالِحُونَ فِي مَجَالِسِ الذِّكْرِ ؟

لَكَ أَنْ تَقُولَ يَا أَخِي : الذِّكْرُ عِبَادَةٌ ، فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ أَنْ يُذْكَرَ فِي حَلْقَتِهِ كَلاَمُ العَاشِقِينَ ، وَأَسْمَاءُ الصَّالِحِينَ ؟! .

وَلَكِنْ يُقَالُ لَكَ : الصَّلاَةُ . . أَجَلُّ العِبَادَاتِ ، يُتْلَىٰ فِيهَا كَلاَمُ اللهِ ، وَفِيهِ الوَعْدُ وَالوَعِيدُ ، وَيُقَالُ فِي تَحِيَّةِ الصَّلاَةِ :

« **السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ** »[١] .

مَا أَشْرَكَ المُصَلِّي! وَلاَ خَرَجَ عَنْ بِسَاطِ عِبَادَتِهِ! وَلاَ عَنْ حَدِّ عُبُودِيَّتِهِ! وَكَذَلِكَ الذَّاكِرُ ، سَمِعَ الحَادِي يَذْكُرُ اللِّقَاءَ . . فَطَابَ بِطَلَبِ لِقَاءِ رَبِّهِ :

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٨٣١) ، ومُسْلِمٌ (٤٠٢) .

« مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ . . أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ »[(١)] .

سَمِعَ الحَادِي يَذْكُرُ الفِرَاقَ . . فَتَأَهَّبَ لِلْمَوْتِ ، وَتَفَرَّغَ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا .

« حُبُّ الدُّنْيَا . . رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »[(٢)] .

سَمِعَ الحَادِيَ يَذْكُرُ الصَّالِحِينَ . . فَتَقَرَّبَ بِحُبِّ أَحْبَابِ اللهِ إِلَىٰ اللهِ ، هَذِهِ مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي بِعَدَدِ أَنْفَاسِ الخَلاَئِقِ إِلَىٰ اللهِ :

غَنَّىٰ بِهِمْ حَادِي الأَحِبَّةِ فِي الدُّجَىٰ ... فَأَطَارَ مِنْهُمْ أَنْفُساً وَقُلُوبَا

فَأَرَادَ مَقْطُوعُ الجَنَاحِ بُثَيْنَةً ... وَهُمُوا أَرَادُوا الوَاحِدَ المَطْلُوبَا

* * *

الكَاذِبُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ السَّمَاعُ

نَعَمْ يُؤَاخَذُ الكَاذِبُ ، يَحْرُمُ عَلَيْهِ السَّمَاعُ ، يُلْزَمُ بِعَدَمِ الحُضُورِ فِي مَجَالِسِهِ حَتَّىٰ يَصْدُقَ .

أَيْنَ أُولَئِكَ ؟ كَادُوا يَدْخُلُونَ أَعْدَادَ المَلاَئِكِ ! .

غَلَبُوا نُفُوسَهُمْ فَاضْمَحَلَّتْ ، وَطَارُوا بِأَجْنِحَةِ الأَرْوَاحِ فَسَارَتْ بِهِمْ وَدَنَتْ فَتَدَلَّتْ ، ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ .

أَخْلَصُوا فَتَخَلَّصُوا مِنْ قَيْدِ الرِّقِّيَّةِ ، وَوَصَلُوا إِلَىٰ مَقَامِ الحُرِّيَّةِ .

مَا مَلَكَتْهُمُ الأَغْيَارُ ، كَلاَّ ! بَلْ هُمُ الأَحْرَارُ كُلُّ الأَحْرَارِ ، كَانُوا وَبَانُوا ، رَحِمَ اللهُ القَائِلَ :

---

(١) رواهُ البُخاريّ (٦١٤٢) ، ومُسْلِمٌ (٢٦٨٣)

(٢) سيأتي تخريجُه ص (٢٦٨ـ٢٦٩) ، فانظُرْهُ ثَمَّ .

أَتَمَنَّى عَلَى الزَّمَانِ مُحَالاً   أَنْ تَرَى مُقْلَتَايَ طَلْعَةَ حُرِّ

نَحْنُ فِي زَمَانٍ عَمَّتْ بِهِ الجَهَالَةُ

مَا قُلْتُ لَكَ يَا أَخِي : ذَهَبَ القَوْمُ / لإِسَاءَةِ ظَنٍّ بِأَهْلِ الوَقْتِ ، وَلَكِنَّ القَوْلَ عَلَى الغَالِبِ .

نَحْنُ فِي زَمَانٍ عَمَّتْ بِهِ الجَهَالَةُ ، وَكَثُرَتْ بِهِ البَطَالَةُ ، وَفَشَتْ فِيهِ الدَّعْوَى الكَاذِبَةُ ، وَنُقِلَتْ فِيهِ الأَخْبَارُ المُزَخْرَفَةُ .

أَيْشٍ نَعْمَلُ ؟ تَحْرَدُ عَلَى مَنْ ؟ أَكْثَرُ النَّاسِ سَلَكُوا هَذِهِ الطُّرُقَ .

دَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ ، وَحَيِّهِمْ مَا دُمْتَ فِي حَيِّهِمْ ، وَلَكِنْ مَا الفَائِدَةُ مِنْ مُدَارَاةٍ تَأْخُذُهُمْ بِهَا العِزَّةُ ، وَمِنْ تَحِيَّةٍ تُمَكِّنُ فِيهِمُ الغَفْلَةَ ؟! .

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ .

الاهتِزَازُ حَالَةَ السَّمَاعِ بِغَيْرِ قَلْبٍ رَقْصٌ

أَيْشٍ أَعْمَلُ بِالسَّمَاعِ الَّذِي رَقَصَ فِيهِ الرَّاقِصُ بِغَيْرِ قَلْبٍ ، وَنَجَاسَةُ النَّفْسِ لَطَّخَتْهُ ؟! .

كَيْفَ يُحْسَبُ بِرَقْصِهِ وَنَقْصِهِ مِنَ الذَّاكِرِينَ ؟! .

وَرُبَّ تَالٍ تَلاَ القُرْآنَ مُجْتَهِداً   بَيْنَ الخَلاَئِقِ ، وَالقُرْآنُ يَلْعَنُهُ

للهِ مَلاَئِكَةٌ ، جُرْدٌ مُرْدٌ ، تَحْتَ العَرْشِ ، يَرْقُصُونَ وَيَذْكُرُونَهُ تَعَالَى ، وَيَهْتَزُّونَ لِذِكْرِهِ .

هَذِهِ أَرْوَاحٌ رَقَصَتْ بِاللهِ للهِ ، وأَنْتَ يَا مِسْكِينُ تَرْقُصُ بِنَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ؟
أُولَئِكَ الذَّاكِرُونَ ، وَأَنْتَ المَغْبُونُ المَفْتُونُ .

تَسْمِيَةُ الهَزِّ بِالذِّكْرِ رَقْصاً نِسْبَةً لِلرُّوحِ

سَمَّى القَوْمُ الهَزَّ بِالذِّكْرِ : رَقْصاً ، إِذَا كَانَ وَارِدُ الهِزَّةِ مِنَ الرُّوحِ ، فَنَسَبُوا الرَّقصَ لِلرُّوحِ ، لاَ لِلْجِسْمِ ! .

وَإِلاَّ فَأَيْنَ الرَّاقِصُونَ ، وَأَيْنَ الذَّاكِرُونَ ؟ طَلَبُ هَؤُلاَءِ حَقٌّ ، وَطَلَبُ هَؤُلاَءِ ضَلاَلٌ :

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتَ مُغَرِّباً شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ !

الرَّاقِصُونَ كَذَّابُونَ ، وَالذَّاكِرُونَ مَذْكُورُونَ ، بَيْنَ المَلْعُونِ وَالمَحْبُوبِ . . بَوْنٌ عَظِيمٌ[١] .

وُجُوبُ مُرَاقَبَةِ المَذْكُورِ لِمَنْ دَخَلَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ

إِذَا دَخَلْتُمْ مَجَالِسَ الذِّكْرِ . . فَرَاقِبُوا المَذْكُورَ ، وَاسْمَعُوا بِأُذُنٍ وَاعِيَةٍ .

إِذَا ذَكَرَ الحَادِي أَسْمَاءَ الصَّالِحِينَ . . فَأَلْزِمُوا أَنْفُسَكُمْ أَتْبَاعَهُمْ ، لِتَكُونُوا مَعَهُمْ : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[٢] .

أَوْجِبُوا عَلَيْكُمُ التَّخَلُّقَ بِأَخْلاَقِهِمْ ، خُذُوا عَنْهُمُ الحَالَ وَالوَجْدَ الحَقَّ .

الوَجْدُ الحَقُّ . . وِجْدَانُ الحَقِّ . لاَ تَعْمَلُوا بِالهَوَى .

---

(١) البَوْنُ : الفضلُ وَالمَزِيَّةُ . « مُخْتَارُ الصِّحَاحِ » ص (٧٢) ، مادة : « ب ي ن » .
(٢) مرَّ تخريجُهُ ص (١٤٩) .

تَحَقُّقُ الإِمَامِ السَّيِّدِ فِي مَقَامِ السَّمَاعِ

لاَ أَقُولُ لَكُمْ : إِنِّي أَكْرَهُ السَّمَاعَ ، لِتَحَقُّقِي فِي مَقَامِ سَمَاعِ القَوْلِ وَاتِّبَاعِ أَحْسَنِهِ ، وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ :

إِنِّي أَكْرَهُ السَّمَاعَ لِلْفُقَرَاءِ القَاصِرِينَ عَنْ هَذِهِ المَرْتَبَةِ ، لِمَا فِيهِ مِنَ البَلِيَّاتِ ، المُوقِعَةِ فِي أَشَدِّ الخَطِيئَاتِ .

وَإِذَا كَانَ وَلاَ بُدَّ . . فَمِنْ حَادٍ أَمِينٍ مُخْلِصٍ ، يَمْدَحُ الحَبِيبَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، وَيُذَكِّرُ بِاللهِ ، وَيَذْكُرُ الصَّالِحِينَ ، وَهُنَاكَ وَقِفُوا .

العَارِفُ يَأْخُذُ حِصَّةَ السَّمَاعِ وَيُفِيضُهَا عَلَىٰ أَهْلِ المَجْلِسِ

وَعَلَىٰ المُرْشِدِ العَارِفِ : **أَنْ يَأْخُذَ مِنَ السَّمَاعِ الحِصَّةَ اللاَّزِمَةَ ، وَيُفِيضَهَا عَلَىٰ قُلُوبِ أَهْلِ حَضْرَتِهِ ، بِإِذْنِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ** ؛ فَإِنَّ الحَالَ يَسْرِي كَسَرَيَانِ الرَّائِحَةِ فِي المَشَامِّ ، **وَنُقْطَةُ الإِخْلاَصِ . . إِكْسِيرٌ**[1] .

الرَّجُلُ مَنْ يُرَبِّي بِحَالِهِ

الرَّجُلُ مَنْ يُرَبِّي بِحَالِهِ ، لاَ مَنْ يُرَبِّي بِمَقَالِهِ ، وَإِذَا جَمَعَ بَيْنَ الحَالِ وَالقَالِ . . **فَهُوَ الرَّجُلُ الأَكْمَلُ** .

كُونُوا مِنَ القَوْمِ أَحْبَابِ اللهِ

أَخَذْتُمْ هَذِهِ المَوَاكِبَ عُدَّةً لِقَمْعِ شَوْكَةِ الكَافِرِينَ وَالصَّابِئِينَ وَأَصْحَابِ

---

(١) الإِكْسِيرُ ـ بِالكَسْرِ ـ : الكِيمْيَاءُ . « قاموس » ٢ : ١٣٢ ، مادة : « كسر »

الزَّيْغِ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فِي هَذِهِ البِقَاعِ لِإِرْهَابِهِمْ ، وَلِإِعْلاَءِ كَلِمَةِ الدِّينِ ، وَتَشْيِيدِ شَرَفِ المُسْلِمِينَ .

أَحْسَنْتُمُ العَمَلَ . . إِنْ حَسُنَتْ مَعَهُ النِّيَّةُ .

كَمُلَ الخَيْرُ . . إِنْ أَرْجَعْتُمْ كُلَّ أَحْوَالِكُمْ إِلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَوْ مِنْ بَابٍ ، وَإِلاَّ . . فَبِئْسَتِ الأَحْوَالُ وَالأَعْمَالُ وَالأَقْوَالُ .

بَلْ أَقُولُ : إِذَا سَاءَتِ المَذَاهِبُ . . لاَ فَرْقَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أُولَئِكَ القَوْمِ إِلاَّ بِالعَلاَمَةِ وَالعِمَامَةِ .

فَكُونُوا مِنَ القَوْمِ أَحْبَابِ اللهِ ، وَأَهْلِ بَابِ اللهِ ، لاَ مِنَ القَوْمِ أَعْدَاءِ اللهِ ، المَبْعُودِينَ عَنِ اللهِ ! .

تَحْذِيرُهُ مِنَ الدَّجَلِ فِي الطَّرِيقِ وَأَنَّهُ وَاضِحٌ

أَيْ سَادَةُ ! إِيَّاكُمْ وَالدَّجَّالِيَّةَ ! إِيَّاكُمْ وَالشَّيْطَانِيَّةَ ! إِيَّاكُمْ وَالطُّرُقَ الَّتِي تَقُودُ إِلَى كِلاَ الوَصْفَيْنِ ! .

أَخْجِلُوا الشَّيْطَانَ بِخَالِصِ الإِيمَانِ ، خَرِّبُوا بِيَعَ الدَّجَلِ بِيَدِ الصِّدْقِ[1] .

الطَّرِيقُ وَاضِحٌ ، صَلاَةٌ ، وَصَوْمٌ ، وَحَجٌّ ، وَزَكَاةٌ ، وَالتَّوْحِيدُ وَالشَّهَادَةُ بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ أَوَّلُ الأَرْكَانِ[2] .

---

(١) البِيَعُ : جمعُ بِيْعَةٍ ، وهيَ : كَنِيسَةُ النَّصارىٰ ، « لسان » ٢ : ١٩٥ ، مادة : « بيع » .

(٢) يُشِيرُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ إِلَى الحديثِ الَّذي رواهُ البُخاريُّ (٨) ومُسلمٌ (١٦) ، عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ :

وَٱجْتِنَابُ الْمُحَرَّمَاتِ . . حَالُ الْمُؤْمِنِ مَعَ اللهِ ، وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ .

أَدَبُ الذِّكْرِ وَحَالُ العَارِفِ مَعَ اللهِ

وَمِنْ حَالِ الْمُؤْمِنِ مَعَ اللهِ أَيْضاً . . ذِكْرُ اللهِ ـ تَعَالَىٰ ـ كَثِيراً ، وَمِنْ أَدَبِ الذِّكْرِ :

١ـ صِدْقُ العَزِيْمَةِ .

٢ـ وَكَمَالُ الخُضُوعِ وَالانْكِسَارِ .

٣ـ وَالانْخِلاَعُ عَنِ الأَطْوَارِ .

٤ـ وَالوُقُوفُ عَلَىٰ قَدَمِ العُبُودِيَّةِ بِالتَّمَكُّنِ الخَالِصِ .

٥ـ وَالتَّدَرُّعُ بِدِرْعِ الجَلاَلِ ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَىٰ الذَّاكِرَ رَجُلٌ كَافِرٌ . . أَيْقَنَ أَنَّهُ يَذْكُرُ اللهَ بِصِدْقِ التَّجَرُّدِ عَنْ غَيْرِهِ ، وَكُلُّ مَنْ رَآهُ . . هَابَهُ ، وَسَقَطَ مِنْ بَوَارِقِ هَيْبَتِهِ عَلَىٰ قَلْبِ الرَّائِي . . مَا يَجْعَلُ هَشِيمَ خَوَاطِرِهِ الفَاسِدَةِ هَبَاءً مَنْثُوراً[١] .

أَدَبُ الذِّكْرِ وَحَالُ العَامَّةِ حَالَةَ ذِكْرِهِمْ

وإِذَا كَانَ الأَمْرُ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا المِنْوَالِ . . فَأَحْسَنُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ العَامَّةِ :

١ـ التَّمَكُّنُ ، ٢ـ وَضَبْطُ القَوْلِ .

٣ـ وَجَمْعُ الأَدَبِ البَاطِنِيِّ وَالظَّاهِرِيِّ مَهْمَا أَمْكَنَ .

= « بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ البَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ »

(١) الهَشِيْمُ مِنَ النَّبَاتِ : اليَابِسُ المُتَكَسِّرُ ، ولاَ يُقَالُ لَهُ : هَشِيْمٌ وَهُوَ رَطْبٌ . « مصباح » ص (٦٣٨) ، مادة : « هشم » .

٤ـ وَكَفُّ الطَّرْفِ عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ أَحَدٍ .

دُعَاءُ السَّيِّدِ فِي مَقَامِ المُرَاقَبَةِ

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ رَكَّبْتَ عَلَىٰ جَوَارِحِهِمْ مِنَ المُرَاقَبَةِ . . غِلَاظَ القُيُودِ ، وَأَقَمْتَ عَلَىٰ سَرَائِرِهِمْ مِنَ المُشَاهَدَةِ . . دَقَائِقَ الشُّهُودِ ، فَهَجَمَ عَلَيْهِمْ نَشْرُ الرَّقِيبِ مَعَ القِيَامِ وَالقُعُودِ ، فَنَكَّسُوا رُؤُوسَهُمْ مِنَ الخَجَلِ وَجِبَاهَهُمْ لِلسُّجُودِ ، وَفَرَشُوا لِفَرْطِ ذُلِّهِمْ عَلَىٰ بَابِكَ نَوَاعِمَ الخُدُودِ ، فَأَعْطَيْتَهُمْ بِرَحْمَتِكَ غَايَةَ المَقْصُودِ .

وَصَلَّى اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

حَثُّهُ عَلَى الاقْتِدَاءِ بِالقُرْآنِ وَاتِّبَاعِ السَّلَفِ
وَقَسَمُهُ العَظِيمُ وَنَفْيُهُ عَنْ نَفْسِهِ المَشْيَخَةَ

يَا فَقِيرُ ! اقْتَدِ بِالقُرْآنِ المَجِيدِ ، اتَّبِعْ آثَارَ السَّلَفِ .

أَيْشٍ أَنَا / حَتَّىٰ أَدْعُوَ لَكَ ؟! مَا مَثَلِي إِلَّا كَمَثَلِ نَامُوسَةٍ عَلَى الحَائِطِ لَا قَدْرَ لَهَا .

حُشِرْتُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ، وَأَخَذَنِي مَا أَخَذَهُمْ ، إِنْ كَانَ خَطَرَ لِي فِي سِرِّي أَنِّي شَيْخُ هَٰذَا الجَمْعِ ، أَوْ مُقَدَّمُهُمْ ، أَوْ مَنْ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ ، أَوْ ثَبَتَ عِنْدِي : أَنِّي فَقِيرٌ مِنْهُمْ ![1] .

---

(١) مرَّ مِثْلُها ص (١٥٩) .

وَكَيْفَ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَىٰ ذَلِكَ . . مَنْ هُوَ لاَ شَيْءَ ، وَلاَ يَصْلُحُ لِشَيْءٍ ، وَلاَ يُعَدُّ بِشَيْءٍ ؟! .

قِيمَةُ الوَقْتِ عِنْدَ الإِمَامِ الرِّفَاعِيِّ

أَيْ سَادَةُ! لاَ تُضَيِّعُوا أَوْقَاتَكُمْ بِمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ رَاحَةٌ! فَمَا مَضَىٰ مِنْكُمْ نَفَسٌ . . إِلاَّ وَهُوَ مَعْدُودٌ عَلَيْكُمْ .

إِيَّاكُمْ وَمَا تَغْتَرُّونَ بِهِ! وَٱحْفَظُوا أَوْقَاتَكُمْ وَقُلُوبَكُمْ ؛ فَإِنَّ أَعَزَّ الأَشْيَاءِ . . الوَقْتُ وَالقَلْبُ ، فَإِذَا أَهْمَلْتُمُ الوَقْتَ ، وَضَيَّعْتُمُ القَلْبَ . . فَقَدْ ذَهَبَتْ مِنْكُمُ الفَوَائِدُ .

الذُّنُوبُ تُعْمِي القُلُوبَ

وَٱعْلَمُوا : أَنَّ الذُّنُوبَ تُعْمِي القُلُوبَ ، وَتُسَوِّدُهَا ، وَتَشُوهُهَا ، وَتُمْرِضُهَا .

مَكْتُوبٌ فِي « التَّوْرَاةِ » : « فِي كُلِّ قَلْبِ مُؤْمِنٍ : نَائِحَةٌ تَنُوحُ عَلَيْهِ ، وَفِي كُلِّ قَلْبِ مُنَافِقٍ . . مُغَنٍّ يُغَنِّي ، وَفِي قَلْبِ العَارِفِ . . مَوْضِعٌ لاَ يَسُرُّهُ أَبَداً ، وَفِي قَلْبِ المُنَافِقِ . . مَوْضِعٌ لاَ يَغُمُّهُ أَبَداً » .

التَّحْقِيقُ فِي وَجْدِ الفُقَرَاءِ حَالَةَ الذِّكْرِ

أَيْ سَادَةُ! أَنْتُمْ تَذْكُرُونَ اللهَ فِي هَذَا الرِّوَاقِ[1] ، وَتَتَوَاجَدُونَ وَتَهْتَزُّونَ ،

---

(١) الرِّواقُ ـ بالضَّمِّ وَالكَسْرِ ـ : مُقَدَّمُ البيتِ ، والفُسْطَاطُ . « قاموس » ٣ / ٢٤٦ ، مادة : « روق » .

فَيَقُولُ الفُقَهَاءُ المَحْجُوبُونَ : رَقْصَ الفُقَرَاءُ ، وَيَقُولُ العَارِفُونَ : رَقَصَ الفُقَرَاءُ .

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ وَجْدُهُ كَاذِباً ، وَقَصْدُهُ فَاسِداً ، وَذِكْرُهُ مِنَ اللِّسَانِ ، مَعَ طَمَحِ الطَّرْفِ إِلَىٰ الأَغْيَارِ .. فَهُوَ رَقَّاصٌ كَمَا قَالَ الفُقَهَاءُ ، وَصَدَقَ عَلَيْهِ مَا قَالُوا .

وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ وَجْدُهُ صَادِقاً ، وَقَصْدُهُ صَالِحاً ، عَمَلاً بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا القَوْلَ .. قَصَدُوا المُرَادَ مِنَ القَوْلِ ، وَهُوَ : الإِجَابَةُ لِدَاعِي اللهِ فِي الأَزَلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِيهِمْ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ ﴾ .

فَسَمِعَ بِلاَ حَدٍّ وَلاَ رَسْمٍ وَلاَ صِفَةٍ ، فَثَبَتَتْ حَلاَوَةُ السَّمَاعِ فِيهِمْ بِتَرَدُّدٍ .

فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ آدَمَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ وَكَوَّنَهُ ، وَأَظْهَرَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَىٰ الدُّنْيَا .. ظَهَرَ ذَلِكَ السِّرُّ المَصُونُ المَكْنُونُ فِيهِمْ .

فَإِذَا سَمِعُوا نَغْمَةً طَيِّبَةً ، وَقَوْلاً حَسَناً .. طَارَتْ هِمَمُهُمْ إِلَىٰ الأَصْلِ الَّذِي سَمِعُوهُ مِنْ ذَلِكَ النِّدَاءِ .

وَأُولَئِكَ .. هُمُ العَارِفُونَ بِاللهِ ـ تَعَالَىٰ ـ فِي الأَزَلِ ، المُتَحَابُّونَ فِيهِ ، المُتَزَاوِرُونَ لأَجْلِهِ ، الذَّاكِرُونَ المُهَيَّمُونَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ .. فَذَلِكَ الفَقِيرُ يُقَالُ لَهُ :

ذَاكِرٌ رَقَصَتْ رُوحُهُ ، وَصَحَّتْ عَزِيمَتُهُ ، وَكَمُلَ عَقْلُهُ ، وَٱبْيَضَّتْ صَحِيفَتُهُ ، وَأَخَذَ مِنَ السَّمَاعِ الحَظَّ المَكْنُونَ ، وَنَشَرَ السِّرَّ المَطْوِيَّ فِيهِ ؛ لأَنَّ السَّمَاعَ مَوْجُودٌ سِرُّهُ فِي طَبْعِ كُلِّ ذِي رُوحٍ يَسْمَعُ .

وَكُلُّ جِنْسٍ يَسْمَعُ بِمَا يُوَافِقُ طَبْعَهُ ، وَيَفْهَمُ مِنَ السَّمَاعِ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ هِمَّتُهُ . أَمَا تَرَى الطِّفْلَ إِذَا سَمِعَ الحَدْوَ . طَرِبَ وَنَامَ ، وَالجِمَالَ إِذَا حَدَاهَا الحَادِي . سَارَتْ وَنَسِيَتْ أَلَمَ الثِّقْلِ (١) ؟ جَاءَ فِي الآثَارِ :

---

(١) روى القُشَيْرِيُّ في « رسالتِهِ » ص (١٥٣) بابٌ في السَّمَاعِ « عَنْ أبي بكرٍ الدِّينَوَرِيِّ الرَّقِّيِّ قَالَ :

كنتُ في الباديةِ ، فوافَيْتُ قبيلةً مِنْ قبائلِ العَرَبِ ، فأضافَنِي رَجُلٌ منهم ، فرأيتُ غُلاماً أسودَ مُقَيَّداً هُناكَ ، ورأيتُ جِمالاً قد ماتَتْ بِفِناءِ البيتِ .

فقالَ لِيَ الغُلامُ : أنتَ ضيفٌ ، وأنتَ علَى مَوْلايَ كريمٌ ، فتشفَّعْ لي ؛ فإنَّهُ لا يَرُدُّكَ .

فقلتُ لصاحبِ البيتِ : لا آكلُ طعامَكَ حتَّى تَحُلَّ هذا العَبْدَ .

فقالَ لي : هذا الغُلامُ قد أفقرَني ، وأتلفَ مالي!

فقلتُ لَهُ . فمَا فَعَلَ ؟ فقالَ . لهُ صوتٌ طيِّبٌ ، وكنتُ أعيشُ مِنْ ظَهْرِ هذِهِ الجِمالِ ، فحَمَّلَها أحمالاً ثقيلةً ، وحَدَى لها ، حتَّى قطعَتْ مسيرةَ ثلاثةِ أيامٍ في يومٍ واحدٍ ، فلمَّا حطَّ عنها . . ماتَتْ كُلُّها ، ولكن قد وهبتُهُ لكَ ، وحَلَّ عنه القيدَ

فلمَّا أصبحْنا . . أحببتُ أنْ أسمعَ صوتَهُ ، فسألتُ الواهبَ ذلك .

فأمرَ الغُلامَ أنْ يَحْدُوَ علَى جَمَلٍ كانَ علَى بِئرٍ هُناكَ ، يُستقَى عليه

فحَدَا ، فهَامَ الجَمَلُ علَى وجهِهِ ، وقطعَ حِبالَهُ ، ولم أظُنَّ أنِّي سمعتُ صوتاً أطيبَ منهُ ، فوقعتُ لوجهي ، حتَّى أشارَ إليهِ بالسُّكوتِ » . انتهى ، وانظُر=

« إِنَّ اللهَ مَا خَلَقَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ : أَلَذَّ مِنْ صَوْتِ إِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، فَإِذَا قَرَأَ فِي السَّمَاءِ . . قَطَعَ عَلَىٰ أَهْلِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ذِكْرَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ »[١] .

لَمَّا أَهْبَطَ اللهُ آدَمَ إِلَىٰ الأَرْضِ . . بَكَىٰ ثَلاَثَ مِئَةِ عَامٍ! فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ تعالَىٰ ـ إِلَيْهِ :

« يَا آدَمُ! فِيمَ بُكَاؤُكَ ؟ وَمَا جَزَعُكَ ؟ » .

فَقَالَ : « يَا رَبِّ! لَسْتُ أَبْكِي شَوْقاً إِلَىٰ جَنَّتِكَ ، وَلاَ خَوْفاً مِنْ نَارِكَ ، وَإِنَّمَا بُكَائِي شَوْقاً إِلَىٰ المَلاَئِكَةِ المُتَوَاجِدِينَ حَوْلَ العَرْشِ ، سَبْعِينَ أَلْفَ صَفٍّ ، جُرْدٌ مُرْدٌ ، يَرْقُصُونَ وَيَتَوَاجَدُونَ وَيَلُوذُونَ حَوْلَ العَرْشِ ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِيَدِ صَاحِبِهِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ :

« جَلَّ المَلِكُ مَلِكُنَا! لَوْلاَ مَلِكُنَا . . هَلَكْنَا ، مَنْ مِثْلُنَا وَأَنْتَ إِلَٰهُنَا ؟ وَمَنْ مِثْلُنَا وَأَنْتَ حَبِيبُنَا وَمُسْتَفَاثُنَا ؟ » . وَذَلِكَ دَأْبُهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ .

فَأَوْحَىٰ اللهُ ـ تَعَالَىٰ ـ إِلَيْهِ : « يَا آدَمُ! اِرْفَعْ رَأْسَكَ ، وَانْظُرْ إِلَيْهِمْ » .

فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ ، فَنَظَرَ إِلَىٰ المَلاَئِكَةِ وَهُمْ يَرْقُصُونَ حَوْلَ العَرْشِ : جِبْرَائِيلُ رَأْسُهُمْ ، وَمِيكَائِيلُ قَوَّالُهُمْ ، فَلَمَّا رَآهُمْ . سَكَنَ رَوْعُهُ وَأَنِينُهُ .

= « إحكام الدَّلالة » ٢ : ٩٣٥ و ٩٥٧ ، للشيخ العلاَّمة زكريّا الأنصاريّ ، رضيَ اللهُ عنهُ .

(١) ذكرَهُ القُرطُبيُّ في « تفسيره » ١٦ : ٤٠٦ـ٤٠٧ عندَ قولِهِ تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ . [الرُّوم : ١٥] .

وَقِيلَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ ، أي : يَسْمَعُونَ[١] .

هَذَا أَسَاسُ مَقَاصِدِ العَارِفِيْنَ فِي السَّمَاعِ وَالتَّوَاجُدِ ، وَهَذَا العَطَاءُ . . مَا هُوَ بِالرَّقْصِ المُحَرَّمِ كَمَا يَزْعَمُ بَعْضُ الجُهَلاَءِ مِنْ مَمْقُوتِي الفُقَرَاءِ .

هَذَا العَطَاءُ . . يَحْصُلُ لِرَجُلٍ يَمْلِكُ خَاطِرَهُ ، وَلاَ يَجُولُ بِقَلْبِهِ وَسْوَاسٌ ، وَلاَ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ عَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الأَكْوَانِ ، وَلاَ يَقْصِدُ إِلاَّ اللهَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ .

وَمَنْ كَانَ مُضَمَّخاً بِأَوْسَاخِ الوَسْوَاسِ وَأَدْنَاسِ الطَّبْعِ . . عَلَيْهِ أَنْ يَذْكُرَ اللهَ مُحَافِظاً عَلَىٰ أَدَبِ القَوْلِ وَالحَرَكَةِ مَهْمَا أَمْكَنَ ، وَأَنْ لاَ يَخُوضَ بَحْرَ الدَّعْوَىٰ الكَاذِبَةِ ، وَيَدَّعِيَ مَنْزِلَةَ القَوْمِ ، ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ ؟ وَاللهُ غَيُورٌ ، وَبِهَذَا القَدْرِ كِفَايَةٌ .

كُونُوا مَعَ الشَّرْعِ ظَاهِراً وَبَاطِناً

أَيْ سَادَةُ! كُونُوا مَعَ الشَّرْعِ فِي آدَابِكُمْ كُلِّهَا ، ظَاهِراً وَبَاطِناً ؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ مَعَ الشَّرْعِ ظَاهِراً وَبَاطِناً . . كَانَ اللهُ حَظَّهُ وَنَصِيبَهُ ، وَمَنْ كَانَ اللهُ حَظَّهُ وَنَصِيبَهُ . . كَانَ مِنْ أَهْلِ ﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

---

(١) قال القُرْطُبِيُّ في « تفسيره » ١٦ . ٤٠٦ـ٤٠٧ : « وقالَ يَحْيَىٰ بنُ أبي كَثِيرٍ ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ . السَّمَاعُ في الجَنَّةِ ؛ وَقَالَهُ الأَوْزَاعِيُّ ؛ قَالَ .
إِذَا أَخَذَ أَهلُ الجَنَّةِ فِي السَّمَاعِ ـ أَيْ : الغِنَاءِ ـ لَمْ تَبْقَ شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ إِلاَّ رَدَّدَتِ الغِنَاءَ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ » . وتمامُهُ فيه .

إِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا كَالمُنْخُلِ!

أَيْ سَادَةً! مِنْكُمُ الفُقَهَاءُ وَالعُلَمَاءُ أَيْضاً ، وَلَكُمْ مَجَالِسُ وَعْظٍ وَدُرُوسٌ تَقْرَأُونَهَا ، وَأَحْكَامٌ شَرْعِيَّةٌ تَذْكُرُونَهَا وَتُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ .

إِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا كَالمُنْخُلِ ، يُخْرِجُ الدَّقِيقَ الطَّيِّبَ ، وَيُمْسِكُ لِنَفْسِهِ النُّخَالَةَ ، وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ ، تُخْرِجُونَ الحِكْمَةَ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ ، وَيَبْقَى الغِلُّ فِي قُلُوبِكُمْ ، تُطَالَبُونَ حِينَئِذٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ ؟! .

إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً . . بَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ .

إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا . . جَعَلَ فِي قَلْبِهِ الرَّأْفَةَ والشَّفَقَةَ لِسَائِرِ المَخْلُوقَاتِ ، وَعَوَّدَ كَفَّهُ السَّخَاءَ ، وَقَلْبَهُ الرَّأْفَةَ ، وَنَفْسَهُ السَّمَاحَةَ ، وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ حَتَّى يَسْتَصْغِرَهَا وَلاَ يَرَاهَا شَيْئاً .

العَارِفُ حَزِينٌ :

العَارِفُ . . حَزِينٌ إِذَا فَرِحَ النَّاسُ ، كَئِيبٌ مِنْ غَيْرِ يَأْسٍ ، فَرَحُهُ قَلِيلٌ ، وَبُكَاؤُهُ طَوِيلٌ ، مَطْلُوبُهُ . . مَحْبُوبُهُ ، وَهَمُّهُ . . عُيُوبُهُ وَذُنُوبُهُ .

النَّاسُ فِي العِيدِ قَدْ سُرُّوا وَقَدْ فَرِحُوا وَمَا سُرِرْتُ بِهِ وَالوَاحِدِ الصَّمَدِ
لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنِّي لاَ أُعَايِنُكُمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي وَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدِ

***

أَقْرَبُ الطُّرُقِ وَأَوْضَحُهَا العَمَلُ بِالسُّنَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ

بَذَلْتُ نَفْسِي ، وَلَمْ أَتْرُكْ طَرِيقاً إِلاَّ سَلَكْتُهُ ، وَعَرَفْتُ صِحَّتَهُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالمُجَاهَدَةِ ، فَلَمْ أَجِدْ أَقْرَبَ وَأَوْضَحَ / وَأَحَبَّ مِنَ العَمَلِ بِالسُّنَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، وَالتَّخَلُّقِ بِخُلُقِ أَهْلِ الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ ، وَالحَيْرَةِ وَالافْتِقَارِ .

كَانَ الصِّدِّيقُ الأَكْبَرُ ، السَّيِّدُ أَبُو بَكْرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يَقُولُ :

الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلِ الوُصُولَ إِلَيْهِ . . إِلاَّ بِالعَجْزِ ، وَالعَجْزُ عَنْ دَرْكِ الإِدْرَاكِ . . إِدْرَاكٌ .

رُوِيَ أَنَّ اللهَ ـ تَعَالَىٰ ـ قَالَ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يَا مُوسَىٰ ! ائْتِنِي بِمَا لَيْسَ فِي خَزَائِنِي » .

قَالَ : يَا رَبِّ ! أَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ ، وَأَيُّ شَيْءٍ نَقَصَتْ خَزَائِنُكَ ؟! .

فَقَالَ : « يَا مُوسَىٰ ! اعْلَمْ أَنَّ خَزَائِنِي مَمْلُوءَةٌ كِبْرِيَاءَ وَعِزّاً وَجَلَالاً وَجَبَرُوتاً ، وَلَكِنِ ائْتِنِي بِالذُّلِّ وَالانْكِسَارِ وَالمَسْكَنَةِ ، فَأَنَا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي .

يَا مُوسَىٰ ! مَا تَقَرَّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِأَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ »[١] .

مُلْتَفِتٌ لَا يَصِلُ :

أَيْ سَادَةُ ! مِنَ الخَشْيَةِ . . تَكُونُ المُحَاسَبَةُ ، وَمِنَ المُحَاسَبَةِ . . تَكُونُ المُرَاقَبَةُ ، وَمِنَ المُرَاقَبَةِ . . يَكُونُ دَوَامُ الشُّغْلِ بِاللهِ ؛ فَإِنَّ أَغْبَطَ النَّاسِ فِي

---

(١) لم أقف عليه بهذه الرواية ، إلاَّ أنَّ قولَهُ : « أنا عِندَ المُنكَسِرَةِ قُلُوبُهم مِن أجْلِي » . هي عندَ أحمدَ في « الزُّهد » ص (٧٥) .

زَمَانِنَا.. مُؤْمِنٌ عَرَفَ زَمَانَهُ، وَحَفِظَ لِسَانَهُ، وَلَزِمَ شَأْنَهُ، وَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

قُلْتُ لِسَيِّدِي عَبْدِ المَلِكِ الخَرْنُوبِيِّ ـ قَدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ـ: أَوْصِنِي! قَالَ لِي:

يَا أَحْمَدُ! مُلْتَفِتٌ.. لاَ يَصِلُ، وَمُشَكِّكٌ.. لاَ يُفْلِحُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ مِنْ نَفْسِهِ النُّقْصَانَ.. فَكُلُّ أَوْقَاتِهِ نُقْصَانٌ.

فَبَقِيتُ سَنَةً أُرَدِّدُ وَصِيَّةَ الشَّيْخِ، وَمَا يَخْطُرُ لِي خَاطِرٌ إِلاَّ أَذْكُرُهَا، فَيَزُولُ عَنِّي، ثُمَّ إِنِّي زُرْتُهُ فِي السَّنَةِ الأُخْرَىٰ، وَلَمَّا أَرَدْتُ الخُرُوجَ مِنْ عِنْدِهِ.. قُلْتُ لَهُ: أَيْ سَيِّدِي! أَوْصِنِي؟ فَقَالَ لِي:

يَا أَحْمَدُ! مَا أَقْبَحَ العِلَّةَ بِالأَطِبَّاءِ! وَالجَهْلَ بِالأَلِبَّاءِ! وَالجَفَاءَ بِالأَحِبَّاءِ![1]

فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ، وَصِرْتُ أُرَدِّدُهَا سَنَةً عَلَىٰ نَفْسِي، وَٱنْتَفَعْتُ بِهِ وَبِوَصِيَّتِهِ.

العَارِفُ عَظِيمُ السِّيَاسَةِ لِنَفْسِهِ

العَالِمُ العَارِفُ.. عَظِيمُ السِّيَاسَةِ لِنَفْسِهِ بِالمَخَافَةِ مِنَ اللهِ، وَالمُرَاقَبَةِ لَهُ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلاَمٍ.. ٱعْتَبَرَهُ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ فِيهِ، فَإِنْ رَأَىٰ فِيهِ صَلاَحاً.. أَخْرَجَهُ، وَإِلاَّ ضَمَّ فَمَهُ عَلَيْهِ؛ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الرِّوَايَاتُ:

---

(١) الأَلِبَّاءُ: جمعُ لَبِيبٍ، وهو العاقِلُ، «مختار الصِّحاح» ص (٥٨٩)، مادة: «لبب».
وَالأَحِبَّاءُ: جمعُ حَبِيبٍ، «مصباح» ص (١١٧)، مادة: «حبب».

« لِسَانُكَ أَسَدُكَ ، إِنْ حَرَسْتَهُ .. حَرَسَكَ ، وَإِنْ أَطْلَقْتَهُ .. رَفَسَكَ »[١] .

العَارِفُ كَلاَمُهُ يُنَقِّي الصَّدَأَ

العَارِفُ كَلاَمُهُ .. يُنَقِّي الصَّدَىٰ ، وَصَمْتُهُ يَصْرِفُ الرَّدَىٰ ، يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ لأَهْلِهِ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ وَفِعْلِهِ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

القَرِيبُ خَائِفٌ :

مَنْ عَرَفَ اللهَ .. زَادَ أَدَبُهُ مَعَهُ .

مَنْ تَقَرَّبَ إِلَىٰ اللهِ .. عَظُمَ خَوْفُهُ مِنَ اللهِ .

أَخْبَرَنِي القَاضِي المُقْرِىءُ الإِمَامُ الصَّالِحُ سَيِّدِي عَلِيٌّ أَبُو الفَضْلِ الوَاسِطِيُّ ، بِسَنَدِهِ إِلَىٰ الخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ ، يُسَلْسِلُهُ إِلَىٰ أَبِي الجَارُودِ العَبْسِيِّ : أَنَّ جَابِرَ بنَ عَبْدِ اللهِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ـ قَالَ :

بَلَغَنِي حَدِيثٌ فِي القِصَاصِ ، وَكَانَ صَاحِبُ الحَدِيثِ بِمِصْرَ ، فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرَاً ، وَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلاً ، ثُمَّ سِرْتُ شَهْرَاً ، حَتَّىٰ وَرَدْتُ مِصْرَ ، فَسَأَلْتُ عَنْ صَاحِبِ الحَدِيثِ ، فَدُلِلْتُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ بَابٌ لاَطٌّ[٢] ، فَقَرَعْتُ

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) أي : مُغْلَقٌ ، يُقَالُ . لَطَّ البَابَ لَطّاً .. أَغْلَقَهُ ، وَلَطَطْتُ الشَّيْءَ .. أَلْصَقْتُهُ . كذا في « القاموس » ٢ : ٣٩٧ ، مادة . « لط » ، وشرحه « تاج العروس » ٢٠ : ٦٧ ، وانظر « النهاية » ٤ : ٢٤٩ .

البَابَ ، فَخَرَجَ إِلَيَّ مَمْلُوكٌ أَسْوَدُ ، فَقُلْتُ : هَاهُنَا أَبُو فُلاَنٍ ؟ فَسَكَتَ عَنِّي ، فَدَخَلَ فَقَالَ لِمَوْلاَهُ : بِالبَابِ أَعْرَابِيٌّ يَطْلُبُكَ ؟ .

فَقَالَ : اِذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ .

فَقُلْتُ : أَنَا جَابِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ ، صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ : فَخَرَجَ إِلَيَّ ، فَرَحَّبَ بِي ، وَأَخَذَ بِيَدِي ، ثُمَّ قَالَ لِي : مِنْ أَيْنَ ؟ أَمِنْ أَهْلِ العِرَاقِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ! بَلَغَنِي حَدِيثٌ فِي القِصَاصِ ، وَلاَ أَعْلَمُ أَحَداً مِمَّنْ بَقِيَ أَحْفَظَ لَهُ مِنْكَ ، فَقَالَ : أَجَلْ! سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ :

« إِنَّ اللهَ يَبْعَثُكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، وَهُوَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَائِمٌ عَلَى عَرْشِهِ ، يُنَادِي بِصَوْتٍ لَهُ رَفِيعٍ غَيْرِ فَظِيعٍ ، يُسْمِعُ البَعِيدَ كَمَا يُسْمِعُ القَرِيبَ ، يَقُولُ :

أَنَا الدَّيَّانُ! لاَ ظُلْمَ عِنْدِي! وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي ! لاَ يُجَاوِزُنِي اليَوْمَ ظُلْمُ ظَالِمٍ وَلَوْ بِلَطْمَةٍ بِكَفٍّ ، وَلَوْ ضَرْبَةَ يَدٍ عَلَى يَدٍ ، وَلأَقْتَصَّنَّ لِلْجَمَّاءِ مِنَ القَرْنَاءِ[1] ، وَلأَسْأَلَنَّ الحَجَرَ لِمَ نَكَبَ الحَجَرَ[2] ، وَلأَسْأَلَنَّ العُودَ لِمَ خَدَشَ صَاحِبَهُ .

فِي ذَلِكَ أُنْزِلَ عَلَيَّ ـ يَعْنِي فِي كِتَابِي ـ ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ » .

---

(١) الجَمَّاءُ : التي لا قَرْنَ لَهَا ، كَذا في « النهاية » ١ : ٣٠٠ ، مادة : « جمم » ، لابنِ الأثيرِ ، رحمةُ الله عليه .

(٢) أي : لِمَ مَالَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي . . عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ .

أَلاَ فَلْيَرْتَقِبْ أُمَّتِي العَذَابَ إِذَا كَافَأَ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ »[1] .

هَذَا الحَدِيثُ أَظْهَرَ مَا للهِ مِنَ العَدْلِ بِإِثْبَاتِ القِصَاصِ فِيمَنْ لَيْسَ بِمُكَلَّفٍ كَالبَهَائِمِ وَغَيْرِهَا .

وَأَطْلَقَ القَوْلَ عَلَيْهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِالقِيَامِ عَلَىٰ العَرْشِ يَوْمَ القِيَامَةِ . . مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ .

وَأَثْبَتَ الوَعِيدَ فِي اللِّوَاطِ وَالسِّحَاقِ .

النَّاجِي مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ

العِلْمُ لاَ يُكْتَمُ ، وَالحَقُّ يُقَالُ ، وَالشَّارِعُ ـ رُوحِي الفِدَاءُ لِقَبْرِهِ المُبَارَكِ ـ أَوْضَحَ لَنَا مَا لَنَا ، وَمَا عَلَيْنَا تَمَاماً .

فَالنَّاجِي . . مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ ، وَالحَذَرُ وَالهَلاَكُ . . لِمَنْ خَالَفَهُ .

بَلَّغَ كَمَا أُمِرَ ، وَمَا بَقِيَ لَنَا عَلَيْهِ حُجَّةٌ ، وَهُوَ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ صَاحِبُ الحُجَّةِ القَائِمَةِ عَلَىٰ كُلِّ مُكَلَّفٍ ، وَبِهِ قَامَتْ حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ .

هَكَذَا قَضَىٰ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ وَقَالَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ، ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ .

---

(١) رواه الخطيبُ في « الرِّحلة في طلب الحديث » (١١٦) ، وأبو عبدِ اللهِ القَيْسِيُّ في جُزْءِ « مجلس في حديث جابر » ص (٤٠) .

مَنْ أَحَبَّ اللهَ عَلَّمَ نَفْسَهُ التَّوَاضُعَ

أَيْ سَادَةُ! مَنْ أَحَبَّ اللهَ.. عَلَّمَ نَفْسَهُ التَّوَاضُعَ، وَقَطَعَ عَنْهَا عَلَائِقَ الدُّنْيَا، وَآثَرَ اللهَ - تَعَالَىٰ - عَلَىٰ جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَاشْتَغَلَ بِذِكْرِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ لِنَفْسِهِ رَغْبَةً فِيمَا سِوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَامَ بِعِبَادَتِهِ بِحَقَائِقِ الْأَسْرَارِ، وَخَلَعَ الْمَنَابِرَ وَالْأَسِرَّةَ تَوَاضُعاً للهِ وَإِنْ كَانَتْ يَدُهُ طَائِلَةً إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ، وَكَانَ كَمَنْ قِيلَ فِيهِ:

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضُعاً ... وَلَهُ مَنَابِرُ لَوْ يَشَا وَسَرِيرُ
وَلِغَيْرِهِ يُجْبَىٰ الْخَرَاجُ[1]، وَإِنَّمَا ... يُجْبَىٰ إِلَيْهِ مَحَامِدٌ وَأُجُورُ

* * *

حَقِيقَةُ الْعَبْدِيَّةِ:

أَيْ سَادَةُ!! الْعَبْدِيَّةُ.. حَقُّهَا الانْقِطَاعُ عَنْ غَيْرِ السَّيِّدِ بِالْكُلِّيَّةِ.

الْعَبْدِيَّةُ.. تَرْكُ كُلِّ كُلِّيَّةٍ وَجُزْئِيَّةٍ.

الْعَبْدِيَّةُ.. رَدُّ الْقَصْدِ عَنْ طَلَبِ كُلِّ مَزِيَّةٍ.

الْعَبْدِيَّةُ.. عَدَمُ رُؤْيَةِ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ عَلَىٰ إِخْوَانِهِ رِفْعَةً أَوْ فَوْقِيَّةً[2].

الْعَبْدِيَّةُ.. الْوُقُوفُ عِنْدَ مَا حُدَّ لِلطِّينَةِ الْآدَمِيَّةِ.

الْعَبْدِيَّةُ.. الْخَشْيَةُ وَالْخُضُوعُ تَحْتَ مَجَارِي الْأَقْدَارِ الرَّبَّانِيَّةِ.

---

(١) الْخَرَاجُ وَالْخَرْجُ: ما يَحْصُلُ مِنْ غَلَّةِ الأَرْضِ، «مصباح» ص (١٦٦)، مادة: «خرج».

(٢) في المطبوع ص (٧٥): «فَرِيَّةً». وهو تصحيف.

مَتَى يَكُونُ العَبْدُ كَامِلاً ؟

لاَ يَكُونُ العَبْدُ عَبْداً كَامِلاً . . حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الحُرِّيَّةِ ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ رِقِّ الأَغْيَارِ بِالكُلِّيَّةِ .

لاَ تَتَّخِذُونِي دِقَّةَ المُكْدِيَةِ

أَيْ سَادَةً! لاَ تَتَّخِذُونِي دِقَّةَ المُكْدِيَةِ ، لاَ تَجْعَلُوا رُوَاقِي حَرَماً ، وَقَبْرِي بَعْدَ مَوْتِي صَنَماً .

دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مُنْفَرِداً إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، فَحَصَلَ مَعَ الجَمْعِيَّةِ ، وَعَسَانِي أَصِلُ إِلَىٰ هَذَا المَقْصَدِ إِذَا فَارَقْتُ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ .

إِذَا صَحَّ مِنْهُ الوَصْلُ فَالكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

الوَسَائِلُ لاَ تُنْكَرُ وَالوَسَائِطُ لا تُكْفَرُ وَالضَّارُّ وَالنَّافِعُ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ

عَلَيْكُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ! وَحَقِّهِ : لاَ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ ، وَيَصِلُ وَيَقْطَعُ ، وَيُفَرِّقُ وَيَجْمَعُ ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ . . إِلاَّ هُوَ .

الوَسَائِلُ إِلَيْهِ لاَ تُنْكَرُ ، وَالوَسَائِطُ لاَ تُكْفَرُ ، وَإِنَّمَا المَادَّةُ الكُبْرَىٰ . . كَلِمَةٌ تَقُولُهَا وَتَصِلُ ، وَهِيَ : آمَنْتُ بِاللهِ .

فَإِذَا آمَنْتَ بِهِ . . آمَنْتَ بِكِتَابِهِ ، وَبِرَسُولِهِ ، وَبِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَمِلْتَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ .

وَعَظَّمْتَ الوَسَائِلَ وَالوَسَائِطَ الَّتِي تَدُلُّكَ عَلَىٰ اللهِ ، وَوَحَّدْتَ اللهَ ، وَوَقَفْتَ عَلَىٰ البَابِ بِسَائِحِ الدُّمُوعِ ، وَلَثِمْتَ الأَرْضَ بِالذُّلِّ وَالخُضُوعِ ، وَعَرَفْتَ إِلَىٰ أَيْنَ المَصِيرُ وَالرُّجُوعُ ، وَتَهَيَّأْتَ لِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِ المُلاَقَاةِ ، وَأَخْلَصْتَ فِي أَعْمَالِكَ كُلِّهَا ، فَصِرْتَ إِخْلاَصاً خَالِصاً :

وَبَعْدَهَا تَلِيقُ لَكَ المَرَاتِبُ ، وَتَسُحُّ عَلَيْكَ سُحُبُ المَوَاهِبِ ، وَتَعُودُ عَلَيْكَ عَوَائِدُ الكَرَمِ ، وَتُمَدُّ لَكَ مَوَائِدُ النِّعَمِ ، وَتُنْشَرُ شَبَكَةُ عِرْفَانِكَ عَلَىٰ الخَلْقِ حَتَّىٰ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ، وَتَصِلُ دَعْوَةُ نِيَابَتِكَ إِلَىٰ الظُّهُورِ وَالبُطُونِ بِإِذْنِ اللهِ .

وُجُوبُ تَعْظِيمِ الفُقَهَاءِ وَالعُلَمَاءِ

أَيْ سَادَةُ! عَظِّمُوا شَأْنَ الفُقَهَاءِ وَالعُلَمَاءِ ، كَتَعْظِيمِكُمْ شَأْنَ الأَوْلِيَاءِ وَالعُرَفَاءِ ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ وَاحِدٌ ، وَهَؤُلاَءِ . . وُرَّاثُ ظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ ، وَحَمَلَةُ أَحْكَامِهَا الَّذِينَ يُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ ، وَبِهَا يَصِلُ الوَاصِلُونَ إِلَىٰ اللهِ ، إِذْ لاَ فَائِدَةَ بِالسَّعْيِ وَالعَمَلِ عَلَىٰ الطَّرِيقِ المُغَايِرِ لِلشَّرْعِ .

وَلَوْ عَبَدَ اللهَ العَابِدُ خَمْسَ مِئَةِ عَامٍ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ شَرْعِيَّةٍ . . فَعِبَادَتُهُ رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ ، وَوِزْرُهُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يُقِيمُ لَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً .

وَرَكْعَتَانِ مِنْ فَقِيهٍ فِي دِينِهِ . . أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَلْفَيْ رَكْعَةٍ مِنْ فَقِيرٍ جَاهِلٍ فِي دِينِهِ .

فَإِيَّاكُمْ وَإِهْمَالَ حُقُوقِ العُلَمَاءِ! وَعَلَيْكُمْ بِحُسْنِ الظَّنِّ فِيهِمْ جَمِيعاً .

وَأَمَّا أَهْلُ التَّقْوَىٰ مِنْهُمْ ، العَامِلُونَ بِمَا عَلَّمَهُمُ اللهُ . . فَهُمُ الأَوْلِيَاءُ عَلَىٰ

الحَقِيقَةِ ، فَلْتَكُنْ حُرْمَتُهُمْ عِنْدَكُمْ مَحْفُوظَةً ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ :

« مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ .. وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(١)

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « العُلَمَاءُ .. وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ » . الحديثُ(٢) .

هُمْ سَادَاتُ النَّاسِ ، وَأَشْرَافُ الخَلْقِ ، وَالدَّالُّونَ عَلَىٰ طَرِيقِ الحَقِّ .

نَهْيُهُ عَنْ أَنْ يُقَالَ : نَحْنُ أَهْلُ البَاطِنِ وَهُمْ أَهْلُ الظَّاهِرِ

لاَ تَقُولُوا كَمَا يَقُولُ بَعْضُ المُتَصَوِّفَةِ : نَحْنُ أَهْلُ البَاطِنِ ، وَهُمْ أَهْلُ الظَّاهِرِ .

هَذَا الدِّينُ الجَامِعُ .. بَاطِنُهُ لُبُّ ظَاهِرِهِ ، وَظَاهِرُهُ .. ظَرْفُ بَاطِنِهِ .

لَوْلاَ الظَّاهِرُ .. لَمَا بَطَنَ ، لَوْلاَ الظَّاهِرُ .. لَمَا كَانَ البَاطِنُ وَلَمَا صَحَّ .

القَلْبُ لاَ يَقُومُ بِلاَ جَسَدٍ ، بَلْ لَوْلاَ الجَسَدُ .. لَفَسَدَ ، وَالقَلْبُ .. نُورُ الجَسَدِ .

هَذَا العِلْمُ الَّذِي سَمَّاهُ بَعْضُهُمْ : بِعِلْمِ البَاطِنِ .. هُوَ إِصْلاَحُ القَلْبِ .

فَالأَوَّلُ عَمَلٌ بِالأَرْكَانِ ، وَتَصْدِيقٌ بِالجَنَانِ(٣) .

---

(١) رواه أبو نُعيم في « الحِلية » ١٠ : ١٥ ، وقال : ذكرَ أحمدُ هذا الكلامَ عن بعضِ التَّابعينَ عن عيسىٰ بنِ مريمَ عليهِ السَّلامُ ، فَوَهِمَ بعضُ الرُّواةِ أنَّه ذكرَهُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فوضَعَ هذا الإسْنادَ عليه لِسُهولَتِهِ وقُرْبِهِ » .

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١) ، والتِّرمذيُّ (٢٦٨٢) ، وابنُ ماجة (٢٢٣) .

(٣) أي : بالقَلْبِ ، « لسان » ٣ : ٢١٧ ، مادة : « جنن » .

إِذَا انْفَرَدَ قَلْبُكَ بِحُسْنِ نِيَّتِهِ ، وَطَهَارَةِ طَوِيَّتِهِ ، وَقَتَلْتَ ، وَسَرَقْتَ ، وَزَنَيْتَ ، وَأَكَلْتَ الرِّبَا ، وَشَرِبْتَ الخَمْرَ ، وَكَذَبْتَ ، وَتَكَبَّرْتَ ، وَأَغْلَظْتَ القَوْلَ . فَمَا الفَائِدَةُ مِنْ نِيَّتِكَ وَطَهَارَةِ قَلْبِكَ ؟! .

وَإِذَا عَبَدْتَ اللهَ ، وَتَعَفَّفْتَ ، وَصُمْتَ ، وَصَدَقْتَ ، وَتَوَاضَعْتَ ، وَأَبْطَنَ قَلْبُكَ الرِّيَاءَ وَالفَسَادَ . فَمَا الفَائِدَةُ مِنْ عَمَلِكَ ؟! .

فَإِذَا تَعَيَّنَ لَكَ : أَنَّ البَاطِنَ . . لُبُّ الظَّاهِرِ ، وَالظَّاهِرَ . . ظَرْفُ البَاطِنِ ، وَلاَ فَرْقَ بَيْنَهُمَا ، وَلاَ غِنَى لِكِلاَهُمَا عَنِ الآخَرِ . . فَقُلْ :

نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الظَّاهِرِ ، وَكَأَنَّكَ قُلْتَ : وَمِنْ أَهْلِ البَاطِنِ .

قُلْ : نَحْنُ مِنْ أَهْلِ ظَاهِرِ الشَّرْعِ ، وَقَدْ ذَكَرْتَ بَاطِنَ الحَقِيقَةِ .

أَيُّ حَالَةٍ بَاطِنَةٍ لِلْقَوْمِ لَمْ يَأْمُرْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ بِعَمَلِهَا ؟!

أَيُّ حَالَةٍ ظَاهِرَةٍ لَمْ يَأْمُرْ ظَاهِرُ الشَّرْعِ بِإِصْلاَحِ البَاطِنِ لَهَا ؟! .

لاَ تَعْمَلُوا بِالفَرْقِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ زَيْغٌ وَبِدْعَةٌ .

تَعْظِيمُ العُلَمَاءِ بِالعِلْمِ

لاَ تُهْمِلُوا حُقُوقَ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ جَهْلٌ وَحُمْقٌ .

لاَ تَأْخُذُوا بِحَلاَوَةِ العِلْمِ ، وَتُبْطِلُوا مَرَارَةَ العَمَلِ ؛ فَإِنَّ تِلْكَ الحَلاَوَةَ . . لاَ تَنْفَعُ بِغَيْرِ تِلْكَ المَرَارَةِ ، وَإِنَّ تِلْكَ المَرَارَةَ . . تُنْتِجُ الحَلاَوَةَ الأَبَدِيَّةَ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ .

نَصٌّ قُرْآنِيٌّ يَشْهَدُ لَكُمْ بِالمُكَافَأَةِ عَلَى الأَعْمَالِ .

وَالإِخْلاَصُ . أَنْ يَكُونَ العَمَلُ للهِ ، لاَ لِدُنْيَا ، وَلاَ لِآخِرَةٍ ، مَعَ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ فِي كُلِّ حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ ، وَعَمَلٍ مِنَ الأَعْمَالِ ، وَقَوْلٍ مِنَ الأَقْوَالِ ، إِيْمَاناً بِهِ ، وَامْتِثَالاً لأَمْرِهِ ، وَطَلَباً لِمَرْضَاتِهِ .

الحَثُّ عَلَىٰ الأَخْذِ بِأَقْوَالِ الأَئِمَّةِ

أَيْ سَادَةُ! تَقُولُونَ : قَالَ الحَارِثُ ، قَالَ أَبُو يَزِيْدَ ، قَالَ الحَلاَّجُ .

مَا هَذَا الحَالُ ؟! قَبْلَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ قُولُوا : قَالَ الشَّافِعِيُّ ، قَالَ مَالِكٌ ، قَالَ أَحْمَدُ ، قَالَ نُعْمَانُ .

صَحِّحُوا المُعَامَلاَتِ البَيْنِيَّةَ ، وَبَعْدَهَا تَفَكَّهُوا بِالمَقُولاَتِ الزَّائِدَةِ .

قَالَ الحَارِثُ وَأَبُو يَزِيْدَ . . لاَ يَنْقُصُ وَلاَ يَزِيْدُ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ . . أَنْجَحُ الطُّرُقِ وَأَقْرَبُ المَسَالِكِ

شَيِّدُوا دَعَائِمَ الشَّرِيْعَةِ بِالعِلْمِ وَالعَمَلِ ، وَبَعْدَهَا ارْفَعُوا الهِمَّةَ لِلْغَوَامِضِ مِنْ أَحْكَامِ العِلْمِ وَحُكْمِ العَمَلِ .

مَجْلِسُ عِلْمٍ . . أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِيْنَ سَنَةً ، أَيْ : مِنَ العِبَادَاتِ الزَّائِدَةِ عَنِ المَفْرُوضَاتِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ الرَّجُلُ بِهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ .

﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟ .

﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ ؟ .

حَثُّ القَوْمِ عَلَىٰ لُزُومِ العُلَمَاءِ

أَشْيَاخُ الطَّرِيْقَةِ ، وَفُرْسَانُ مَيَادِيْنِ الحَقِيْقَةِ . يَقُولُونَ لَكُمْ : خُذُوا بِأَذْيَالِ العُلَمَاءِ .

لاَ أَقُولُ لَكُمْ : تَفَلْسَفُوا ، وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ : تَفَقَّهُوا :

« مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرَاً . يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »(١) .

الوَلِيُّ لاَ يَكُونُ جَاهِلاً

« مَا اتَّخَذَ اللهُ وَلِيّاً جَاهِلاً ، وَلَوِ اتَّخَذَهُ . لَعَلَّمَهُ »(٢) .

الوَلِيُّ . لاَ يَكُونُ جَاهِلاً فِي فِقْهِ دِينِهِ .

يَعْرِفُ كَيْفَ يُصَلِّي ، كَيْفَ يَصُومُ ، كَيْفَ يُزَكِّي ، كَيْفَ يَحُجُّ ، كَيْفَ يَذْكُرُ ، يُتْقِنُ عِلْمَ المُعَامَلَةِ مَعَ اللهِ .

فَمِثْلُ هَذَا الرَّجُلِ وَإِنْ كَانَ أُمِّيّاً . فَهُوَ عَالِمٌ ، وَلاَ يَقُولُ لَهُ : جَاهِلٌ . إِلاَّ مَنْ جَهِلَ العِلْمَ المَقْصُودَ .

العِلْمُ المُخْتَصَرُ وَالعِلْمُ الجَامِعُ الأَتَمُّ

لَيْسَ العِلْمُ عِلْمَ البَدِيعِ وَالبَيَانِ ، وَالأَدَبِ الَّذِي عَنَاهُ الشُّعَرَاءُ ، وَالجَدَلِ وَالمُنَاظَرَةِ .

العِلْمُ المُخْتَصَرُ . عِلْمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ، وَنَهَى عَنْهُ .

وَالعِلْمُ الجَامِعُ الأَتَمُّ . عِلْمُ التَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ وَالفِقْهِ .

وَالفُنُونُ اللَّفْظِيَّةُ ، وَالقَوَاعِدُ النَّظَرِيَّةُ ، الَّتِي وُضِعَتْ وَسَمَّاهَا وَاضِعُوهَا :

---

(١) رواه البخاريُّ (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) ، وابنُ ماجه (٢٢١) .

(٢) قال القاري في « المصنوع » (٢٦٩) : « ليسَ بثابت ، ولكن معناه صحيحٌ ، أي : لو أرادَ اتّخاذَهُ وليّاً . لَعلَّمَهُ ، ثُمَّ اتَّخذَهُ وليّاً » انتهى .

عُلُوماً . . هِيَ فُنُونٌ تَدْخُلُ تَحتَ قَوْلِ القَائِلِ : العِلْمُ بِالشَّيْءِ . . وَلاَ الجَهْلُ بِهِ .

النَّهْيُ عَنْ سَمَاعِ قَوْلِ أَهْلِ الوَحْدَةِ

صُمُّوا أَسْمَاعَكُمْ عَنْ عِلْمِ الوَحْدَةِ ، وَعِلْمِ الفَلْسَفَةِ ، وَمَا شَاكَلَهُمَا ؛ فَإِنَّ هَذِهِ العُلُومَ . . مَزَالِقُ الأَقْدَامِ إِلَىٰ النَّارِ ، حَمَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ .

الظَّاهِرَ الظَّاهِرَ ! اللَّهُمَّ إِيمَاناً كَإِيمَانِ العَجَائِزِ :

﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

الأَخْذُ عَنِ العُلَمَاءِ

لاَ تَقْطَعُوا الوُصْلَةَ مَعَ العُلَمَاءِ ، جَالِسُوهُمْ ، خُذُوا عَنْهُمْ .

لاَ تَقُولُوا : فُلاَنٌ غَيْرُ عَامِلٍ ! .

خُذُوا مِنْ عِلْمِهِ ، وَاعْمَلُوا بِهِ ، وَدَعُوهُ وَعَمَلَهُ إِلَىٰ اللهِ .

الأَوْلِيَاءُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ يَأْخُذُونَ الحِكْمَةَ ، لاَ يُبَالُونَ مِنْ أَيِّ لِسَانٍ ظَهَرَتْ ، وَعَلَىٰ أَيِّ حَجَرٍ كُتِبَتْ ، وَبِوَاسِطَةِ أَيِّ كَافِرٍ وَصَلَتْ .

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ .

الأَوْلِيَاءُ قَنَاطِرُ الخَلْقِ وَصُحْبَتُهُمْ وَاجِبَةٌ

الأَوْلِيَاءُ . . قَنَاطِرُ الخَلْقِ ، يَعْبُرُ المُوَفَّقُونَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ .

أُولَئِكَ العَامِلُونَ ، المُخْلِصُونَ الخَالِصُونَ ، اسْتَخْلَصَهُمْ ـ تَعَالَىٰ ـ

لِعِبَادَتِهِ ، وَقَرَّبَهُمْ مِنْ حَضْرَتِهِ ، فَمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ حِجَابُ الغَيْنِ[١] ، طَرْفَةَ عَيْنٍ ، أَخْرَجُوا البَيْنَ مِنَ البَيْنِ[٢] .

أَقَامُوا طَلاَسِمَ الكَتْمِ عَلَىٰ الأَسْرَارِ ، وَقَامُوا اللَّيْلَ ، وَصَامُوا النَّهَارَ .

بَعْضُهُمْ غَلَبَ عَلَيْهِ الفِكْرُ ، وَبَعْضُهُمْ غَلَبَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ، وَبَعْضُهُمْ جَمَعَ شَتَاتَ الأَمْرِ .

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

أُوصِيكُمْ كُلَّ الوَصِيَّةِ بَعْدَ عِلْمِ وَاجِبَاتِ الدِّينِ . . بِصُحْبَتِهِمْ ؛ فَإِنَّهَا تِرْيَاقٌ مُجَرَّبٌ[٣] .

عِنْدَهُمْ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ .

عِنْدَهُمْ . . الصِّدْقُ وَالصَّفَاءُ ، وَالذَّوْقُ وَالوَفَاءُ ، وَالتَّجَرُّدُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَالتَّجَرُّدُ مِنَ الأُخْرَىٰ ، وَالتَّجَرُّدُ إِلَىٰ المَوْلَىٰ .

وَهَـٰذِهِ الخِصَالُ . . لاَ تَحْصُلُ بِالقِرَاءَةِ وَالدَّرْسِ وَالمَجَالِسِ .

لاَ تَحْصُلُ إِلاَّ بِصُحْبَةِ الشَّيْخِ العَارِفِ ، الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الحَالِ وَالمَقَالِ ، يَدُلُّ بِمَقَالِهِ ، وَيَنْهَضُ بِحَالِهِ :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ .

---

(١) أي : الغَيْم ، « لسان » ١١ : ١١٢ ، مادة : « غين » .

(٢) هو من الأضدادِ ، فيكونُ الفُرْقَةَ ، ويكونُ الوَصْلَ ، « لسان » ٢ : ١٩٥ ، مادة : « بين » .

(٣) مرَّ بيانُهُ ص (١٧٩)

حَالُ الشَّيْخِ كَمَالاً أَوْ نُقْصَاناً تَظْهَرُ فِي أَتْبَاعِهِ

حَالَةُ الشَّيْخِ كَمَالاً كَانَتْ أَوْ نُقْصَاناً.. تَظْهَرُ فِي أَتْبَاعِهِ وَمُرِيدِيهِ بَطْناً بَعْدَ بَطْنٍ.

فَإِنْ كَانَتْ حَالَةَ كَمَالٍ.. عَلاَ بِهَا حَالُ الكَامِلِ، وَزَادَ بِهَا حَالُ النَّاقِصِ

وَإِنْ كَانَتْ حَالَةَ نَقْصٍ.. نَقَصَ بِهَا حَالُ الكَامِلِ، وَذَهَبَ بِهَا حَالُ النَّاقِصِ، إلاَّ إِنْ وَهَبَ الكَرِيمُ.. فَلاَ تَأْثِيرَ لِلأَحْوَالِ.

إِيَّاكُمْ وَإِبْقَاءَ أَثَرٍ يَنْقُصُ حَالَ كُمَّلِ أَتْبَاعِكُمْ، وَيُذْهِبُ حَالَ نَاقِصِهِمْ!.

الرَّجُلُ.. مَنْ تَظْهَرُ آثَارُهُ بَعْدَهُ، قَالَ الرَّجَالُ:

إِنَّ آثَارَنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا فَانْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الآثَارِ

حَثُّهُ عَلَى التَّوَاضُعِ وَمَحَبَّةِ العُلَمَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهِ (ﷺ)

اُتْرُكُوا بَعْدَكُمْ أَثَرَ الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ، وَالتَّجَرُّدِ مِنَ الدَّعْوَى، وَالخُرُوجِ مِنْ حِيطَةِ الاسْتِعْلاَءِ، وَالتَّذَلُّلِ بِبَابِ المَوْلَى، وَمَحَبَّةِ الفُقَرَاءِ وَالعُلَمَاءِ، وَمُوَافَقَةِ الأَقْدَارِ بِالتَّسْلِيمِ إِلَى اللهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حَثُّهُ عَلَى صَرْفِ الوَقْتِ بِالطَّاعَةِ

وَإِيَّاكُمْ وَالغِرَّةَ بِالوَقْتِ[1]، فَمَا هُوَ عِنْدَ العَارِفِ بِشَيْءٍ.. إِلاَّ إِذَا لَمْ يَصْرِفْهُ فِي غَيْرِ الطَّاعَةِ، وَيَأْخُذْ مِنْهُ مَا يُثْلِجُ صَدْرَهُ، أَجَلْ:

---

(١) الغِرَّةُ: الغفلة، «مصباح» ص (٤٤٤)، مادة: «غرر».

« مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً . . فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً . . فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ »(١) .

بَقَاءُ شَأْنِهِ (ﷺ) وَخُلُودُ شَرِيعَتِهِ

مَا بَقِيَ مِنْ قَوْمِ سُلَيْمَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ أَحَدٌ ، ذَهَبَ مُلْكُهُ ، وَنُسِخَتْ شَرِيعَتُهُ ، وَنَبِيُّنَا ـ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ ـ لاَ يَذْهَبُ شَأْنُهُ ، وَلاَ تُنْسَخُ شَرِيعَتُهُ بِإِذْنِ اللهِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

وَصْفُ سُلَيْمَانَ . . نَازَعَهُ وَصْفُ المَلِكِ الدَّيَّانِ ، فَطَمَسَهُ :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

وَوَصْفُ النَّبِيِّ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَمَّا كَانَ العَبْدِيَّةَ . . أَعَانَهُ وَصْفُ الرُّبُوبِيَّةِ ، فَدَامَ ذِكْرُهُ ، وَعَلاَ أَمْرُهُ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

وَقَدْ تَرَوْنَ أَنَّ المُلُوكَ وَذَرَارِيهُمْ وَحَوَاشِيهُمْ تَذْهَبُ ، وَرُسُومُهُمْ . . تَنْقَلِبُ ، وَالرَّعِيَّةُ عَلَىٰ حَالِهَا .

هَؤُلاَءِ . . نَازَعَتْهُمْ صِفَةُ الرُّبُوبِيَّةِ لَمَّا رَأَوُا المَالِكِيَّةَ فَزَالُوا .

وَهَؤُلاَءِ . . صَانَتْهُمْ صِفَةُ الرُّبُوبِيَّةِ لَمَّا تَحَقَّقُوا بِمَنْزِلَةِ المَمْلُوكِيَّةِ فَدَامُوا .

صَحِيفَةُ حَالِ الشَّيْخِ أَتْبَاعُهُ

قَالَ سَيِّدِي الشَّيْخُ مَنْصُورٌ : صَحِيفَةُ حَالِ الشَّيْخِ . . أَتْبَاعُهُ ، لَهُمْ مِنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ شَمَّةٌ لاَ بُدَّ أَنْ تَفْعَلَ كَيْفَ كَانَتْ ، إِلاَّ إِذَا غَلَبَهَا حَالٌ سَمَاوِيٌّ اخْتُصَّ بِهِ

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧) .

التَّابِعُ ، فَرُبَّمَا يَعْلُو مَنْزِلَةَ شَيْخِهِ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ .

تَرَىٰ فِي أَصْحَابِ الحَلاَّجِ . . حُبَّ القَوْلِ بِالوَحْدَةِ .

تَرَىٰ فِي أَصْحَابِ أَبِي يَزِيدَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ حُبَّ الإِغْمَاضِ ، وَالتَّكَلُّمِ بِالرَّقَائِقِ .

تَرَىٰ فِي أَصْحَابِ الجُنَيْدِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ حُبَّ الجَمْعِ بَيْنَ لِسَانِ الطَّرِيقَةِ وَالشَّرِيعَةِ .

تَرَىٰ فِي أَصْحَابِ السَّلْمَابَاذِيِّ . . حُبَّ المَعَالِي ، لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ المَنْزِلَةِ .

تَرَىٰ فِي أَصْحَابِ سَيِّدِي الشَّيْخِ أَبِي الفَضْلِ . . حُبَّ الوَحْدَةِ إِلَىٰ اللهِ بِالذُّلِّ للهِ وَلِلْخَلْقِ .

وَقَدْ تَنْعَكِسُ هَٰذِهِ القَاعِدَةُ فِي البَعْضِ ، وَلَكِنْ يَكُونُ ذَٰلِكَ بِالاخْتِصَاصِ : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ .

مَبْنَىٰ السَّيْرِ عَلَىٰ كَلِمَتَيْنِ

مَعْرُوفٌ الكَرْخِيُّ ، وَدَاوُدُ الطَّائِيُّ ، وَالحَسَنُ البَصْرِيُّ ، وَمَنْ تَأَدَّبَ بِصُحْبَتِهِمْ مِنْ هَٰذِهِ الطَّائِفَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : اِخْتَصَرُوا أَسْبَابَ السَّيْرِ عَلَىٰ كَلِمَتَيْنِ :

التَّمَسُّكُ بِالشَّرْعِ ، وَطَلَبُ الحَقِّ وَحْدَهُ . هَٰذِهِ الشَّرِيعَةُ أَمَامَكَ(١) .

---

(١) أي : أُنْظُرْ مَا في الأَصْلَيْنِ ، فهل تَجِدُ ثَمَّ غَيْرَ تِلْكَ الكلمتَيْنِ ، فافهم .

حثُّهُ عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بِالهَدْيِ النَّبَوِيِّ وَسُؤَالِ أَهْلِ العِلْمِ

أَيْ أَخِي! أُنْظُرْ كَيْفَ كَانَ نَبِيُّكَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتَّسْلِيمَاتِ ، وَكَيْفَ قَالَ ، وَكَيْفَ خَالَقَ النَّاسَ بَرّاً وَفَاجِراً ، وَٱعْمَلْ بِعَمَلِهِ ، وَقُلْ بِقَوْلِهِ ، وَتَخَلَّقْ بِخُلُقِهِ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إِنْ كُنْتَ لاَ تَعْلَمُ . . فَٱسْأَلِ العُلَمَاءَ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

الحِكْمَةُ مِنْ تَحَدُّثِ القَوْمِ بِالنِّعَمِ

يَتَحَدَّثُ القَوْمُ بِالنِّعَمِ . . ٱعْتِرَافاً بِنِعْمَةِ المُنْعِمِ ، وَشُكْراً لَهَا ، وَحَثّاً لِلنَّاسِ عَلَىٰ العَمَلِ ، لِتَحْصُلَ لَهُمْ هَٰذِهِ البَرَكَةُ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

ضَابِطُ التَّحَدُّثِ بِالنِّعْمَةِ

يَقُولُ المُتَحَدِّثُ بِالنِّعْمَةِ : أَطْلَعَنِي رَبِّي عَلَىٰ كَذَا ، وعَلَّمَنِي كَذَا ، وَوَهَبَنِي مِنَ الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ كَذَا .

كَلِمَاتُ الدَّعْوَىٰ المَرِيضَةِ

وَلَكِنْ لاَ يَقُولُ : أَنَا خَيْرٌ مِنْكُمْ ، أَنَا أَجَلُّ مِنْكُمْ ، أَنَا أَشْرَفُ مِنْكُمْ .

هَٰذِهِ كَلِمَاتُ دَعْوَىٰ ، تَكُونُ مِنْ رُعُونَةِ النَّفْسِ ، يَنْطِقُ بِهَا لِسَانُ الأَحْمَقِ .

مَا الَّذِي خَيَّرَنِي عَلَيْكَ ، وَأَجَلَّنِي ، وَشَرَّفَنِي ؟ صَلَاةٌ وَصَوْمٌ وَغَيْرُهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ ؟ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

لَوْلَا امْتِثَالُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ . . لَخَاطَ الْعَاقِلُ فَمَهُ بِمِخْيَطٍ .

النَّهْيُ عَنِ التَّفَاخُرِ بِالآبَاءِ وَالأَشْيَاءِ

أَيْ أَخِي ! تَفْتَخِرُ بِأَبِيكَ ؟ آدَمُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ الصَّفْوَةُ الأُولَىٰ . . كَفَرَ أَكْثَرُ أَوْلَادِهِ ، وَكَذَٰلِكَ أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ .

تَفْتَخِرُ بِعِلْمِكَ ؟ إِبْلِيسُ حَلَّ كُلَّ عَوِيصٍ ، حَلَّ وَقَرَأَ صِحَافَ الْمَوْجُودَاتِ .

تَفْتَخِرُ بِمَالِكَ ؟ قَارُونُ . . هَلَكَ بِمَالِهِ .

تَفْتَخِرُ بِمُلْكِكَ ؟ لَمْ يُغْنِ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً .

مَا هَلَكَ إِبْرَاهِيمُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ بَعْدَ أَنْ تَجَرَّدَ إِلَىٰ رَبِّهِ .

مَا ذَلَّ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ بَعْدَ أَنْ فَرَشَ بِسَاطَ ذُلِّهِ بَيْنَ يَدَيْ خَالِقِهِ .

مَا ضَاعَ شَأْنُ يُونُسَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ بَعْدَ أَنْ قَالَ بِصِدْقِ الالْتِجَاءِ :
﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ .

مَا خَابَ يُوسُفُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ بَعْدَ أَنْ اسْتَسْلَمَ لِقَضَائِهِ مُعْتَمِداً عَلَيْهِ .

هَكَذَا النَّبِيُّونَ ، هَكَذَا الْمُرْسَلُونَ ، هَكَذَا الصِّدِّيقُونَ ، هَكَذَا الصَّالِحُونَ : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

أَعُوذُ بِكَ مِنَ القَطْعِ بَعْدَ الوَصْلِ

أَيْ أَخِي! أَيْنَ أَنْتَ؟ فِي أَيِّ وَادٍ؟ تَهِيمُ فِي وَادِي وَهْمِكَ! تَسْرَحُ فِي مَيَادِينِ قَطِيعَتِكَ!.

اللهَ اللهَ بِكَ! أَحْرِصُ عَلَيْكَ.

واللهِ إِنْ تَنْقَطِعْ.. أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تُخْذَلَ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ القَطْعِ بَعْدَ الوَصْلِ.

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مَوْصُولٌ وَهُوَ مُنْقَطِعٌ

يَا أَخِي! لاَ تَحْرَدْ مِنِّي إِذَا انْقَطَعْتَ وَأَنْتَ تَظُنُّ الوَصْلَ، وَرَأَيْتَ أَنَّكَ عَالِمٌ وَأَنْتَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الجَهْلِ، فَقَدْ فَاتَكَ السَّوْمُ[1]، وَسَبَقَكَ القَوْمُ، وَعَمَّكَ اللَّوْمُ.

الأَخْذُ بِالأَسْبَابِ وَعَدَمُ الغَفْلَةِ عَنِ اللهِ

لاَ أَقُولُ لَكُمْ: اِنْقَطِعُوا عَنِ الأَسْبَابِ، عَنِ التِّجَارَةِ، عَنِ الصَّنْعَةِ، وَلَكِنْ أَقُولُ: اِنْقَطِعُوا عَنِ الغَفْلَةِ وَالحَرَامِ فِي كُلِّ ذَلِكَ.

لاَ أَقُولُ لَكُمْ: أَهْمِلُوا الأَهْلَ، وَلاَ تَلْبَسُوا الثَّوْبَ الحَسَنَ، وَلَكِنْ أَقُولُ:

إِيَّاكُمْ وَالاشْتِغَالَ بِالأَهْلِ عَنِ اللهِ! وَإِيَّاكُمْ وَالزَّهْوَ بِالثَّوْبِ عَلَى الفُقَرَاءِ مِنْ خَلْقِ اللهِ!.

---

(١) السَّوْمُ: عَرْضُ السِّلْعَةِ عَلَى البَيعِ، «لسان» ٧: ٣٠٧، مادة: «سوم».

وَأَقُولُ : لاَ تُظْهِرُوا الزِّينَةَ فَوْقَ مَا يَلْزَمُ بِثِيَابِكُمْ . تَنْكَسِرُ قُلُوبُ الفُقَرَاءِ ، وَأَخَافُ أَنْ يُخَالِطَكُمُ العُجْبُ وَالغَفْلَةُ .

وَأَقُولُ : نَقُّوا ثِيَابَكُمْ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ .

وَأَقُولُ : نَقُّوا قُلُوبَكُمْ ، وَطَهِّرُوهَا ، فَذَلِكَ أَوْلَى مِنْ تَنْقِيَةِ الثِّيَابِ :

« إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى ثِيَابِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ »(١) .

وَكَذَلِكَ ، أَوْ مِثْلُ ذَلِكَ . قَالَ لَنَا سَيِّدُنَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتَّسْلِيمَاتِ .

حَارِبُوا الشَّيْطَانَ بِبَعْضِكُمْ

حَارِبُوا الشَّيْطَانَ بِبَعْضِكُمْ ، بِنَصِيحَةِ بَعْضِكُمْ ، بِخُلُقِ بَعْضِكُمْ ، بِحَالِ بَعْضِكُمْ ، بِقَالِ بَعْضِكُمْ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ .

يُقَاتِلُونَ الشَّيْطَانَ ، وَالنَّفْسَ ، وَعَدُوَّ اللهِ .

يُقَاتِلُونَ الشَّيْطَانَ كَيْلاَ يَقْطَعَهُمْ عَنِ اللهِ .

يُقَاتِلُونَ النَّفْسَ كَيْلاَ تَشْغَلَهُمْ بِشَهَوَاتِهَا الدَّنِيَّةِ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) ، وفيه بدلَ : « ثيابكم » / « أجسامِكُمْ » .

يُقَاتِلُونَ عَدُوَّ اللهِ لِإعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَنَشْرِ عِلْمِ الدَّلَالَةِ عَلَى اللهِ . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ .

تَعْظِيمُ العِلْمِ وَإِعْطَاءُ الإِيمَانِ حَقَّهُ وَلُزُومُ حُكْمِ الإِسْلَامِ وَالتَّحَقُّقُ بِالمَعْرِفَةِ

عَظِّمُوا شَأْنَ العِلْمِ تَعْظِيماً يَقُومُ بِوَاجِبَاتِهِ . لِأَنَّهُ دَرْكُ حَقَائِقِ الأَشْيَاءِ مَسْمُوعاً وَمَعْقُولاً .

أَعْطُوا الإِيمَانَ حَقَّهُ ، فَهُوَ : إِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ ، وَاعْتِقَادٌ بِالجَنَانِ .

اِلْزَمُوا حُكْمَ الإِسْلَامِ ، فَهُوَ : مُتَابَعَةُ الشَّرِيعَةِ ، وَالإِعْرَاضُ عَنِ الطَّبِيعَةِ .

تَحَقَّقُوا بِالمَعْرِفَةِ ، فَهِيَ : أَنْ تَعْرِفُوا اللهَ بِالوَحْدَانِيَّةِ .

تَطْهِيرُ النِّيَّةِ وَإِتْقَانُ الأَدَبِ وَإِيجَازُ المَوْعِظَةِ وَالمُبَالَغَةُ بِالنَّصِيحَةِ

طَهِّرُوا النِّيَّةَ ، فَهِيَ : الخَطْرَةُ فِي القَلْبِ ، فَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ .

أَتْقِنُوا الأَدَبَ ، فَهُوَ : وَضْعُ الشَّيْءِ مَوْضِعَهُ .

أَوْجِزُوا المَوْعِظَةَ ، فَهِيَ : إِرْشَادُ أَصْحَابِ الغَفَلَاتِ .

أَبْلِغُوا بِالنَّصِيحَةِ ، فَهِيَ الاطِّلَاعُ عَلَى حِفْظِ طَرِيقِ الزُّهْدِ .

الصِّدْقُ فِي المَحَبَّةِ وَكَمَالُ الأَدَبِ فِي الدُّعَاءِ

أَصْدُقُوا فِي المَحَبَّةِ ، فَهِيَ : نِسْيَانُ مَا سِوَى المَحْبُوبِ .

أَكْمِلُوا الأَدَبَ فِي الدُّعَاءِ ، فَهُوَ : رَفْعُ الحَاجَاتِ إِلَى رَفِيعِ الدَّرَجَاتِ .

حَثُّهُ عَلَىٰ إِعْلَاءِ طَرِيقِ التَّصَوُّفِ وَإِتْقَانِ طَرِيقِ العُبُودِيَّةِ

شَيِّدُوا مَنَارَ التَّصَوُّفِ ، فَهُوَ : تَرْكُ الاخْتِيَارِ .

أَتْقِنُوا طَرِيقَ العُبُودِيَّةِ ، فَهِيَ : تَرْكُ الدُّنْيَا ، وَتَرْكُ الدَّعْوَىٰ ، وَاحْتِمَالُ البَلْوَىٰ ، وَحُبُّ المَوْلَىٰ .

قُرْبُ العَبْدِ مِنَ الرَّبِّ وَالتَّحَقُّقُ بِالصِّدْقِ وَتَعْظِيمُ قَدْرِ العَافِيَةِ

مَهِّدُوا سَبِيلَ القُرْبِ ، فَهُوَ : الانْقِطَاعُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَىٰ اللهِ .

تَحَقَّقُوا بِالصِّدْقِ ، فَهُوَ : مُوَافَقَةُ السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ .

عَظِّمُوا قَدْرَ نِعْمَةِ العَافِيَةِ ، فَهِيَ : نَفْسٌ بِلَا بَلَاءٍ ، وَرِزْقٌ بِلَا عَنَاءٍ ، وَعَمَلٌ بِلَا رِيَاءٍ .

الوُقُوفُ عِنْدَ حَدِّ الاسْتِقَامَةِ وَالتَّحَرِّي لِطَلَبِ الحَلَالِ

قِفُوا عِنْدَ حَدِّ الاسْتِقَامَةِ ، فَهِيَ : أَنْ لَا يُخْتَارَ عَلَىٰ اللهِ شَيْءٌ .

تَحَرَّوُا الحَلَالَ ، فَهُوَ : الَّذِي لَا يَضْمَنُهُ آكِلُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا يُؤَاخَذُ لِأَجْلِهِ فِي الآخِرَةِ .

طَلَبُ رِضَاءِ اللهِ وَالأَخْذُ بِعُرْوَةِ الصَّبْرِ

سَدِّدُوا مِنْهَاجَ الطَّاعَةِ ، فَهِيَ : طَلَبُ رِضَاءِ اللهِ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ وَالأَحْوَالِ .

خُذُوا بِعُرْوَةِ الصَّبْرِ ، فَهُوَ : إِيقَافُ القَلْبِ عِنْدَ حُكْمِ الرَّبِّ .

التَّبَاعُدُ عَنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا قَلْباً

طَهِّرُوا العُزْلَةَ وَالخَلْوَةَ ، فَهُمَا : التَّبَاعُدُ عَنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، بِتَرْكِ الطَّمَعِ ، وَهَجْرِ اخْتِلَاطِ النَّاسِ قَلْباً وَإِنْ كَانَ المَرْءُ بَيْنَهُمْ بِشَخْصِهِ .

عَلَامَةُ الوَلِيِّ :

أَلَا إِنَّ الوَلِيَّ : مَنْ وَلَّىٰ وَجْهَهُ عَنِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ وَالدُّنْيَا وَالهَوَىٰ ، وَوَلَّىٰ وَجْهَهُ وَقَلْبَهُ إِلَىٰ المَوْلَىٰ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ، وَلَمْ يَطْلُبْ إِلَّا اللهَ تَعَالَىٰ .

وَإِنَّ القَانِعَ . مَنْ رَضِيَ بِالقِسْمَةِ ، وَاكْتَفَىٰ بِالبُلْغَةِ .

التَّبَاعُدُ عَنِ الخِصَالِ المَذْمُومَةِ

وَأُحَذِّرُكُمْ أَوْصَافاً وَخِصَالاً ! إِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ وَالاتِّصَافَ بِشَيْءٍ مِنْهَا ! فَإِنَّهَا السُّمُّ النَّاقِعُ[1] :

١ـ أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ ، ٢ـ وَالتَّبَاعُدِ عَنِ الخِصَالِ المَذْكُورَةِ ، وَهِيَ :

أـ **الحَسَدُ** ، وَهُوَ : إِرَادَةُ زَوَالِ نِعَمِ المَحْسُودِ .

ب ـ **وَالكِبْرُ** ، وَهُوَ : أَنْ يَرَىٰ المَرْءُ نَفْسَهُ خَيْراً مِنْ غَيْرِهِ

ج ـ **وَالكَذِبُ** ، وَهُوَ : اخْتِرَاعُ كَلَامٍ عَلَىٰ خِلَافِ الوَاقِعِ ، وَقَوْلٌ قَبِيحٌ عَارٍ عَنْ صِفَةِ المَنْفَعَةِ .

د ـ **وَالغِيبَةُ** ، وَهِيَ : بَيَانُ خُبْثِ البَشَرِيَّةِ .

---

(١) أي : البَالِغُ القَاتِلُ ، « لسان » ١٤ : ٣٤١ ، مادة : « نقع » .

هـ ـ وَالحِرْصُ ، وَهُوَ : عَدَمُ الشِّبَعِ مِنَ الدُّنْيَا .

و ـ والغَضَبُ ، وَهُوَ : غَلَيَانُ الدَّمِ لإِرَادَةِ الانْتِقَامِ .

ز ـ وَالرِّيَاءُ : وَهُوَ : الاسْتِبْشَارُ بِرُؤْيَةِ الأَغْيَارِ .

ح ـ وَالظُّلْمُ ، وَهُوَ : مُتَابَعَةُ النَّفْسِ عَلَىٰ مَا تَشْتَهِيْهِ .

وَأَقُولُ لَكُمْ : كُونُوا دَائِماً بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، فَالخَوْفُ . . أَنْ يَخَافَ القَلْبُ مِنَ اللهِ لِمَا عَلِمَ مِنْ ذُنُوبِهِ .

والرَّجَاءُ . . سُكُونُ الفُؤَادِ بِحُسْنِ الوَعْدِ .

تَصْفِيَةُ الرُّوحِ بِالرِّيَاضَةِ

وَأَدِيمُوا تَصْفِيَةَ الرُّوحِ بِالرِّيَاضَةِ ، وَهِيَ : اسْتِبْدَالُ الحَالَةِ المَذْمُومَةِ بِالحَالَةِ المَحْمُودَةِ .

مَنْ هُوَ خَلِيفَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ ؟

إِجْعَلُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ دِيْنَكُمْ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ .

مَنْ أَمَرَ بِالمَعْرُوفِ ، وَنَهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ . . فَهُوَ خَلِيفَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِهِ ، وَخَلِيفَةُ كِتَابِهِ ، كَذَا أَخْبَرَنَا الصَّادِقُ المَصْدُوقُ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ .

الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ أَفْضَلُ الجِهَادِ

وَقَالَ عَلِيٌّ أَمِيرُ المُؤْمِنِيْنَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : أَفْضَلُ الجِهَادِ . . الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ .

وَمَنْ شَانَ الفَاسِقِينَ[١] ، وَغَضِبَ للهِ ، وَجَاهَدَ فِي اللهِ ، وَلَمْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً . . غَفَرَ اللهُ لَهُ .

مَثَلُ رِجَالِ السُّنَّةِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ وَحَالِ المُدَاهِنِ فِي حُدُودِ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَالوَاقِعِ فِيهَا . . مَثَلُ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ ، صَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاَهَا ، فَقَامَ رَجُلٌ بِيَدِهِ فَأْسٌ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا مَا لَكَ ؟ .

فَقَالَ : لاَ بُدَّ لِي مِنَ المَاءِ . فَإِنْ أَخَذُوا عَلَيْهِ وَمَنَعُوهُ . . أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنْ تَرَكُوهُ . . أَهْلَكُوهُ ، وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ[٢] .

جَاءَ فِي الخَبَرِ : « مَا مِنْ قَوْمٍ عَمِلُوا بِالمَعَاصِي وَفِيهِمْ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلْ . . إِلاَّ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ »[٣] .

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يَقُولُ : إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُحَبَّباً فِي جِيرَانِهِ ، مَحْمُوداً عِنْدَ إِخْوَانِهِ . . فَاعْلَمْ أَنَّهُ مُدَاهِنٌ . أَجَلْ ! .

وَمَنْ شَاهَدَ مُنْكَراً وَلَمْ يُنْكِرْهُ ، وَسَكَتَ عَنْهُ . . فَهُوَ شَرِيكٌ فِيهِ

وَالمُسْتَمِعُ . . شَرِيكُ المُغْتَابِ ، وَتَجْرِي فِي هَذِهِ . . جَمِيعُ المَعَاصِي المُنَبَّهِ عَلَيْهَا شَرْعاً .

---

(١) الشَّيْنُ : خلافُ الزَّيْنِ ، « مصباح » ص (٣٣٠) ، مادة : « شين » .

(٢) انظر « صحيحَ » ابنِ حِبَّان (٢٩٧ـ٢٩٨ و ٣٠١) ، ففيه المعنى المذكورُ بقولِ رسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(٣) روى بنحوه ابنُ حِبَّان في « صحيحه » (٣٠٠) ، والطبرانيُّ (٢٣٨٢) ، وأبو داود (٤٣٣٩) ، وأحمدُ ٤ : ٣٦٤ و ٣٦٦ ، وابنُ ماجه (٤٠٠٩) .

مَنْ خَالَطَ النَّاسَ كَثُرَتْ مَعَاصِيهِ

أَلاَ إِنَّ مَنْ خَالَطَ النَّاسَ .. كَثُرَتْ مَعَاصِيهِ وَإِنْ كَانَ تَقِيّاً فِي نَفْسِهِ ، إِلاَّ أَنْ يَتْرُكَ الْمُدَاهَنَةَ ، وَلاَ تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ ، وَيَشْتَغِلَ بِالحِسْبَةِ وَالمَنْعِ .

أَصْلُ الحِسْبَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَبَيَانُهَا

وَأَصْلُ الحِسْبَةِ الشَّرْعِيَّةِ شَيْئَانِ : أَحَدُهُمَا .. اللُّطْفُ وَالرِّفْقُ ، وَالبُدَاءَةُ بِالوَعْظِ عَلَىٰ سَبِيلِ اللِّينِ ، لاَ عَلَىٰ سَبِيلِ العُنْفِ والتَّرَفُّعِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَكِّدُ دَاعِيَةَ النَّفْسِ ، وَيَحْمِلُ العَاصِيَ عَلَىٰ المُنَاكَرَةِ وَالإِيذَاءِ[١] .

وَإِذَا كَانَ الوَاعِظُ فَظّاً سَيِّءَ الخُلُقِ .. لاَ سَبِيلَ لَهُ ـ لِحُمْقِهِ ـ عَلَىٰ دَفْعِ المُنَاكَرَةِ ، يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ ، وَيَتْرُكُ الإِنْكَارَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيَشْتَغِلُ بِشِفَاءِ غَلِيلِهِ مِنَ المَوْعُوظِ .. فَيَصِيرُ بِذَلِكَ عَاصِياً .

جَاءَ فِي الخَبَرِ : « لاَ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ يَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ .. إِلاَّ رَفِيقٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، رَفِيقٌ فِيمَا يَنْهَىٰ عَنْهُ ، حَكِيمٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، حَكِيمٌ فِيمَا يَنْهَىٰ عَنْهُ »[٢] .

وَبَلَغَنَا أَنَّ أَحَدَ الوُعَّاظِ : وَعَظَ المَأْمُونَ العَبَّاسِيَّ رَحِمَهُ اللهُ ، وَأَغْلَظَ عَلَيْهِ ، وَعَنَّفَهُ ، فَقَالَ : يَا رَجُلُ! اِرْفُقْ! فَقَدْ بَعَثَ اللهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ، إِلَىٰ

---

(١) أي : المُحَارَبَة ، « لسان » ١٤ : ٣٥٢ ، مادة : « نكر » .

(٢) لم أجدْهُ مرفوعاً ، وروى بنحوه أحمدُ في « الورع » ص (١٥٤) من قولِ سُفيانَ الثَّوريِّ .

مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي ، فَأَمَرَهُ بِالرِّفْقِ فِيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ .

مَا يَطْلُبُهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَمُحِبِّيْهِ تَخَلُّقٌ بِهِ

أَيْ سَادَةُ! أَقُولُ لَكُمْ : مَنَّ اللهُ عَلَيَّ فَتَخَلَّقْتُ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَحَثَثْتُكُمْ عَلَيْهِ .

وَلَكِنْ مِنَ البِرِّ أَنْ لاَ تَطْلُبُوا هَذَا الشَّرْطَ مِنْ وَاعِظٍ وَنَاصِحٍ ، وَلاَ تُظْفِرُوا الشَّيْطَانَ بِكُمْ بِهَذِهِ الخَصْلَةِ ، فَتَقُولُوا :

لاَ نَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ حَتَّىٰ نَعْمَلَ بِهِ كُلِّهِ ، وَلاَ نَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ حَتَّىٰ نَجْتَنِبَهُ كُلَّهُ .

إِنَّ هَذَا يُؤَدِّي إِلَىٰ حَسْمِ بَابِ الحِسْبَةِ ، فَمَنْ ذَا الَّذِي يُعْصَمُ مِنَ المَعَاصِي ؟! .

« **مُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلِّهِ ، وَانْهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ** »[1] . كَذَا أَمَرَنَا نَبِيُّنَا ، عَلَيْهِ أَكْرَمُ وَأَفْضَلُ صَلاَةِ اللهِ وَسَلاَمِهِ .

السَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ الاقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللهِ (ﷺ)

وَأَقُولُ لَكُمْ : مِفْتَاحُ السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ . . الاقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي جَمِيعِ مَصَادِرِهِ وَمَوَارِدِهِ وَهَيْئَتِهِ ، وَأَكْلِهِ ، وَشُرْبِهِ ،

---

(١) رواه الطبرانيُّ في « الأوسط » (٦٦٢٨) ، وفي « الصغير » (٩٨١) ، وقال الهيثميُّ في « مجمع الزوائد » ٧ : ٥٤٣ : « وفيه عبدُ السّلامِ بنُ عبدِ القُدُّوس بنِ حبيب عن أبيه ، وهما ضعيفان » .

وَقُعُودِهِ ، وَقِيَامِهِ ، وَنَوْمِهِ ، وَكَلَامِهِ ، حَتَّىٰ يَصِحَّ لَكُمُ الاتِّبَاعُ المُطْلَقُ .

بَلَغَنَا عَنْ بَعْضِ الأَئِمَّةِ(١) : أَنَّهُ مَا أَكَلَ البِطِّيخَ .. لأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ لَهُ كَيْفَ أَكَلَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢) .

وَسَهَا بَعْضُهُمْ فَابْتَدَأَ فِي لُبْسِ الخُفِّ بِاليُسْرَىٰ ، فَكَفَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الحِنْطَةِ .

وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَقُولُوا : إِنَّ هَٰذِهِ الخِصَالَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالعَادَاتِ فَتُهْمِلُوهَا ؛ فَإِنَّ إِهْمَالَهَا .. يُغْلِقُ بَاباً عَظِيماً مِنْ أَبْوَابِ السَّعَادَةِ .

وَأَمَّا العِبَادَاتُ .. فَلاَ أَعْرِفُ لِعَدَمِ اتِّبَاعِهِ ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ـ فِيهَا مِنْ عُذْرٍ ، إِلاَّ أَنْ يَحْصُلَ ذَلِكَ مِنْ كُفْرٍ خَفِيٍّ ، أَوْ حُمْقٍ جَلِيٍّ ، حَمَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ .

مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) هِيَ : الحَالَةُ المَرْضِيَّةُ عِنْدَ اللهِ وَالخَلْقِ

أَيْ سَادَةُ! واللهِ مَا أَظُنُّ أَنَّ عَلَىٰ بِسَاطِ الغَبْرَاءِ صَاحِبَ عَقْلٍ ، يُمَيِّزُ فِيهِ بَيْنَ

---

(١) هو الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلَ ، رضي الله عنه .

(٢) انظر كتاب « الفروع » ٦ : ٣٠٨ ، لابنِ مفلح الحنبليّ ، رحمةُ الله عليه وفي « سنن أبي داود » و « سنن الترمذي » عن عائشةَ رضي الله عنها : أنَّ النبيَّ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ كان يأكُلُ البِطِّيخَ بالرُّطَبِ » .

زادَ أبو داود في روايته : « يقولُ : نكْسِرُ حرَّ هَذَا ببَرْدِ هَذَا ، وبَرْدَ هَذَا بحرِّ هَذَا »

وانظر « المصنوع » ص (٧٧) ، للعلامة عليٍّ القاري ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غُدَّة ، رحمةُ الله عليهما .

الخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ . . إلاَّ وَيَعْتَقِدُ قَلْبُهُ ، وَيُذْعِنُ لُبُّهُ[١] : أَنَّ العِبَادَةَ الَّتِي شَرَعَهَا الحَبِيبُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ صَلاَةِ اللهِ وَسَلاَمِهِ ، وَالعَادَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا . . هِيَ الحَالَةُ المَرْضِيَّةُ عِنْدَ الرَّبِّ وَالخَلْقِ ، وَهِيَ الآدَابُ المَقْبُولَةُ عِنْدَ الخَالِقِ ، وَالمَحْبُوبَةُ عِنْدَ المَخْلُوقِينَ ، وَبِهَا يَطْمَئِنُّ القَلْبُ ، وَيَسْكُنُ الرَّوْعُ[٢] .

أَيُّ فَرْقٍ لاَ يُدْرِكُهُ العَقْلُ مِنْ حَالِ المَخْمُورِ والصَّاحِي ، وَمِنْ حَالِ الكَاذِبِ والصَّادِقِ ، وَمِنْ حَالِ الزَّانِي وَالعَفِيفِ ، وَمِنْ حَالِ السَّارِقِ وَالأَمِينِ ، وَمِنْ حَالِ المُتَكَبِّرِ وَالمُتَوَاضِعِ ، وَمِنْ حَالِ البَخِيلِ وَالسَّخِيِّ ، وَمِنْ حَالِ الظَّالِمِ وَالعَادِلِ ، وَمِنْ حَالِ المُبْطِلِ وَالمُحِقِّ ، وَمِنْ حَالِ المُغْتَابِ وَالبَرِيءِ ، وَمِنْ حَالِ الغَادِرِ وَالرَّحِيمِ ، وَمِنْ حَالِ العَابِدِ وَالنَّائِمِ ، وَمِنْ حَالِ الغَافِلِ وَالمُتَفَكِّرِ ، وَمِنْ حَالِ الفَاجِرِ وَالبَرِّ ، وَمِنْ حَالِ الكَافِرِ وَالمُؤْمِنِ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ؟! .

حَثُّهُ عَلَى مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ (ﷺ)

اللهَ اللهَ بِالمُتَابَعَةِ المَحْضَةِ لِهَذَا الرَّسُولِ العَظِيمِ ، الَّذِي جَاءَنَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، وَحُجَّةً عَلَى المَخْلُوقِينَ ، وَنِعْمَةً لِلْمُوَحِّدِينَ .

إِيَّاكُمْ وَنِسْيَانَ المَوْتِ!

إِيَّاكُمْ وَنِسْيَانَ المَوْتِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْتُجُ مِنَ الغَفْلَةِ ، وَهِيَ مِنْ قِلَّةِ ذِكْرِ اللهِ ، وَذَلِكَ مِنْ قِلَّةِ الإِيمَانِ ، وَأُمُّ ذَلِكَ . . الجَهْلُ ، وَهُوَ مِنَ الضَّلاَلِ .

---

(١) أي : عقله ، « مصباح » ص (٥٤٧) ، مادة : « لب » .

(٢) أي : الفَزَعُ ، « مختار الصّحاح » ص (٢٦٣) ، مادة : « روع » .

جَاءَ فِي بَعْضِ الكُتُبِ الإِلٰهِيَّةِ ، أَنَّ الحَقَّ ـ تَعَالَتْ ذَاتُهُ ـ يَقُولُ :

« يَا بْنَ آدَمَ! بِعَافِيَتِي قَوِيتَ عَلَىٰ طَاعَتِي ، وَبِتَوْفِيقِي أَدَّيْتَ فَرِيضَتِي ، وَبِرِزْقِي قَوِيتَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِي ، وَبِمَشِيئَتِي تَشَاءُ مَا تَشَاءُ لِنَفْسِكَ ، وَبِنِعْمَتِي قُمْتَ وَقَعَدْتَ وَرَجَعْتَ ، وَفِي كَنَفِي أَمْسَيْتَ وَأَصْبَحْتَ ، وَفِي فَضْلِي عِشْتَ ، وَفِي نِعْمَتِي تَقَلَّبْتَ ، وَبِعَافِيَتِي تَجَمَّلْتَ ، تَنْسَانِي وَتَذْكُرُ غَيْرِي ، وَلَمْ تُؤَدِّ شُكْرِي ؟! .

يَا بْنَ آدَمَ! المَوْتُ يَكْشِفُ أَسْرَارَكَ ، وَالقِيَامَةُ تَتْلُو أَخْبَارَكَ ، وَالعَذَابُ يَهْتِكُ أَسْتَارَكَ .

فَإِذَا أَذْنَبْتَ ذَنْباً صَغِيراً .. فَلاَ تَنْظُرْ إِلَىٰ صِغَرِهِ ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَىٰ مَنْ عَصَيْتَ .

وَإِذَا رُزِقْتَ رِزْقاً قَلِيلاً .. فَلاَ تَنْظُرْ إِلَىٰ قِلَّتِهِ ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَىٰ مَنْ رَزَقَكَ .

وَلاَ تَحْقِرِ الذَّنْبَ الصَّغِيرَ ؛ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي بِأَيِّ ذَنْبٍ عَصَيْتَنِي .

وَلاَ تَأْمَنْ مَكْرِي ؛ فَإِنَّ مَكْرِي أَخْفَىٰ عَلَيْكَ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ عَلَى الصَّخْرَةِ فِي اللَّيْلَةِ المُظْلِمَةِ .

يَا بْنَ آدَمَ! هَلْ عَصَيْتَنِي فَذَكَرْتَ غَضَبِي فَانْتَهَيْتَ ؟ .

وَهَلْ أَدَّيْتَ فَرِيضَتِي كَمَا أَمَرْتُكَ ؟ .

وَهَلْ وَاسَيْتَ المَسَاكِينَ مِنْ مَالِكَ ؟ .

وَهَلْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ؟ .

وَهَلْ غَفَرْتَ لِمَنْ ظَلَمَكَ ؟ .

وَهَلْ وَصَلْتَ مَنْ قَطَعَكَ ؟ .

وَهَلْ أَنْصَفْتَ مَنْ خَانَكَ ؟ .

وَهَلْ كَلَّمْتَ مَنْ هَجَرَكَ ؟ .

وَهَلْ أَدَّبْتَ وَلَدَكَ ؟ .

وَهَلْ أَرْضَيْتَ جِيرَانَكَ ؟ .

وَهَلْ سَأَلْتَ الْعُلَمَاءَ عَنْ أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ ؟ .

فَإِنِّي لاَ أَنْظُرُ - مَعَاشِرَ الآدَمِيِّينَ - إِلَىٰ صُوَرِكُمْ ، وَلاَ إِلَىٰ مَحَاسِنِكُمْ ، وَأَحْسَابِكُمْ وَأَنْسَابِكُمْ ، وَلَكِنْ أَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ ، وَأَرْضَىٰ بِهَذِهِ الخِصَالِ عَنْكُمْ » .

أَسْمَاءُ يَوْمِ القِيَامَةِ

أَيْ سَادَةُ! هَذِهِ أُمُورٌ تَنْكَشِفُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، يَوْمَ التَّغَابُنِ ، يَوْمَ الحَاقَّةِ ، ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ .

يَوْمَ الطَّامَّةِ ، يَوْمَ الصَّيْحَةِ ، يَوْمَ تَشِيبُ الوِلْدَانُ ، يَوْمَ الزَّلْزَلَةِ ، يَوْمَ القَارِعَةِ ، يَوْمَ يَنْسِفُ الجِبَالَ ، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ .

حَثٌّ عَلَى مُجَالَسَةِ العُلَمَاءِ والعُرَفَاءِ

أَيْ سَادَةُ! جَالِسُوا العُلَمَاءَ وَالعُرَفَاءَ ؛ فَإِنَّ لِلْمُجَالَسَةِ أَسْرَاراً تَقْلِبُ الجُلاَّسَ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ .

وَرَدَ فِي السُّنَّةِ : « مَنْ جَلَسَ مَعَ ثَمَانِيَةِ أَصْنَافٍ . زَادَهُ اللهُ ثَمَانِيَةَ أَشْيَاءَ :

مَنْ جَلَسَ مَعَ الأُمَرَاءِ . . زَادَهُ اللهُ الكِبْرَ وَقَسَاوَةَ القَلْبِ .

وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الأَغْنِيَاءِ . . زَادَهُ اللهُ الحِرْصَ فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .

وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الفُقَرَاءِ . . زَادَهُ اللهُ الرِّضَاءَ بِمَا قَسَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ .

وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الصِّبْيَانِ . . زَادَهُ اللهُ اللَّهْوَ وَاللَّعِبَ .

وَمَنْ جَلَسَ مَعَ النِّسَاءِ . . زَادَهُ اللهُ الجَهْلَ وَالشَّهْوَةَ .

وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الصَّالِحِينَ . . زَادَهُ اللهُ الرَّغْبَةَ فِي الطَّاعَةِ .

وَمَنْ جَلَسَ مَعَ العُلَمَاءِ . . زَادَهُ اللهُ العِلْمَ وَالوَرَعَ

وَمَنْ جَلَسَ مَعَ الفُسَّاقِ . . زَادَهُ اللهُ الذَّنْبَ وَتَسْوِيفَ التَّوْبَةِ »[١] .

وَوَرَدَ أَيْضاً : « الصُّحْبَةُ مَعَ العَاقِلِ . . زِيَادَةٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَالصُّحْبَةُ مَعَ الأَحْمَقِ . . نُقْصَانٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَحَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ عِنْدَ المَوْتِ ، وَخَسَارَةٌ فِي الآخِرَةِ »[٢] .

لِمَنْ تَكُونُ الشَّفَاعَةُ ؟

أَيْ سَادَةُ! ثَلاثَةٌ لَهُمْ شَفَاعَةٌ : العَالِمُ ، وَالخَادِمُ ، وَالفَقِيرُ الصَّابِرُ .

التَّسْلِيمُ لِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ

أَيْ سَادَةُ! خُذُوا كُلَّ وَارِدٍ غَيْبِيٍّ ، وَحَادِثٍ سَمَاوِيٍّ بِالبِشْرِ وَالرَّحْبِ ، وَكُونُوا رَاضِينَ عَنِ اللهِ .

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) لم أجده .

حَثُّهُ عَلَىٰ قَضَاءِ حَوَائِجِ الخَلْقِ وَرَحْمَةِ الكِرَامِ

قُومُوا بِقَضَاءِ حَوَائِجِ خَلْقِ اللهِ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ؛ فَإِنَّ مَنْ قَضَىٰ لأَخِيهِ المُؤْمِنِ حَاجَةً فِي الدُّنْيَا . قَضَىٰ اللهُ لَهُ سَبْعِينَ حَاجَةً فِي الآخِرَةِ .

إِرْحَمُوا عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ ٱفْتَقَرَ .

حَثُّهُ عَلَىٰ كَثْرَةِ الصَّدَقَةِ وَإِكْرَامِ الضِّيفَانِ

أَكْثِرُوا مِنَ الصَّدَقَةِ ؛ فَإِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِسَبَبِهَا البَلَاءَ .

أَكْرِمُوا الضِّيفَانَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ عِبَادَتِهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَبْلَ أَنْ كُلِّفَ .

حَثُّهُ عَلَىٰ مُخَالَطَةِ النَّاسِ بِخُلُقٍ حَسَنٍ

خَالِقُوا النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ؛ فَإِنَّ الخُلُقَ الحَسَنَ . . أَفْضَلُ الأَعْمَالِ .

يُقَالُ : إِذَا لَمْ تَسَعِ النَّاسَ بِمَالِكَ . . فَسَعِ النَّاسَ بِخُلُقِكَ .

« أَحْسَنُ الحَسَنِ . . الخُلُقُ الحَسَنُ »[1] .

يَبْلُغُ صَاحِبُ الخُلُقِ الحَسَنِ . . رُتْبَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ وَهُوَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ نَائِمٌ ؛ لأَنَّ ذَلِكَ بَعْدَ المَفْرُوضَاتِ . . أَفْضَلُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ .

---

(١) رواه القضاعي في « مسند الشِّهاب » ٢ : ١٠٨ ، وابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » ٣ : ١١٦ .

جاء في « المُجالة » ص (٧٩) للفاداني . « قال السَّخاويُّ : مدارُهُ على الحَسَنِ بنِ دينار ، وهو مِمَّنْ رماه أحمدُ وابنُ معينٍ وغيرُهما . . بالكَذِبِ . وتركه ابنُ مهدي وابنُ المباركِ ووكيعٌ . وقد رواه عنه بعضُهم فوقَفَه » .

اعْبُدِ اللهَ بِقَلْبٍ رَاهِبٍ غَيْرِ مُشْمَئِزٍّ

أَيْشٍ تَنْفَعُ عِبَادَتُكَ وَأَنْتَ مُشْمَئِزٌّ ؟ كَأَنَّكَ تَمُنُّ عَلَىٰ اللهِ بِهَا ؟ يَا مُسَيْكِينُ! إِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ .

إِذَا عَبَدْتَ اللهَ . . فَاعْبُدِ اللهَ عَاكِفاً عَلَىٰ بَابِهِ ، وَاقِعاً عَلَىٰ أَعْتَابِهِ ، خَاضِعاً لِسَلْطَنَتِهِ ، مُقْشَعِرّاً مِنْ هَيْبَتِهِ ، مُعْتَرِفاً بِعَجْزِكَ عَنْ أَدَاءِ وَاجِبَاتِهِ ، مُتَجَرِّداً مِنْ رُؤْيَةِ نَفْسِكَ وَعَمَلِكَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، قَارِعاً بَابَ عِزَّتِهِ وَجَلاَلِهِ بِأَكُفِّ ذُلِّكَ وَاحْتِقَارِكَ ، وَحِينَئِذٍ يُرْجَىٰ لَكَ القَبُولُ .

حَثُّهُ عَلَىٰ تَطْهِيرِ اللِّسَانِ فِيمَا لاَ يَعْنِيهِ

طَهِّرْ لِسَانَكَ مِنْ لَوْثِ الكَلاَمِ فِيمَا لاَ يَعْنِيكَ ، كَيْ يَرْفَعَ كَلاَمَكَ إِلَىٰ حَضِيرَةِ قُدْسِهِ ، إِلَىٰ الحَضْرَةِ السَّمَاوِيَّةِ العَرْشِيَّةِ ، الَّتِي جَعَلَهَا جِهَةَ الطَّلَبِ ، كَمَا جَعَلَ الكَعْبَةَ فِي الأَرْضِ جِهَةَ العُبُودِيَّةِ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ .

إِلَىٰ الجِهَةِ الَّتِي صَرَفَ إِلَيْهَا هِمَمَ خَلْقِهِ ، إِلَىٰ مَحَلِّ تَنَزُّلاَتِ أَمْرِهِ ، لِيَأْتِيَكَ أَمْرُهُ وَكَرَمُهُ وَلُطْفُهُ مِنَ العُلُوِّ ، فَتَخْضَعَ دُونَهُ ، وَتَرَاكَ حَقِيراً سَافِلاً .

وَالأَسْرَارُ القُرْآنِيَّةُ . . وَاضِحَةُ المُفَادِ بِهَذَا المَعْنَىٰ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ، وَقَالَ ـ تَعَالَتْ أَسْمَاؤُهُ ـ :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . / كُنْ حَاذِقاً .

كَلَامُ أَهْلِ الحَضْرَةِ ظَاهِرٌ غَامِضٌ

أَيْ وَلَدِي! إِذَا سَمِعْتَ كَلَامَ أَهْلِ الحَضْرَةِ.. فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ غَامِضٌ.

تَكَلَّمَ سَيِّدُ أَهْلِ الحِكْمَةِ وَالبَيَانِ، وَأَفْصَحُ نَوْعِ الإِنْسَانِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، فَأَوْجَزَ وَأَفْصَحَ، وَأَوْضَحَ وَأَغْمَضَ، وَهَكَذَا وُرَّاثُهُ وَأَتْبَاعُهُ.

الخَاطِرُ إِنْ قُوبِلَ بِالخُضُوعِ ٱنْقَلَبَ فَتْحاً

لَا تَحْرَدْ مِنِّي يَا أَخِي! كُلُّ مَا حَامَ حَوْلَ فِكْرِكَ: مِنْ رُؤْيَا نَفْسِكَ وَمَالِكَ، وَحَسَبِكَ وَنَسَبِكَ، وَعِلْمِكَ وَبَلَدِكَ، وَزَوْجِكَ وَوَلَدِكَ، وَعَمَلِكَ وَفَتْحِكَ، وَكَرَامَتِكَ وَمَزِيَّتِكَ.. فَهُوَ خَاطِرٌ، إِنْ قَابَلْتَهُ بِالخُضُوعِ وَالذُّلِّ وَالحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالمَسْكَنَةِ.. اِنْقَلَبَ فَتْحاً.

وَإِنْ قَابَلْتَهُ بِالعِزَّةِ وَالكِبْرِ وَالاسْتِعْلَاءِ وَالغَفْلَةِ.. اِنْقَلَبَ قُبْحاً وَوَسْوَاساً وَقَطِيعَةً.

فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ، وَأَصْلِحْ شَأْنَكَ.

بُكَاءُ الأَرْضِ عَلَىٰ عَبْدٍ عَبَدَ اللهَ عَلَيْهَا

إِذَا ٱنْقَطَعْتَ عَنْ عِبَادَةِ سَيِّدِكَ.. تَبْكِي عَلَيْكَ الأَرْضُ الَّتِي عَبَدْتَ اللهَ عَلَيْهَا، وَكَأَنَّهَا تَوَدُّداً إِلَيْكَ، وَأَسَفاً عَلَيْكَ، تَقُولُ قَوْلَ القَائِلِ:

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ جِبَالَ رَضْوَىٰ   تَزُولُ، وَأَنَّ وُدَّكَ لَا يَزُولُ
وَلَكِنَّ القُلُوبَ لَهَا ٱنْقِلَابٌ   وَحَالَاتُ ٱبْنِ آدَمَ تَسْتَحِيلُ

***

فَإِذَا كَانَتِ الأَرْضُ.. تَحِنُّ عَلَيْكَ ، وَتَرُدُّ سَوْقَ الخَيْرِ إِلَيْكَ ، فَكَيْفَ بِكَ ؟ هَذَا الشَّأْنُ أَوْلَىٰ لَكَ ، وَأَنْتَ ـ لَوْ فَقِهْتَ ـ أَوْلَىٰ بِهِ .

عَوْدٌ عَلَىٰ كَلاَمِ أَهْلِ الحَضْرَةِ

بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ إِخْوَانِنَا رِجَالِ العَصْرِ أَنَّهُ يَقُولُ :

عَقَدْتُ بِبَابِ الدَّيْرِ عُقْدَةَ زُنَّارِي وَقُلْتُ: خُذُوا لِي مِنْ فَقِيهِ الحِمَىٰ ثَارِي

يُرِيدُ بِذَلِكَ مَعَانِيَ أُخْرَىٰ ، إِيَّاكُمْ وَالقَوْلَ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَقَاوِيلِ! .

حُسْنُ الظَّنِّ.. يُلْزِمُنَا بِسَيِّدِنَا الشَّيْخِ ، وَلَكِنْ أَدَبُنَا مَعَ الدِّينِ أَلْزَمُ ، وَوُقُوفُنَا مَعَ الحَقِّ أَهَمُّ .

لاَ نَعْقِدُ الزُّنَّارَ ، وَلاَ نَمُرُّ عَلَىٰ بَابِ الدَّيْرِ ، وَنُقَبِّلُ يَدَ الفَقِيهِ وَرِجْلَهُ ، وَنَطْلُبُ مِنْهُ عِلْمَ دِينِنَا ، وَنَقُولُ :

طَلَبَ الشَّيْخُ مَقَاصِدَ سَتَرَهَا بِهَذِهِ الأَلْفَاظِ ، وَلَيْتَهُ لَمْ يَطْلُبْهَا ، وَلَمْ يَسْتُرْهَا! وَيَقُولُ عِوَضاً عَمَّا قَالَ :

حَلَلْتُ بِبَابِ الشَّرْعِ عُقْدَةَ زُنَّارِي وَطَهَّرْتُ بِالفِقْهِ الإِلَهِيِّ أَسْرَارِي

وَمَا الدَّيْرُ وَالزُّنَّارُ إِلاَّ ضَلاَلَةٌ وَمَا الشَّرْعُ إِلاَّ البَابُ لِلْوَصْلِ بِالبَارِي

***

نَعَمْ! حَالَةُ أَهْلِ الحُبِّ تَأْخُذُ القَلْبَ فَيَطِيشُ العَقْلُ ، فَيَتَكَلَّمُ اللِّسَانُ كَلاَمَ مَنْ جُنَّ ، أَوْ خَمِرَ ، أَوْ غَلاَ دَمُهُ ، أَوْ أُغْشِيَ عَلَيْهِ .

فَدَعُوا الرَّجُلَ وَرَبَّهُ ، وَهَذَا يَكْفِيهِ مِنْكُمْ ، وَتَمَسَّكُوا بِالحَبْلِ المَتِينِ ، الَّذِي مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ . . لَنْ يَضِلَّ أَبَداً[١] .

هَذِهِ الكَلِمَاتُ وَمِثْلُهَا مِنَ الشَّطَحَاتِ الَّتِي تَتَجَاوَزُ حَدَّ التَّحَدُّثِ بِالنِّعْمَةِ . . مَثَلُ صَاحِبِهَا : كَمَثَلِ رَجُلٍ نَامَ فِي بَيْتِ الخَلَاءِ ، فَرَأَىٰ فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَىٰ سَرِيرِ سَلْطَنَةٍ ، فَلَمَّا ٱسْتَيْقَظَ . . خَجِلَ وَعَرَفَ مَكَانَهُ .

اللهَ اللهَ بِالوُقُوفِ عِنْدَ الحُدُودِ! عَضُّوا عَلَىٰ سُنَّةِ السَّيِّدِ العَظِيمِ بِالنَّوَاجِذِ :

مَا لِي وَأَلْفَاظِ زَيْدٍ ... وَوَهْمِ عَمْرٍو وَبَكْرِ
وَجْهُ الشَّرِيعَةِ أَهْدَىٰ ... مِنْ سِرِّ ذَاكَ وَسِرِّي

* * *

« صَدَقَ اللهُ[٢] وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ »[٣] .

---

(١) والحبلُ المتينُ : كتابُ اللهِ القرآنُ ، قاله ابنُ مسعودٍ ، ورواه الطبريُّ في « تفسيره » ٥ : ٦٤٦ .

قال تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ . [آل عمران : ١٠٣] .

ورواه عليٌّ وأبو سعيدٍ الخُدريُّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو قِطعةٌ من حديثٍ طويلٍ رواه أحمدُ (٧٠٤) ، والتِّرمذيُّ (٢٩٠٦) .

وحديثُ أبي سعيدٍ الخُدريِّ رواه الطبريُّ ٥ : ٦٤٦ .

(٢) أي : في قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل : ٦٩] .

(٣) رواه البخاري (٥٣٦٠) ، ومسلم (٢٢١٧) ، والترمذي (٢٠٨٣) ، وقال : « حديثٌ حسنٌ صحيحٌ » .

والحديثُ فيه قِصَّةٌ ، اُنْظُرْهَا في المصادرِ المذكورةِ .

التقرُّبُ إليهِ ـ سُبْحانَهُ ـ بالتَّوبَةِ والعَمَلِ المَرضيِّ عِنْدَهُ

أيْ أخِي! كُلُّ مَا أنْتَ فِيهِ إنْ لَمْ يَكُنْ حلالاً .. فلا ثَوابَ عَلَيْهِ ، وإنْ لَمْ يَكُنْ مُباحاً .. فأنْتَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ .

وإنْ جِئْتَ بالحَرامِ .. يُتْلَى عَلَيْكَ إذَا لَقِيتَ رَبَّكَ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

لا أقولُ لَكُمْ : ضاقَتْ عَلَيْكُمُ السُّبُلُ ، وأخَذَكُمُ السَّيْلُ ، ورُدِدْتُمْ عَنْ بابِ الكَرَمِ ، لا وحقِّهِ تعالَى! .

بَلْ سَيَظْهَرُ مِنْ كَرَمِهِ وإحْسانِهِ ولُطْفِهِ وفَضْلِهِ غَداً يَوْمَ القِيامَةِ .. مَا يَتطاوَلُ إلَيْهِ طَمَعُ إبليسَ ، وظُلْمَةُ الكافِرينَ .

ولكِنْ أقولُ لكُمْ : هُوَ سُبْحانَهُ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

فتقرَّبُوا مِنْ بابِ مَغْفِرَتِهِ .. بالتَّوبَةِ والعَمَلِ المَرْضِيِّ عِنْدَهُ .

وتَباعَدُوا عَنْ بابِ عِقابِهِ .. بِتَرْكِ مَعاصِيهِ .

وخافُوهُ خَوْفَ عالِمٍ بِعَظَمَتِهِ وقُدْرَتِهِ .

وأضْمِرُوا الرَّجاءَ بِهِ ، رَجاءَ مُوقِنٍ بِكَرَمِهِ وعَمِيمِ إحْسانِهِ ؛ فإنَّ رَجاءَ المُؤْمِنِ .. بِقَدْرِ خَوْفِهِ ، حتَّى لَوْ وُزِنَا .. لَمَا زادَ أحَدُهُما عَنِ الآخَرِ .

المَصِيرُ إلَى اللهِ :

المَصِيرُ إلَى اللهِ ، والرُّجُوعُ إلَيْهِ ، وكُلٌّ يَعُودُ إلَى مَعْدِنِهِ ، ويَسْتَوْفي أجَلَهُ ، وتَعُودُ عَلَيْهِ المَسْأَلَةُ ، قالَ تَعالَى :

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ .

هَذِهِ الحَبَّةُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا . . نَبَتَتْ بِتُرَابٍ مِثْلِكُمْ .

هَذِهِ الدُّنْيَا وَهَذِهِ أَحْوَالُهَا

كَانَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَبَأْسٌ شَدِيدٌ ، ذَهَبُوا وَبَانُوا[١] ، وَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا .

هَـذَا تُـرَابٌ لَـوْ تَفَكَّـرَهُ الفَتَـىٰ   لَـرَأَىٰ عَلَيْـهِ مِـنَ الجِبَـاهِ بِسَـاطَـا
وَكَـأَنَّمَـا ذَرَّاتُـهُ لَـوْ مُيِّـزَتْ   صِيغَتْ لِأَلْسِنَةِ الأُلَىٰ أَسْفَاطَا[٢]

* * *

نَدُوسُ أَلْسُنَاً وَجِبَاهَاً ، وَخُدُوداً وَشِفَاهَاً ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ .

هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَهَذِهِ أَحْوَالُهَا ، وَهَذِهِ دِيَارُهَا وَرِجَالُهَا .

بِاللهِ عَلَيْكُمْ! هَلْ بَعْدَ هَذِهِ الفِكْرَةِ ، وَأَخْذِ العِبْرَةِ ، مِنْ طَمِعٍ بِهَا وَبِدِيَارِهَا ، وَإِصْلَاحِهَا وَإِعْمَارِهَا ؟ .

أَعْمُرُ هَذَا الرِّوَاقَ حَتَّىٰ يَسْكُنَهُ صَالِحٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ ، وَأَبُو القَاسِمِ ، وَالنِّسَاءُ ؟ .

أَمْ أَعْمُرُ بَيْتَاً أَسْكُنُهُ أَنَا إِذَا فَارَقْتُ الأَحْبَابَ ، وَتَوَسَّدْتُ التُّرَابَ ؟ .

أَهَذَا الرِّوَاقُ عَمَرَهُ أَبِي بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ ، وَأَبْقَاهُ لِي مِنْ بَعْدِهِ ؟ .

لَا وَاللهِ! بَلِ اللهُ وَهَبَ وَأَحْسَنَ ، وَأَكْرَمَ وَتَحَنَّنَ .

---

(١) أي : بَعُدُوا ، « مصباح » ص (٧٠) ، مادة : « بين » .

(٢) جمعُ سَفَطٍ ، وهو الَّذي يُعَبَّىٰ فيه الطِّيبُ وما أشبهَهُ من أدواتِ النِّساءِ ، « لسان » ٧ : ١٩٨ ، مادة : « سفط » .

هَذِهِ المِنَّةُ مَخْصُوصَةٌ بِي ؟ لاَ وَاللهِ! بَلِ الدُّنْيَا يُعْطِيهَا لِمَنْ يُحِبُّ ، وَلِمَنْ لاَ يُحِبُّ ، وَالآخِرَةُ لاَ يُعْطِيهَا إلاَّ لِمَنْ يُحِبُّ .

رُزِقَ أَبِي بَيْتاً وَمُقَاماً ، وَثَوْباً وَطَعَاماً .

وَأَنَا كَذَلِكَ وَأَوْلاَدِي وَعِيَالِي فِي لَوْحِ غَيْبِهِ المَحْفُوظِ بِعِلْمِهِ . لَهُمْ رِزْقٌ ، وَهَكَذَا جَمِيعُ الخَلْقِ .

فَعَلاَمَ هَذِهِ الخَيَالاَتُ ، وَتَطَرُّقُ سَبِيلِ الضَّلاَلاَتِ ؟! .

الكَيِّسُ مَنْ خَافَ رَبَّهُ ، وَدَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ، قَالَ تَعَالَىٰ :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ .

آيَةٌ اُخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِهَا الرِّجَالُ؟ :

أ ـ إِرْثٌ مَعْنَوِيٌّ ، تَحْسُنُ بِهِ القُرْبَىٰ مِنَ اللهِ لِلْعَبْدِ إِذَا تَوَسَّدَ الأَرْضَ .

ب ـ أَوِ الصَّالِحُونَ ؛ لإِرْثِهَا وَسِيَاسَةِ خَلْقِهِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ اسْتِحْقَاقِ الخَلْقِ ؛ فَإِنَّ الأَعْمَالَ . . عَيْنُ العُمَّالِ .

أَجَلْ! « أَعْمَالُكُمْ . . عُمَّالُكُمْ ، وكَمَا تَكُونُوا . . يُوَلَّىٰ عَلَيْكُمْ »[1] .

﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ . بَيِّنَةٌ عَلَىٰ مَا ذُكِرَ .

ج ـ وَفَسَّرَهَا جَمَاعَةٌ بِأَرْضِ الجَنَّةِ ، وَالكُلُّ عَلَىٰ هُدَىً .

---

(١) رواه الطبرانيُّ عن الحَسَنِ ، كما في « كشف الخفاء » (١٩٩٧) .

الإِنسَانُ يَبْرُزُ إِلَىٰ الدُّنيا قَابِضاً كَفَّهُ

أَيْ أَخِي! أَمَا تَنظُرُ الطِّفْلَ إِذَا وُلِدَ.. يَبْرُزُ إِلَىٰ الدُّنْيَا قَابِضاً كَفَّهُ ، حِرْصاً عَلَيْهَا ، وَإِذَا خَرَجَ.. يَخْرُجُ بَاسِطاً كَفَّهُ مُعْتَرِفاً بِفَرَاغِ يَدِهِ مِنَ الأَمْرِ العَارِضِ الَّذِي حَرَصَ عَلَيْهِ ؟ .

كَفَىٰ بِالمَوْتِ وَاعِظاً! كَفَىٰ بِالمَوْتِ وَاعِظاً! :

أَبْكِي وَمِثْلِيَ مَنْ يَبْكِي إِذَا سَبَقَتْ   قَوَافِلُ القَوْمِ أَهْلِ العِلْمِ وَالعَمَلِ
بُكَاءَ قَوْمٍ لِلُقْيَا الوَالِهِيـنَ بِـهِ   وَإِنَّنِي الخَائِفُ البَاكِي مِنَ الزَّلَلِ

***

مَا تَرَكَ طَرِيقاً صَعْباً إِلاَّ سَلَكَهُ

أَيْ سَادَةُ! مَا تَرَكْتُ طَرِيقاً صَعْباً ، وَلاَ مَسْلَكاً غَضّاً.. إِلاَّ كَشَفْتُ قِنَاعَهُ ، وَرَفَعْتُ بِأَكُفِّ عَسَاكِرِ الهِمَّةِ سِتْرَهُ المَسْدُولَ وَشِرَاعَهُ .

مَجِيئُهُ إِلَىٰ اللهِ مِنْ بَابِ الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ

وَدَخَلْتُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، فَرَأَيْتُ عَلَىٰ الكُلِّ ازْدِحَاماً عَظِيماً ، فَجِئْتُهُ مِنْ بَابِ الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ ، فَرَأَيْتُهُ خَالِياً ، فَوَصَلْتُ وَحَصَّلْتُ مَطْلُوبِي ، وَالطُّلاَّبُ عَلَىٰ الأَبْوَابِ .

بِشَارَتُهُ لأَحْبَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ أَنَّهُمْ مُعَانُونَ وَمَنْصُورُونَ

أَعْطَانِي رَبِّي مِنْ فَضْلِهِ وَمَوَاهِبِهِ.. مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ مِنْ أَهْلِ هَذَا العَصْرِ .

وَعَدَنِي رَسُولُ كَرَمِهِ : أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِ مُرِيدِي وَمُحِبِّي ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِي ، وَبِذُرِّيَّتِي ، وَخُلَفَائِي / فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ، عِنْدَ أَنْقِطَاعِ الحِيَلِ .

بِهَذَا جَرَتْ بَيْعَةُ الرُّوحِ ، لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ .

لاَ تَصِحُّ المُكَالَمَةُ لِمَخْلُوقٍ مَعَ الخَالِقِ

لاَ تَصِحُّ المُكَالَمَةُ لِمَخْلُوقٍ مَعَ الخَالِقِ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ ، الَّذِينَ كَلَّمَهُمْ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .

وَإِنَّمَا وَعْدُ إِحْسَانِهِ يَنْجَلِي إِلَىٰ قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ وَأَحْبَابِهِ بِالرُّؤْيَا المَنَامِيَّةِ ، وَالوَاسِطَةِ المُحَمَّدِيَّةِ ، وَالإِلْهَامِ الصَّحِيحِ ، الَّذِي لاَ يُخَالِفُ ظَاهِرَ الشَّرِيعَةِ الأَحْمَدِيَّةِ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ . و ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ :

مَوَاهِبُ الرَّحْمٰنِ لاَ تَنْقَضِي ... وَأُمَّةُ المُخْتَارِ مِثْلُ المَطَرْ
خَزَائِنُ السِّرِّ لِأَحْبَابِهِ ... وَالأَهْلُ لِلْحِكْمَةِ نَوْعُ البَشَرْ
قَدْ يَضْلَعُ السَّابِقُ فِي سَيْرِهِ ... وَيَسْبِقُ الضُّوَيْلِعُ المُنْتَظَرْ

* * *

اللَّهُمَّ زِدْنِي حِكْمَةً وَفَهْماً ، وَمَعْرِفَةً وَعِلْماً ، وَٱجْعَلْنِي وَالمُسْلِمِينَ مِنَ المَحْبُوبِينَ المُقَرَّبِينَ عِنْدَكَ ، المُقْتَدِينَ بِنَبِيِّكَ ، إِنَّكَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ ، وَتَحْكُمُ مَا تُرِيدُ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

حَثُّهُ عَلَىٰ تَعْظِيمِ نِعْمَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَسَائِرِ النِّعَمِ

أَيْ سَادَةُ! عَظِّمُوا نِعْمَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَالثِّيَابِ وَالعَافِيَةِ ، وَالأَمَانِ وَالدِّينِ . تَدُمْ عَلَيْكُمُ النِّعَمُ .

تَصْحِيحُ اليَقِينِ بِإِشَارَاتِ الصَّالِحِينَ

صَحِّحُوا اليَقِينَ ، بِإِشَارَاتِ الصَّالِحِينَ ؛ فَإِنَّ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِمْ هَاطِلَةٌ ، وَسُحُبَ المَدَدِ مِنْهُ إِلَيْهِمْ مُتَوَاصِلَةٌ .

دَلَّهُمْ بِهِ عَلَيْهِ ، وَقَرَّبَهُمْ بِهِ إِلَيْهِ ، وَشَرَحَ صُدُورَهُمْ لِلإِيمَانِ ، وَجَعَلَهُمْ أَعْيَانَ نَوْعِ الإِنْسَانِ . وَتَعَرَّفَ عَلَيْهِمْ فَعَرَفُوهُ ، وَأَحَبَّهُمْ وَأَحَبُّوهُ .

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

حَثُّهُ عَلَىٰ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ

اِجْعَلُوا دَعَائِمَ تَوَكُّلِكُمْ عَلَىٰ اللهِ رَصِينَةَ المَبَانِي ، وَأَسَالِيبَ أَدْعِيَتِكُمْ للهِ خَالِصَةَ المَعَانِي .

وَكُونُوا مِنَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ عَلَىٰ حَذَرٍ .

وَخُذُوا بِالحَزْمِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، فَمَا خَابَ مَنْ شَدَّ مِئْزَرَ الحَزْمِ بِاللهِ ، وَرَكِبَ مَطَايَا العَزْمِ إِلَىٰ اللهِ .

التَّأَسِّي بِالقُرْآنِ فِي الوَعْظِ وَالإِرْشَادِ

مَاذَا يَقُولُ الوَاعِظُ بَعْدَ قَوْلِ اللهِ : ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ ؟ .

مَاذَا يُتَرْجِمُ المُوجِزُ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ ؟ .

مَاذَا يَعِدُ المُنَبِّهُ بَعْدَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ؟ .

مَاذَا يُدَقِّقُ المُحَذِّرُ بَعْدَ قَوْلِهِ ـ تَقَدَّسَ شَأْنُهُ ـ : ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ؟ .

مَاذَا يُوَضِّحُ الآمِرُ بَعْدَ قَوْلِ اللهِ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ ؟ .

مَاذَا يَصْدَعُ النَّاهِي بَعْدَ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ؟ .

مَاذَا يَزِنُ اللَّبِيبُ بَعْدَ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ؟ .

مَنْ تَمَسَّكَ بِالقُرْآنِ وَبِسُنَّةِ النَّبِيِّ (ﷺ) وَسَلَكَ طَرِيقَ القَوْمِ فَقَدْ فَازَ

هَذَا كِتَابُ اللهِ حُجَّةٌ قَائِمَةٌ ، وَمُعْجِزَةٌ دَائِمَةٌ .

أَنْبَأَنَا عَمَّا كَانَ وَيَكُونُ ، وَكَشَفَ لَنَا كُلَّ سِرٍّ مَكْنُونٍ .

مَنْ عَمِلَ بِهِ . . نَجَا وَغَنِمَ ، وَمَنِ انْحَرَفَ عَنْهُ . . قُطِعَ وَنَدِمَ .

وَهَذِهِ سُنَّةُ نَبِيِّهِ سَيِّدِ النَّاجِينَ ، وَوَسِيلَةِ المُنَاجِينَ . . مَحَجَّةٌ بَيْضَاءُ ، لاَ ضَلاَلَ بَعْدَهَا أَبَداً .

وَهَذَا طَرِيقُ القَوْمِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ .

تَشْهَدُ لَهُمْ بِالمَعِيَّةِ الإِلٰهِيَّةِ . مَعِيَّةُ الاخْتِصَاصِ ، مَعِيَّةُ المَعُونَةِ ، مَعِيَّةُ المَدَدِ .

فَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَكِتَابِهِ ، وَاقْتَدَىٰ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَنَهَجَ مَنْهَجَ القَوْمِ ، وَكَانَ مَعَهُمْ ، وَدَخَلَ حِزْبَهُمْ . فَازَ ، إن حزب الله هم الفائزون .

كُنْ مَعَ اللهِ وَاطْرَحِ النَّاسَ

يَا أَخِي! دَعْ عَنْكَ طُرُقَ الوَسْوَاسِ ، وَاطْرَحِ الاسْتِئْنَاسَ بِالنَّاسِ ، وَكُنْ مَعَ اللهِ ، وَخُذِ الحُكْمَ وَالحِكْمَةَ عَنِ اللهِ .

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

لاَ يَكُنْ حَظُّكَ لِسَانَكَ ، لاَ يَكُنْ مُنْتَهَاكَ أَنْ تَكْذِبَ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِحَالِكَ .

بَدَّلْتَ بِالحِنَّا بَيَاضَكَ أَحْمَرَا وَخُدِعْتَ فِيهِ، وَقُلْتَ: شَعْرِي أَحْمَرُ

حَثُّ المُرِيدِ عَلَىٰ مَقَامِ القُرْبِ

عَرِّجْ عَلَىٰ حَرَمِ القُرْبِ بِقُوَّةِ مَطِيَّةِ الصِّدْقِ ، قَامِعاً صُفُوفَ الوَهْمِ بِعَسَاكِرِ الهِمَّةِ ، مُلْتَفِتاً عَنْ دَوَائِرِ الأَكْوَانِ ، مُشْتَغِلاً بِمُرَاقَبَةِ المُكَوِّنِ ، مُعْتَصِماً بِحَبْلِهِ مِنَ القَطِيعَةِ ، حَامِلاً رَايَةَ الافْتِقَارِ إِلَيْهِ ، ضَارِباً طَبْلَ الذُّلِّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، مُتَجَرِّداً مِنْ حِجَابِ الزَّوْجَةِ ، مِنْ حِجَابِ الوَلَدِ ، مِنْ حِجَابِ المَالِ ، مِنْ حِجَابِ وُجُودِكَ ، مِنْ حِجَابِ عِبَادَتِكَ ، مِنْ حِجَابِ يَقَظَتِكَ ، مِنْ حِجَابِ غَفْلَتِكَ ؛ فَإِنَّ رُؤْيَاكَ اليَقَظَةَ . غَفْلَةٌ عُظْمَىٰ ، وَرُؤْيَاكَ نُورَكَ . ظُلْمَةٌ دَهْمَا .

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ حِجَابٌ

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ حِجَابٌ ؛ فَافْتَحْ مِنْهُ بَاباً إِلَىٰ المَقْصُودِ ، وَكُلُّ مَقْصُودٍ . . حَائِلٌ فَتَجَرَّدْ مِنْهُ إِلَىٰ المَعْبُودِ .

تَعِسَ عَبْدُ الزَّوْجَةِ!

تَعِسَ عَبْدُ الزَّوْجَةِ! تَعِسَ عَبْدُ الدُّنْيَا! تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ! تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ! تَعِسَ عَبْدُ الكَرَامَةِ! تَعِسَ عَبْدُ الخَلْقِ! تَعِسَ مَنْ سَارَ لِلْجَنَابِ الأَعْلَىٰ بِالعَزْمِ الأَدْنَىٰ! :

سِرْ لِلْجَنَابِ بِهِمَّةٍ مَرْفُوعَةٍ   عَنْ عَالَمِ التَّفْصِيلِ وَالإِجْمَالِ
وَارْفَعْ جَنَابَكَ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ   بِحَقِيقَةِ الأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ

* * *

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

خُذِ المَوْعِظَةَ مِنْ نَفْسِكَ

خُذِ المَوْعِظَةَ مِنْ جُوعِكَ ، مِنْ عَطَشِكَ ، مِنْ تَحَوُّلِ أَحْوَالِكَ ، كَذَلِكَ حَالُ المَخْلُوقِينَ .

لاَ تَغْتَرَّ بِعِلْمِكَ :

لاَ تَفْرَحْ بِلَقْلَقَةِ نَحْوِ لِسَانِكَ ، وَأَنْتَ مُنْصَرِفٌ نَحْوَ الأَغْيَارِ .

لاَ تَطْمَئِنَّ لِغَائِلَةِ فِقْهِكَ ، وَانْكِبَابِكَ عَلَيْهِ لِصَيْدِ الدِّينَارِ[١] .

لاَ تَنْقَطِعْ بِفَلْسَفَتِكَ ، وَأَنْتَ مُفْلِسٌ مِنْ مَحَبَّتِهِ .

لاَ تَقِفْ عِنْدَ تَصَوُّفِكَ ، وَأَنْتَ مَوْصُوفٌ بِالبُعْدِ عَنْهُ .

كُـلُّ العُلُـومِ إِذَا تَخَلَّلَهَـا السِّـوَىٰ   صَارَتْ لِدَاعِي الإِنْفِصَالِ مَعَالِمَا

الطَّرِيقُ إِلَىٰ اللهِ يَكُونُ بِعَدَمِ الالْتِفَاتِ إِلَىٰ سِوَاهُ

أَيْ سَادَةُ! الطَّرِيقُ إِلَىٰ اللهِ . . كَطَرِيقِ الرَّجُلِ إِلَىٰ البَلْدَةِ الأُخْرَىٰ ، فِيهِ الصُّعُودُ وَالهُبُوطُ ، وَالاعْتِدَالُ وَالاعْوِجَاجُ ، وَالسَّهْلُ وَالجَبَلُ ، والأَرْضُ القَفْرُ الَّتِي خَلَتْ مِنَ المَاءِ وَالسُّكَّانِ ، وَالأَرْضُ النَّضِرَةُ الخَضِرَةُ الكَثِيرَةُ المِيَاهِ ، وَالأَشْجَارِ وَالسُّكَّانِ . وَالأَرْضُ المَقْصُودَةُ . . وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ .

فَمَنِ انْقَطَعَ بِلَذَّةِ الصُّعُودِ ، أَوْ بِذِلَّةِ الهُبُوطِ ، أَوْ بِرَاحَةِ الاعْتِدَالِ ، أَوْ بِتَعَبِ الاعْوِجَاجِ ، أَوْ بِيَسِيرِ السَّهْلِ ، أَوْ بِعَسِيرِ الجَبَلِ ، أَوْ بِغُصَّةِ القَفْرِ وَلَوْعَةِ العَطَشِ ، أَوْ بِحَلاَوَةِ النَّضَارَةِ وَالخُضْرَةِ وَالمِيَاهِ وَالأَشْجَارِ وَالأُنْسِ بِالسُّكَّانِ . . بَقِيَ دُونَ المَقْصُودِ .

وَمَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِكُلِّ ذَلِكَ ، حَامِلاً شِدَّةَ الطَّرِيقِ ، مُعْرِضاً عَنْ لَذَائِذِهِ . . وَصَلَ إِلَىٰ المَقْصُودِ .

وَكَذَلِكَ سَالِكُ الطَّرِيقِ إِلَىٰ اللهِ إِنْ صَرَفَتْهُ صُعُوبَةُ الأَحْوَالِ عَنْ مُحَوِّلِ الأَحْوَالِ ، وَقَلَبَتْهُ سَكْرَةُ إِقْبَالِ الخَلْقِ عَنْ مُقَلِّبِ القُلُوبِ . . فَقَدْ فَاتَهُ

---

(١) الغَائِلَةُ : الفَسَادُ والشَّرُّ ، « مصباح » ص (٤٥٧) ، مادة . « غاله » .

الغَرَضُ ، وبَقِيَ دُونَ مَقْصُودِهِ ، وَٱنْقَطَعَ بِلاَ رَيْبٍ .

وَإِنْ تَرَكَ عَقَبَاتِ الطَّرِيقِ : حُلْوَهَا وَمُرَّهَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ . . فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً .

مُبَايَعَتُهُ اللهَ عَلَىٰ عَرَفَاتٍ عَلَىٰ تَرْكِ الغَرَضِ

أَيْ سَادَةُ! أَنَا بَايَعْتُ اللهَ عَلَىٰ عَرَفَاتٍ عَلَىٰ تَرْكِ الغَرَضِ وَالنَّفْسِ وَالمَالِ .

نَاجَىٰ بَعْضُ الرِّجَالِ رَبَّهُ فِي المَنَامِ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ! دُلَّنِي كَيْفَ أَصِلُ إِلَيْكَ ؟ .

فَجَاءَهُ الجَوَابُ : إِخْلَعْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ .

ذَهَبَ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ يَطْلُبُ قَابِلَةً لِزَوْجَتِهِ الطَّاهِرَةِ وَهِيَ تُعَالِجُ الطَّلْقَ ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ :

﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ . . خَبَراً مِنْ ذِي هُدَىً يُرْشِدُنِي كَيْفَ أَصْنَعُ لِجَلْبِ القَابِلَةِ .

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ ـ نَفْسَكَ وَزَوْجَتَكَ ـ ﴿ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ عَنْ رُؤْيَةِ الزَّوْجَةِ وَالنَّفْسِ .

حَثُّهُ عَلَىٰ حُضُورِ القَلْبِ مَعَ اللهِ فِي المَسْجِدِ

أَيْ سَادَةُ! وَادِيكُمُ المَسْجِدُ ، إِذَا دَخَلْتُمُ المَسْجِدَ . . فَٱخْلَعُوا نِعَالَ الغَيْرِيَّةِ ؛ فَإِنَّ العَبْدَ يُنَاجِي رَبَّهُ فِي الصَّلاَةِ ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِي رَبَّهُ ، وَكَيْفَ يَقِفُ فِي حَضْرَةِ مُخَاطَبَتِهِ .

تِلْكَ حَضْرَةُ الإِحْسَانِ ، الَّتِي طَرَّزَتْهَا أَقْلاَمُ التَّقْدِيسِ بِحَدِيثِ :
« اُعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .[1]

عَلاَمَةُ جَهْلِ الْمُسْلِمِ

عَلاَمَةُ جَهْلِكِ . . اِشْتِغَالُكَ بِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ .

لاَ أَقُولُ لَكَ : دَعْهُمْ عَلَىٰ حَافَّةِ الإِهْمَالِ ، وَخُذْ لَكَ صَوْمَعَةً فِي الجِبَالِ .

بَلْ أَقُولُ لَكَ : تَقَرَّبْ إِلَىٰ اللهِ بِخِدْمَةِ عِيَالِكَ ، وَرَوِّحْ نَفْسَكَ ، وَطِبْ بِرَبِّكَ عَنِ الكُلِّ ؛ فَإِنَّ الرُّبُوبِيَّةَ . . تَقَدَّسَتْ وَجَلَّتْ عَنْ وَصْفِ الْمُشَارَكَةِ فِي كُلِّ حَالٍ .

رُدَّتْ أَعْمَالُ الشِّرْكِ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ ، وَقُبِلَتْ أَعْمَالُ التَّوْحِيدِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

اُطْلُبُوا مِنَ اللهِ الحَوَائِجَ بِمَحَبَّتِهِ لِلصَّالِحِينَ

أَيْ سَادَةً! إِذَا اسْتَعَنْتُمْ بِعِبَادِ اللهِ وَأَوْلِيَائِهِ . . فَلاَ تَشْهَدُوا المَعُونَةَ وَالإِغَاثَةَ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ شِرْكٌ ، وَلَكِنِ اطْلُبُوا مِنَ اللهِ الحَوَائِجَ بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ .

---

(١) مرَّ بك تخريجهُ ص (١٧١) .

« رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ ، مَدْفُوعٍ فِي الأَبْوَابِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ .. لأَبَرَّهُ »(١) .

صَرَّفَهُمُ اللهُ فِي الأَكْوَانِ ، وَقَلَّبَ لَهُمُ الأَعْيَانَ ، وَجَعَلَهُمْ يَقُولُونَ بِإِذْنِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

عِيسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلاَمُ - خَلَقَ طَيْراً مِنَ الطِّينِ بِإِذْنِ اللهِ ، أَحْيَا المَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ .

نَبِيُّنَا وَحَبِيبُنَا سَيِّدُ سَادَاتِ الأَنْبِيَاءِ ، مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ - حَنَّ الجِذْعُ إِلَيْهِ ، وَسَلَّمَتِ الجَمَادَاتُ عَلَيْهِ ، وَجَمَعَ اللهُ بِهِ مَا تَفَرَّقَ فِي الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ مِنَ المُعْجِزَاتِ ، وَجَرَتْ أَسْرَارُ مُعْجِزَتِهِ فِي أَوْلِيَاءِ أُمَّتِهِ .

فَهِيَ لِلأَوْلِيَاءِ .. كَرَامَاتٌ تَمُرُّ ، وَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ .. مُعْجِزَةٌ تَسْتَمِرُّ .

التَّوَسُّلُ بِالأَوْلِيَاءِ تَوَسُّلٌ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ

أَيْ وَلَدِي! أَيْ أَخِي! إِذَا قُلْتَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ! فَكَأَنَّكَ قُلْتَ : أَسْأَلُكَ بِوِلاَيَةِ عَبْدِكَ الشَّيْخِ مَنْصُورٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَوْلِيَاءِ ؛ لأَنَّ الوِلاَيَةَ اخْتِصَاصٌ : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ .

فَإِذاً .. إِيَّاكَ وَإِعْطَاءَ قُدْرَةِ الرَّاحِمِ إِلَىٰ المَرْحُومِ ؛ فَإِنَّ الفِعْلَ وَالقُوَّةَ وَالحَوْلَ .. لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَالوَسِيلَةَ .. رَحْمَتُهُ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا عَبْدَهُ الوَلِيَّ .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » ، كما في « مجمع الزوائد » ١٠ . ٢٦٤ .

فَتَقَرَّبْ بِرَحْمَتِهِ وَعِنَايَتِهِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا خَوَاصَّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ عِنْدَ حَاجَتِكَ ، وَوَحِّدْهُ فِي كُلِّ فِعْلٍ ، فَهُوَ غَيُورٌ .

الخُضُوعُ سَبَبٌ لِلْقَبُولِ

أَيْ سَادَةُ! مَنْ طَرَقَ البَابَ بِالخُضُوعِ . . فُتِحَ لَهُ بِالقَبُولِ .

وَمَنْ دَخَلَ الرِّحَابَ بِالانْكِسَارِ . . جَلَسَ فِي بَيْتِ العِزَّةِ .

حَثُّهُ عَلَى مُلازَمَةِ الشَّرْعِ

أَيْ أَخِي! عَلَيْكَ بِمُلازَمَةِ الشَّرْعِ بِأَمْرِ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ! .

وَبِحِفْظِ القَلْبِ مِنْ نِسْيَانِ ذِكْرِ اللهِ .

وَبِخِدْمَةِ الفُقَرَاءِ وَالغُرَبَاءِ .

وَبَادِرْ دَائِماً بِالسُّرْعَةِ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ غَيْرِ كَسَلٍ وَلاَ مَلَلٍ .

وَقُمْ فِي مَرْضَاةِ اللهِ .

وَقِفْ فِي بَابِ اللهِ .

وَعَوِّدْ نَفْسَكَ القِيَامَ فِي اللَّيْلِ .

وَسَلِّمْهَا مِنَ الرِّيَاءِ فِي العَمَلِ .

وَابْكِ فِي خَلَوَاتِكَ وَجَلَوَاتِكَ عَلَى ذُنُوبِكَ المَاضِيَةِ .

نَصِيحَتُهُ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَتَهُ

يَا وَلَدِي! إِنَّ الدُّنْيَا خَيَالٌ ، وَمَا فِيهَا زَوَالٌ .

يَا وَلَدِي! هِمَّةُ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا . . دُنْيَاهُمْ ، وَهِمَّةُ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ . . آخِرَتُهُمْ .

وَإِيَّاكَ وَالدَّعْوَىٰ الْكَاذِبَةَ! .

وَاتْرُكِ الْخَوْضَ فِي بُحُورِ التَّوْحِيدِ .

وَاجْعَلِ اعْتِقَادَكَ ثُبُوتِيًّا لاَ يَتَغَيَّرُ .

وَاشْغَلْ ذِهْنَكَ عَنِ الْوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِيَّةِ .

وَحَذِّرْ نَفْسَكَ مِنْ مُصَاحَبَةِ صَدِيقِ السُّوءِ ؛ فَإِنَّ عَاقِبَةَ مُصَاحَبَتِهِ النَّدَامَةُ ، وَالتَّأَسُّفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ :

﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ .

فَاحْفَظْ نَفْسَكَ مِنَ الْقَرِينِ السُّوءِ ، لِكَيْلاَ تُخَاطِبَهُ مُتَأَسِّفًا عَلَىٰ مُقَارَنَتِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ، وَهُنَاكَ نَدَامَتُكَ لاَ تَنْفَعُ ، وَكَلاَمُكَ لاَ يُسْمَعُ .

مَا أَكَلْتَهُ تُفْنِيهِ :

يَا وَلَدِي! مَا أَكَلْتَهُ تُفْنِيهِ ، وَمَا لَبِسْتَهُ تُبْلِيهِ ، وَمَا عَمِلْتَهُ تُلاَقِيهِ ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَىٰ اللهِ حَتْمٌ مَقْضِيٌّ ، وَفِرَاقُ الأَحِبَّةِ وَعْدٌ مَأْتِيٌّ .

حَالُ الدُّنْيَا وَانْقِلاَبُهَا

وَالدُّنْيَا أَوَّلُهَا ضَعْفٌ وَفُتُورٌ ، وَآخِرُهَا مَوْتٌ وَقُبُورٌ ، لَوْ بَقِيَ سَاكِنُهَا . . مَا خَرِبَتْ مَسَاكِنُهَا .

حَثُّهُ عَلَىٰ رَبْطِ الْقَلْبِ بِاللهِ وَالتَّوَاضُعِ وَالاسْتِغْفَارِ

فَارْبُطْ قَلْبَكَ بِاللهِ ، وَأَعْرِضْ عَنْ غَيْرِ اللهِ ، وَسَلِّمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ للهِ .

وَٱجْعَلْ سُلُوكَكَ فِي طَرِيقِ الْفُقَرَاءِ بِالتَّوَاضُعِ ، وَٱسْتَقِمْ بِالْخِدْمَةِ عَلَىٰ قَدَمِ الشَّرِيعَةِ .

حَثُّهُ عَلَىٰ سَلامَةِ النِّيَّةِ وَأَكْلِ الْحَلالِ مِنْ كَسْبِ الْيَدِ

وَٱحْفَظْ نِيَّتَكَ مِنْ دَنَسِ الْوَسْوَاسِ .

وَأَمْسِكِ الْقَلْبَ عَنِ الْمَيْلِ إِلَىٰ النَّاسِ .

وَكُلْ خُبْزاً يَابِساً وَمَاءً مَالِحاً[1] مِنْ بَابِ اللهِ ، وَلاَ تَأْكُلْ لَحْماً طَرِيّاً وَعَسَلاً مِنْ بَابِ غَيْرِ اللهِ .

وَتَمَسَّكْ بِسَبَبٍ لِمَعِيشَتِكَ بِطَرِيقِ الشَّرْعِ مِنْ كَسْبٍ حَلاَلٍ ، وَٱتْرُكِ الْحِيلَةَ بِالسَّبَبِ .

تَحْذِيرُهُ مِنْ كَسْرِ خَوَاطِرِ الْفُقَرَاءِ

وَإِيَّاكَ مِنْ كَسْرِ خَوَاطِرِ الْفُقَرَاءِ ، وَصِلِ الرَّحِمَ ، وَأَكْرِمِ الأَقَارِبَ ، وَٱعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتَوَاضَعْ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْكَ .

وَلاَ تَتَرَدَّدْ لِأَبْوَابِ الْوُزَرَاءِ وَالْحُكَّامِ ، وَأَكْثِرْ مِنْ زِيَارَةِ الْفُقَرَاءِ ، وَأَكْثِرْ مِنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ .

وَلَيِّنْ كَلاَمَكَ لِلْخَلْقِ ، وَكَلِّمْهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ ، وَحَسِّنْ خُلُقَكَ ، وَٱمْتَزِجِ النَّاسَ بِحُسْنِ الْمِزَاجِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ .

وَقُمْ بِقَضَاءِ حَوَائِجِ الْيَتَامَىٰ وَأَكْرِمْهُمْ ، وَأَكْثِرِ التَّرَدُّدَ لِزِيَارَةِ الْمَتْرُوكِينَ مِنَ

---

(١) أي : وٱشْرَبْ ماءً ، فافهم .

الفُقَرَاءِ ، وَبَادِرْ لِخِدْمَةِ الأَرَامِلِ ، وَٱرْحَمْ تُرْحَمْ .

وَكُنْ مَعَ اللهِ .. تَرَ اللهَ مَعَكَ ، وَٱجْعَلِ الإِخْلاَصَ رَفِيقَكَ فِي سَائِرِ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ ، وَٱجْتَهِدْ بِهِدَايَةِ الخَلْقِ لِطَرِيقِ الحَقِّ .

تَسَتُّرُ الأَوْلِيَاءِ مِنَ الكَرَامَاتِ

وَلاَ تَرْغَبْ لِلْكَرَامَاتِ! وَخَوَارِقِ العَادَاتِ .. فَإِنَّ الأَوْلِيَاءَ يَسْتَتِرُونَ مِنَ الكَرَامَاتِ ، كَمَا تَسْتَتِرُ المَرْأَةُ مِنَ الحَيْضِ .

حَثُّهُ عَلَىٰ مُلاَزَمَةِ بَابِ اللهِ وَالاسْتِمْدَادِ مِنْ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) بِوَاسِطَةِ الشَّيْخِ

وَلاَزِمْ بِبَابِ اللهِ ، وَوَجِّهْ قَلْبَكَ لِرَسُولِ اللهِ ، وَٱجْعَلِ الاسْتِمْدَادَ مِنْ بَابِهِ العَالِي بِوَاسِطَةِ شَيْخِكَ المُرْشِدِ .

خِدْمَةُ شَيْخِ التَّرْبِيَةِ وَآدَابُهَا

وَقُمْ بِخِدْمَةِ شَيْخِكَ بِالإِخْلاَصِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ وَلاَ أَرَبٍ ، وَٱذْهَبْ مَعَهُ بِمَسْلَكِ الأَدَبِ .

وَٱحْفَظْ غَيْبَتَهُ ، وَتَقَيَّدْ بِخِدْمَتِهِ ، وَأَكْثِرِ الخِدْمَةَ فِي مَنْزِلِهِ ، وَأَقْلِلِ الكَلاَمَ فِي حَضْرَتِهِ .

وَٱنْظُرْ لَهُ بِنَظَرِ التَّعْظِيمِ وَالوَقَارِ ، لاَ نَظَرِ التَّصْغِيرِ وَالاحْتِقَارِ .

حَثُّهُ عَلَىٰ نَصِيحَةِ الإِخْوَانِ وَجَمْعِهِ النَّاسَ عَلَىٰ اللهِ

وَقُمْ بِنَصِيحَةِ الإِخْوَانِ ، وَأَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَأَصْلِحْ بَيْنَ النَّاسِ ، وَٱجْمَعِ النَّاسَ مَهْمَا ٱسْتَطَعْتَ عَلَىٰ اللهِ بِطَرِيقَتِكَ .

حَثُّهُ لِلْمُتَصَدِّرِ وَالمُرِيدِ عَلَىٰ دُخُولِ النَّاسِ طَرِيقَ القَوْمِ

وَرَغِّبِ النَّاسَ بِالصِّدْقِ لِلدُّخُولِ فِي بَابِ الفُقَرَاءِ ، وَالسُّلُوكِ بِطَرِيقِ القَوْمِ .

وَعَمِّرْ قَلْبَكَ بِالذِّكْرِ ، وَجَمِّلْ قَالَبَكَ بِالفِكْرِ ، وَنَوِّرْ نِيَّتَكَ بِالإِخْلَاصِ .

وَٱسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَصَائِبِ اللهِ ، وَكُنْ رَاضِياً مِنَ اللهِ ، وَقُلْ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ : الحَمْدُ للهِ .

وَأَكْثِرِ الصَّلَوَاتِ عَلَىٰ الرَّسُولِ الأَكْرَمِ ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَإِنْ تَحَرَّكَتْ نَفْسُكَ بِالشَّهْوَةِ أَوْ بِالكِبْرِ . . فَصُمْ تَطَوُّعاً للهِ ، وَٱعْتَصِمْ بِحَبْلِ اللهِ .

حَثُّهُ عَلَىٰ ٱغْتِنَامِ الوَقْتِ وَتَرْكِ مَوَاطِنِ الفُرَجِ

وَٱجْلِسْ فِي بَيْتِكَ ، وَلَا تُكْثِرِ الخُرُوجَ لِلأَسْوَاقِ وَمَوَاضِعِ الفُرَجِ ، فَمَنْ تَرَكَ الفُرَجَ . . نَالَ الفَرَجَ .

وَأَكْرِمْ ضَيْفَكَ ، وَٱرْحَمْ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ ، وَزَوْجَتَكَ وَخَادِمَكَ .

وَٱذْكُرِ اللهَ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَأَخْلِصْ للهِ بِالسِّرِّ وَالجَهْرِ .

وَٱعْمَلْ لِلآخِرَةِ عَمَلاً حَسَناً ، وَٱجْعَلْ عَمَلَكَ فِي الدُّنْيَا عَمَلَ الآخِرَةِ ، و ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .

هَٰذِهِ نَصِيحَتِي لَكَ ، وَلِكُلِّ مَنْ سَلَكَ بِطَرِيقَتِي ، وَلِإِخْوَانِي وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ وَالمُحِبِّينَ ، كَثَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ .

وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ ، خَفِيِّهَا وَجَلِيِّهَا ، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

حَثُّهُ عَلَى تَنْقِيَةِ السِّرِّ

يَا وَلَدِي! قَالَ سَيِّدُ الأَنَامِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« ما أَسَرَّ عَبْدٌ سَرِيْرَةً .. إلاَّ أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَها ، إنْ خَيْراً .. فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرّاً .. فَشَرٌّ »[1] .

يَا وَلَدِي! قَالَ سَيِّدُ الأَنَامِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ »[2] .

مَنْ مَلَكَ عَقْلاً مَا مَالَ إِلَى الدُّنْيَا

يَا وَلَدِي! إِنْ مَلَكْتَ عَقْلاً حَقِيقِيّاً .. مَا مِلْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَإِنْ مَالَتْ عَنْكَ ؛ لأَنَّهَا خَائِنَةٌ كَذَّابَةٌ ، تَضْحَكُ عَلَى أَهْلِهَا .

مَنْ مَالَ عَنْهَا .. سَلِمَ مِنْهَا ، وَمَنْ مَالَ إِلَيْهَا .. بُلِيَ فِيهَا .

وَفِي الحَدِيثِ : « حُبُّ الدُّنْيَا .. رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »[3] . فَكَمَا أَنَّ

---

(١) أورده السيوطيُّ في « الجامع الصغير » (٧٨١٣) ، وعزاه إلى الطبراني في « الكبير » عن جُنْدُب البجلي ، ورمز لحسنه

وقال العلامة المُنَاويُّ في « فيض القدير » ٥ : ٤٢٠ : « وكذا في « الأوسط » ، ورمز المُصَنِّفُ ـ أي : السيوطيُّ ـ لحسنه ، وليس ذا منه بصواب ، فقد قال الهيثميُّ وغيرُهُ : فيه : حامدُ بنُ آدمَ ، وهو كَذَّابٌ » .

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥) .

(٣) أورده السيوطيُّ في « الجامع » (٣٦٦٢) ، وعزاه إلى البيهقي في « الشُّعب » =

حُبُّهَا . . رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، فَكَذَلِكَ بُغْضُهَا وَالإِعْرَاضُ عَنْهَا . . رَأْسُ كُلِّ حَسَنَةٍ .

هِيَ كَالحَيَّةِ ، لَيِّنٌ لَمْسُهَا ، قَاتِلٌ سُمُّهَا ، لَذَّاتُهَا سَرِيعَةُ الزَّوَالِ ، وَأَيَّامُهَا تَمْضِي كَالخَيَالِ .

فَاشْغَلْ نَفْسَكَ فِيهَا بِتَقْوَى اللهِ ، وَلاَ تَغْفُلْ عَنْ ذِكْرِهِ تَعَالَىٰ ذَرَّةً وَاحِدَةً ، وَإِنْ طَرَقَكَ طَارِقُ الغَفْلَةِ ذَرَّةً . فَاسْتَغْفِرِ اللهَ ، وَارْجِعْ لِبَابِ المُلاَحَظَةِ .

وَاذْكُرِ اللهَ ، وَاسْتَحْيِ مِنْهُ ، وَرَاقِبْهُ فِي الخَلَوَاتِ وَالجَلَوَاتِ ، وَاحْمَدْهُ وَاشْكُرْهُ عَلَى الفَقْرِ وَالغِنَىٰ ، وَاتْرُكِ الأَغْيَارَ ، فَمَا فِي الدَّارِ غَيْرُهُ دَيَّارٌ .

حَثُّهُ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مُرِيدُهُ صُوفِيّاً

يَا وَلَدِي ! كُنْ صُوفِيّاً صَافِياً ، وَلاَ تَكُنْ صُوفِيّاً مُنَافِقاً فَتَهْلَكَ .

التَّصَوُّفُ . . الإِعْرَاضُ عَنْ غَيْرِ اللهِ ، وَعَدَمُ شُغْلِ الفِكْرِ بِذَاتِ اللهِ ،

= عن الحسن مرسلاً ، ورمز لضعفه .

وقال المُنَاوِيُّ في « الفيض » ٣ : ٣٦٩ : « قال البيهقي . ولا أصلَ له من حديثِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال الحافظ الزَّينُ العراقيُّ : ومراسيلُ الحسنِ عندهم . شِبْهُ الرِّيح ، ومثَّلَ به في « شرح الألفية » للموضوعِ من كلام الحكماء ، وقال :

هو من كلام مالك بنِ دينار ، كما رواه ابنُ أبي الدُّنيا ، أو مِن كلام عيسى عليه السَّلامُ ، كما رواه البيهقيُّ في « الزُّهد » ، وأبو نُعيم في « الحِلية »

وعدَّ ابنُ الجوزي الحديثَ في الموضوعات ، وتعقَّبه الحافظُ ابْنُ حَجَرٍ . بأنَّ ابنَ المَدِينيِّ أثنى على مراسيل الحسن ، والإسنادُ إليه حسن .

وأورده الدَّيلميُّ من حديث عليٍّ ، وبيَّضَ لِسَنَدِهِ » .

وَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ ، وَإِلْقَاءُ زِمَامِ الحَالِ فِي بَابِ التَّفْوِيضِ ، وَانْتِظَارُ فَتْحِ بَابِ الكَرَمِ ، وَالاعْتِمَادُ عَلَىٰ فَضْلِ اللهِ ، وَالخَوْفُ مِنَ اللهِ فِي كُلِّ الأَوْقَاتِ ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ فِي جَمِيعِ الحَالاَتِ .

نَجَاةُ العَالِمِ عَمَلُهُ بِعِلْمِهِ

يَا وَلَدِي! إِذَا تَعَلَّمْتَ عِلْماً ، وَسَمِعْتَ نَقْلاً حَسَناً . . فَاعْمَلْ بِهِ ، وَلاَ تَكُنْ مِنَ الَّذِيْنَ يَعْلَمُونَ وَلاَ يَعْمَلُونَ .

يَا وَلَدِي! نَجَاةُ العَالِمِ . . عَمَلُهُ بِعِلْمِهِ ، وَهَلاَكُهُ . . تَرْكُ العَمَلِ .

فَفِي الحَدِيْثِ : « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ . . عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ »[1] .

فَلاَ تُضَيِّعْ أَوْقَاتَكَ بِاللَّهْوِ وَالطَّرَبِ وَسَمَاعِ الآلاَتِ وَكَلِمَاتِ المُضْحِكِيْنَ .

الفَرَحُ فِي الدُّنْيَا جُنُونٌ

وَاتْرُكِ الفَرَحَ ؛ فَإِنَّ الفَرَحَ فِي الدُّنْيَا . . جُنُونٌ ، وَالحُزْنَ فِيهَا . . عَقْلٌ ، وَكَمَالَ الخُلُودِ فِيهَا . . مُحَالٌ ، وَالانْكِبَابَ عَلَيْهَا . . جَهْلٌ وَضَلاَلٌ .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الصغير » ١ : ١٨٢ ـ ١٨٣ ، وقال الهيثميُّ في « مجمع الزوائد » ١ : ١٨٥ .

« رواه الطبراني في « الصغير » ، وفيه : عثمانُ البرسي ، قال الفلاس : صدوقٌ ، لكنَّهُ كثيرُ الغَلَطِ ، صاحبُ بدعةٍ ، ضعَّفَه أحمدُ والنَّسائيُّ والدَّارَقُطْنيُّ » .

ورواه البيهقيُّ في « الشعب » (١٧٧٨) ، وتَمَامُ تخريجه في « فيض القدير » ١ : ٥١٨ ، للعلامة المُنَاويِّ ، رحمةُ اللهِ عليه .

مَاتُوا وَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا

اِجْعَلْ فِكْرَكَ ـ يَا وَلَدِي ـ مَشْغُولاً بِمَنْ سَلَفَ قَبْلَكَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ ، وَالجَبَابِرَةِ وَالسَّلاَطِينِ .

مَاتُوا وَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا! هُمُ السَّابِقُونَ ، وَنَحْنُ اللاَّحِقُونَ .

فَسِرْ عَلَىٰ مِنْهَاجِ الصَّالِحِينَ ؛ لِتُحْشَرَ فِي زُمْرَتِهِمْ ، وَلِتَكُونَ مِنْ فِرْقَتِهِمْ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

سِرُّ الحَقِيقَةِ ظَاهِرٌ

أَيْ سَادَةُ! سِرُّ الحَقِيقَةِ ظَاهِرٌ ، وَعَلَمُ المَعْرِفَةِ مَنْصُوبٌ ، وَبَابُ الوُصُولِ مَفْتُوحٌ .

حَجَبَكُمْ عَنْ رُؤْيَةِ هَذِهِ المَعَانِي الشَّرِيفَةِ .. حُبُّ الدُّنْيَا ، وَنِسْيَانُ المَوْتِ .

وَالعَجَبُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَمُوتُ .. كَيْفَ يَنْسَىٰ المَوْتَ! .

وَالعَجَبُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُفَارِقُ الدُّنْيَا .. كَيْفَ يَنْكَبُّ عَلَيْهَا ، وَيَقْطَعُ أَيَّامَهُ بِمَحَبَّتِهَا! .

وَالعَجَبُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَىٰ اللهِ .. كَيْفَ يَنْحَرِفُ عَنْهُ ، وَيَلْتَفِتُ لِغَيْرِهِ! .

وَاللهِ! غَفْلَتُكُمْ هَذِهِ خَطْبٌ جَسِيمٌ![1] لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ .

---

(١) أي : عَظِيمٌ ، « مختار الصِّحَاحِ » ص (١٠٤) ، مادة : « جسم » .

حَالُ البَطَّالِينَ :

بِالكَذِبِ تَشْرَحُونَ ، وَفِي بَسَاتِينِ الجَهْلِ تَسْرَحُونَ ، وَبِأَمْرِ الرِّزْقِ تَحْتَالُونَ ، وَمِنَ العَذَابِ تَأْمَنُونَ ، وَكَأَنَّكُمْ مَا قَرَأْتُمْ :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ؟ .

أَوْ كَأَنَّكُمْ مَا سَمِعْتُمْ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ ؟ .

اِشْتِغَالُهُمْ بِمَا تَكَفَّلَ بِهِ لَهُمْ ضَيَّعَ أَوْقَاتَهُمْ

تَكَفَّلَ بِرِزْقِكُمْ فَبِحِيلَتِهِ اشْتَغَلْتُمْ ، وَلَمْ يَتَكَفَّلْ لِأَحَدٍ بِالجَنَّةِ ، وَبِعَمَلِ المُبَشَّرِينَ بِهَا مَا عَمِلْتُمْ! .

ضَيَّعْتُمُ الأَوْقَاتَ بِاللَّهْوِ وَالنِّسْيَانِ ، وَقَطَعْتُمُ الأَيَّامَ بِالغَفْلَةِ وَالعِصْيَانِ .

مُزَاحُكُمْ . . مُزَاحُ مَنْ أَمِنَ النَّدَامَةَ ، وَلَهْوُكُمْ . . لَهْوُ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ بِيَوْمِ القِيَامَةِ .

كَأَنَّكُمْ إِلَى القُبُورِ لَا تَنْظُرُونَ ، وَبِمَنْ سَكَنَهَا لَا تَعْتَبِرُونَ ؟ .

أَيْنَ آبَاؤُكُمْ ؟ أَيْنَ أَجْدَادُكُمُ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ؟ أَيْنَ مَنْ جَمَعُوا مَالاً أَكْثَرَ مِنْكُمْ ، وَحَمَلُوا جَهْلاً أَزْيَدَ مِنْ جَهْلِكُمْ ؟ أَبِاللهِ كَفَرْتُمْ ، أَمْ عَلَى اللهِ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ .

حَثُّهُ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ

إِخْوَانِي! مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ بِالفَنَاءِ ، وَعَرَفَ اللهَ بِالبَقَاءِ . . مَيَّلَ نَفْسَهُ عَنِ الدُّنْيَا ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

خَاطَبَ حَبِيبَهُ ، مَعْدِنَ جَوْهَرِ سِرِّهِ الْمَكْنُونِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

/ فَأَجْمِعُوا هِمَّتَكُمْ عَلَى الوُصُولِ لِمَرَاتِبِ السَّلَفِ ؛ لِكَيْلَا تَدْخُلُوا تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ ، الآيَةَ .

وَاقْرَعُوا بَابَ الكَرِيمِ بِيَدِ الفَقْرِ وَالاضْطِرَارِ ، وَادْخُلُوا عَلَيْهِ تَعَالَىٰ مِنْ بَابِ الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ .

فَلَا بُدَّ ـ واللهِ ـ مِنْ نُقْلَتِي وَإِيَّاكُمْ لِدَارِ الآخِرَةِ ، وَلَا بُدَّ مِنْ وَضْعِي وَإِيَّاكُمْ فِي القُبُورِ الدَّاثِرَةِ :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

فَالنَّاجِي . . مَنْ عَامَلَ اللهَ بِتَقْوَاهُ ، وَكَانَ فِي الحَيَاةِ يَخْشَاهُ .

أَصْعَبُ الأَشْيَاءِ مُفَارَقَةُ الأَحِبَّاءِ

إِخْوَانِي! أَصْعَبُ الأَشْيَاءِ . . مُفَارَقَةُ الأَحِبَّاءِ ، وَمُقَارَنَةُ الأَعْدَاءِ ، وَأَحْلَاهَا . . مُفَارَقَةُ الأَعْدَاءِ ، وَمُقَارَنَةُ الأَحِبَّاءِ .

فَفَارِقُوا أَعْمَالَ السُّوءِ . . لِتُقَارِنُوا أَعْمَالَكُمُ الصَّالِحَةَ فِي قُبُورِكُمْ ، فَوَاللهِ لَمْ يُقَارِنِ المَرْءَ مِنْ أَصْحَابِهِ تَحْتَ طَيِّ لَحْدِهِ . . إِلَّا عَمَلُهُ الصَّالِحُ .

حَثُّهُ عَلَىٰ زِيَارَةِ المَقَابِرِ لِلزُّهْدِ بِالدُّنْيَا

إِخْوَانِي! إِنْ غَرَّكُمْ لِبَاسُ الحُكَّامِ وَالأَعْيَانِ وَزِينَتُهُمْ وَسِلاَحُهُمْ، وَضَاقَتْ صُدُورُكُمْ بِهَذَا.. فَاذْهَبُوا إِلَىٰ المَقَابِرِ، وَانْظُرُوا آبَاءَكُمْ وَآبَاءَهُمْ، تَجِدُونَ الكُلَّ فِي التُّرَابِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ فِي النَّعِيمِ، وَبِمَنْ هُوَ فِي العَذَابِ، فَأَنْتُمْ كَذَلِكَ مَعَ هَؤُلاَءِ تَتَسَاوَوْنَ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

تَحْذِيرُهُ مِنَ الاشْتِغَالِ بِمَا لاَ يَعْنِي

يَا وَلَدِي! إِيَّاكَ مِنَ الاشْتِغَالِ بِمَا لاَ يَعْنِيكَ مِنَ الكَلاَمِ وَالأَعْمَالِ وَغَيْرِهَا!.

وَارْجِعْ بِنَفْسِكَ عَنْ طَرِيقِ الغَفْلَةِ، وَادْخُلْ مِنْ بَابِ اليَقَظَةِ.

وَقِفْ بِمَيْدَانِ الذُّلِّ وَالانْكِسَارِ، وَاخْرُجْ مِنْ مَقَامِ العَظَمَةِ وَالاسْتِكْبَارِ؛ فَإِنَّكَ مِنْ مُضْغَةٍ ابْتِدَاؤُكَ، وَجِيفَةٍ انْتِهَاؤُكَ، فَقِفْ بَيْنَ الابْتِدَاءِ وَالانْتِهَاءِ بِمَا يَلِيقُ لِمَقَامِهَا.

تَحْذِيرُهُ مِنَ الحَسَدِ

وَإِيَّاكَ ـ يَا وَلَدِي ـ مِنَ الحَسَدِ؛ فَإِنَّ الحَسَدَ.. أُمُّ الخَطَايَا؛ لأَنَّ الشَّيْطَانَ لَمَّا حَسَدَ آدَمَ.. تَكَبَّرَ عَلَيْهِ، وَأَبَىٰ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ، وَكَذَبَ عَلَيْهِ حِينَ حَلَفَ لَهُ وَلِحَوَّاءَ: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فَطُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَالكَذِبُ وَالكِبْرُ وَالحَسَدُ.. سَبَبٌ لِطَرْدِ العَبْدِ مِنْ بَابِ الرَّبِّ.

فَلاَ تُعَوِّدْ نَفْسَكَ عَلَىٰ هَذِهِ الخَصَائِلِ قَطْعاً، وَاقْطَعْ نَفْسَكَ إِلَىٰ اللهِ،

وَٱعْلَمْ بِأَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ ذَلِكَ . . مَا حَسَدْتَ .

وَٱعْلَمْ بِأَنَّكَ مَيِّتٌ ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ ذَلِكَ . . مَا تَكَبَّرْتَ .

وَٱعْلَمْ بِأَنَّكَ مُحَاسَبٌ ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ ذَلِكَ مَا كَذَبْتَ .

كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

وَٱغْضُضْ طَرْفَكَ عَنِ النَّظَرِ إِلَىٰ أَعْرَاضِ النَّاسِ ، فَضْلاً عَنِ العَمَلِ الرَّدِيءِ ؛ فَإِنَّكَ كَمَا تَدِينُ . . تُدَانُ ، وَكَمَا أَنَّ لَكَ عَيْناً . فَلِغَيْرِكَ عُيُونٌ ، وَكَمَا أَنْتَ . . يُوَلَّىٰ عَلَيْكَ .

وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ عَنْ مَذَمَّةِ الخَلْقِ ؛ فَإِنَّ لِلْخَلْقِ أَلْسُناً .

نَظَرُكَ فِيكَ . . يَكْفِيكَ ، وَكَمَا تَقُولُ بِالنَّاسِ . . يَقُولُونَ فِيكَ .

وَحَاسِبْ نَفْسَكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَٱسْتَغْفِرِ اللهَ كَثِيراً .

وَكُنْ طَبِيبَ نَفْسِكَ وَمُرْشِدَهَا ، وَلاَ تَغْفُلْ عَنْ حِسَابِ نَفْسِكَ ، وَإِيَّاكَ مِنَ الاشْتِغَالِ بِحَظِّ النَّفْسِ! .

مَتَىٰ يَكُونُ الأُنْسُ بِاللهِ ؟

أَيْ سَادَةُ! الأُنْسُ بِاللهِ . . لاَ يَكُونُ إِلاَّ لِعَبْدٍ قَدْ كَمُلَتْ طَهَارَتُهُ ، وَصَفَا ذِكْرُهُ ، وَٱسْتَوْحَشَ مِنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُهُ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

تَعْرِيفُ التَّوْحِيدِ :

التَّوْحِيدُ . . وِجْدَانُ تَعْظِيمٍ فِي القَلْبِ ، يَمْنَعُ عَنِ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ[1]

---

(١) في المطبوع ص (١٢٢) : « يَمْنَعُ مِنْ . . » . وظاهرُها التَّصحيفُ ، قال في=

حَقِيقَةُ الكَشْفِ وَكَيْفِيَّتُهُ عَلَىٰ إِنْسَانِ عَيْنِ السِّرِّ

الكَشْفُ .. قُوَّةٌ جَاذِبَةٌ بِخَاصِّيَّتِهَا ، نُورُ عَيْنِ البَصِيرَةِ إِلَىٰ فَضَاءِ الغَيْبِ ؛ فَيَتَّصِلُ نُورُهَا بِهِ اتِّصَالَ الشُّعَاعِ بِالزُّجَاجَةِ الصَّافِيَةِ حَالَ مُقَابَلَتِهَا إِلَىٰ فَيْضِهِ ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ نُورُهُ مُنْعَكِساً بِضَوْئِهِ عَلَىٰ صَفَاءِ القَلْبِ ، ثُمَّ يَتَرَقَّىٰ سَاطِعاً إِلَىٰ عَالَمِ العَقْلِ ؛ فَيَتَّصِلُ بِهِ اتِّصَالاً مَعْنَوِيّاً ، لَهُ أَثَرٌ فِي اسْتِفَاضَةِ نُورِ العَقْلِ عَلَىٰ سَاحَةِ القَلْبِ ، فَيُشْرِقُ القَلْبُ عَلَىٰ إِنْسَانِ عَيْنِ السِّرِّ ، فَيَرَىٰ مَا خَفِيَ عَنِ الأَبْصَارِ مَوْضِعُهُ ، وَدَقَّ عَنِ الأَفْهَامِ تَصَوُّرُهُ ، وَاسْتَتَرَ عَنِ الأَغْيَارِ مَرْآهُ .

القَلْبُ مَهْبِطُ الوَحْيِ إِنْ صَلَحَ

أَيْ سَادَةُ! إِذَا صَلَحَ القَلْبُ .. صَارَ مَهْبِطَ الوَحْيِ وَالأَسْرَارِ ، وَالأَنْوَارِ وَالمَلَائِكَةِ ، وَإِذَا فَسَدَ .. صَارَ مَهْبِطَ الظُّلَمِ وَالشَّيَاطِينِ .

إِذَا صَلَحَ القَلْبُ .. أَخْبَرَ صَاحِبَهُ بِمَا وَرَاءَهُ وَأَمَامَهُ ، وَنَبَّهَهُ عَنْ أُمُورٍ لَمْ يَكُنْ لِيَعْلَمَهَا بِشَيْءٍ دُونَهُ .

وَإِذَا فَسَدَ .. حَدَّثَهُ بِبَاطِلَاتٍ يَغِيبُ عَنْهَا الرُّشْدُ ، وَيَنْتَفِي مَعَهَا السَّعْدُ .

نَفَسُ المُرِيدِ أَعَزُّ مِنَ الكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ (١)

وَلِذَلِكَ أَرَىٰ أَنَّ مِنْ شَرْطِ الفَقِيرِ : أَنْ يَرَىٰ كُلَّ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِهِ ..

= « مختار الصِّحاح » ص (٦٣٦) ، مادة . « منع » :

« المَنْعُ ضِدُّ الإعطاءِ .. ومَنَعَهُ عَنْ كذا ، فامْتَنَعَ منه » . انتهى .

(١) انظر ص (٩) .

كَالكِبْرِيْتِ الأَحْمَرِ ، بَلْ أَعَزَّ مِنْهُ ، وَيُودِعَ كُلَّ نَفْسٍ أَعَزَّ مَا يَصْلُحُ لَهُ ، فَلاَ يَضِيعُ لَهُ نَفَسٌ .

الأَمْرُ أَعْظَمُ مِمَّا تَظُنُّونَ ، وَأَصْعَبُ مِمَّا تَتَوَهَّمُونَ .

مُرَاقَبَةُ اللهِ مِنْ أَعْظَمِ العِبَادَاتِ

أَفْضَلُ العِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ . . مُرَاقَبَةُ الحَقِّ عَلَىٰ دَوَامِ الأَوْقَاتِ .

عَلاَمَةُ الأُنْسِ . . رَفْعُ الحُجُبِ بَيْنَ القُلُوبِ وَبَيْنَ عَلاَّمِ الغُيُوبِ .

المَحَبَّةُ . . أَغْصَانٌ تُزْرَعُ فِي القَلْبِ ، فَتُثْمِرُ عَلَىٰ قَدْرِ العُقُولِ .

مَا أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ إِلاَّ شَقِيٌّ

مَا أَحَبَّ أَنْ يُعْرَفَ . . إِلاَّ شَقِيٌّ ، لَيْسَ مِنَ التَّصَوُّفِ : أَحِبُّونِي ، وَلاَ أَكْرِمُونِي ، وَلاَ زُورُونِي ! .

مَا وَقَفَ عَلَىٰ بَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا رَجُلٌ كَامِلُ المَعْرِفَةِ ! .

الأُنْسُ بِالخَلْقِ . . انْقِطَاعٌ عَنِ الحَقِّ .

مَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِ اللهِ . . ذَلَّ .

وَمَنْ حُرِمَ دَرَجَةَ اليَقِينِ . . سَقَطَ مِنْ مَرَاتِبِ المُتَّقِينَ .

وَمَنِ انْقَطَعَ للهِ . . وَصَلَهُ .

الانْقِطَاعُ إِلَىٰ اللهِ . . حَالُ أَهْلِ الحَالِ مَعَ اللهِ .

لِسَانُ الحَالِ لاَ تَنْبَغِي تَرْجَمَتُهُ عِنْدَ أَهْلِ الكَمَالِ

لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِلِسَانِ الحَالِ. . لَوَقَرْتُ لَكُمْ سِتِّينَ بَعِيْرَاً بِإِذْنِ اللهِ .

وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ : لَوْ تَكَلَّمَ المُتَكَلِّمُ حَتَّىٰ أَصَمَّ الأَسْمَاعَ ، وَكَانَ كَلاَمُهُ مَرْدُوداً عِنْدَ الظَّاهِرِ . . فَتَرْكُهُ الكَلاَمَ أَوْلَىٰ لَهُ .

وَإِذَا سَكَتَ حَتَّىٰ ظَنَّ جَلِيْسُهُ أَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ سَائِحَةٍ مِنَ البَاطِنِ ، سَابِحَةٍ فِي الظَّاهِرِ ، مَقْبُولَةٍ عِنْدَ الشَّرْعِ . . فَتَحَ اللهُ لِسَمَاعِ كَلِمَتِهِ القُلُوبَ ، وَتَلَقَّاهَا السَّامِعُونَ بِالإِذْعَانِ .

وَتَكْفِيْهِ : كُلُّ حَقِيقَةٍ رَدَّتْهَا الشَّرِيْعَةُ . . فَهِيَ زَنْدَقَةٌ .

دَلِيْلُ صَلاَحِ الرَّجُلِ وُقُوفُهُ عِنْدَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ

إِذَا رَأَيْتُمْ شَخْصَاً تَرَبَّعَ فِي الهَوَاءِ . . فَلاَ تَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ حَتَّىٰ تَنْظُرُوا حَالَهُ عِنْدَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ .

حَالُ القَوْمِ كُلِّهِمْ تَحْتَ أَرْبَعِ دَرَجَاتٍ

أَيْ سَادَةُ! كُلُّ حَالِ القَوْمِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ . . تَحْتَ أَرْبَعِ دَرَجَاتٍ ، وَكُلُّ حَالِ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ . . كَذَلِكَ .

فَأَمَّا الدَّرَجَةُ الأُوْلَىٰ مِنْ حَالِ القَوْمِ . . فَدَرَجَةُ رَجُلٍ طَلَبَ المُرْشِدَ لِمَا رَأَىٰ مِنْ إِقْبَالِ العَامَّةِ عَلَىٰ الطَّائِفَةِ ، فَأَحَبَّ ذَلِكَ ، وَفَرِحَ بِالرِّوَاقِ وَالجَمْعِيَّةِ وَالزِّيِّ .

والدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ . دَرَجَةُ رَجُلٍ طَلَبَ المُرْشِدَ عَنْ حُسْنِ ظَنٍّ بِالطَّائِفَةِ ، فَأَحَبَّهُمْ وَأَحَبَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ بِصَمِيمِ القَلْبِ كُلَّ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ ، وَأَخَذَ مِنْهُمْ بِالاعْتِقَادِ الصَّحِيحِ النَّظِيفِ .

وَالدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ . دَرَجَةُ رَجُلٍ سَلَكَ المَقَامَاتِ ، وَقَطَعَ العَقَبَاتِ ، وَبَلَغَ مِنَ الطَّرِيقِ العَوَالِيَ مِنَ الدَّرَجَاتِ ، وَلَكِنْ وَقَفَ تَارَةً عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ ، الآيَةَ .

فَسَاعَةً يَرَىٰ الكَوْنَ بِمَشْهَدِ الآيَةِ الَّتِي أُرِيَتْ لَهُ ، فَيَغِيبُ بِهَا عَمَّنْ أَرَاهُ إِيَّاهَا .

وَسَاعَةً يَرَىٰ نَفْسَهُ بِمَشْهَدِ الآيَةِ الَّتِي أُرِيَتْ لَهُ فِي نَفْسِهِ ، فَيَغِيبُ بِهَا .

وَهَذَا المَشْهَدُ . مَشْهَدُ الإِدْلَالِ ، وَمِنْهُ تَحْصُلُ الشَّطَحَاتُ وَالتَّجَاوُزُ ، وَإِظْهَارُ العُلُوِّ عَلَىٰ الأَعَالِي ، وَالبُرُوزُ بِحَالِ السَّلْطَنَةِ ، وَالظُّهُورُ بِالقَوْلِ وَالفِعْلِ ، وَالحَوْلِ وَالقُوَّةِ .

وَالدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ . دَرَجَةُ رَجُلٍ سَلَكَ الطَّرِيقَ مُقْتَفِياً آثَارَ النَّبِيِّ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ وَحَالٍ وَخُلُقٍ ، حَامِلاً رَايَةَ العَبْدِيَّةِ ، فَارِشاً جَبِينَ الذُّلِّ فِي الحَضْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، يَشْهَدُ عَلَىٰ [كُلِّ] هَامَةٍ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ ، وَيَقْرَأُ مِنْ صَحِيفَةِ جَبْهَةِ كُلِّ ذَرَّةٍ مَخْلُوقَةٍ : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ .

يَقِفُ عِنْدَ حَدِّهِ ، وَيَنْبَسِطُ عَلَىٰ تُرَابِ الأَدَبِ بِسَاطَ خَدِّهِ ، وَيَمُرُّ فِي أَثْنَاءِ سَيْرِهِ عَلَىٰ عَقَبَاتِ الآيَاتِ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهَا إِلَىٰ المَعْبُودِ ، ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ .

فَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الأُولَىٰ . . مَحْجُوبٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ . . مُحِبٌّ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ . . مَشْغُولٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ . . كَامِلٌ .

وَفِي كُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ الدَّرَجَاتِ المَذْكُورَاتِ . . دَرَجَاتٌ كَثِيرَةٌ تَظْهَرُ لِلْعَارِفِ مِنْ حَالِ الرَّجُلِ .

دَرَجَاتُ العُلَمَاءِ

وَأَمَّا دَرَجَاتُ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ . . فَالدَّرَجَةُ الأُولَىٰ : دَرَجَةُ رَجُلٍ طَلَبَ العِلْمَ لِلْمُمَارَاةِ ، وَالجِدَالِ وَالتَّفَاخُرِ وَجَمْعِ المَالِ ، وَكَثْرَةِ القِيلِ وَالقَالِ .

وَالدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ طَلَبَ العِلْمَ لاَ لِلْمُنَاظَرَةِ وَلاَ لِلرِّيَاسَةِ ، وَلَكِنْ لِيُحْسَبَ فِي أَعْدَادِ العُلَمَاءِ ، فَيُمْدَحَ بَيْنَ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَأَهْلِ قَرْيَتِهِ ، مُكْتَفِياً بِهَذَا المِقْدَارِ ، مُتَمَسِّكاً بِالظَّاهِرِ لاَ غَيْرُ .

وَالدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ حَلَّ عَوِيصَ المُشْكِلاَتِ ، وَكَشَفَ دَقَائِقَ المَنْقُولاَتِ وَالمَعْقُولاَتِ ، وَغَاصَ بُحُورَ الجَدَلِ ، مُضْمِراً الهِمَّةَ لِنُصْرَةِ الشَّرْعِ فِي أَحْوَالِهِ ، إِلاَّ أَنَّهُ أَخَذَتْهُ عِزَّةُ العِلْمِ عَلَىٰ مَنْ هُوَ دُونَهُ .

وَإِذَا انْتَصَرَ لِلشَّرْعِ وَعُورِضَ بِدَلِيلٍ . . اخْتَطَفَتْهُ نُصْرَةُ نَفْسِهِ ، فَأَفْرَطَ ، وَأَقَامَ الأَدِلَّةَ عَلَىٰ خَصْمِهِ ، وَشَنَّعَ عَلَيْهِ ، وَرُبَّمَا كَفَّرَهُ ، وَطَعَنَ فِيهِ ، وَهَجَمَ عَلَيْهِ هُجُومَ الحَيَوَانِ المُفْتَرِسِ ، مَعَ عَدَمِ رِعَايَةِ الحَدِّ المَحْدُودِ شَرْعاً فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ خَصْمِهِ .

وَالدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ . . دَرَجَةُ رَجُلٍ عَلَّمَهُ اللهُ ، فَنَصَبَ نَفْسَهُ لِتَنْبِيهِ الغَافِلِ ، وَإِرْشَادِ الجَاهِلِ ، وَرَدِّ الشَّارِدِ ، وَنَشْرِ الفَوَائِدِ ، والنَّصِيحَةِ ، وَإِنْكَارِ مَا يُنْكَرُ شَرْعاً ، وَقَبُولِ مَا يُقْبَلُ شَرْعاً ، بِحُسْنِ التَّجَرُّدِ مِنَ الغَرَضِ .

يَرَىٰ أَنَّ الحَسَنَ . . مَا حَسَّنَهُ الشَّرْعُ ، وَالقَبِيحَ . . مَا قَبَّحَهُ الشَّرْعُ .

يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أَمْرَ حَكِيمٍ ، غَيْرَ غَلِيظٍ وَلاَ فَظٍّ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ نَهْيَ مُشْفِقٍ ، غَيْرَ ظَالِمٍ وَلاَ عَادٍ .

فَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الأُولَىٰ . . سَيِّىءٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ . . مَحْرُومٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ . . مَغْرُورٌ .

وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ . . عَارِفٌ .

وَفِي كُلِّ دَرَجَةٍ مِنَ الدَّرَجَاتِ المَذْكُورَاتِ . . كَذَلِكَ دَرَجَاتٌ تَظْهَرُ مِنْ حَالِ الرَّجُلِ .

والمَعْصُومُ . . مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ، وَقَدْ ظَهَرَ لَكُمْ .

الطَّرِيقَةُ هِيَ الشَّرِيعَةُ والشَّرِيعَةُ هِيَ الطَّرِيقَةُ

أَيْ سَادَةُ! إِنَّ نِهَايَةَ طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ . . نِهَايَةُ طَرِيقِ الفُقَهَاءِ ، وَنِهَايَةَ طَرِيقِ الفُقَهَاءِ . . نِهَايَةُ طَرِيقِ الصُّوفِيَّةِ .

وَعَقَبَاتِ القَطْعِ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا الفُقَهَاءُ فِي الطَّلَبِ . . هِيَ العَقَبَاتُ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا الصُّوفِيَّةُ فِي السُّلُوكِ .

وَالطَّرِيقَةُ هِيَ الشَّرِيعَةُ ، وَالشَّرِيعَةُ هِيَ الطَّرِيقَةُ ، وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا لَفْظِيٌّ ، وَالمَادَّةُ وَالمَعْنَىٰ وَالنَّتِيجَةُ وَاحِدَةٌ .

وَمَا أَرَىٰ الصُّوفِيَّ إِذَا أَنْكَرَ حَالَ الفَقِيهِ .. إِلاَّ مَنْكُوراً ، وَلاَ الفَقِيهَ إِذَا أَنْكَرَ حَالَ الصُّوفِيِّ .. إِلاَّ مَبْعُوداً ، إِلاَّ إِذَا كَانَ الفَقِيهُ آمِراً بِلِسَانِهِ ، لاَ بِلِسَانِ الشَّرْعِ ، وَالصُّوفِيُّ سَالِكاً بِنَفْسِهِ لاَ بِسُلُوكِ الشَّرْعِ ، فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا .

وَالشَّرْطُ هُنَا .. الصُّوفِيُّ الكَامِلُ ، وَالفَقِيهُ العَارِفُ ، كَمَا ذَكَرْنَا .

كَيْفَ يَعْمَلُ الصُّوفِيُّ الكَامِلُ إِذَا قَالَ لَهُ الفَقِيهُ العَارِفُ : أَأَنْتَ تَقُولُ لِتَلاَمِذَتِكَ : لاَ تُصَلُّوا ، لاَ تَصُومُوا ، لاَ تَقِفُوا عِنْدَ حُدُودِ اللهِ ؟ .

بِاللهِ عَلَيْكُمْ! هَلْ يَقْدِرُ أَنْ يَنْطِقَ إِلاَّ بِحَاشَا للهِ ؟! .

كَيْفَ يَعْمَلُ الفَقِيهُ العَارِفُ إِذَا قَالَ لَهُ الصُّوفِيُّ الكَامِلُ : أَأَنْتَ تَقُولُ لِتَلاَمِذَتِكَ : لاَ تُكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ ، لاَ تُحَارِبُوا النَّفْسَ بِالمُجَاهَدَاتِ ، لاَ تَعْمَلُوا بِصِحَّةِ الإِخْلاَصِ للهِ ؟ .

بِاللهِ عَلَيْكُمْ! هَلْ يَقْدِرُ أَنْ يَنْطِقَ إِلاَّ بِحَاشَا للهِ ؟! .

فَحِينَئِذٍ اتَّحَدَتِ المَادَّةُ وَالمَعْنَىٰ وَالنَّتِيجَةُ ، وَاخْتَلَفَتِ اللَّفْظَةُ لاَ غَيْرُ .

فَمَنْ حَجَبَهُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ حِجَابُ اللَّفْظَةِ عَنْ أَخْذِ ثَمَرَةِ المَادَّةِ وَالمَعْنَىٰ وَالنَّتِيجَةِ .. فَهُوَ جَاهِلٌ .

« مَا اتَّخَذَ اللهُ وَلِيّاً جَاهِلاً »[١] .

---

(١) مرَّ بِكَ ص (٢٢٣) .

وَمَنْ حَجَبَهُ مِنَ الفُقَهَاءِ حِجَابُ اللَّفْظَةِ عَنْ أَخْذِ ثَمَرَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ.. فَهُوَ مَحْرُومٌ.

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ »[1].

قُلْ - يَا أَخِي - لِلْمَسَاكِينِ المَحْجُوبِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ. مَا تُرِيدُونَ أَنْ يُوجَدَ فِي قُطْرِكُمْ هَذَا.. رَجُلٌ عَالِمٌ يَدْفَعُ شُبَهَ المُلْحِدِينَ، وَأَهْلِ البِدَعِ والزَّيْغِ / بِالحُجَجِ الظَّاهِرَةِ ؟.

قُلْ - يَا أَخِي - لِلْمَسَاكِينِ المَحْجُوبِينَ مِنَ الفُقَهَاءِ : مَا تُرِيدُونَ أَنْ يُوجَدَ فِي بِلاَدِكُمْ هَذِهِ.. رَجُلٌ يَقْهَرُ أَهْلَ الجُحُودِ وَالضَّلاَلِ وَالعِنَادِ / بِالكَرَامَاتِ البَاهِرَةِ ؟.

يَشْتَهِي خَاطِرُكُمْ أَنَّ سِرَّ اللِّسَانِ المُحَمَّدِيِّ يَنْقَطِعُ ؟

تُحِبُّ نُفُوسُكُمْ أَنَّ سُلْطَانَ المُعْجِزَةِ النَّبَوِيَّةِ يُخْذَلُ :

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾.

تَشْهَدُ بِبَقَاءِ هَذَا اللِّسَانِ النَّبَوِيِّ، وَهَذَا السُّلْطَانِ المُحَمَّدِيِّ.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ ﴾.

تُثْبِتُ دَوَامَ هَذِهِ الحَقَائِقِ.

تَحْفِرُونَ آبَارَ قَطْعِكُمْ بِأَيْدِيكُمْ ؟.

---

(١) مرَّ بك تخريجهُ ص (١٧٩).

يَا خَاصَّةُ! يَا عَامَّةُ! يَا رِجَالَ الطَّائِفَتَيْنِ! أَنْتُمْ طَائِفَةٌ وَاحِدَةٌ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

لاَ تَدْخُلُوا تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ! .

عَلَيْكُمْ أَنْ يَنْصَحَ فَقِيرُكُمْ جَاهِلَكُمْ ، وَأَنْ يَقُودَ كَامِلُكُمْ نَاقِصَكُمْ ، عَمَلاً بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ .

لاَ بِقَهْرٍ ، وَلاَ بِغَدْرٍ ، وَلاَ بِظُلْمٍ ، وَلاَ بِكِبْرٍ ، وَلاَ بِعُلُوٍّ .

لاَ بَأْسَ إِنْ صَدَعْتَ بِمَا أُمِرْتَ بِهِ عَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّكَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكِنْ قَبْلَ الصَّدْعِ : عُرْفُ المَعْرُوفِ .. مَغْنَطِيسٌ جَذَّابٌ .

حَالُ الصُّوفِيِّ الكَامِلِ مَعَ الخَلْقِ

أَيْشٍ تُرِيدُ يَا صُوفِيُّ ؟ يَا فَقِيهُ! يَا مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الشَّأْنَيْنِ ؟ .

تُرِيدُ أَنْ تَسُبَّ العِبَادَ وَتَبْغِيَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ تَعْلُوَ وَتَغْلُوَ ؟ .

مَا هَذِهِ ـ وَاللهِ ـ طَرِيقَةُ نَبِيِّكَ ، وَلاَ سُنَّةُ وَلِيِّكَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

كَانَ إِذَا نَهَىٰ عَنْ خُلُقٍ لَمْ يُسَمِّ فَاعِلَهُ ، وَيَقُولُ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا » ، أَوْ : « مَا بَالُ الرَّجُلِ يَقُولُ كَذَا »[1] . أَوْ كَمَا قَالَ .

---

(١) انظر « البخاري » (٤٤٤) ، و (٧١٧) ، ومسلم (١٤٠١) ، وفي « سنن أبي داود » (٤٧٨٨) قولُهُ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ :
« مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا » .

وَكَانَ يَقُولُ[١] : كَيْفَ إِذَا قُلْتُ لَكُمْ : يَا أَهْلَ أُمِّ عَبِيْدَةَ! أَنْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، وَشَتَمْتُكُمْ ، وَأَغْلَظْتُ عَلَيْكُمْ ، وَنَسَبْتُ إِلَيْكُمُ القَبَائِحَ ، ثُمَّ طِرْتُ فِي مَجْلِسِي هَذَا إِلَىٰ الجَوِّ ، وَرَجَعْتُ ؟ .

هَلْ لاَ تَبْقَىٰ فِي قُلُوبِكُمْ مَرَارَةُ الشَّتْمِ وَالسَّبِّ وَلَوْ غَلَبَكُمْ سُلْطَانُ طَيَرَانِي ، وَهَيْبَةُ حَالِي ؟ .

بَلَىٰ ـ وَاللهِ ـ! وَهَذَا الَّذِي انْطَوَتْ عَلَيْهِ الطِّبَاعُ كُلُّهَا .

وَلَعَلَّ الفَقِيهَ أَبَا شُجَاعٍ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : مَا أَغْلَظَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي مَوَاعِظِهِ / بِشَتْمٍ وَسَبٍّ ، وَلاَ صَرَّحَ بِاسْمِ أَحَدٍ ، وَلاَ طَارَ ، وَلاَ تَسَلَّطَ بِقُوَّةِ المُعْجِزَةِ عَلَىٰ الطِّبَاعِ! .

وَلَعَلَّ الشَّيْخَ الفَقِيهَ عُمَرَ الفَارُوثِيَّ يَقُولُ : قَالَ اللهُ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

وَكَيْفَ لَوْ قَالَ لَكُمْ وَاعِظٌ فِي مَسْجِدِ الشَّطِّ عَلَىٰ حَصِيرَةٍ مَقْطُوعَةٍ بِثِيَابٍ رَثَّةٍ :

أَيْ أَحْبَابِي! أَيْ إِخْوَانِي! شَارِبُ الخَمْرِ مَلْعُونٌ ، الكَذَّابُ مَلْعُونٌ ، الظَّالِمُ مَلْعُونٌ .

وَكَانَ فِي مَجْلِسِهِ مَنِ ابْتَلاَهُ اللهُ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ ، هَلْ تَنْفِرُ نَفْسُهُ مِنَ الرَّجُلِ

---

(١) أي : السيدُ الكبيرُ أحمدُ الرِّفاعيُّ الحُسينيُّ ، رضي الله عنه ، وهي من الرَّاوي لِهذا الكتابِ .

نَفْرَةَ ٱسْتِعْظَامٍ ، أَوْ تَأْخُذُهُ حَالَةُ فَقْرِهِ وَٱنْكِسَارِهِ إِلَىٰ التَّوْبَةِ وَإِنْ لَعِبَتْ نَفْسُهُ عَلَيْهِ ؟

وَأَيُّ حَالٍ أَقْرَبُ ؟ بَلَىٰ ـ وَاللهِ ـ حَالُ الاتِّعَاظِ بِتَجَرُّدِ الرَّجُلِ عَنْ نَفْسِهِ وَحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ . أَقْرَبُ وَأَشَدُّ وَقْعاً فِي النُّفُوسِ مِنَ الغَلَبَةِ القَاهِرَةِ ؛ فَإِنَّ الغلبَةَ القَاهِرَةَ تُبْقِي بَقِيَّةً فِي النَّفْسِ كَيْفَ كَانَتْ ، وَحَالَةَ الانْكِسَارِ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ .

تَدْخُلُ إِلَىٰ دَائِرَةِ النَّفْسِ فَتُطَهِّرُهَا ، وَإِلَىٰ دَائِرَةِ القَلْبِ فَتَقَرُّ فِيْهِ ، وَلاَ يَبْقَىٰ مَعَهَا ضِدُّهَا أَبَداً .

فَإِذَا وَعَظْتُمُ النَّاسَ . . إِيَّاكُمْ وَالتَّصْرِيحَ! وَخُذُوا بِالتَّلْوِيحِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ رَائِحَةَ السُّنَّةِ ، وَشَمَّةَ النَّفْحَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَبِهَا ـ وَاللهِ ـ يُصْلِحُ اللهُ القُلُوبَ ، فَلاَ حَاجَةَ مَعَهَا لأَحْوَالِكُمْ أَبَداً .

تَحْذِيْرُهُ مِنَ العُلُوِّ عَلَىٰ النَّاسِ

أَيْشٍ نَقُولُ لِلَّذِي يُعْجِبُهُ عُلُوُّهُ عَلَىٰ النَّاسِ ، وَيُحِبُّ ٱنْقِيَادَ الرِّقَابِ إِلَيْهِ ؟! .

خَلِّ عَنكَ يَا مِسْكِيْنُ! اِنْقَادَتْ لَكَ الرِّقَابُ ، وَمَا ٱنْقَادَتْ لَكَ القُلُوبُ .

مَتَىٰ سَقَطْتَ مِنْ حَالِكَ وَوَارِدِكَ . . تَقَلَّبَتْ عَنْكَ القُلُوبُ ، وَدَاسَتْكَ الأَقْدَامُ ، وَبَقِيتَ أَسْوَدَ الوَجْهِ .

حَوْلَ مَقْتَلِ الإِمَامِ الحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ

الحُسَيْنُ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ طَلَبَتْ بَشَرِيَّتُهُ حَقَّهَا الشَّرْعِيَّ الَّذِي لاَ نِزَاعَ فِيْهِ ، فَغَارَتِ الرُّبُوبِيَّةُ ، فَرَفَعَتْ رُوحَهُ إِلَىٰ مَقْعَدِ صِدْقٍ .

فَلَمَّا قَرَّتِ الرُّوحُ فِي مَقَامِهَا .. حَنَّتْ لِقَالَبِهَا المُبَارَكِ ، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ، وَتَحَكَّمَ سَيْفُ العَدْلِ فِي الأَمْرَيْنِ ، فَكَانَتْ شَهَادَةُ الإِمَامِ رِفْعَةً لَهُ ، وَكَانَ ظَفَرُ أَعْدَاءِ اللهِ خِزْيًا لَهُمْ .

وَإِنَّمَا الغَارَةُ الإِلٰهِيَّةُ فَعَلَتْ فِي بَشَرِيَّةِ الإِمَامِ مَا فَعَلَتْ ، وَكَأَنَّهَا تَقُولُ لَهَا : طَلَبْتِ قَوْدَ الرِّقَابِ إِلَيَّ وَأَنَا أُرِيدُ قَوْدَكِ بِالكُلِّيَّةِ إِلَيَّ .

فَطَلَبُكِ إِلَيَّ .. اضْمَحَلَّ عِنْدَ إِرَادَتِي إِيَّاكِ إِلَيَّ ، فَبَارَزَتْكِ إِرَادَتِي بِأَكُفِّ مَنْ قَطَعْتُهُمْ عَنِّي ؛ فَآذَيْتُكِ بِمَنْ قَطَعْتُهُمْ عَنِّي ، وَعَرَّفْتُكِ أَنِّي أُرِيدُ فَأَفْعَلُ ، وَيُرَادُ لِي قَبْلَ إِرَادَتِي فَلَا أَفْعَلُ .

وَلَكِ ثَوَابُ الطَّلَبِ ؛ لِأَنَّكِ طَلَبْتِ قَوْدَ الرِّقَابِ إِلَيَّ لَا إِلَيْكِ .

وَلَوْ أَنَّكِ طَلَبْتِ قَوْدَ الرِّقَابِ إِلَيْكِ .. لَمَا قُدْتُكِ إِلَيَّ ؛ فَإِنَّ مَنْ طَلَبَ قَوْدَ الرِّقَابِ إِلَيْهِ[١] .. بَيْنَ خَطَرِ القَهْرِ وَالاسْتِدْرَاجِ ، فَإِنْ قَهَرْتُهُ .. قَهَرْتُهُ بِأَكُفِّ عِبَادٍ وَصَلْتُهُمْ بِي[٢] ، فَقَطَعْتُ الآخَرَ[٣] بِهِمْ[٤] عَنِّي .

وَإِنْ فَتَكْتُ بِهِ وَبِنَفْسِهِ وَمُرَادِهِ عَسَاكِرُ : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .. فَقَدْ ضَلَّ .

أَيْ سَادَةُ ! طَلَبُ القَوْدِ إِلَى اللهِ قَبْلَ تَعَلُّقِ إِرَادَتِهِ .. جَرَّأَ أَعْدَاءَ اللهِ عَلَى ابْنِ وَلِيِّ اللهِ ، وَسِبْطِ رَسُولِ اللهِ ، وَمَحْبُوبِ اللهِ ، وَابْنِ أَحْبَابِ اللهِ ، الَّذِي قَامَ

---

(١) كأعداءِ سيِّدِنا الحُسينِ سلامُ اللهِ عليهِ .

(٢) كسيِّدِنا الإمامِ الحُسينِ ومَنْ كانَ معَهُ ، سلامُ اللهِ عليهم أجمعينَ .

(٣) أي : عَدُوَّ الإمامِ الحُسينِ عليهِ السَّلامُ .

(٤) أي : بالحُسينِ وبأهلِ بيتِهِ ، رضوانُ اللهِ عليهِم أجمعينَ .

مَنَارُ بَشَرِيَّتِهِ الكَرِيمِ ، يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ ، وَطَارَ طَائِرُ رُوحِهِ النُّورَانِيُّ إِلَىٰ حَضْرَةِ قُدْسِ اللهِ .

فَكَيْفَ بِمَنْ يَدْعُو إِلَىٰ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ؟! بَشَرِيَّتُهُ مَقْتُولَةٌ ، وَرُوحُهُ مَبْعُودَةٌ ، وَحَالُهُ شَاهِدٌ عَلَيْهِ .

التَّأَدُّبُ مَعَ الخَلْقِ بَابُ القَبُولِ عِنْدَ اللهِ

اللهَ اللهَ! بِالأَدَبِ مَعَ اللهِ ؛ فَإِنَّ خَلْقَ اللهِ .. حُجُبٌ وَأَبْوَابٌ ، فَإِنْ أَدْرَكْتُمْ سِرَّ الأَدَبِ مَعَ خَلْقِ اللهِ .. فُتِحَتْ لَكُمْ أَبْوَابُ القَبُولِ عِنْدَ اللهِ .

وَإِنْ جَهِلْتُمْ أَمْرَ الأَدَبِ مَعَ خَلْقِ اللهِ .. حُجِبْتُمْ بِالخَلْقِ عَنِ اللهِ .

وَمِنْ ثَمَّ ٱشْتَغَلَ أَهْلُ العِرْفَانِ وَالذَّوْقِ الخَالِصِ بِجَبْرِ القُلُوبِ ، وَوَضَعُوا الخُدُودَ عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ تَحْتَ الأَرْجُلِ ، وَطَافَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي حَضَرَاتِ القَبُولِ بِهَذِهِ الأَجْنِحَةِ المَعْنَوِيَّةِ ، فَعَرَفُوا الحَقَّ بِالخَلْقِ ، وَنَزَّهُوا الحَقَّ عَنِ الخَلْقِ .

« **أَنَا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ لأَجْلِي** »[١] .

نَصٌّ قُدْسِيٌّ يَدُلُّكُمْ كَيْفَ يُعْرَفُ الحَقُّ بِالخَلْقِ .

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ ، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ** »[٢] . وَذَلِكَ الفِكْرُ المَأْمُورُونَ بِهِ .. فِكْرُ الأَدَبِ مَعَ الصَّانِعِ فِي مَصْنُوعَاتِهِ جَلَّ وَعَلاَ! .

---

(١) مرَّ بِكَ تخريجُهُ ص (٢١٢) .

(٢) رواه أبو نُعيم في « الحلية » ، وابنُ أبي شيبة ، والأصبهاني في « ترغيبه » ، وتمامُ تخريجه في « كشف الخفاء » (١٠٠٥) .

عَالَمُ النُّبُوَّةِ العَالَمُ الأَكْبَرُ

أَيْ سَادَةُ! عَالَمُ النُّبُوَّةِ.. العَالَمُ الأَكْبَرُ، الجَامِعُ لِجَمِيعِ العَوَالِمِ.

وَالأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ.. خُلَفَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَأَصْحَابُ الهِمَمِ السَّمَاوِيَّةِ، وَالقُلُوبِ العَرْشِيَّةِ، وَالأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالانْخِلاَعِ عَنِ الأَغْيَارِ بِالكُلِّيَّةِ، قَادَاتُ الخَلْقِ إِلَى الحَقِّ.

بَيْنَ مَرَاتِبِهِمُ البِدَائِيَّةِ، وَمَرَاتِبِ الصِّدِّيقِينَ النِّهَائِيَّةِ.. ثَلاَثُ مِئَةِ أَلْفٍ وَثَمَانِيَةٌ وَسِتُّونَ أَلْفَ مَرْتَبَةٍ، لَيْسَ لِلصِّدِّيقِينَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ مِنْ سَبِيلٍ.

وَبَيْنَ مَرَاتِبِ النَّبِيِّينَ وَمَرْتَبَةِ سَيِّدِ المَخْلُوقِينَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرَاتِبُ وَدَرَجَاتٌ.

فِي مَرْتَبَةِ مَحْبُوبِيَّتِهِ.. مَرَاتِبُ لاَ تُعَدُّ وَلاَ تُحَدُّ.

وَلاَ تَمُرُّ آوِنَةٌ إِلاَّ وَلَهُ - عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ - مَرْتَبَةٌ تُرْفَعُ، وَدَرَجَةٌ تُنْصَبُ، وَمَقَامٌ يَدْنُو مِنَ اللهِ.

لاَ تُحِيطُ بِهِ الأَسْرَارُ، وَلاَ تُدْرِكُ كَيْفِيَّتَهُ الأَوْهَامُ وَالأَفْكَارُ، تَتْمِيماً لِلنِّعْمَةِ، وَتَكْمِيلاً لِشَرَفِ المَحَبَّةِ.

تَفْصِيلٌ فِي مَرَاتِبِ الصِّدِّيقِينَ وَالأَوْلِيَاءِ وَصُلَحَاءِ الأُمَّةِ

وَبَيْنَ مَرَاتِبِ الصِّدِّيقِينَ البِدَائِيَّةِ، وَمَرَاتِبِ الأَوْلِيَاءِ المُقَرَّبِينَ النِّهَائِيَّةِ. أَلْفٌ وَمِئَةٌ وَاثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ مَرْتَبَةً، فُتِحَ السَّبِيلُ إِلَيْهَا لِلأَوْلِيَاءِ، وَلَكِنْ لاَ يَصِلُونَ إِلَى مَرَاتِبِهِمُ النِّهَائِيَّةِ أَبَداً.

وَإِنَّ لِلْقُطْبِيَّةِ الجَامِعَةِ . ثَمَانِيَةً وَثَمَانِينَ أَلْفاً وَسِتَّ عَشْرَةَ مَرْتَبَةً ، كُلُّ مَرْتَبَةٍ . مُتَوَجِّهَةٌ إِلَىٰ عَالَمٍ مِنَ العَوَالِمِ .

وَكُلُّ مَرَاتِبِ أَوْلِيَاءِ العَصْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ القُطْبِ الجَامِعِ . وَاقِفَةٌ فِي الأَرْضِ ، وَرُتْبَتُهُ مُتَسَنِّمَةٌ أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ[١] .

وَبَيْنَ مَرَاتِبِ الأَوْلِيَاءِ البِدَائِيَّةِ ، وَمَرَاتِبِ صُلَحَاءِ الأُمَّةِ ، الَّذِينَ لَمْ يُحْسَبُوا فِي أَعْدَادِ الأَوْلِيَاءِ . كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .

وَبَيْنَ مَرَاتِبِ الصُّلَحَاءِ وَعَامَّةِ الأُمَّةِ الأَحْمَدِيَّةِ . مَرْتَبَتَانِ : التَّوْبَةُ ، وَالعَمَلُ الصَّالِحُ .

الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنَ النُّبُوَّةِ

« الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ . جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ »[٢] .

وَتِلْكَ رُؤْيَاهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنَّ رِسَالَتَهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، فَكَانَ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْهَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ فِي الرُّؤْيَا .

فَإِذَا قَسَمْتَ السِّنِينَ البَاقِيَةَ إِلَىٰ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أَجْزَاءً . عَلِمْتَ أَنَّ رُؤْيَاهُ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ جُزْءٌ مِنْ نُبُوَّتِهِ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالتَّحِيَّةُ .

وَمَنْزِلَةُ نُبُوَّتِهِ الجَلِيلَةِ . مَصُونَةُ المَرَاتِبِ يَقَظَةً وَمَنَاماً .

وَإِنَّمَا الرُّؤْيَا . وَحْيُ المُؤْمِنِ بِتَنَزُّلِ المَلَائِكَةِ

---

(١) أي : تعلو أبوابَ السَّمواتِ ؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ علا شيئاً . فقد تَسَنَّمَهُ ، « مصباح » ص (٢٩١) ، مادة : « سنم » .

(٢) رواه البخاري (٦٥٨٨) من حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ ، ومسلم (٢٢٦٣) من حديث أبي هريرة .

وَلاَ يَصِحُّ ذَلِكَ التَّنَزُّلُ .. إلاَّ لِمَنْ آمَنَ بِاللهِ ، وَذَكَرَهُ ، وَٱسْتَقَامَ عَلَىٰ مَا يُرْضِيهِ ؛ فَيَكُونُ ذَلِكَ التَّنَزُّلُ المَلَكِيُّ عَلَيْهِ أَمْناً وَبُشْرَىٰ :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ﴾ ، الآيَةُ .. شَاهِدُ عَدْلٍ يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ

الوَلِيُّ لاَ يُدْرِكُ الصِّدِّيقِينَ وَالصَّحَابَةَ

أَيْ سَادَةُ! حُثُّوا المَرَاتِبَ ، وَإِلاَّ أَخَذَتْكُمُ الخَيْلُ تَحْتَ السَّنَابِكِ .

لاَ يَصِلُ الوَلِيُّ إِلَىٰ غَايَةِ أَحَدٍ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالصَّحَابَةِ ؛ فَإِنَّهُمْ نَهَضَتْهُمُ النَّظْرَةُ الطَّاهِرَةُ المُحَمَّدِيَّةُ ، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَىٰ مَحْبُوبِيَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ، فَأَحَبُّوهُ وَأَحَبَّهُمْ :

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

فَإِذَا أَرَدْتُّمُ القُرْبَىٰ مِنَ اللهِ ، فَتَقَرَّبُوا إِلَىٰ اللهِ بِمَحَبَّتِهِ ، وَالاقْتِدَاءِ بِهِمْ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ .

وقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ ، بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمْ .. اهْتَدَيْتُمْ »[1] .

مَاذَا يَقُولُ أَهْلُ الحَالِ ؟

أَيْ أَخِي! قَالَ لَكَ أَهْلُ الحَالِ : رَبُّكَ يُوجِدُكَ ثُمَّ يُفْنِيكَ ، وَيُبَصِّرُكَ ثُمَّ

---

(١) مرّ تخريجه ص (١٤٨) .

يَعْنِيكَ ، فَيُجْلِسُكَ بِلاَ أَنْتَ عَلَىٰ بِسَاطِ الاصْطِفَاءِ لِلتَّعْلِيمِ ، وَيُقِيمُكَ مَقَامَ الأُنْسِ لِلتَّكْلِيمِ .

ثُمَّ يُفْنِيكَ عَمَّا أَبْدَىٰ بِظُهُورِهِ بِسَطْوَةِ الإِجْلاَلِ وَالتَّعْظِيمِ ، ثُمَّ يُلْبِسُكَ خِلْعَةَ التَّوْقِيرِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَيُحْظِيكَ بِمُلاَحَظَةِ التَّكْلِيمِ ، فَيُثْبِتُ فِيكَ شَاهِدَ التَّوْفِيقِ وَالتَّصْمِيمِ ، وَيَقُولُ لَكَ :

خُذْ مَا آتَيْتُكَ بِقُوَّةِ التَّثْبِيتِ ، بَرِيئاً مِنْ حَوْلِكَ البَشَرِيِّ وَقُوَّتِكَ الآدَمِيَّةِ ، شَاكِراً لِلْمِنَحِ الإِلٰهِيَّةِ ، وَالمَوَاهِبِ الرَّبَّانِيَّةِ ، دَاخِلاً فِي كُلِّ أُمُورِكَ تَحْتَ كَنَفِ الرِّضَىٰ وَالتَّسْلِيمِ : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

ذَلِكَ فَضْلُهُ لاَ كَسْبُكَ ، وَجُودُهُ لاَ اجْتِهَادُكَ ، وَاخْتِصَاصُهُ لاَ حِرْصُكَ ، وَإِلْهَامُهُ لاَ عِلْمُكَ ، وَاصْطِنَاعُهُ لاَ اسْتِحْقَاقُكَ .

إِنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الأَسْرَارِ حَقِيقَةَ إِبْصَارٍ

تَسَاوَتْ طِينَةُ البَشَرِ مِنْ حَيْثُ الصُّوَرُ ، وَتَبَايَنَتْ فِي التَّفْضِيلِ بِمَا بَدَا عَلَيْهَا وَظَهَرَ ، فَكُلُّ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا . . فَبِقَدَرٍ .

فَإِذَا انْبَلَجَ الصُّبْحُ مِنْ غَيْمِهِ وَأَسْفَرَ ، وَأَشْرَقَ النُّورُ عَلَيْهَا فَبَهَرَ ، وَامْتَدَّ مِنْهَا إِلَىٰ سِوَاهَا وَانْتَشَرَ سُلْطَانُهُ فَقَهَرَ ، وَتَمَكَّنَ شَاهِدُهُ وَاسْتَقَرَّ ، وَظَهَرَتِ الإِشَارَاتُ وَالمَعَانِي عَلَىٰ الصُّوَرِ . . فَقَدْ نُفِخَ فِي الصُّوَرِ ، وَوُضِعَ الكِتَابُ المَسْطُورُ ، وَكَانَ الغَائِبُ المُحْتَجِبُ . . هُوَ الظَّاهِرَ المَشْهُودَ المَنْظُورَ ، حِينَئِذٍ يُبَعْثَرُ مَا فِي القُبُورِ ، وَيُحَصَّلُ مَا فِي الصُّدُورِ ، وَيَزُولُ الغُرُورُ ،

وَيَخطَى المُتَّقُونَ بِالحُبُورِ[1] ، وَيَنَالُ المَحْبُوبُ غَايَةَ السُّرُورِ .

إِنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الأَسْرَارِ حَقِيقَةَ إِبْصَارٍ ، أَكْثَرُ الخَلْقِ عَنْهَا .. عَمِيَّةٌ ، لاَ يُدْرِكُهَا .. إِلاَّ مَنْ ظَهَرَتْ لَهُ مِنْهُ فِيهِ ، وَتَجَلَّتْ شَوَاهِدُهَا مِنْهُ عَلَيْهِ ، وَبَرَزَتْ آثَارُهَا مِنْ كَوْنِهِ عَلَيْهِ :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ .

مَا ثَمَّ ٱتِّصَالٌ وَلاَ ٱنْفِصَالٌ

واللهِ يَا هَذَا! مَا ثَمَّ ٱتِّصَالٌ وَلاَ ٱنْفِصَالٌ ، وَلاَ حُلُولٌ وَلاَ ٱنْتِقَالٌ ، وَلاَ حَرَكَةٌ وَلاَ زَوَالٌ ، وَلاَ مَمَاسَّةٌ وَلاَ مُجَاوَرَةٌ ، وَلاَ مُحَاذَاةٌ وَلاَ مُقَابَلَةٌ ، وَلاَ مُسَاوَاةٌ وَلاَ مُمَاثَلَةٌ ، وَلاَ مُجَانَسَةٌ وَلاَ مُشَاكَلَةٌ ، وَلاَ تَجَسُّدٌ وَلاَ تَصَوُّرٌ ، وَلاَ ٱنْفِعَالٌ وَلاَ تَكَوُّنٌ وَلاَ تَغَيُّرٌ! .

كُلُّ هَذِهِ .. نُعُوتُ حَدَثِكَ ، وَالحَقُّ - سُبْحَانَهُ - مِنْ وَرَاءِ نُعُوتِكَ وَصِفَاتِكَ ، إِذْ هِيَ مُبْدَعَاتُهُ وَمُخْتَرَعَاتُهُ .

فَكَيْفَ يَظْهَرُ بِهَا ، أَوْ فِيهَا ، أَوْ عَنْهَا ، أَوْ مِنْهَا ، وَبِهِ ظَهَرَتْ لاَ بِهَا ظَهَرَ ؟! .

وَهُوَ وَرَاءَ الأَشْكَالِ وَالمَعَانِي وَالصُّوَرِ ، وَمَا بَطَنَ فِيهَا وَلاَ ظَهَرَ ، وَلاَ أُدْرِكَ بِالفِكْرِ وَلاَ حُصِرَ فِي النَّظَرِ ؟! .

وَنِطَاقُ النُّطْقِ .. يَضِيقُ عَنِ الإِفْصَاحِ بِحَقِيقَةِ الخَبَرِ ، وَإِنَّمَا سُومِحَ فِي اللَّفْظِ لِضَرُورَةِ تَفْهِيمِ البَشَرِ .

فَكُلُّ صِفَةٍ لاَ تَعْقِلُهَا إِلاَّ بِالمُقَايَسَةِ إِلَى صِفَاتِكَ .. فَإِنَّمَا سِيقَتْ لِضَرُورَةِ

---

(١) أي : بالسُّرُور ، « مختار » ص (١٢٠) ، مادة : « حبر » .

تَفْهِيمِكَ بِمَعْنَىً ثَبَتَ عِنْدَكَ مَوْجُوداً مُتَحَقِّقاً مِنْ حَيْثُ طَاقَتَكَ ، لاَ مِنْ حَيْثُ حَقِيقَةُ مَا نُعِتَ لَكَ نَعْتٌ مِنْ نُعُوتِهِ .

تَقَدَّسَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ ظَوَاهِرُ النُّعُوتِ! .

وَهُوَ الْمُنَزَّهُ عَنْ دِلاَلَةِ النَّعْتِ الظَّاهِرِ مِنْ حَيْثُ دَلَّتْ بِنَفْسِهَا عَلَىٰ مُقَايَسَةِ وَصْفِ الْمُحْدَثِ ، وَلاَ تَنْفَكُّ فِي دِلاَلَتِهَا عَنْ ذَلِكَ .

فَلَهُ مِنَ النُّعُوتِ وَالتَّعْرِيفِ . . لإِثْبَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ ، وَالَّذِي يَسْتَحِقُّهُ وَرَاءَ إِحَاطَةِ الْعِلْمِ ، وَحَصْرِ الْفَهْمِ ، وَإِحْصَاءِ الْعَقْلِ : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ :

« لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »[1] .

كَلَّتْ ـ وَاللهِ ـ الأَلْسُنُ

يَا قَوْمِ! أَيْشٍ يُقَالُ ؟ أَيْشٍ يُتَحَدَّثُ ؟ كَلَّتْ ـ وَاللهِ ـ الأَلْسُنُ ، وَطَاشَتِ الْعُقُولُ ، وَذَهِلَتِ الأَلْبَابُ[2] ، وَاحْتَرَقَتِ الْقُلُوبُ ، وَلَمْ يَبْقَ . . إِلاَّ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ . . زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً .

قَبِلَ مِنْكَ ظَاهِرَ تَوْحِيدِكَ مُهَادَنَةً لَكَ

يَا هَذَا! إِنَّمَا أُفْرِدْتَ عَلَىٰ ظَاهِرِ تَوْحِيدِكَ . . مُهَادَنَةً لَكَ ، وَمُسَالَمَةً لِدُخُولِكَ تَحْتَ قَهْرِ الدَّعْوَةِ .

---

(١) رواه أحمد ٦ : ٢٠١ ، ومسلم (٤٨٦) ، وأبو داود (٨٧٩) ، وابنُ ماجه (٣٨٤١) .

(٢) أي : العقولُ ، جمعُ لُبٍّ ، وهو العقلُ ، « مصباح » ص (٥٤٧) ، مادة : « لبب » .

وَبِالْمُسَالَمَةِ وَالتَّسْلِيمِ دُونَ الْمُنَازَعَةِ.. قَنِعَ مِنْكَ بِالطَّاعَةِ وَالدَّعْوَةِ، لِئَلاَّ تَرْجِعَ عَلَىٰ عَقِبِكَ، وَتَرْتَدَّ بَعْدَ إِسْلاَمِكَ.

وَلِهَذَا.. سُمِّيتَ مُسْلِماً، وَلَمْ يَطْلُبْ مِنْكَ حَقِيقَةَ هَذَا، إِذْ لاَ طَاقَةَ لَكَ بِهِ، وَاللهُ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وَلاَ يُحَمِّلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا.

فَمَا أُفْرِدْتَ بِهِ مِنْ شَهَادَةِ التَّوْحِيدِ.. هُوَ حَظُّكَ مِنَ الإِسْلاَمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ عَنْ جُمْلَةِ الجَاحِدِينَ وَإِنْ لَمْ تَثْبُتْ بِهِ فِي زُمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَضْلاً أَنْ تَصِلَ بِهِ رُتْبَةَ العَارِفِينَ، أَوْ تَرْقَىٰ إِلَىٰ ذِرْوَةِ الْمُكَاشَفِينَ:

﴿۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

الَّذِي عِنْدَكَ مِنَ العِلْمِ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ.. كَالَّذِي عِنْدَ الأَنْبِيَاءِ مِنَ العِلْمِ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ عِلْمِ مُبْدِيهِ عَلَيْهِمْ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ عِلْمُكَ جُزْءاً مِنْ عِلْمِهِمْ، وَعِلْمُهُمْ لَيْسَ جُزْءاً مِنْ عِلْمِهِ.

وَلاَ تَظُنَّ أَنَّ أَحَداً حَصَلَ مِنَ التَّوْحِيدِ عَلَىٰ حَقِيقَةٍ مُدْرَكَةٍ.

إِنَّمَا ذَلِكَ.. تَوْحِيدُ ذَلِكَ الشَّخْصِ، أَعْنِي: حَظُّهُ مِنَ الكَشْفِ.

مُتَنَاهٍ.. لاَ يَحْصُرُ مَا لاَ يَتَنَاهَىٰ، مُحْدَثٌ.. لاَ يُدْرِكُ قَدِيماً، إِنَّمَا هِيَ مَوَاهِبُ الكَشْفِ.

لَوْ ثَبَتُوا مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ حَقِيقَةٍ.. لَبَلَغُوا إِلَىٰ غَايَةِ التَّرَقِّي مِنَ المَطَالِبِ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ الغَايَةِ تَرَقٍّ، وَلاَ بَعْدَ كَمَالِ المَعْرِفَةِ زِيَادَةٌ.

وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ.. لَمَا قِيلَ لأَكْمَلِهِمْ عِلْماً، وَأَعْظَمِهِمْ كَشْفاً، وَأَرْقَاهُمْ مَنْزِلَةً، وَأَعْلاَهُمْ حَالاً: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

رُوِيَ عَنْهُ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ : « كُلَّ يَوْمٍ لاَ أَزْدَادُ فِيْهِ عِلْماً يُقَرِّبُنِي إِلَىٰ خَالِقِي . . فَلاَ بَارَكَ اللهُ فِي صُحْبَةِ ذَلِكَ اليَوْمِ »[١] .

إِذَا كَانَ مِثْلُ ذَلِكَ المُحْتَشَمِ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ ، وَهُوَ فِي دَرَجِ التَّرَقِّي ، لاَ فِي مَنْزِلِ الوُصُولِ الغَائِيِّ .

وَلَوْ كَانَ ثَمَّ غَايَةٌ . . لَكَانَتْ نِهَايَةً ، وَلَوْ تَنَاهَىٰ . . لانْحَصَرَ ، وَلَوِ انْحَصَرَ . . لَتَجَزَّأَ ، وَلَوْ تَجَزَّأَ . . لَفَنِيَ ، وَلَوْ حَصَرَهُ سِوَاهُ . . لَكَانَ أَعَمَّ مِنْهُ .

وَالحَدَثُ . . لاَ يَكُونُ أَعَمَّ مِنَ القِدَمِ .

وَكُلُّ هَذِهِ التَّقْدِيْرَاتِ . . مُسَامَحَةٌ لَفْظِيَّةٌ ، وَتَقْدِيْرَاتٌ كَلاَمِيَّةٌ ، وَسُوءُ عَادَاتٍ جَدَلِيَّةٍ ، وَإِلاَّ :

فَمَنْ عِنْدَهُ خَبَرٌ مِنْ ذَوْقِ الحَقَائِقِ . . يَسْتَغْنِي عَنْ هَذِهِ المُسَامَحَاتِ اللَّفْظِيَّةِ ، بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الشَّوَاهِدِ البُرْهَانِيَّةِ ، وَالبَرَاهِيْنِ القَطْعِيَّةِ .

وَيَعْلَمُ بِحَقِيْقَةِ حَالِهِ : أَنَّ بِضَاعَتَهُ العَجْزُ ، وَغَايَتَهُ القُصُورُ ، وَمَنْ يَدُهُ فِي المَاءِ إِلَىٰ زَنْدِهِ ، يَعْرِفُ حَرَّ المَاءِ مِنْ بَرْدِهِ .

فَكُلُّ مَا تَرْجَمَ عَنْهُ لِسَانٌ ، أَوْ كَشَفَ عَنْهُ بَيَانٌ ، أَوِ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ جَنَانٌ[٢] . . فَنِهَايَتُهُ مَحْصُورَةٌ ، وَغَايَتُهُ مُدْرَكَةٌ ، حَتَّىٰ تَصِلَ الأُمُورُ بِأَرْبَابِهَا إِلَىٰ العَجْزِ وَالتَّقْصِيْرِ ، فَيَقُولَ سَيِّدُهُمْ :

---

(١) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١ : ٣٥١ . « رواه الطبراني في « الأوسط » ، وفيه : الحَكَمُ بنُ عبدِ اللهِ ، قال أبو حاتم : كذَّاب » .

(٢) أي : قلبٌ ، « مختار » ص(١١٤) ، مادة : « جنن » .

« لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »[١] .

وَيَقُولُ الآخَرُ[٢] : « العَجْزُ عَنِ دَرْكِ الإِدْرَاكِ . . إِدْرَاكٌ » .

وَهَذَا إِشْعَارٌ بِعَدَمِ حَاصِلٍ مُتَحَقِّقٍ مِنْ جِنْسِ الشَّاهِدِ ، مَعَ إِثْبَاتِ وُجُودِهِ المُنَزَّهِ عَمَّا يَقُومُ فِي الشَّاهِدِ ؛ لأَنَّ فِيهِ كَافَ الخِطَابِ لِلْمُخَاطَبِ .

أَيْ : عَرَفْتُ وُجُودَكَ ، وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَىٰ إِحْصَاءِ صِفَاتِكَ ، وَلاَ إِدْرَاكِ ذَاتِكَ .

فَمِنْ ضَرُورَةِ وُجُودِي . . وُجُودُكَ ؛ لأَنِّي مَعْلُومُكَ ، وَأَنْتَ القَائِمُ بِي ، فَلَزِمَنِي الاعْتِرَافُ بِكَ مِنْ حَيْثُ لاَ يُمْكِنُنِي جَحْدُهُ .

فَنَاقَصَنِي تَجَلِّيكَ فِيَّ بِي مِنْ حَيْثُ ضَرُورَةُ فَقْرِي إِلَيْكَ وَفَاقَتِي ، وَشَاهِدُ نَقْصِي ، وَلُزُومُ قُصُورِي وَعَجْزِي .

فَطَلَبْتُ صِفَاتِ كَمَالِكَ الَّتِي لاَ تَتَنَاهَىٰ بِصِفَاتِ نَقْصِي المُتَنَاهِيَةِ ، فَلَمْ أُطِقْ لَكَ قَدْراً .

وَنَادَتْنِي سُبُحَاتُ جَلاَلِكَ مِنْ وَرَاءِ سُرَادِقَاتِ عَظَمَتِكَ : أَيُّهَا المُحْدَثُ المُتَنَاهِي ، اِرْجِعْ إِلَىٰ مَحَلِّ حَدَثِكَ قَسْراً ، فَلَقَدْ حَاوَلْتَ أَمْراً إِمْراً[٣] .

---

(١) مرّ تخريجه ص (٢٩٤) .

(٢) هو سيِّدُنا أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه ، كما في « المُفْهِم » ٢ : ٩٠ ، للإمام أبي العباس ، أحمدَ بنِ عمرَ القُرْطبيِّ ، رحمةُ الله عليه .

(٣) أي : عجباً ، قاله القتبيُّ في « تفسير القرآن » ص (٢٦٩) .

وقيل : مُنْكراً ، قاله مجاهد في « تفسيره » ١ : ٣٧٩ .

ومنه قولُهُ تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ . [الكهف : ٧١] .

فَعَجَبٌ لِي كَيْفَ أَطْلُبُكَ وَأَنْتَ مَعِي ؟ وَكَيْفَ لاَ أَشْهَدُكَ وَأَنْتَ عِنْدِي ؟! .

أَعْجَبُ مِنْهُ كَيْفَ أَعْرِفُكَ وَلَسْتَ بِمُجَانِسٍ لِمَعْرُوفٍ ، وَلاَ مُشَاكِلٍ لِمَأْلُوفٍ ، وَلاَ مُتَنَاهٍ فَتَحْصَرُ ، وَلاَ بِجَسَدٍ فَتَصَوَّرُ ، وَلاَ بِذِي صُورَةٍ فَتُبْصَرُ! .

فَمِنْ أَيْنَ تُعْرَفُ أَوْ تُقَدَّرُ ؟ فَلَسْتَ بِغَائِبٍ فَتُطْلَبُ ، وَلاَ بِحَاضِرٍ فَتُدْرَكُ ، وَلاَ ظَاهِرٍ فَتُنَالُ ، وَلاَ بَاطِنٍ فَتُنْكَرُ وَتُحَالُ ، وَلاَ مَقِيسٍ فَتُتَصَوَّرُ بِمِثَالٍ :

فَيَا غَائِبَاً حَاضِرَاً فِي الفُؤَادِ فَدَيْتُكَ مِنْ غَائِبٍ حَاضِرِ

أَنْتَ قَرِيبٌ مِنْ حَيْثُ ضَرُورَةُ وُجُودِ الأَشْيَاءِ بِكَ ، فَلاَ أَقْرَبَ مِنْكَ .

بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ لاَ مُنَاسَبَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا ، فَلاَ أَبْعَدَ مِنْكَ :

فَقُلْتُ لأَصْحَابِي: هِيَ الشَّمْسُ ضَوْءُهَا قَرِيبٌ ، وَلَكِنْ فِي تَنَاوُلِهَا بُعْدُ

يَا عَجَبَاً كُلَّ العَجَبِ! مِمَّنْ يُنْكِرُ مَا أَقُولُ ، وَبَاعُ هِمَّتِهِ إِلَىٰ تَنَاوُلِ الفَهْمِ . . لاَ يَطُولُ[1] ، وَشَمْسُ عَقْلِهِ أَبَدَاً فِي أُفُولٍ[2]! .

أَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الشَّاهِدِ ظَاهِرٌ بَاطِنٌ ، وَبَاطِنٌ ظَاهِرٌ ؟! .

أَلَيْسَ نُورُ الشَّمْسِ إِذَا انْتَشَرَ عَلَىٰ مَبْسُوطٍ مِنَ الأَرْضِ . . ظَهَرَتْ بِهِ الأَلْوَانُ وَالأَشْكَالُ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ مَا كَانَ مَخْفِيَّاً ، وَبَرَزَ بِهِ مَا كَانَ مُحْتَجِبَاً ؟! .

---

(١) البَاعُ : هو مسافةُ ما بينَ الكَفَّيْنِ إذا بَسَطْتَهُما يميناً وشمالاً ، « مصباح » ص (٦٦) ، مادة : « بوع » .

(٢) أي : غياب ، « مختار الصِّحاح » ص (١٩) ، مادة : « أفل »

فَإِذَا بَرَزَتْ صُوَرُ الأَشْيَاءِ وَأَشْكَالُهَا بِهِ .. خَفِيَ عَلَىٰ النَّاظِرِينَ وُجُودُهُ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ .

إِنَّمَا خَفِيَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ وَٱحْتَجَبَ لِإِشْرَاقِ نُورِهِ

وَلَقَدْ ظَنَّ قَوْمٌ مِمَّنْ لاَ عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِحَقَائِقِ الأَشْيَاءِ : أَنْ لَيْسَ ثَمَّ مَعَ الأَلْوَانِ وَالأَشْكَالِ شَيْءٌ زَائِدٌ عَلَيْهَا ، وَأَنَّهَا ظَاهِرَةٌ بِذَوَاتِهَا ، حَتَّىٰ هَجَمَ عَلَيْهِمُ الظِّلُّ بِٱمْتِدَادِهِ ، وَأَرْخَىٰ الظَّلاَمُ سُدُولَهُ ، وَجَرَّ عَلَيْهِمْ كَلاَكِلَهُ(١) ، فَأَدْرَكُوا تَفْرِقَةً ضَرُورِيَّةً بَيْنَ النُّورِ وَالضَّوْءِ(٢) ، وَعَلِمُوا بَعْدَ ذَٰلِكَ أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ وَاضِحَةً بِذَوَاتِهَا .. لَمَا جَازَ أَنْ تَخْفَىٰ وَتَنْتَشِرَ ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ المُوَضِّحَ لَهَا غَيْرُهَا ، وَإِنَّمَا خَفِيَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ ، وَٱحْتَجَبَ لِإِشْرَاقِ نُورِهِ ، فَقَدْ بَطَنَ فِي ظُهُورِهِ لِشِدَّةِ الظُّهُورِ ، وَبَعُدَ فِي قُرْبِهِ لِإِفْرَاطِ القُرْبِ ، وَظَهَرَ بِذَاتِهِ فِي بُطُونِهِ .

وَكَيْفَ لاَ يَكُونُ ظَاهِراً ، وَمَا ظَهَرَتِ الأَلْوَانُ وَالأَشْكَالُ إِلاَّ بِهِ ، وَقُرْبُ فِي بُعْدِهِ عَنِ الإِدْرَاكِ ؟! .

وَكَيْفَ لاَ يَكُونُ قَرِيباً وَإِدْرَاكُهُ قَبْلَ إِدْرَاكِ مَا أُدْرِكَ بِهِ ؟! .

واللَّبِيبُ .. يَعْلَمُ أَنَّ نُورَ الشَّمْسِ هُوَ الوَاضِحُ فِي نَفْسِهِ ، المُوَضِّحُ لِغَيْرِهِ .

---

(١) أي : جَمَاعَتَهُ ، « لسان » ١٣ : ١٠٤ ، مادة : « كلل » .

(٢) النُّورُ وَالضَّوْءُ : هُما الضِّيَاءُ ، « مختار الصّحاح » ص (٦٨٤) ، مادة : « نور » ، ص (٣٨٥) ، مادة : « ضوأ » .

وَيَعْلَمُ أَنَّ الأَلْوَانَ وَالأَشْكَالَ بِتَجَلِّيهِ ظَهَرَتْ ، وَبِإِشْرَاقِهِ أَشْرَقَتْ ، وَهِيَ مُظْلِمَةٌ فِي ذَاتِهَا ، إِذِ الأَجْسَامُ الصُّلْبَةُ الكَثِيفَةُ . . مُظْلِمَةٌ بِطَبْعِهَا وَجِبِلَّتِهَا ، وَالنُّورُ مُسْتَعَارٌ لَهَا مِنْ غَيْرِهَا .

وهَذَا رُبَّمَا حَرَّكَ لِفَهْمِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ »[1]

فَالظُّهُورُ الحَقِيقِيُّ . . المُظْهِرُ لاَ المَظْهَرُ .

فَأَوَّلُ مَا ثَبَتَ فِيهِمْ . . المَعَارِفُ إِلَىٰ المُظْهِرِ لاَ إِلَىٰ المَظْهَرِ .

فَرُبَّمَا غَابَتْ رُؤْيَةُ الأَشْكَالِ وَالأَلْوَانِ عَنْهُ ، وَقَالَ : لاَ مَوْجُودَ إِلاَّ النُّورُ ، بِخِلاَفِ اعْتِقَادِ الجَاهِلِ .

وَهَذَا رُبَّمَا حَرَّكَ لِفَهْمِ قَوْلِ الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ ، عِنْدَ رُؤْيَةِ الكَوَاكِبِ وَالشَّمْسِ وَالقَمَرِ : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ؟ .

وَرَدَّ وَعَبَّرَ عَنِ المَفْطُورِ إِلَىٰ الَّذِي فَطَرَ ، إِلَىٰ قَوْلِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

مَا رَأَيْتُ شَيْئاً . . حَتَّىٰ رَأَيْتُ اللهَ قَبْلَهُ .

وَإِلَىٰ سِرِّ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

وَالبَلِيدُ . . بِالضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ ، لاَ يَرَىٰ غَيْرَ الأَلْوَانِ وَالأَشْكَالِ ، وَيَقِفُ مَعَهَا ، وَلاَ يَشْهَدُ مُظْهِرَهَا .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٤) ، وقال : « هذا حديث حسن » .

وَهَذَا مَنْكُوسٌ عَلَىٰ رَأْسِهِ ، مُكِبٌّ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، مَرْدُودٌ عَلَىٰ عَقِبِهِ ؛ لأَنَّهُ يَنْظُرُ بِالضِّدِّ مِنْ نَظَرِ الأَوَّلِ الَّذِي شَاهَدَ عَيْنَ الحَقِيقَةِ .

وَرُبَّمَا هَزَّكَ هَذَا لِفَهْمِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ :

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

فَإِنْ تَرَقَّىٰ العَامِيُّ الجَاهِلُ ، وَالغُمْرُ الغَافِلُ[١] ، عَنْ رُتْبَةِ الوُقُوفِ مَعَ الصُّوَرِ وَالأَشْكَالِ ، إِلَىٰ النَّظَرِ وَالاسْتِدْلَالِ ، وَأَدْرَكَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ مَا يَظْهَرُ بِذَاتِهِ ، وَبَيْنَ مَا يَظْهَرُ بِغَيْرِهِ عِنْدَ حُلُولِ الحِجَابِ ، وَظُهُورِ ضِدِّ الضِّيَاءِ مِنَ الظَّلَامِ ، وَتَجَلَّىٰ لَهُ وَصَرَفَ الصُّوَرَ وَالأَجْسَامَ ، فَقَامَ عِنْدَهُ البُرْهَانُ الحَقِيقِيُّ ، وَالدَّلِيلُ القَطْعِيُّ ، عَلَىٰ كَوْنِهَا مُظْلِمَةً لَا تَرَىٰ ذَاتَهَا وَلَا غَيْرَهَا ، وَأَنَّهُ لَوْلَا وُجُودُ شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهَا هُوَ المُسَمَّىٰ نُوراً .. مَا ظَهَرَتْ لِلْعِيَانِ ، وَلَا تَمَيَّزَتْ مِنْهَا الصُّوَرُ وَالأَلْوَانُ ، وَالمَقَادِيرُ وَالأَشْكَالُ ، وَذَلِكَ النُّورُ غَيْرُ حَالٍّ فِيهَا ، وَلَا نَاءٍ عَنْهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ مُشْرِقٌ عَلَيْهَا ، مُظْهِرٌ لَهَا ..

كَانَ حِينَئِذٍ مِنْ أَرْبَابِ الإِرَادَةِ المَحْصُورِ نَظَرُهُمْ فِي الآفَاقِ المَحْدُودَةِ ، وَالأَقْطَارِ المَحْصُورَةِ .

إِذْ لَمْ يَعْرِفِ النُّورَ لِنَفْسِهِ دُونَ نِسْبَتِهِ ، وَرُبَّمَا هَزَّكَ هَذَا لِفَهْمِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ، فَهَؤُلَاءِ فِي ثَانِي رُتْبَةٍ .

---

(١) **الغُمْرُ** : الذي لم يُجَرِّبِ الأُمُورَ ، « مختار الصحاح » ص (٤٨٠) ، مادة : « غمر » .

فَمَنْ شَهِدَ الأَشْيَاءَ بِالنُّورِ ، لاَ النُّورَ بِالأَشْيَاءِ . فَهَذَا يَتَرَقَّى مِنْ أَسْفَلَ إِلَىٰ فَوْقٍ ، وَذَاكَ يَنْزِلُ مِنْ فَوْقٍ إِلَىٰ أَسْفَلَ .

فَذَاكَ إِلَىٰ النُّورِ يَنْظُرُ ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَىٰ مَا بِالنُّورِ ظَهَرَ مِنَ الأَشْكَالِ وَالصُّوَرِ ، وَاسْتَحَقَّ أَنْ يَتَقَدَّمَ فِي التَّعْلِيمِ وَالسَّيْرِ عَلَىٰ أَرْبَابِ الاسْتِدْلاَلِ ، لِيُوَضِّحَ لَهُمْ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ وَاسْتَتَرَ .

وَلِهَذَا سُمِّيَ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ ذِكْرًا ۞ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ .

يُنَبِّهُهُمْ عَلَىٰ كُلِّ مَوْجُودٍ أَنَّهُ مِنْ حَيْثُ ذَاتُهُ . . عَدَمٌ ، كَالأَجْسَامِ الَّتِي هِيَ بِذَوَاتِهَا ظُلَمٌ ، وَإِنَّمَا بِإِشْرَاقِ النُّورِ ظَهَرَتْ .

كَذَلِكَ عَالَمُ الحَدَثِ بِأَسْرِهِ ظُلْمَةٌ ، خَلَقَ الخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ، وَتَجَلَّىٰ وُجُودُ المُحْدِثِ لَهُ فِيهِ بِإِيجَادِهِ لَهُ نُورًا ، فَلَوْلاَ سَرَيَانُ نُورِ وُجُودِهِ فِي العَالَمِ بِأَسْرِهِ . . لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ ظَاهِرٌ .

وَذَلِكَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ نُورِهِ . . بِمَنْزِلَةِ الرَّشِّ ، لاَ بِمَنْزِلَةِ القَبْضِ وَالاسْتِتَارِ .

ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ : فَمَنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ . . انْتَعَشَ ، وَمَنْ بَقِيَ فِي ظُلُمَاتِ طَبْعِهِ ، وَظِلِّ قَالِبِ جِسْمِهِ . . كَانَ كَالمُنْطَلِقِ :

﴿ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۞ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ .

وَشُعَبُ الجِسْمِ . . ثَلاَثَةٌ : الطُّولُ ، وَالعَرْضُ ، وَالعُمْقُ .

نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الرَّدِّ إِلَيْهِ ، وَالسِّجْنِ فِيهِ ، إِذْ هُوَ دُنْيَا الإِنْسَانِ ؛ فَإِنَّ مَا ظَهَرَ

لِلْعِيَانِ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ والمُلْكِ . . فَهِيَ الدُّنْيَا ، وَمَا بَطَنَ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ وَالمَلَكُوتِ . . فَهِيَ الآخِرَةُ الَّتِي يُرَدُّ العَبْدُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَوْتِهِ .

وَأَظْهَرُ الأَشْيَاءِ عِنْدَ الإِنْسَانِ . . جِسْمُهُ ، إِذْ هُوَ أَقْرَبُ أَجْسَامِ العَالَمِ إِلَيْهِ ، وَالأَقْرَبُ . . هُوَ الأَدْنَىٰ .

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الدُّنْيَا دُنْيَا . . لِدُنُوِّهَا مِنَ العَبْدِ .

فَأَقْرَبُ أَحْوَالِ الإِنْسَانِ إِلَيْهِ . . دُنْيَاهُ ، وَأَبْعَدُ أَحْوَالِهِ إِلَيْهِ . . أُخْرَاهُ ؛ لأَنَّهَا قُصْوَىٰ ، فَتَأَخَّرَتْ عَنْ أَنْ تَنْكَشِفَ لَهُ إِلاَّ بَعْدَ المَوْتِ ، حِينَ يُقَالُ لَهُ :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، وَيَقُولُ هُوَ :

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ ﴿ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ ، فَيُقَالُ لَهُ :

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ .

فَظَاهِرُ أَحْوَالِكَ . . مُشَاهَدَةُ دُنْيَاكَ الحَقِيقِيَّةِ ، وَأَظْهَرُهَا عِنْدَكَ . . مَا تَعَلَّقَ بِجَوَارِحِكَ مِنْ لَذَّاتِكَ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَشَهَوَاتِكَ الحِسِّيَّةِ .

فَهِيَ تَحْبِسُكَ عَنِ السَّفَرِ إِلَىٰ حَضْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَتَعْقِلُكَ عَنْ وَطْءِ الحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ إِذِ : « الدُّنْيَا . . سِجْنُ المُؤْمِنِ ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ »[1] .

الَّذِي آمَنَ وَتَحَقَّقَ . . إِنَّمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ ، وَالمَقَامِ الكَرِيمِ : أَشْرَفُ مِمَّا يُفَارِقُهُ .

---

(١) رواه أحمد ٢ : ٣٢٣ ، ومسلم (٢٩٥٦) ، والترمذي (٢٣٢٤) ، وابنُ ماجه (٤١١٣) .

وَجَنَّةُ الكَافِرِ الَّذِي كُفِرَ عَقْلُهُ[1] ، أَيْ : غُطِّيَ وَحُجِبَ عَنْ مُلاَحَظَةِ جَمَالِ قُدْسِ اللاَّهُوتِ الأَكْبَرِ[2] .

وَلاَ يُمْكِنُ الإِنْسَانُ الاطِّلاَعُ المُجَرَّدُ عَنِ الشَّوَائِبِ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَجْسَامِ المُظْلِمَةِ عَلاَقَةٌ أَلْبَتَّةَ .

وَأَيُّ لَذَّةٍ لِمَنْ هُوَ فِي السِّجْنِ أَوْ تَصَرُّفٍ أَوْ كَشْفٍ ؟ .

وَالقُلُوبُ المَوْقُوفَةُ مَعَ مُلاَحَظَةِ الأَجْسَامِ . عَابِدَةُ الأَصْنَامِ ، والجِسْمُ دُنْيَا ، وَالإِيْمَانُ . صِفَةُ القَلْبِ ، وَهُوَ المُؤْمِنُ[3] .

فَالدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ عَلَى الحَقِيْقَةِ .

فَالجِسْمُ سِجْنُ القَلْبِ الَّذِي هُوَ المُؤْمِنُ ، فَمَتَى تَخَلَّصَ مِنْ عَلاَئِقِهِ ، وَنَجَا مِنْ آفَاتِهِ وَبَوَائِقِهِ . سَلِمَ مِنْ كُلِّ الآفَاتِ ، وَنَجَا مِنْ جَمِيْعِ المَخَافَاتِ ، وَخَرَجَ إِلَى النُّورِ مِنَ الظُّلُمَاتِ ، ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ :

وَمَا كُلُّ جِسْمٍ غَيْرُ سِجْنٍ لأَهْلِهِ وَآخِرُ آفَاتِ النُّفُوسِ وَفَاتُهَا
وَلَوْ عَلِمَ الإِنْسَانُ مَا المَوْتُ أَيْقَنَتْ نُفُوسُ الوَرَى أَنَّ المَمَاتَ حَيَاتُهَا

* * *

---

(١) الكَفْرُ : هو التَّغْطِيَةُ ، « مختار الصّحاح » ص (٥٧٣) ، مادة : « كفر » .

(٢) اللاَّهُوتُ : أي : الإلهيّةُ ، وعِلْمُ اللاَّهوتِ . عِلْمٌ يبحثُ عن العقائدِ المتعلقةِ باللهِ .

واللاَّهُوتِيُّ : العالِمُ بالعقائدِ المتعلّقةِ باللهِ ، « المعجم الوسيط » ٢ : ٨٤١ .

(٣) أي : القلبُ .

فَمَا أَظْلَمَ هَذَا القَالَبَ عَلَىٰ أَرْبَابِهِ! وَمَا أَحْجَبَهُ لِلأَنْوَارِ! .

فَالوَاقِفُ مَعَهُ مَحْصُورٌ فِي الأَقْطَارِ ، مَسْجُونٌ بَيْنَ جُدْرَانِ المِسَاحَةِ وَالمِقْدَارِ ، بَيْنَ الطُّولِ وَالعَرْضِ وَالعُمْقِ ، وَهِيَ ثَلاَثُ شُعَبٍ مُظْلِمَةٍ حَاجِبَةٍ حَاصِرَةٍ أَرْضِيَّةٍ نَاسُوتِيَّةٍ[1] ظُلْمَانِيَّةٍ مِنْ تِلْقَائِهَا .

ضَلاَلُ مَنْ وَقَفَ مَعَ عَالَمِ الأَجْسَامِ وَالصُّوَرِ

ضَلَّ النَّصَارَىٰ فِي التَّثْلِيثِ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُجَاوِزُوا عَالَمَ الأَجْسَامِ ، وَلاَ قُسِمَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الرَّشِّ المَذْكُورِ[2] نَصِيبٌ مَعَ أَرْبَابِ الأَقْسَامِ .

فَلاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ حُجِبُوا بِظَوَاهِرِ الصُّوَرِ ، وَاغْتَرُّوا بِظُهُورِ الأَثَرِ ، وَعَمُوا عَمَّا بَطَنَ بِمَا ظَهَرَ ، كَمَا عَمِيَ مَنْ قَصَرَ نَظَرَهُ عَلَىٰ الأَلْوَانِ وَالأَشْكَالِ دُونَ النُّورِ المُوَضِّحِ لَهَا النَّظَرُ :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ .

وَإِنَّمَا كَانَ سَبَبُ حَجْبِهِمْ فِي الآخِرَةِ قُصُورَ نَظَرِهِمْ فِي الدُّنْيَا :

﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

وَإِنَّمَا كَانَ أَضَلَّ سَبِيلاً .. لأَنَّ فِي الدُّنْيَا .. يُرْجَىٰ لَهُ الإِبْصَارُ لإِمْكَانِ ذَلِكَ فِيهِ ، وَفِي الآخِرَةِ قَدْ حَصَلَ عَلَىٰ قِسْمِهِ ، وَوَقَفَ عَلَىٰ حَقِيقَةِ اسْمِهِ ، ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ .

---

(١) أي : طبيعتُها مُظْلِمَةٌ ، « المعجم الوسيط » ٢ : ٨٤١ .

(٢) مرَّ بِكَ ص (٣٠٠) .

فَحَقِيقَةُ ٱسْمِهِ . الشَّقَاوَةُ لاَ السَّعَادَةُ ، إِذْ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ طُرُقُ الاسْتِفَادَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ فِي أَحْوَالِهِ نُقْصَانٌ وَلاَ زِيَادَةٌ .

فَهُوَ بِهَذَا الوَجْهِ أَضَلُّ سَبِيلاً ، وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ بِمَا ٱتَّصَفَ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي أَضْيَقِ مَكَانٍ وَأَقْبَحِ مَقِيلاً .

فَنَارُ الحَسْرَةِ وَالخِزْيِ . . تَتَلَظَّىٰ فِي بَاطِنِهِ بِمَا حُرِمَهُ مِنْ رُوحِ المَعْرِفَةِ ، وَلِمَا فَاتَهُ مِنْ سَعَةِ العِلْمِ وَلَذَّةِ المُشَاهَدَةِ ، بِرُكُونِهِ إِلَىٰ عَالَمِ الصُّوَرِ المُجَسَّمَةِ المُظْلِمَةِ .

وَعِنْدَهَا يَسْتَرِيحُ[١] عِنْدَ ٱلْتِهَابِ نِيرَانِ الحَسْرَةِ وَإِنْ كَانَتْ لاَ تُظِلُّهُ وَلاَ تُغْنِيهِ مِنْ لَهَبِ تِلْكَ النِّيرَانِ ، بَلْ تَحْصُرُهُ وَتَمْنَعُهُ عَنِ الانْطِلاَقِ إِلَىٰ سَعَةِ العِلْمِ وَفَضَائِلِ المَعْرِفَةِ بِشُعَبِهَا

وَمِنْ هَٰذِهِ النِّيرَانِ حُذِّرَ ، وَعَلَيْهَا نُبِّهَ وَأُنْذِرَ :

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

والتَّكْذِيبُ لاَ يَكُونُ إِلاَّ مَعَ الحِجَابِ ، وَالتَّوَلِّي لاَ يَكُونُ إِلاَّ مَعَ الغَفْلَةِ .

فَلَوْ سَمِعَ المُكَذِّبُونَ نِدَاءَ الحَقِّ مِنْ بَوَاطِنِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِمَ كَذَّبُوا بِهِ . . لآمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ الَّذِينَ يَقُولُونَ :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ .

وَذَلِكَ النِّدَاءُ لاَ يَزُولُ مِنْ قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ مُوَحِّدٍ بِاللهِ وَرَسُولِهِ

فَلَوْ عَقِلُوا حَقِيقَتَهُ . . لَسَمِعُوا ، وَلَكِنْ جَهِلُوا وَأَنْكَرُوا

---

(١) هذه الاستراحةُ للتوبيخ ، لا للإكرامِ ؛ لأنَّ ما بعدها نارٌ تلظَّىٰ ، فافهم .

فَإِذَا كُشِفَ الغِطَاءُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَأُحْرِقُوا بِسَعِيرِ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ . . عَلِمُوا حَقِيقَةَ الدَّرَجَةِ لِذَلِكَ الصَّدْرِ المُحْتَشَمِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ :

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

فَإِذَا تَحَقَّقُوا مَا السَّمَاعُ وَمَا الإِبْصَارُ ، وَأَنَّهُ يُسْتَغْنَىٰ فِيهِ عَنِ القَوَالِبِ الجِسْمَانِيَّةِ مِنَ الأَصْمِخَةِ وَالأَبْصَار . . ﴿ قَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ .

وَلاَ يُعْذَرُونَ لِعَدَمِ السَّمْعِ وَالإِبْصَارِ فِي هَذِهِ الدَّارِ! فَإِنِ اعْتَذَرُوا بِهِ . . كَانَ مِنْ أَشَرِّ الأَعْذَارِ .

وَكَيْفَ يُقْبَلُ مِنْهُمُ العُذْرُ وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِالإِعْذَارِ وَالإِنْذَارِ ؟![1] .

أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ـ لَوْ قَبِلُوا ـ مَنْ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ الأَنْوَارِ .

فَكُلُّ الأَنْبِيَاءِ . . أُنْزِلُوا مِنْ رُتَبِهِمْ إِلَىٰ مُخَاطَبَةِ الجُهَّالِ وَالكُفَّارِ .

وَخُصِّصَتْ هَذِهِ الأُمَّةُ بِنَبِيِّهِمُ المُخْتَارِ ، المُنْبِىءِ بِمَنَاهِجِ الأَبْرَارِ ، وَالمُحَذِّرِ مِنْ طُرُقِ الأَشْرَارِ ، وَالمُظْهِرِ بَوَاطِنَ الأَسْرَارِ .

﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .

---

(١) الإِعْذَارُ : طعامٌ يُتَّخَذُ لِسُرورٍ حادثٍ ، « مصباح » ص (٣٩٩) ، مادة : « عذر » .

مِنْ ظُلُمَاتِ الوُقُوفِ مَعَ تَقْلِيدِ الآبَاءِ الضَّالِّيْنَ ، وَالمُعَلِّمِيْنَ المُبْتَدِعِيْنَ ، حَيْنَ قَالَ النَّاسُ :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : يَا مُحَمَّدُ! ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ .

وعَلَىٰ مَاذَا وَجَدُوا آبَاءَهُمْ ؟ :

أ ـ قَوْمٌ عَلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ المُظْلِمَةِ الجِسْمَانِيَّةِ ، الكَثِيْفَةِ العَارِيَةِ مِنْ جَمِيْعِ مَعَانِي الحَيَوَانِيَّةِ .

ب ـ وَقَوْمٌ عَلَىٰ عِبَادَةِ المَسِيْحِ قَدْ وَقَفُوا مَعَ مَا أُبْدِيَ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، وَنَظَرُوا بِعَيْنِ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَعْرِفُوا مِنْهُ غَيْرَ نَاسُوْتِهِ[1] المُسَخَّرِ فِي الحَرَكَةِ لإِظْهَارِ مَا يُلْقِي رُوْحُ القُدُسِ إِلَىٰ بَاطِنِهِ مِنَ الوَحْيِ الإِلٰهِيِّ ، وَالإِلْهَامِ الرَّبَّانِيِّ ، لِتَظْهَرَ القُدْرَةُ الإِلٰهِيَّةُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، وَتَبْرُزَ العَجَائِبُ المُعْجِزَةُ الرُّوحَانِيَّةُ الخَارِجَةُ عَنِ المَأْلُوفَاتِ العَادِيَّةِ ، وَالمُدْرَكَاتِ بِالعِلَلِ الطَّبِيْعِيَّةِ ، وَالمُفْعِلاتِ بِالخَاصِّيَّةِ الإِلٰهِيَّةِ .

وَذَلِكَ بِكَلِمَةِ اللهِ لَهُ ، وَهِيَ الكَلِمَةُ التَّامَّةُ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ .

والكَلِمَةُ . . ظَهَرَ بِهَا مَا ظَهَرَ ، فَبِالكَلِمَةِ أُمِدَّ ، وَبِرُوحِ القُدُسِ أُيِّدَ : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ .

---

(١) أي : غير طبيعته .

كَانَ المَسِيحُ وَأَفْعَالُهُ ، وَهِيَ كَلِمَةُ اللهِ الَّتِي أُلْقِيَتْ إِلَى مَرْيَمَ ، فَهُوَ الكَلِمَةُ ، وَبِالكَلِمَةِ كَانَ ، وَعَلَى يَدَيْهِ ظَهَرَتِ الكَلِمَةُ بِقَوْلِهِ لِلشَّيْءِ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ؛ لأَنَّهُ كَانَ يُعْطِي الأَشْيَاءَ قُوَّةً رُوحَانِيَّةً ، لاَ مِنْ نَاسُوتِهِ[١] ، بَلْ مِنْ تَأْيِيدِ الرُّوحِ وَإِلْقَاءِ الأَمْرِ إِلَى المُكَوَّنَاتِ ، فَهِيَ المُسَمَّى :

﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ لأَنَّ السِّرَّ الأَوَّلَ مِنَ اللهِ ، وَإِلَى اللهِ ، وَبِاللهِ ، وَللهِ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ .

فَذَاكَ نَفْخُ ابْتِدَاءٍ بِلاَ وَاسِطَةٍ ، وَهُوَ إِعْطَاءُ أَصْلِ الفَرْعِ الإِنْسَانِيِّ ـ وَهُوَ الإِنْسَانُ الكُلِّيُّ ـ قُوَّةً قَامَتْ مِنْ وُجُودِهِ ، وَصَدَرَتْ عَنْ جَنَابِهِ ، بِمَا ظَهَرَتْ عَلَيْهِ آثَارُ رُبُوبِيَّتِهِ ، وَشَوَاهِدُ لاَهُوتِيَّتِهِ[٢] .

فَعَلِمَ بِهَا كُلَّ المَعْلُومَاتِ ، وَأَظْهَرَ بِهَا كُلَّ المُبْتَدَعَاتِ .

وَتِلْكَ القُوَّةُ الَّتِي نُفِخَتْ فِي آدَمَ . . سَارِيَةٌ فِي ذُرِّيَّتِهِ ، جَارِيَةٌ بِالدَّيْمُومِيَّةِ إِلَى الأَبَدِ .

بِهَا يَظْهَرُ عَلَى تَصَارِيفِ الحَدَثَانِ[٣] ، وَتَغَيُّرِ الجَدِيدَانِ[٤] . . مَا يَظْهَرُ مِنَ الصِّنَاعَاتِ المُخْتَرَعَاتِ ، وَالعُلُومِ المُصَنَّفَاتِ الجُزْئِيَّاتِ والكُلِّيَّاتِ .

---

(١) أي : لاَ مِنْ طبيعتِهِ .

(٢) أي : إلهيتِهِ .

(٣) وهو وُجودُ الشيءِ بعدَ أَنْ لَمْ يكنْ ، « مختار الصّحاح » ص (١٢٥) ، مادة : « حدث » .

(٤) الليل والنهار ، « مصباح » ص (٩٣) ، مادة : « جد » .

وَذَلِكَ كُلُّهُ أَثَرُ النَّفْخَةِ الَّتِي أَعْطَتْ آدَمَ قُوَّةً اطَّلَعَ بِهَا عَلَىٰ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَأَشْرَفَ بِهَا عَلَىٰ كُلِّ الأَشْيَاءِ ، وَهِيَ مَبْثُوثَةٌ فِي ذُرِّيَّتِهِ كُلِّهَا ، بَاقِيَةٌ فِي عَقِبِهِ .

أَخَذَ الأَنْبِيَاءُ ـ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ مِنْهَا بِأَوْفَىٰ حَظٍّ وَنَصِيبٍ ، وَظَهَرَتْ عَلَىٰ أَيْدِيهِمُ العُلُومُ والحِكَمُ وَالأَعَاجِيبُ ، الَّتِي كَانَتْ بِمُجَرَّدِ القُوَّةِ الَّتِي هِيَ مِنَ النَّفْخَةِ(١) ، لاَ بِعِلَلٍ طَبِيعِيَّةٍ(٢) ، وَفِعْلٍ بِالخَاصِّيَّةِ .

وَتِلْكَ فَوَائِدُ الأَزَلِ ، وَكُلٌّ يَظْهَرُ عَلَىٰ يَدَيْهِ بِقَدْرِ نَصِيبِهِ مِنَ الرَّشِّ وَالنَّفْخَةِ ، لاَ زَائِدَ عَلَىٰ ذَلِكَ ، وَهُوَ القِسْمُ الأَزَلِيُّ .

وَلَكِنْ نَالَ كُلُّ عَبْدٍ بِقَدْرِ مَا تَرَشَّحَ لِقَبُولِهِ بِالتَّهَيُّىءِ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ .

وَلاَ يَسْتَكْمِلُ الخَلْقُ ـ الَّذِي جُعِلَ لَهُمْ فِيهِ نَصِيبٌ ـ نَصِيبَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . . حَتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ غَايَةٍ تُقَارِبُ الكَمَالَ ، وَهِيَ كَمَالُهُمُ اللاَّئِقُ بِهِمْ . . إِلاَّ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ فِي الجَنَّةِ ، حِينَ يَقُولُونَ لِلشَّيْءِ عَلَىٰ الإِطْلاَقِ : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

فَعِيسَىٰ . . نَبِيٌّ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ قُسِمَ لَهُ أَوْفَرُ نَصِيبٍ عَلَىٰ قَدْرِهِ بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ وَقْتِهِ .

فَكَانَ يَفْعَلُ بِالإِذْنِ لاَ بِذَاتِهِ ؛ لأَنَّهُ مَفْعُولٌ فِيهِ ، فَاللهُ تَعَالَىٰ يَنْفُخُ مِنْ رُوحٍ

---

(١) وهو النَّفْخُ ابتداءً بِلا واسطةٍ ، كما مرَّ بك ص (٣٠٩) ، فافهم .

(٢) أي : كائنةٍ من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلامُ .

القُدُسِ[١] ، وَهُوَ يَنْفُخُ فِي الأَشْيَاءِ بِرُوحِ القُدُسِ لِمَوْضِعِ التَّأْيِيدِ بِهَا ، لاَ مِنْ ذَاتِهِ ، وَلاَ مِنْ عِنْدِهِ .

فَأَبَداً يُوقَفُ فِعْلُهُ عَلَىٰ الإِذْنِ ؛ لأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ بِالرُّوحِ .

فَلَوِ اطَّلَعُوا عَلَىٰ مَا وَرَاءَ ظَاهِرِ القُدْرَةِ مِنْ بَاطِنِ الحِكْمَةِ . . لأَشْرَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِ الإِمْدَادِ ، وَنَفَحَتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ نَسِيمِ التَّأْيِيدِ ، فَأَخَذُوا حَظَّهُمْ مِنَ النَّفْحَةِ كَمَا أَخَذَ الحَوَارِيُّونَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ :

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ ، فَبَقُوا صُمّاً بُكْماً عُمْياً ، ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ ، ﴿ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ .

ج ـ وَقَوْمٌ مَوْقُوفُونَ مَعَ عِبَادَةِ العُزَيْرِ مِنَ اليَهُودِ ، مَحْجُوبُونَ بِنَوْعٍ مِمَّا حُجِبَ بِهِ النَّصَارَىٰ ، وَكُلُّ ذَٰلِكَ ظُلْمَةٌ .

د ـ وَقَوْمٌ مِنَ اليَهُودِ يُوَحِّدُونَ وَلاَ يَعْبُدُونَ عُزَيْراً بِزَعْمِهِمْ ، وَيَشْهَدُونَ بِنُبُوَّةِ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ تَقْلِيداً وَسَمَاعاً ، لاَ كَشْفاً وَاسْتِبْصَاراً .

وَهُمْ مَحْجُوبُونَ بِظُلُمَاتِ التَّقْلِيدِ ، وَالوُقُوفِ مَعَ أَقْوَالِ الرِّجَالِ ، دُونَ مُشَاهَدَتِهِمُ الحَقَّ بِعَيْنِ اليَقِينِ .

فَلَوْ أَنَّهُمْ شَاهَدُوا الحَقَّ وَعَرَفُوهُ . . لَعَرَفُوا أَهْلَهُ ، إِذِ الرِّجَالُ يُعْرَفُونَ بِالحَقِّ ، لاَ الحَقُّ يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ .

وَلَوْ تَحَقَّقُوا مَا النُّبُوَّةُ وَمَا الرِّسَالَةُ وَمَا الإِيمَانُ ـ وَكَانُوا قَدْ عَرَفُوا مُوسَىٰ بَعْدَ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ ، لاَ النُّبُوَّةَ بَعْدَ مَعْرِفَةِ مُوسَىٰ ـ لَمَا أَنْكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ

---

(١) أي : من رُوحه .

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلأَبْصَرُوهُ كَمَا أَبْصَرُوا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ لأَنَّهُمْ عَرَفُوا الحَقَّ فَعَرَفُوا أَهْلَهُ .

وَلَكِنْ كَانُوا وَاقِفِينَ مَعَ مَا سَمِعُوا مِنْ أَخْبَارِهِ ، وَثَبَتَ عِنْدَهُمْ مِنْ ظُهُورِ القُدْرَةِ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، وَبُرُوزِ الآيَاتِ العَجِيبَةِ مُقَارِنَةً لِتَحَدِّيهِ .

فَحُجِبُوا بِظُلُمَاتِ الصُّوَرِ المُظْلِمَةِ المُجَسَّمَةِ ، وَهِيَ صُوَرُ المُعْجِزَاتِ ، فَظَنُّوا أَنَّ ذَٰلِكَ مِنْ قُدْرَةِ مُوسَىٰ وَقُوَّتِهِ وَحَوْلِهِ .

وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي أَبْدَىٰ القُدْرَةَ عَلَىٰ يَدَيْ مُوسَىٰ . . هُوَ الَّذِي أَبْدَاهَا عَلَىٰ يَدَيْ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّ الإِلَٰهَ وَاحِدٌ ، وَالدِّينَ وَاحِدٌ ، وَالأَنْبِيَاءَ وَاحِدٌ ، وَدَعْوَتَهُمْ وَاحِدَةٌ ، وَالقُدْرَةَ ظَهَرَتْ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ ، وَأَشَارَتْ إِلَيْهِمْ .

وَكُلُّ مَنْ ظَهَرَتِ القُدْرَةُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مَعَ التَّحَدِّي . . فَهُوَ صَاحِبُ الوَقْتِ ، وَنَبِيُّ الأُمَّةِ ، وَهُوَ المُحِقُّ عَلَىٰ الجُمْلَةِ .

فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ حَيْثُ الأَشْخَاصُ وَالهَيَاكِلُ ، لاَ مِنْ حَيْثُ المَعَانِي وَالحَقَائِقُ .

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ .

فَلاَ تَفْرِقَةَ بَيْنَهُمُ البَتَّةَ ، وَالعَزِيزُ المُقْتَدِرُ . . وَاحِدٌ .

أَظْهَرَ القُدْرَةَ عَلَىٰ أَشْبَاحٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَهَيَاكِلَ مُتَبَايِنَةٍ ، وَهُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ ،

غَيْرُ مُتَحَيِّزٍ ، وَلاَ مُنْقَسِمٍ ، وَلاَ حَالٌ ، وَلاَ مُتَّحِدٍ .

وَلَكِنْ تَجلَّىٰ لِعِبَادِهِ بِأَفْعَالِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَجَعَلَ إِلَيْهِ طُرُقاً ، وَالطُّرُقُ أَدِلاَّءُ ، وَلِكُلِّ دَلِيلٍ . . آيَةٌ مَخْصُوصَةٌ ، وَلِكُلِّ طَرِيقٍ . . بَابٌ مَخْصُوصٌ ، وَحِجَابٌ مَضْرُوبٌ :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ .

وَثَمَّ فِي الطُّرُقِ حُدُودٌ مَضْرُوبَةٌ ، وَأَعْلاَمٌ مَنْصُوبَةٌ ، لاَ يُمْكِنُ عُبُورُهَا إِلاَّ بِإِذْنٍ .

فَمَنْ كَانَ مَأْذُوناً لَهُ فِي تَجَاوُزِ الحَدِّ المَضْرُوبِ إِلَىٰ مَا وَرَاءَهُ . . فُتِحَ لَهُ البَابُ وَأُدْخِلَ .

وَالدُّخُولُ . . لاَ يَكُونُ إِلاَّ مَعَ الشَّرْحِ ، وَالشَّرْحُ سُئِلَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ :

« هُوَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي القَلْبِ » . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ! مَا عَلاَمَتُهُ ؟ فَقَالَ : **« التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ ، وَالإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ الخُلُودِ ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ حُلُولِ المَوْتِ »**[1] .

---

(١) رواه ابنُ أبي حاتم ٤ : ١٣٨٤ ، وابنُ جرير في « تفسيره » ٨ : ٢٧ ، والحاكم ٤ : ٣١١ بنحوه .

ورُوِيَ من طُرُقٍ أخرى كما أوردَها ابنُ كثير في « تفسيره » ٣ : ٨٧ ـ ٨٩ ـ وقال عَقِبَها :

« فهذه الطُّرُقُ لهذا الحديثِ مرسَلَةٌ ومتَّصلةٌ ، يَشُدُّ بعضُها بعضاً » . وانظر « الدُّرّ المنثور » ٣ : ٨٣ .

وَبِالشَّرْحِ النُّورَانِيِّ.. تَتَفَتَّحُ أَبْوَابُ القُلُوبِ، وَالرَّحْمَةُ.. بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ، يَفْتَحُهَا عَلَىٰ قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾، الآيَةَ

وَالنَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَحْمَةٌ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وَكَمَا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ بِالرَّحْمَةِ، الَّتِي هِيَ المَطَرُ.. انْفَتَحَتْ أَبْوَابُ الوَحْيِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّذِي هُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ، وَبَابٌ لِدُخُولِ المُتَّقِينَ.

فَكُلُّ مَا ظَهَرَتْ مِنَ القُدْرَةِ عَلَىٰ ظَاهِرٍ.. حِجَابٌ عَنِ المُظْهِرِ.

فَمَنْ جَاوَزَهُ إِلَىٰ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الأَسْرَارِ.. كَانَ مِنَ المُكَاشَفِينَ بِعِلْمِ المَلَكُوتِ، المُتَنَزِّهِينَ فِي بُحْبُوحَةِ القُدْسِ:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

وَإِلَىٰ إِرْثِ الفِرْدَوْسِ دَعَا مِصْبَاحُ الوُجُودِ، وَسِرَاجُ الكَوْنَيْنِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَجَاءَ بِمَا لَمْ يَأْتِ بِهِ سِوَاهُ مِنَ الأَسْرَارِ العَجِيبَةِ، وَالمَعَانِي الغَرِيبَةِ، وَاللُّغَةِ الفَصِيحَةِ، وَالاسْتِعَارَاتِ الصَّحِيحَةِ الشَّرِيفَةِ، وَالتَّمْثِيلَاتِ المُطَابِقَةِ، وَالإِشَارَاتِ المُوَافِقَةِ، وَالرُّمُوزِ الغَامِضَةِ، وَالكُشُوفِ الوَاضِحَةِ، وَالأَحْكَامِ الكَامِلَةِ، وَالسِّيَاسَاتِ الشَّامِلَةِ، وَالآدَابِ الجَامِعَةِ، وَالأَخْلَاقِ الطَّاهِرَةِ.

فَمَنْ كَانَ بَصِيراً .. نَظَرَ إِلَىٰ جَمَالِ بَاطِنِ الصُّورَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ ، وَرَأَىٰ انْبِسَاطَ أَنْوَارِهَا عَلَىٰ صَفَحَاتِ الآلاَءِ النَّاسُوتِيَّةِ الْجِسْمَانِيَّةِ / بِالسَّمْتِ وَالوَقَارِ ، وَالهَيْبَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالإِطْرَاقِ ، وَالتَّبَسُّمِ وَالبِشْرِ .

وَشَاهَدَ هَٰذِهِ النُّعُوتَ البَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ كُلَّهَا لِمُظْهِرِهَا ، لاَ بِهَا ؛ لِيَخْرُجَ مِنْ حَيِّزِ الَّذِينَ وَقَفُوا مَعَ ظَاهِرِ الإِبْدَاءِ ، وَحُجِبُوا بِهِ عَنِ الْمُبْدِيءِ .

وَيَعْلَمَ أَنَّ الرَّسُولَ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مُتَوَلٍّ فِي مَعْنَاهُ وَصُورَتِهِ ، وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ، لاَ مِنْهُ فِيهِ شَيْءٌ ، وَأَنَّهُ مَحْوٌ مَنْ أَثْبَتَهُ لِقِيَامِ الْمُتَوَلِّي لَهُ بِهِ ، أَلاَ تَرَىٰ كَيْفَ يَقُولُ لَهُ :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ؟ .

فَبَرَّأَهُ مِنْ فِعْلِهِ فِي فِعْلِهِ ؛ لِئَلاَّ يُحَالَ شَيْءٌ عَلَىٰ حَرَكَةِ النَّاسُوتِ الْمُسَخَّرِ ، أَوْ يُضَافَ فِعْلٌ إِلَىٰ الجِسْمِ الْمُقَدَّرِ الْمُصَوَّرِ ، أَوْ يَثْبُتَ تَصَرُّفٌ لِلْمُتَوَلَّىٰ الْمُدَبَّرِ .

فَإِذَا نَظَرَ النَّاظِرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ التَّصْرِيفِ لاَ بِعَيْنِ التَّصَرُّفِ ، وَعَلِمَ حَقِيقَةَ البَادِي وَالْمُبْدَىٰ عَلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَنْزِلَتِهِ .. وَضَحَ لَهُ الحَقُّ الصَّرِيحُ مِنْ غَيْرِ حَمْحَمَةٍ وَلاَ تَلْوِيحٍ[١] ، وَمَيَّزَ السَّقِيمَ مِنَ الصَّحِيحِ ، وَاهْتَدَىٰ بِهُدَىٰ اللهِ لاَ بِهَدْيِ البَشَرِ ، وَكَانَ مِنَ الْمُطَّلِعِينَ عَلَىٰ سِرِّ القَدَرِ ، الْمُنَزَّهِينَ عَنِ التَّقْلِيدِ الَّذِي هُوَ مَظِنَّةُ الغَرَرِ[٢] :

---

(١) الحَمْحَمَةُ : صوتُ الفَرَسِ إذا طَلَبَ العَلَفَ ، « مختار الصّحاح » ص (١٥٧) ، مادة : « حمم » .

(٢) أي : الخَطَرِ ، « مختار الصّحاح » ص (٤٧١) ، مادة : « غرر » .

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ مِنَ التَّمْثِيلِ بِظَوَاهِرِ الأَثَرِ ، وَالامْتِنَاعِ مِنَ العِيَانِ بِالخَبَرِ .

وَذَاكَ هُوَ نَقْلُكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الحَقِّ ؛ لِيَعْرِفُوا بِهِ أَهْلَهُ ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ المُقَلِّدَ لِمَا يَأْلَفُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ .. تَابِعٌ هَوَاهُ وَجَهْلَهُ .

وَهُدَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .. هُوَ مَا كُشِفَ لَكَ عَنْ حَقَائِقِ الأُمُورِ ، وَهُوَ الَّذِي يَنْكَتِبُ بِقَلَمِ العَقْلِ عَلَىٰ أَلْوَاحِ الصُّدُورِ .

﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ .

فَمَنْ أُيِّدَ بِالرُّوحِ .. عَرَفَ المُؤَيَّدَ بِالرُّوحِ ، وَعَلِمَ أَنَّ عِيسَىٰ أُيِّدَ بِرُوحِ القُدُسِ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أُنْزِلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ .. رُوحٌ .

مَنْ عَلِمَ بِهَذَا وَذَاقَهُ .. كَانَ مِنَ المُؤَيَّدِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالكُتُبِ كُلِّهَا ، وَفِيهِمْ قِيلَ :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

هُدَىٰ اللهِ .. هُوَ الهُدَىٰ ، وَلَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا أَتْبَاعُ الأَهْوَاءِ :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ اللَّدُنِّيِّ ، وَالكَشْفِ الإِلَهِيِّ .. ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، الَّذِينَ أَنْزَلُوا النَّفْسَ عَنْ رُتْبَةِ الكَشْفِ إِلَىٰ رُتْبَةِ مُوَافَقَةِ أَرْبَابِ الأَهْوَاءِ ، الَّذِينَ هُمْ فِي ظُلُمَاتِ آرَائِهِمُ المُلَطَّخَةِ بِأَوْضَارِ الطَّبِيعَةِ[1] ، المَحْجُوبَةِ فِي ظُلُمَاتِ الحِسِّ .

---

(١) أي : أوساخها ، « لسان » ١٥ / ٢٣٠ ، مادة « وضر » .

وَمَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ .. فَهُوَ مِنْهُمْ ، وَحُشِرَ مَعَهُمْ .

وَمَنْ وَافَقَ قَوْماً .. كَانَ مِنْهُمْ : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ ؟ وَبَعْدَ الكَشْفِ إِلاَّ الحِجَابُ ؟ :

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾

وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الحَيَاةَ مَشْغَلَةٌ عَنِ الحَيَاةِ القُصْوَىٰ ، وَأَنَّ المُعْرِضَ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلْحَيَاةِ الحَقِيقِيَّةِ .. نَادِمٌ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، مُحَرَّقٌ بِنَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَتَذَكَّرُ حِينَ لاَ تَنْفَعُهُ الذِّكْرَىٰ :

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ، حَتَّىٰ يَعْلَمَ أَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ هِيَ الحَيَوَانُ .

فَلَوْ كَانَ يَعْلَمُ .. لَكَانَتِ الدَّارُ الآخِرَةُ دَارَ حَيَاتِهِ ، إِذْ هِيَ حَيَاةُ العُلَمَاءِ ، وَلِهَذَا اشْتَرَطَ : ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ .

فَتَقْدِيرُ الكَلاَمِ : لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .. لَكَانَتِ الآخِرَةُ دَارَ الحَيَوَانِ فِي حَقِّهِمْ ، وَلَكِنَّ جَهْلَهُمْ حَجَبَهُمْ ، وَإِلَىٰ ظُلُمَاتِ الصُّوَرِ أَدْخَلَهُمْ ، وَفِي سِجْنِ الجِسْمِ المَحْصُورِ بِثَلاَثَةِ أَبْعَادٍ سَجَنَهُمْ[1] ، فَإِلَيْهِ يُرَدُّ ، وَفِيهِ يُعَذَّبُ .

فَلاَ بُدَّ مِنْ حَشْرِهَا ، وَذَٰلِكَ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّارِعُ مِنْ حَشْرِ الأَجْسَادِ ، وَرَدِّ الأَرْوَاحِ إِلَيْهَا عِنْدَ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِذَٰلِكَ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِقَبُولِ تَصْدِيقِهِ بِإِعْلاَمِهِ : أَنَّ مَا جَازَ ابْتِدَاؤُهُ .. لاَ يَسْتَحِيلُ إِعَادَتُهُ ،

---

(١) وهي : الطُّولُ ، والعَرْضُ ، والعُمْقُ ، كما مرَّ بكَ ص (٣٠٢) .

فَالْمُتَرَعُ أَهْوَنُ فِي الشَّاهِدِ مِنَ الْمُخْتَرَعِ : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .

وَلاَ يُحْجَبُ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَمَعْرِفَةِ مَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . إلاَّ مَنِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ وَهَوَاهُ ، فَأَضَلَّهُ عَنِ الحَقِّ وَأَغْوَاهُ ، حَتَّىٰ مَقَتَهُ الحَقُّ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَأَخْزَاهُ ، وَجَعَلَ الخُلُودَ فِي النَّارِ جَزَاءَهُ :

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ ؟ .

فَأَصْبَحُوا صُمّاً بُكْماً عُمْياً فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ .

القُرْآنُ هُوَ البَحْرُ المُحِيطُ

وَكَيْفَ يَتَدَبَّرُ القُرْآنَ . . مَنْ لاَ يَدْرِي حَقِيقَةَ القُرْآنِ ، وَلاَ إِنْزَالَ القُرْآنِ ، وَلاَ مُنْزِلَ القُرْآنِ ، وَلاَ المُنْزَلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ ؟! .

وَالقُرْآنُ . . هُوَ البَحْرُ المُحِيطُ ، وَعَلَىٰ سَوَاحِلِهِ العُودُ وَالعَنْبَرُ ، وَجَمِيعُ أَصْنَافِ الطِّيبِ ، وَأَنْوَاعُ المَعَادِنِ تُلْقَىٰ فِي وَسَطِهِ فِي الجَزَائِرِ[١] .

وَلَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ ، وَحَدٌّ وَمُطَّلَعٌ ، وَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ يُبْنَىٰ عَلَيْهَا فَهْمُ القُرْآنِ .

---

(١) جمعُ جزيرةٍ ، سُمّيَتْ بذلك . . لانْحِسَارِ الماءِ عنها ، « مصباح » ص (٩٨) ، مادة : « جزر » .

فَالظَّاهِرُ . . هُوَ التَّنْزِيلُ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ .

وَالبَاطِنُ . . هُوَ التَّأْوِيلُ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ »[1] .

وَالحَدُّ . . هُوَ الَّذِي يُتَوَقَّفُ عِنْدَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ .

وَالمُطَّلَعُ . . هُوَ مَوْضِعُ إِشْرَافِ المُكَاشَفِينَ عَلَىٰ حَقَائِقِ مَا أُرِيدَ بِهِ بِإِلْهَامِ المَلَكِ ، وَفِطْنَةِ الرُّوحِ .

وَلاَ يَشْهَدُ مَعَانِيَهُ ، وَلاَ يَطَّلِعُ عَلَىٰ حَقَائِقِهِ . . إِلاَّ مَنْ كَانَ لَهُ كَشْفٌ وَمُشَاهَدَةٌ ، وَقَلْبٌ سَالِمٌ مُسَلِّمٌ وَأَسْلَمَ :

﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

فَأَوَّلُ المَرَاتِبِ . . مَعْرِفَةُ التَّنْزِيلِ .

الثَّانِي . . مَعْرِفَةُ التَّأْوِيلِ .

وَالتَّنْزِيلُ . . يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَمْراً كَمَا جَاءَ ، لاَ يُحَرَّفُ ، وَلاَ يُبَدَّلُ ؛ لأَنَّهُ أَسَاسُ التَّأْوِيلِ .

وَالتَّأْوِيلُ . . مُنَزَّلٌ عَلَىٰ التَّنْزِيلِ ، لاَ يُخْرَجُ بِهِ عَنْ مُطَابَقَةِ التَّنْزِيلِ .

---

(١) رواه ابنُ حبّان (٧٠٥٥) ، وأحمدُ ١ : ٣٢٨ و ٣٣٥ ، والفسويُّ في « المعرفة والتاريخ » ١ : ٤٩٣ ـ ٤٩٤ ، والطبرانيُّ (١٠٥٨٧)

فَلاَ يُعْدَلُ بِمَعَانِيهِ إِلَىٰ التَّعْطِيلِ ، وَلاَ يُحَادُ بِهِ عَنْ مُوَافَقَةِ طَرِيقِ السُّنَّةِ الوَارِدَةِ عَنْ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ .

وَالرُّتْبَةُ الثَّالِثَةُ ـ وَهِيَ الوُسْطَىٰ ـ : وَهِيَ الحَدُّ المَانِعُ الجَامِعُ ، يَجْمَعُ بَيْنَ ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ ، وَبَاطِنِ التَّأْوِيلِ ، وَيَمْنَعُ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ .

وَالرُّتْبَةُ الرَّابِعَةُ . . هِيَ الاطِّلاَعُ عَلَيْهِ بِالنُّورِ المُبِينِ ، الَّذِي لاَ يُوجَدُ إِلاَّ عِنْدَ المُتَّقِينَ ، وَهُوَ تَعْلِيمُ العَزِيزِ العَلِيمِ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

فَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ مُعَلِّمُ الفَهْمِ ، وَالرَّسُولُ مُعَلِّمُ الحُكْمِ وَالحِكْمَةِ ، وَيُطْلِعُ عَلَىٰ مَعَالِمِ الفَهْمِ ، وَيُوصِلُ إِلَىٰ مَقَامِ الاطِّلاَعِ بِإِرْشَادِهِ ، إِذْ هُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ العِبَادِ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ :

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فَالرَّسُولُ . . هَادٍ بِالوَاسِطَةِ لاَ بِالتَّأْصِيلِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وَاللهُ ـ تَعَالَىٰ ـ هُوَ الهَادِي : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .

وَكَذَٰلِكَ هُوَ مُعَلِّمُ الدَّلاَلَةِ ، وَاللهُ مُعَلِّمُ الأَصَالَةِ :

﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ ، ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ .

فَرَّقَ بَيْنَ العِلْمِ وَالخَلْقِ ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ عِلْمَ اللهِ سُبْحَانَهُ ـ وَهُوَ صِفَتُهُ ـ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ ، كَتَبَهُ بِقَلَمِ العَقْلِ عَلَىٰ أَلْوَاحِ الصُّدُورِ :

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ .

فَالعَقْلُ .. مُسْتَمِدٌّ مِنَ العِلْمِ الأَزَلِيِّ ، وَهُوَ القُرْآنُ الَّذِي أُلْقِيَ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

حَصَلَ لِلرَّسُولِ بِتَعْلِيمِ جِبْرِيلَ ، وَتَعْلِيمُ جِبْرِيلَ .. هُوَ تَعْلِيمُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَعْلِيمُ الرَّسُولِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ هُوَ تَعْلِيمُ جِبْرِيلَ .

فَإِذَا كَانَ تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ هُوَ تَعْلِيمَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ يُعَلِّمُ المَلَائِكَةَ بِلَا وَاسِطَةٍ ، وَالمَلَائِكَةُ وَسَائِطُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَالرُّسُلُ وَسَائِطُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ المَلَائِكَةِ ، وَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ مُعَلِّمُ الكُلِّ ، وَهَادٍ لِلْكُلِّ ، وَالمُبَيِّنُ لِلْكُلِّ .

وَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ مُبَيِّناً .. فَهُوَ فِي التَّبْيِينِ ـ كَمَا هُوَ فِي الهِدَايَةِ ـ شَيْخٌ أُقِيمَ لِتَعْرِيفِ الخَلْقِ مَا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ الحَقُّ ، وَلَهُ وِلَايَةُ الظَّاهِرِ بِالحُكْمِ ، وَللهِ سُبْحَانَهُ وِلَايَةُ البَاطِنِ بِالتَّوَلِّي ، لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ .

فَمَا مِنْ شَيْءٍ أُضِيفَ إِلَىٰ الرَّسُولِ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ظَاهِراً فِي حَالِ

مِنَ الأَحْوَالِ لإِثْبَاتِ الأَحْكَامِ . إلاَّ وَقَدْ لُقِّيَ بَاطِناً لإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ ، حَتَّىٰ لاَ يَقِفَ أَحَدٌ مَعَ ظَاهِرِ مَا أُبْدِيَ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ دُونَ النَّظَرِ إِلَىٰ الإِبْدَاءِ ، وَمَعْرِفَةِ جَرَيَانِهِ عَلَىٰ ظَاهِرِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مِنَ المُبْدِي عَلَيْهِ ، وَهُوَ الَّذِي يُرَدُّ الأَمْرُ فِي الإِفْرَادِ وَالإِصْدَارِ إِلَيْهِ :

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

فَهُوَ مَحَلُّ التَّلَقِّي ، لاَ هُوَ المُلْقِي ، وَلاَ إِلَيْهِ الإِلْقَاءُ .

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

وَلَيْتَ شِعْرِي! أَيْشٍ الكِتَابُ مِنَ الكِتَابَةِ ؟ سِوَىٰ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ مِنْ حَيْثُ كَانَ مَحَلاًّ قَابِلاً لَهَا ، لاَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا لَمْ تَزَلْ فِيهِ .

وَلاَ هِيَ صِفَتُهُ ، وَإِنَّمَا هِيَ صِفَةُ الكَاتِبِ بَدَتْ فِي الكِتَابَةِ ، لاَ مِنَ الكِتَابِ ، وَإِلَيْهِ تَعُودُ فِي الوَصْفِ ، لاَ إِلَىٰ الكِتَابِ ، فَهِيَ صِفَةُ الكَاتِبِ ، لاَ صِفَةُ المَكْتُوبِ .

فَذَلِكَ قَلْبُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كِتَابٌ كَتَبَ اللهُ فِيهِ القُرْآنَ ، كَمَا يَكْتُبُ الكَاتِبُ فِي اللَّوْحِ ، وَإِنْ كَانَتِ الكِتَابَةُ فِي الشَّاهِدِ تَكْتَبُ بِوَاسِطَةِ القَلَمِ فِي اللَّوْحِ ، وَالقُرْآنُ أُكْتِبَ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ فِي لَوْحِ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ، وَكَانَ بِمَنْزِلَةِ القَلَمِ ، وَالمَكْتُوبُ قَدِيمٌ ، وَهُوَ الكَلاَمُ الأَزَلِيُّ ، وَالكَاتِبُ وَالمَكْتُوبُ فِيهُ مَخْلُوقَانِ ، كَاللَّوْحِ وَالقَلَمِ ؛ فَإِنَّ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مَخْلُوقٌ ، وَجِبْرِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ مَخْلُوقٌ ، وَمَا كَتَبَهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِوَاسِطَةِ جِبْرِيلَ . قَدِيمٌ ، فَالقُرْآنُ إِذاً قَدِيمٌ ، وَهُوَ عِلْمُ اللهِ .

وَلاَ يَمْتَدُّ أَنْ يُكْتَبَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ عَلَىٰ سَبِيلِ الحِفْظِ وَالعِلْمِ ، لاَ عَلَىٰ سَبِيلِ الحُلُولِ وَالانْتِقَالِ ؛ لأَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ هُوَ الحَافِظُ لَهُ ، لاَ العَبْدُ :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وَيُرْوَىٰ أَنَّهُ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ القَلَمَ . قَالَ لَهُ : أُكْتُبْ! قَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : أُكْتُبْ عِلْمِي فِي خَلْقِي »[١] .

وَعِلْمُ اللهِ . . مَكْتُوبٌ فِي خَلْقِهِ ، وَالإِيمَانُ مَكْتُوبٌ : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ .

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ .

وَلاَ تَسْأَلْ عَنْ كَيْفِيَّةِ هَٰذِهِ الكِتَابَةِ ، وَكَيْفَ ارْتِسَامُهَا فِي الصُّدُورِ ؛ فَإِنَّ ذَٰلِكَ يَسْتَدْعِي فَتْحَ بَابٍ كَبِيرٍ مِنْ أَبْوَابِ المَلَكُوتِ ؛ فَإِنَّ الكِتَابَةَ تَسْتَدْعِي لَوْحاً وَمِدَاداً وَقَلَماً ، وَأَصَابِعَ وَيَداً وَقُدْرَةً ، وَإِرَادَةً وَعِلْماً وَكَاتِباً ، وَذَٰلِكَ مِنْ عُلُومِ المُكَاشَفَةِ .

إِذْ عِلْمُ ذَٰلِكَ نِهَايَةُ الأَوْلِيَاءِ ، وَمَبَادِىءُ الأَنْبِيَاءِ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَوَّلُ مَا كُوشِفَ . . بِسِرِّ القَلَمِ ، حِينَ رَأَىٰ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَغَطَّهُ ، وَقَالَ : اقْرَأْ! فَقَالَ : « مَا أَنَا بِقَارِىءٍ » الحَدِيثَ المَعْرُوفَ[٢] .

---

(١) روى بنحوه ابنُ عدي في « الكامل » ٦ : ٢٢٧٢ ـ ٢٢٧٣ ، وانظر « الميزان » ٤ : ٦١ .

(٢) رواه البخاريُّ (٣) ، ومسلم (١٦٠) .

أَوَّلُ مَا كُوشِفَ مِنَ الوَحْيِ . . بِمَعْرِفَةِ الكِتَابَةِ وَالقَلَمِ وَالتَّعْلِيمِ وَخَلْقِ الإِنْسَانِ ، وَهَذَا مَجْمَعُ العِلْمِ وَخِزَانَةُ الأَسْرَارِ ، وَهَذَا أَصْلٌ لِمَا وَرَاءَهُ .

فَقَالَ : اقْرَأْ! قَالَ : « وَمَا أَقْرَأُ ؟ » . قَالَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَرْبَابِ البَصَائِرِ . . فَفِي مُتَفَرِّقِ كَلاَمِنَا . . مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَعَانِيهِ ؛ فَإِنَّ الكَلاَمَ لَمْ يَخْلُ مِنْ إِشَارَةٍ إِلَيْهِ ، وَتَنْبِيهٍ عَلَيْهِ ، وَمَعْرِفَتُهُ لاَ تَحْتَمِلُ التَّصْرِيحَ ؛ فَإِنَّ خَوْضَ غَمَرَاتِ أَسْرَارِهِ خَطِيرٌ ، وَفَتْحَ بَابِ الأَسْرَارِ عَزِيزٌ ، وَإِفْهَامَ الخَلْقِ ـ مَا لَمْ يَأْلَفُوا مَسَالِكَهُ مِنَ الأَسْرَارِ ـ عَسِيرٌ ، وَبَحْرَهُ عَمِيقٌ ، يَغْرَقُ فِيهِ أَكْثَرُ الجَمَاهِيرِ ، إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَمْرَهُ ، ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ .

وَالهِدَايَةُ إِلَى اللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ كَمَا عَلِمْتَ ، فَلاَ تَطْلُبْهَا إِلاَّ مِنْ بَابِهَا : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ .

وَإِنْ كُنْتَ مِنَ المَحْجُوبِينَ بِظُلُمَاتِ الجِسْمِيَّةِ ، المُقَيَّدِينَ بِقُيُودِ العَادَةِ ، وَالمَوْقُوفِينَ مَعَ تَقْلِيدِ الآبَاءِ وَالمُعَلِّمِينَ ، الَّذِينَ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ اليَقِينِ . . فَلاَ تَعْرِفُ قَطُّ لَوْحاً إِلاَّ مِنْ خَشَبٍ ، وَلاَ قَلَماً إِلاَّ مِنْ قَصَبٍ ، وَلاَ يَداً إِلاَّ مِنْ لَحْمٍ وَعَصَبٍ ، وَلاَ كَاتِباً إِلاَّ جِسْماً مُصَوَّراً .

فَلاَ تَطْمَعْ فِي فَهْمِ شَيْءٍ مِمَّا أَشَرْنَا إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ، إِذْ قَدْ سَلَكْتَ مَذْهَبَ المَحْجُوبِينَ ، الَّذِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ ظُلْمَةُ الأَجْسَامِ ، فَلَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ الأَجْسَامِ ، وَتَوَابِعَ الأَجْسَامِ .

وَدَخَلْتَ تَحْتَ ظِلِّ الجِسْمِ ذِي الأَبْعَادِ الثَّلاَثَةِ ، وَهِيَ الطُّولُ وَالعَرْضُ

وَالسَّمْكُ[١] ، فَهِيَ ثَلاَثُ شُعَبٍ مُظْلِمَةٍ ؛ لأَنَّكَ حَصَرْتَ جَمِيعَ المَعْلُومَاتِ تَحْتَ الحِسِّ ، وَأَنْكَرْتَ مَا وَرَاءَ الشَّاهِدِ مِمَّا لاَ يَدْخُلُ تَحْتَ الكَمِّيَّةِ وَالمِقْدَارِ ، وَلاَ يَنْقَسِمُ بِالمِسَاحَاتِ وَالأَقْطَارِ ، وَهُوَ العَالَمُ المُتَّسِعُ ، الَّذِي الأَجْسَامُ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ الظِّلِّ مِنَ الشَّخْصِ ، فَهُوَ العَالَمُ الشَّرِيفُ الَّذِي مِنْ تِلْقَائِهِ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ وَالقَدَرُ .

فَانْتَبِهْ أَيُّهَا المَغْرُورُ بِظَوَاهِرِ الصُّوَرِ! فَإِنَّكَ مِنَ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ عَلَى غَرَرٍ[٢]

وَمَا انْطَلَقْتَ إِلَيْهِ ، وَوَلَّيْتَ نَحْوَهُ مِنْ ظَاهِرِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ ، يَوْمَ يُسْتَظَلُّ بِمِنَّتِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ إِذَا سَأَلَكَ عَنْ مُعْتَقَدِكَ . . لاَ يُظِلُّكَ مِنْ عَذَابِهِ ، وَلاَ يُنْجِيكَ مِنْ لَهَبِ نَارِهِ ، إِذْ قَدْ عَطَّلْتَ مَلَكُوتَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَاسْتَعْجَزْتَ قُدْرَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَهِلْتَ حِكْمَةَ اللهِ ، وَلَمْ تَتَدَبَّرْ آيَاتِ اللهِ ، بَلِ اتَّخَذْتَهَا هُزُواً ، وَلَمْ تُؤْمِنْ بِالغَيْبِ ، بَلْ كَذَّبْتَ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِعِلْمِهِ ، وَأَوْقَفْتَ حَقَائِقَ الأَشْيَاءِ عَلَى عِلْمِكَ النَّاقِصِ ، وَتَخَيُّلِكَ الفَاسِدِ :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

وَأَنْتَ مَحْجُوبٌ بِالأَجْسَامِ عَنْ مُبْدِعِ الأَجْسَامِ ، كَمَا حُجِبَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا عِنْدَ رُؤْيَةِ الأَجْسَامِ وُجُودَ شَيْءٍ زَائِدٍ عَلَى الأَجْسَامِ ، بِهِ ظَهَرَتِ الأَجْسَامُ ، وَتَجَلَّتِ الأَلْوَانُ وَالأَشْكَالُ ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِ النُّورِ ، وَلاَ تَحَقَّقُوا أَنَّهُ

---

(١) أي : العُمْقُ .

(٢) أي : خَطَر .

اَخْتَفَىٰ فِي الأَجْسَامِ لِشِدَّةِ ظُهُورِهِ فِيهَا ، وَاَحْتَجَبَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ ، لإِشْرَاقِ أَنْوَارِهِ عَلَيْهَا .

وَلَكِنْ أَيُّهَا المِسْكِينُ! أَفَيُضْطَرُّونَ إِلَىٰ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ النُّورِ المُظْهِرِ وَالجِسْمِ المُظْهَرِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ النُّورِ لِلْمُبْصَرَاتِ ، حِينَ بَقِيَتْ مُظْلِمَةً لاَ تَظْهَرُ ، فَلاَ أَمْكَنَهُمُ الجُحُودُ ، وَلاَ وَسِعَهُمُ التَّكْذِيبُ ، كَذَلِكَ أَنْتَ ؟! .

الكَلاَمُ عَلَىٰ الرُّوحِ

أَيْشٍ تَقُولُ فِي الرُّوحِ ؟ إِنَّهَا هِيَ الجِسْمُ بِعَيْنِهِ ، أَوْ شَيْءٌ يَزِيدُ عَلَىٰ الجِسْمِ ، بِهَا تَدْبِيرُهُ وَتَصْرِيفُهُ .

وَمَا أَظُنُّ أَنَّهُ يَسَعُكَ إِنْكَارُ كَوْنِهَا غَيْرَ الجِسْمِ ، وَأَنَّهَا مُدَبِّرَةُ الجِسْمِ ، وَغَيْرُ الجِسْمِ ، لاَ يَكُونُ جِسْماً .

فَإِنْ قُلْتَ : هِيَ جِسْمٌ أَلْطَفُ مِنْ هَذَا ، مُسْتَوْدَعَةٌ فِي بَاطِنِ هَذَا الجِسْمِ ، جَعَلْتَ الأَجْسَامَ تَتَدَاخَلُ ، وَقُلْتَ بِالحُلُولِ ، وَأَبْطَلْتَ فَائِدَةَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجِسْمِ ، وَكَذَّبْتَ الخَبَرَ الصَّحِيحَ :

« إِنَّ اللهَ خَلَقَ الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأَجْسَامِ بِأَلْفَيْ عَامٍ »(١) .

وَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي هَذَا الحَدِيثِ إِذَا كَانَتِ الأَرْوَاحُ أَجْسَاماً ، وَيَكُونُ إِثْبَاتُ مَا تَدَّعِيهِ إِلَىٰ اَسْتِحَالَةِ الحَدِيثِ ، وَتَنَاقُضِ قَوْلِ الصَّادِقِ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ :

---

(١) قال الشوكانيُّ في « الفوائد المجموعة » ص (٣٨٢) : « رواه الأزدي عن عليٍّ مرفوعاً ، وفي إسنادِهِ : عبدُ اللهِ بنُ أيوبَ بنِ أبي عيلاج ، عن أبيه ، وهما كذّابان ، وأوردَهُ ابنُ الجوزيِّ في الموضوعات » .

خَلَقَ اللهُ الأَجْسَامَ قَبْلَ خَلْقِهَا بِأَلْفَيْ عَامٍ! .

وَالشَّيْءُ الَّذِي يُخْلَقُ قَبْلَ خَلْقِهِ.. لاَ يُعْقَلُ ؛ لأَنَّ الأَجْسَامَ إِنْ كَانَتْ تُسَمَّىٰ أَرْوَاحاً.. فَمَعْنَىٰ الحَدِيثِ هَذَا : خَلَقَ الأَجْسَامَ قَبْلَ الأَجْسَامِ! وَهُوَ خَلْقُ الشَّيْءِ قَبْلَ ذَاتِهِ! وَهَذَا خَرْقٌ مِنْ قَائِلِهِ[١] ، وَفَسَادٌ مِنْ مُصَوِّرِهِ! .

فَلاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِلْخَبَرِ مَعْنًى يُدْرَكُ ، وَفَائِدَةٌ تُعْقَلُ .

وَالحَاصِلُ مِنْهُ : التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الأَرْوَاحِ وَالأَجْسَامِ .

فَالرُّوحُ إِذاً.. لاَ جِسْمٌ بِشَهَادَةِ الشَّرْعِ .

وَإِذَا كَانَ الجِسْمُ هُوَ المُلْتَئِمَ مِنْ جَوْهَرَيْنِ فَصَاعِداً وَهِيَ غَيْرُ الجِسْمِ.. فَمِنَ الأَحْرَىٰ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ جَوْهَرٍ .

وَإِذَا لَمْ تَكُنْ جَوْهَراً وَلاَ جِسْماً.. اِسْتَحَالَ ـ أَيْضاً ـ أَنْ تَكُونَ عَرَضاً ، لِمَا كَانَتِ الأَعْرَاضُ لاَ تَثْبُتُ وَلاَ تُوجَدُ إِلاَّ مَعَ الأَجْسَامِ وَالجَوَاهِرِ ، وَقَدْ بَطَلَ حُكْمُ الجِسْمِ وَالجَوْهَرِ وَالعَرَضِ ، فَبَطَلَ التَّرْكِيبُ وَالمُمَاسَّةُ وَالمُجَاوَرَةُ وَالاتِّصَالُ وَالانْفِصَالُ .

فَإِنْ أُطْلِقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا مُوَاصِلَةٌ لِلْبَدَنِ ، أَوْ مُفَاصِلَةٌ بِالمَوْتِ.. فَإِطْلاَقٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ ، وَهُوَ مُوَاصَلَةُ التَّدْبِيرِ وَمُفَارَقَتُهُ بِتَعَاصِي الآلاَتِ بِالمَوْتِ مِنْ قَبُولِ التَّدْبِيرِ .

وَإِذَا انْتَفَىٰ عَنْهَا الجَوْهَرِيَّةُ وَالجِسْمِيَّةُ وَالعَرَضِيَّةُ.. اِنْتَفَتْ عَنْهَا بِالضَّرُورَةِ

---

(١) هو نقيضُ الرِّفْق ، أي : جهِلَهُ ولم يُحسِنْ عملَهُ ، « لسان » ٥ : ٥٤ ، مادة : « خرق » .

العَقْلِيَّةِ جَمِيعُ صِفَاتِ الأَجْسَامِ وَالجَوَاهِرِ وَالأَعْرَاضِ .

مِنْ فَوْقٍ ، وَتَحْتٍ ، وَأَمَامٍ ، وَوَرَاءٍ ، وَحِذَاءٍ ، وَيَمِينٍ ، وَيَسَارٍ ، وَفِي ، وَإِلَىٰ ، وَعَلَىٰ ، وَعِنْدَ ، وَالحَرَكَةِ ، وَالسُّكُونِ ، وَالظُّهُورِ ، وَالكُمُونِ ، وَالمِسَاحَةِ ، وَالمِقْدَارِ ، وَالكَيْفِ ، وَالأَيْنِ ، وَكُلُّ مَا يَجْرِي عَلَىٰ الجَوَاهِرِ وَالأَجْسَامِ مِنَ الأَوْصَافِ .

فَمَا أُطْلِقَ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِضَرُورَةِ التَّعْرِيفِ .. ٱفْتُقِرَ فِي فَهْمِهِ إِلَىٰ التَّأْوِيلِ وَالتَّصْرِيفِ .

فَقَدْ لَزِمَكَ أَيُّهَا المَخْدُوعُ بِالغُرُورِ إِثْبَاتُ مَوْجُودٍ حَقِيقِيِّ الوُجُودِ ، خَارِجاً فِي وُجُودِهِ عَنْ كُلِّ مَا يُدْرَكُ فِي الشَّاهِدِ مِنَ الأَجْسَامِ وَالجَوَاهِرِ وَالأَعْرَاضِ .

فَكَيْفَ يُمْكِنُكَ بَعْدَ هَذَا .. إِنْكَارُ شَيْءٍ زَائِدٍ عَلَىٰ الأَجْسَامِ ؟! .

فَإِنْ تَعَامَيْتَ أَنْتَ بَعْدَ الإِبْصَارِ ، وَلَزِمْتَ المُكَابَرَةَ وَالإِنْكَارَ ، وَجَمَدْتَّ إِلَىٰ الاسْتِنْكَافِ وَالاسْتِكْبَارِ ، وَتَبِعْتَ بِجُمُودِكَ فِي التَّقْلِيدِ الهَوَىٰ ، وَرَكِبْتَ ظَهْرَ اللَّجَاجِ وَالإِصْرَارِ [١] .. فَقَدْ ذَهَبَ فِي حَقِّكَ الأَعْذَارُ ، وَٱنْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ بِالإِعْذَارِ وَالإِنْذَارِ [٢] ، فَيُوشِكُ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ .

وَعِنْدَ ٱرْتِفَاعِ نُورِ النَّفْسِ عَنْ ظَاهِرِ الجِسْمِ ، وَعَدَمِ تَدْبِيرِهَا لَهُ بِالمَوْتِ .. يَأْتِيكَ تَأْوِيلُ مَا كَذَّبْتَ بِهِ ، وَقَدْ أَوْضَحْتُ لَكَ .

---

(١) **اللَّجَاجُ** : هو ملازمةُ الشيءِ والمواظبةُ عليه ، تقولُ . لَجَّ في الأمرِ : تَمَادَىٰ عليه ، وأبىٰ أنْ يَنصَرِفَ عنه ، « لسان » ١٣ : ١٧١ ، مادة : « لجج » .

(٢) تقدَّم بيانُها ص (٣٠٧) .

فتقولُ حِينَ تُشاهِدُ مَا لَمْ تَسمَحْ بِتَسْلِيمِهِ ، بَلْ تُثْبِتُهُ مُطرِحًا لَهُ بِرُكُونِكَ إِلَىٰ تَقْلِيدِ الغَافِلِينَ ، وَمُتَابَعَةِ الجَاهِلِينَ : ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ .

كَمَا أَخبَرَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ عَنْكَ وَعَنْ أَمْثَالِكَ بِقَوْلِهِ :

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ، الآيَةَ .

وَمَا أَخوَفَنِي عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ خَسِرَ نَفْسَهُ! .

وَإِنَّمَا يَتَبَيَّنُ لَكَ الخِيَارُ عِنْدَ الانْتِبَاهِ مِنْ نَوْمِكَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوا .. انْتَبَهُوا .

وَعِنْدَ الانْتِبَاهِ يَظْهَرُ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا ، فَيُؤَوِّلُ لَكَ مَا لَزِمْتَ ظَاهِرَهُ فِي عَقْلِكَ بِأَحْسَنِ تَأْوِيلٍ ، وَيَبْدُو لَكَ ضِدُّ مَا احْتَسَبْتَ ، وَيَضِلُّ عَنْكَ مَا إِلَيْهِ ذَهَبْتَ :

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ :

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً ۝ وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وَيَتْلُو عَلَيْكَ المَوْتُ : ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ .

وَذَلِكَ حِينَ تَأْتِي سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ، الَّذِي كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ، وَتَمِيلُ عَنْهُ إِلَىٰ التَّقْلِيدِ ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، وَهُوَ قَرْنٌ ، فِيهِ ثُقَبٌ بِعَدَدِ أَنْفَاسِ الخَلَائِقِ ، فَيَصْعَقُ العَالَمُونَ مِن صَوْتِهِ .

كُلُّ نَفْسٍ لَهَا ثُقْبٌ فِيهِ تَصْعَقُ إِنْ لَمْ تَكُنْ صَعِقَتْ ، وَالنَّافِخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ .

وَيَقُومُ الرُّوحُ صَفّاً[١] ، وَالمَلائِكَةُ صَفّاً .

وَيَأْتِي اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلائِكَةُ .

وَهَذَا كُلُّهُ مَا يَنْكَشِفُ لَكَ سِرُّهُ ، وَيَبْدُو لَكَ تَأْوِيلُهُ ـ إِذْ قَدْ وُعِدْتَ بِكَشْفِ تَأْوِيلِهِ لَكَ ، وَلاَ جَائِزَ أَنْ يَنْكَشِفَ لِمِثْلِكَ[٢] ـ دُونَ أَنْ تَأْتِيَ سَكْرَةُ المَوْتِ ، وَهُوَ الَّذِي كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ .

وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ لِصَعْقِ الخلْقِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ لِقِيَامِهِمْ ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَرَادَ مِنْهُمُ الحَقُّ .

ذَلِكَ يَوْمَ يَجْمَعُ الكُلَّ ، فَتَجْمَعُ أَجْزَاءُ الخَلْقِ ، وَيُنْشِئُهُمُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نَشْأَةً أُخْرَىٰ ، كَمَا وَعَدَ تَعَالَىٰ[٣] .

وَيَكُونُ الحَشْرُ كُلُّهُ عَلَىٰ قَدَمِ آدَمَ وَعَقِبِهِ ، إِذْ هُوَ أَبُو البَشَرِ ، وَعَلَىٰ صُورَتِهِ وَشَكْلِهِ يُجْمَعُونَ وَيُحْشَرُونَ ، وَكَذَلِكَ إِلَىٰ أَبِيهِمْ وَأُمِّهِمْ يُجْمَعُونَ .

---

(١) هُوَ مَلَكٌ عَظِيمٌ ، أو جبريلُ ، أو جُنْدٌ من جنودِ الله ، ليسوا ملائكةً ، أو أشرافُ الملائكة ، أو حَفَظَةٌ على الملائكة ، أو بنو آدمَ ، والمعنى : ذَوو الرُّوح ، أو أرواحُ بني آدمَ تقوم صفّاً ، أو القرآنُ ، أقوالٌ ثمانيةٌ ذكرَها القُرطبيُّ في « تفسيره » ٢٢ : ٣٠ ـ ٣٢ .

(٢) مَفْهُومُهُ : أنَّ مَنْ لم يكُنْ مثلَه في الغَفلةِ والعِنادِ ومُلازمةِ الصُّوَرِ والأجسامِ . يَظْهرُ له تأويلُ ذلك كَشْفاً صريحاً قبلَ موتِهِ بأَزْمان ، فافهم ذلك

(٣) بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . [العنكبوت : ٢٠] .

أي : أنَّ اللهَ الَّذي بَدَأَ النَّشأةَ الأولى وخَلقَها على تِلْكَ الكيفيّةِ . يُنْشِئُها نَشأةً ثانيةً عندَ البَعْثِ ، قالَهُ العلاّمةُ الشَّوكانيُّ في « فتح القدير » ٤ : ٢٦٠ .

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ .

فَهَذَانِ أَصْلاَنِ كُلِّيَّانِ لِلْعَالَمِ الإِنْسَانِيِّ ، أَبَاً وَأُمَّاً ، آدَمَ وَحَوَّاءَ .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ .

جُزْءاً أَوْلاَدَهُمْ ، فَالإِنْسُ إِلَىٰ آدَمَ وَحَوَّاءَ مُجْتَمِعُونَ ، وَإِلَيْهِمَا يَنْتَسِبُونَ ، وَهِيَ الطِّينَةُ البَشَرِيَّةُ الَّتِي عَجَنَهَا بِيَدِهِ ، وَخَمَّرَهَا ، وَسَوَّاهَا ، وَنَفَخَ فِيهَا الرُّوحَ ، وَأَسْجَدَ لَهَا المَلاَئِكَةَ صَفّاً صَفّاً :

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ .

وَآدَمُ مُقَابِلُهُم ، لأَنَّهُ نَفَخَ فِيهِ مِنَ الرُّوحِ ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِ اللهِ .

وَالنَّفْخُ . . إِحْدَاثُ وُجُودِ آدَمَ ، لَمْ يَكُنْ بِالرُّوحِ مُحْدَثاً[1] ، وَلَيْسَ ثَمَّ قَدِيمٌ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ .

وَلاَ أَقُولُ : وَصِفَاتُهُ ، لأَنَّ صِفَاتِهِ لَيْسَتْ غَيْرَهُ ، فَأَفْصِلُهَا مِنْهُ ، وَلاَ هِيَ هُوَ ، فَأُفْرِدُهَا بِالذِّكْرِ دُونَ جَعْلِهَا لَهُ .

فَهِيَ لَهُ ، لاَ هِيَ هُوَ ، وَلاَ هِيَ غَيْرُهُ ، وَقَدْ سَبَقَ القَوْلُ فِيمَا هَذَا سَبِيلُهُ .

فَحِينَئِذٍ يَجْمَعُ الصُّفُوفَ المَلاَئِكَةُ ، وَالرُّوحُ صَفٌّ إِذَا جُمِعَتْ[2] ، وَالجِنُّ صَفٌّ ، وَهُمْ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَالشَّيَاطِينُ صَفٌّ خَارِجٌ عَنِ الجِنِّ ،

---

(١) لأَنَّ الرُّوحَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ ، أضافَهُ إلى نفسِهِ تشريفاً وتكريماً ، كقولِهِ « أرضي وسمائي » « تفسير القرطبي » ١٢ : ٢٠٨ .

(٢) انظر ما تقدم ص (٣٣٠) تعليقة رقم (١)

وَالمَلاَئِكَةُ فِيمَا بَيْنَهُمَا يَقْدُمُهُمْ عَزَازِيلُ[(١)] ، وَهُوَ إِبْلِيسُ آدَمَ وَضِدُّهُ وَقَرِينُهُ ، وَهُوَ أَكْبَرُ الشَّيَاطِينِ ؛ لأَنَّ عَزَازِيلَ فِي جُنُودِهِ .. بِمَنْزِلَةِ آدَمَ فِي ذُرِّيَّتِهِ .

فَلَمَّا كَانَ آدَمُ أَبُو البَشَرِ هُوَ أَصْلاً لَهُمْ ، وَكُلُّ مَا ظَهَرَ عَنْ آدَمَ وَلَدٌ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَىٰ .. أَظْهَرَ عَزَازِيلُ لَهُ قَرِيناً مِنْ أَبْنَائِهِ .

فَعَلَىٰ الأَصْلِيَّةِ بِعَدَدِ بَنِي آدَمَ ، وَالمُتَوَلِّدَةِ بِعَدَدِ الأَمْلاَكِ الَّذِينَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ العِبَادِ ، مَلَكُ اليَمِينِ ، وَمَلَكُ اليَسَارِ ، وَوَرَاءَ هَذَا .. غَوْرٌ عَمِيقٌ ، يَنْكَشِفُ لَكَ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ .

فَالوَيْلُ مَنْ دَامَ إِلَىٰ ذَلِكَ الوَقْتِ! وَطُوبَىٰ لِمَنِ انْتَبَهَ! لأَنَّهُ لاَ يَنْتَبِهُ إِلاَّ بِمَوْتٍ : هُوَ إِعْرَاضُ النَّفْسِ عَنِ الاشْتِغَالِ بِالصُّوَرِ وَالأَجْسَامِ ، بِالإِقْبَالِ عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ ، بِالتَّوَلِّي نَحْوَ وَجْهِهِ ، إِلَىٰ هُوَ أَيْنَمَا وَلَّيْتَ .

فَكُلُّ مَنْ وَلَّىٰ إِلَيْهِ .. فَثَمَّ وَجْهُهُ ، و ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

لاَ وَجْهَ أَبْنَائِهِم ، فَكُلُّ مُعْرِضٍ عَنِ اللهِ مُشْتَغِلٍ بِغَيْرِهِ .. فَإِلَىٰ وَجْهِ الحَدَثِ نَظَرَ ، وَهِيَ ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ .

فَوَجْهُهُ .. مُنْصَرِفٌ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَمِعْوَجٌّ بِقَدْرِ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ .

فَإِنْ كَانَ كَلَمْحِ البَصَرِ .. كَانَ كَالحَوَرِ فِي العَيْنِ[(٢)] .

---

(١) وهو اسمه كما نُقِلَ عن ابن عباس ، « قرطبي » ١٤ : ٤٣٨ .

(٢) الحَوَرُ : اسْوِدَادُ المُقْلَةِ كُلِّها ، كعيونِ الظِّباءِ .. ولا يُقالُ للمرأةِ : حَوْراءُ إلاَّ للبيضاءِ مع حَوَرِهَا ، « مصباح » ص (١٥٥ ـ ١٥٦) ، مادة : « حور » .

وَإِنْ كَانَ بِأَكْثَرِ الْبَصَرِ . . كَانَ كَالحَوَلِ فِي الْعَيْنِ .

وَإِنْ كَانَ بِلَفْتَةٍ يَسِيْرَةٍ . . كَانَ كَالقُوَّةِ .

وَإِنْ كَانَ إِعْرَاضاً وَإِدْبَاراً . . كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُوَلِّي الْمُدْبِرِ ، وَذَلِكَ الَّذِي يُؤْتَىٰ كِتَابَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ، وَهُمُ الَّذِينَ ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ، فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ .

فَمَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ . . أَعْرَضَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ نَفْسِهِ . . فَقَدْ حَصَلَ عِنْدَهُ مَعْنَىٰ الْمَوْتِ ، وَهُوَ تَرْكُ الْتِفَاتِ النَّفْسِ إِلَىٰ المَحْسُوسَاتِ وَالصُّوَرِ ، وَنَظَرُهَا إِلَىٰ عَالَمِ المَلَكُوتِ .

فَسُلُوكُ صِرَاطِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَالوَفَاءُ بِعَهْدِهِ . . فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَالاعْتِرَافِ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَالقِيَامِ بِحُقُوقِهِ مِنْ مُفَارَقَةِ الأَخْلاَقِ المَذْمُومَةِ ، وَالتَّحَلِّي بِالأَخْلاَقِ المَحْمُودَةِ .

فَإِذَا اتَّصَفَ بِهَا . . صَحَّ لَهُ الرُّجُوعُ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ ، وَمَنْ رَجَعَ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ . . أَرْضَاهُ وَرَضِيَ عَنْهُ :

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .

وَمَنْ رَجَعَ إِلَىٰ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ فِي الدُّنْيَا . . فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ فِي العُقْبَىٰ رُجُوعَ رِضَىً ، لاَ رُجُوعَ كُرْهٍ .

المَوْتُ مَوْتَانِ : طَبِيعِيٌّ وَإِرَادِيٌّ

كَذَلِكَ المَوْتُ مَوْتَانِ : مَوْتٌ طَبِيعِيٌّ ، وَهُوَ : نَزْعُ النَّفْسِ مِنَ الجِسْمِ كُرْهاً ، لِتَشَبُّثِهَا بِهِ عِشْقاً لَهُ ، وَسُكُوناً إِلَيْهِ ، فَهِيَ تُنْتَزَعُ مُكْرَهَةً ، فَلاَ جَرَمَ

أَنَّهَا لاَ تَخْرُجُ إِلاَّ بِالخَطَاطِيْفِ وَالكَلاَلِيْبِ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ أَوْصَالُهَا[1] ، وَتَزُولَ عَلاَقَتُهَا مَعَهُ ، وَهَٰذِهِ مَوْتَةٌ طَبِيْعِيَّةٌ .

وَمَوْتٌ إِرَادِيٌّ ، وَهُوَ : تَرْكُ النَّفْسِ لِمُسَاكَنَةِ الجِسْمِ ، وَالتَّنَزُّهُ عَنْ عِشْقِهِ ، وَالاسْتِغْرَاقُ فِي وَجْهِهِ ، وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي مَصَالِحِ الآخِرَةِ ، فَهَٰذِهِ مَوْتَةٌ إِرَادِيَّةٌ ، لاَ يَمُوتُ صَاحِبُهَا بَعْدَهَا أَبَداً ؛ لأَنَّ الخَوْفَ مِنَ المَوْتِ وَأَلَمِهِ . . بِقَدْرِ المَحْبُوبَاتِ ، وَعَذَابَهُ بِقَدْرِ تَعَلُّقِ النَّفْسِ بِالشَّهَوَاتِ ، وَعُكُوفِهَا عَلَىٰ اللَّذَّاتِ ، وَعِشْقِهَا الغَالِبِ الَّذِي تَسْتَعِيْنُ بِهِ عَلَىٰ إِدْرَاكِ المَطْلُوبَاتِ ، وَتَقْضِي بِهِ أَوْطَارَ الدُّنْيَاوِيَّاتِ .

فَإِذَا زَالَ مُوْجِبُ الأَلَمِ . . سَقَطَ الأَلَمُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَثَرٌ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَلَمٌ . . لَمْ يَكُنْ خَوْفٌ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خَوْفٌ . . كَانَ أَمْنٌ ، وَإِذَا كَانَ أَمْنٌ . . كَانَ ٱسْتِبْشَاراً وَبُشْرَىٰ ، وَإِذَا كَانَ ٱسْتِبْشَاراً وَبُشْرَىٰ . . أَحَبَّ العَبْدُ لِقَاءَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وَ « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ . . أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ »[2] . فَهَٰذَا شَاهِدٌ لِمَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ .

وَمَنْ شَاهَدَ مَا أَعَدَّ لَهُ . . فَهُوَ شَهِيْدٌ ، وَالشَّهِيْدُ . . لَيْسَ بِمَيِّتٍ ، وَالشَّهَادَةُ بِجِهَادِ النَّفْسِ إِلَىٰ أَنْ يُمِيْتَهَا عَنْ حُظُوظِهَا . . أَكْبَرُ رُتْبَةً عِنْدَ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ

---

(١) الخَطَاطِيْفُ : مخاليبُ السِّبَاعِ ، « لسان » ٥ / ١٠٤ ، مادة « خطف » .

(٢) رواه البخاريُّ (٦٥٠٧) تعليقاً ، ومسلم (٢٦٨٤) ، والتِّرمذي (١٠٦٧) ، والنَّسائيُّ ٤ / ١٠ ، وابنُ ماجه (٤٢٦٤) ، وابنُ حبَّان (٣٠١٠) .

وَتَعَالَىٰ ـ مِنَ الشَّهَادَةِ المُوَرِّثَةِ لِقِتَالِ الكُفَّارِ وَحَطْمِ السُّيُوفِ .

« رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ . إِلَىٰ الجِهَادِ الأَكْبَرِ »[1] .

وَذَلِكَ الجِهَادُ خَطَرٌ[2] ، قَلَّ مَنْ يَسْلَمُ لَهُ فِيهِ النِّيَّةُ ، فَهُوَ عَلَىٰ ظَنٍّ غَيْرِ مُتَيَقَّنٍ مِنَ الشَّهَادَةِ ، وَهَذَا إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ هَذِهِ الرُّتْبَةِ عَلَىٰ يَقِينٍ .

وَالمَوْتُ الإِرَادِيُّ . إِنَابَةٌ ، وَالمَوْتُ الطَّبِيعِيُّ . عُقُوبَةٌ .

وَمَنْ مَاتَ مَوْتَةً إِرَادِيَّةً . اِنْتَبَهَ قَبْلَ المَوْتِ الطَّبِيعِيِّ ، وَمَنِ انْتَبَهَ . أَبْصَرَ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ .

« الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ . جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ »[3] .

وَمَنْ أَبْصَرَ . قَالَ : لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ . مَا ٱزْدَدْتُ يَقِيناً .

فَاطْلُبُوا اليَقِينَ مِنَ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ بِإِمَاتَةِ نُفُوسِكُمْ ، وَإِحْيَاءِ قُلُوبِكُمْ ، لِتَرْقَوْا الفِرْدَوْسَ الأَكْبَرَ والمُلْكَ العَظِيمَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

دُعاءُ خَتْمِ الكتابِ

اللَّهُمَّ ٱجْعَلْنَا مِمَّنْ رَكَّبْتَ عَلَىٰ جَوَارِحِهِمْ مِنَ المُرَاقَبَةِ . غِلَاظَ القُيُودِ ، وَأَقَمْتَ عَلَىٰ سَرَائِرِهِمْ مِنَ المُشَاهَدَةِ . دَقَائِقَ الشُّهُودِ ، فَهَجَمَ عَلَيْهِمْ أُنْسُ الرَّقِيبِ مَعَ القِيَامِ وَالقُعُودِ ، فَنَكَّسُوا رُؤُوسَهُمْ مَعَ الخَجَلِ وَجِبَاهَهُمْ

---

(١) قال في « كشف الخفاء » (١٣٦٢) : « قال العراقي : رواه البيهقيّ بسندٍ ضعيفٍ عن جابر » . وتمامُ تخريجه ثَمَّ .

(٢) أي : مرفوعٌ قَدْرُهُ ، « لسان » ٥ : ٩٩ ، مادة : « خطر » .

(٣) مرَّ بكَ تخريجُه ص (٢٩٠) .

لِلسُّجُودِ ، وَفَرَشُوا لِفَرْطِ ذُلِّهِمْ عَلَىٰ بَابِكَ نَوَاعِمَ الخُدُودِ ، فَأَعْطَيْتَهُمْ بِرَحْمَتِكَ غَايَةَ المَقْصُودِ :

صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ

اللَّهُمَّ ٱرْزُقْنَا طُولَ الصُّحْبَةِ ، وَدَوَامَ الخِدْمَةِ ، وَحِفْظَ الحُرْمَةِ ، وَلُزُومَ المُرَاقَبَةِ ، وَأُنْسَ الطَّاعَةِ ، وَحَلَاوَةَ المُنَاجَاةِ ، وَلَذَّةَ المَغْفِرَةِ ، وَصِدْقَ الجَنَانِ ، وَحَقِيقَةَ التَّوَكُّلِ ، وَصَفَاءَ الوُدِّ ، وَوَفَاءَ العَهْدِ ، وَٱعْتِقَادَ الوَصْلِ ، وَتَجَنُّبَ الزَّلَلِ ، وَبُلُوغَ الأَمَلِ ، وَحُسْنَ الخَاتِمَةِ بِصَالِحِ العَمَلِ :

صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ خَيْرِ البَشَرِ وَسَلِّمْ

اللَّهُمَّ يَا مَنْ أَجْرَىٰ مَحَبَّتَهُ فِي مَجَارِي الدَّمِ مِنَ المُشْتَاقِيْنَ ، وَقَهَرَ سَطَوَاتِ الشَّكِّ بِحُسْنِ اليَقِيْنِ :

أَثْبِتْنَا اللَّهُمَّ فِي دِيْوَانِ الصِّدِّيْقِيْنَ ، وَٱسْلُكْ بِنَا مَسْلَكَ أُولِي العَزْمِ مِنَ المُرْسَلِيْنَ ، حَتَّىٰ نُصْلِحَ بَوَاطِنَنَا مِنْ لَطَائِفِ المُؤَانَسَةِ ، وَنَفُوزَ بِالغَنَائِمِ مِنْ تُحَفِ المُجَالَسَةِ .

وَأَلْبِسْنَا اللَّهُمَّ جِلْبَابَ الوَرَعِ الجَسِيْمِ ، وَأَعِذْنَا مِنَ البِدَعِ وَالضَّلَالِ الأَلِيْمِ :

فَقَدْ سَأَلْنَاكَ بِصِدْقِ الحَاجَةِ وَالاعْتِذَارِ ، وَالإِقْلَاعِ عَنِ الخَطَايَا بِالاسْتِغْفَارِ .

أَمَرْتَنَا اللَّهُمَّ بِالسُّؤَالِ فَنَاجَتْكَ قُلُوبُنَا بِالافْتِقَارِ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْكَ مُقَلُ الأَسْرَارِ بِسُلْطَانِ الاقْتِدَارِ .

فَاجْبُرِ اللَّهُمَّ ذُلَّ انْكِسَارِنَا بِلُطْفِ الأَقْدَارِ ، وَجَنِّبْنَا اللَّهُمَّ الأَضْرَارَ مِنْ فُتُونِ الأَشْرَارِ[١] ، حَتَّىٰ تَسْلُكَ بِنَا سُبُلَ أُولِي العَزْمِ مِنَ الأَخْيَارِ ، وَصَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ الأَطْهَارِ وَسَلِّمْ .

اللَّهُمَّ يَا مَنْ حَمَلَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى النُّجُبِ السُّبَاقِ[٢] ، وَرَفَعَهُمْ بِأَجْنِحَةِ الزَّفِيرِ وَالاشْتِيَاقِ ، وَأَجْلَسَهُمْ عَلَىٰ بِسَاطِ الرَّهْبَةِ وَحُسْنِ الأَخْلَاقِ ، وَأَمْطَلَ عَلَىٰ لَمَمِهِمْ سُحُبَ الآمَاقِ[٣] ، وَشَعْشَعَ أَنْوَارُ شُمُوسِ المَعْرِفَةِ فِي قُلُوبِهِمْ كَبَرْقِ الشَّمْسِ عِنْدَ الإِشْرَاقِ ، وَكَشَفَ عَنْ عُيُونِهِمْ حَنَادِسَ الظُّلَمِ ، وَأَجْلَسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ بِتَغْرِيدِ القُلُوبِ وَاتِّصَالِ العَزْمِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَسُمُوِّ الهِمَمِ :

صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ سَيِّدِ سَادَاتِ البَشَرِ وَسَلِّمْ .

اللَّهُمَّ أَرْخِصْ عَلَيْنَا مَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ ، وَأَغْلِ عَلَيْنَا مَا يُبَاعِدُنَا عَنْكَ ، وَأَغْنِنَا بِالافْتِقَارِ إِلَيْكَ ، وَلاَ تُفْقِرْنَا بِالاسْتِغْنَاءِ عَنْكَ :

بِكَرَمِكَ أَخْلِصْ أَعْمَالَنَا ، وَبِإِرَادَتِكَ اجْعَلْنَا نَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ ، وَبِمَعُونَتِكَ اجْعَلْنَا نَسْتَعِينُ بِكَ .

اللَّهُمَّ بِجَاهِ أَهْلِ الجَاهِ ، وَبِمَحَلِّ أَصْحَابِ المَحَلِّ ، وَبِحُرْمَةِ أَصْحَابِ الحُرْمَةِ ، وَبِمَنْ قُلْتَ فِي حَقِّهِ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ؟ .

---

(١) أي : من افْتِتَانٍ ، « مختار الصِّحاح » ص (٤٩٠) ، مادة : « فتن » .

(٢) النُّجُبُ : جمعُ نجيب من الإبل ، وهي : عِتَاقُها التي يُسَابَقُ عليها ، « مختار الصِّحاح » ص (٦٤٦) ، مادة : « نجب » .

(٣) اللَّمَمُ : صَغائِرُ الذُّنوب ، « مختار الصِّحاح » ص (٦٠٥) ، مادة : « لمَّ » .

إِشْرَحِ اللَّهُمَّ صُدُورَنَا بِالهِدَايَةِ وَالإِيمَانِ ، كَمَا شَرَحْتَ صَدْرَهُ ، وَيَسِّرْ أُمُورَنَا كَمَا يَسَّرْتَ أَمْرَهُ .

يَسِّرْ لَنَا مِنْ طَاعَتِكَ طَرِيقاً سَهْلَةً ، وَلاَ تُؤَاخِذْنَا عَلَىٰ الفَتْرَةِ وَالغَفْلَةِ ، إِسْتَعْمِلْنَا فِي أَيَّامِ المُهْلَةِ بِمَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْكَ وَيُرْضِيكَ مِنَّا .

صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ

اللَّهُمَّ أَطْلِقْ أَلْسِنَتَنَا بِذِكْرِكَ ، وَقَيِّدْ قُلُوبَنَا عَمَّا سِوَاكَ ، وَرَوِّحْ أَرْوَاحَنَا بِنَسِيمِ قُرْبِكَ ، وَامْلأْ أَسْرَارَنَا بِمَحَبَّتِكَ ، وَاطْوِ ضَمَائِرَنَا بِنِيَّةِ الخَيْرِ لِلْعِبَادِ ، وَأَلِّفْ أَنْفُسَنَا بِعِلْمِكَ ، وَامْلأْ صُدُورَنَا بِتَعْظِيمِكَ ، وَحَيِّزْ كُلِّيَّتَنَا إِلَىٰ جَنَابِكَ ، وَحَسِّنْ أَسْرَارَنَا مَعَكَ ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَأْخُذُ مَا صَفَا وَيَدَعُ الكَدَرَ ، وَيَعْرِفُ قَدْرَ العَافِيَةِ وَيَشْكُرُ عَلَيْهَا ، وَيَرْضَىٰ بِكَ كَفِيلاً ، لِتَكُونَ لَهُ وَكِيلاً .

وَوَفِّقْنَا لِتَعْظِيمِ عَظَمَتِكَ ، وَارْزُقْنَا لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ الكَرِيمِ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ يَا ذَا الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ .

يَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَحَدِيَّةِ ذَاتِكَ ، وَوَحْدَانِيَّةِ أَسْمَائِكَ ، وَفَرْدَانِيَّةِ صِفَاتِكَ :

أَنْ تُؤْتِيَنَا سَطْوَةً مِنْ جَلاَلِكَ ، وَبَسْطَةً مِنْ جَمَالِكَ ، وَنَشْطَةً مِنْ كَمَالِكَ ، حَتَّىٰ يَتَّسِعَ فِيكَ وُجُودُنَا ، وَيَجْتَمِعَ عَلَيْكَ شُهُودُنَا ، وَنَطَّلِعَ عَلَىٰ شَوَاهِدِنَا فِي مَشْهُودِنَا .

أَطْلِعِ اللَّهُمَّ فِي لَيْلِ كَوْنِنَا شَمْسَ مَعْرِفَتِكَ ، وَنَوِّرْ أُفُقَ أَعْيُنِنَا بِبَيَانِ حِكْمَتِكَ ، وَزَيِّنْ سَمَاءَ زِيْنَتِنَا بِنُجُومِ مَحَبَّتِكَ ، وَاسْتَهْلِكْ أَفْعَالَنَا فِي فِعْلِكَ ، وَاسْتَغْرِقْ تَقْصِيرَنَا فِي طَوْلِكَ ، وَاسْتَمْحِضْ إِرَادَتَنَا فِي إِرَادَتِكَ .

وَاجْعَلْنَا اللَّهُمَّ لَكَ عَبِيدَاً فِي كُلِّ مَقَامٍ : قَائِمِينَ بِعُبُودِيَّتِكَ ، مُتَفَرِّغِينَ لأُلُوهِيَّتِكَ[١] ، مَشْغُولِينَ بِرُبُوبِيَّتِكَ ، لاَ نَخْشَى فِيكَ مَلاَمَاً ، وَلاَ نَدَعُ عَلَيْكَ غَرَامَاً .

رَضِّنَا اللَّهُمَّ بِمَا تَرْضَى ، وَالْطُفْ بِنَا فِيمَا يَنْزِلُ مِنَ القَضَا ، وَاجْعَلْنَا لِمَا يَنْزِلُ مِنَ الرَّحْمَةِ مِنْ سَمَائِكَ أَرْضَاً ، وَأَفْنِنَا فِي مَحَبَّتِكَ كُلاًّ وَبَعْضَاً .

صَحِّحِ اللَّهُمَّ فِيكَ مَرَامَنَا ، وَلاَ تَجْعَلْ فِي غَيْرِكَ اهْتِمَامَنَا ، وَأَذْهِبْ مِنَ الشَّرِّ مَا خَلْفَنَا وَأَمَامَنَا .

نَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِمَكْنُونِ هَذِهِ السَّرَائِرِ ، يَا مَنْ لَيْسَ إِلاَّ هُوَ يَخْطُرُ فِي الضَّمَائِرِ :

صَلِّ عَلَى سَيِّدِ السَّادَاتِ ، وَمُرَادِ الإِرَادَاتِ ، حَبِيبِكَ المُكَرَّمِ ، وَنَبِيِّكَ المُعَظَّمِ ، مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ، وَالرَّسُولِ العَرَبِيِّ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِالأَلِفِ المَعْطُوفِ ، وَبِالنُّقْطَةِ الَّتِي هِيَ مُبْتَدَأُ الحُرُوفِ :

بِبَاءِ البَهَاءِ ، بِتَاءِ التَّأْلِيفِ ، بِثَاءِ الثَّنَاءِ ، بِجِيمِ الجَلاَلَةِ ، بِحَاءِ الحَيَاةِ ،

---

(١) أي : لِعِبَادَتِكَ .

بِخَاءِ الخَوْفِ ، بِدَالِ الدَّلاَلَةِ ، بِذَالِ الذِّكْرِ ، بِرَاءِ الرُّبُوبِيَّةِ ، بِزَاي الزُّلْفَىٰ ، بِسِيْنِ السَّنَا[1] ، بِشِيْنِ الشُّكْرِ .

بِصَادِ الصَّفَاءِ ، بِضَادِ الضَّمِيْرِ ، بِطَاءِ الطَّاعَةِ ، بِظَاءِ الظُّلْمَةِ ، بِعَيْنِ العِنَايَةِ ، بِغَيْنِ الغِنَىٰ ، بِفَاءِ الوَفَاءِ ، بِقَافِ القُدْرَةِ .

بِكَافِ الكِفَايَةِ ، بِلاَمِ اللُّطْفِ ، بِمِيْمِ الأَمْرِ ، بِنُوْنِ النَّهْيِ ، بِهَاءِ الأُلُوْهِيَّةِ[2] ، بِوَاوِ الوَلاَءِ ، بِيَاءِ اليَقِيْنِ ، بِأَلِفِ لاَمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيْكَ لَكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُوْلُكَ .

الفَاشِي فِي الخَلْقِ حَمْدُكَ ، البَاسِطِ بِالجُوْدِ يَدَكَ ، لاَ تَضَادُّ فِي حُكْمِكَ ، وَلاَ تَنَازُعَ فِي سُلْطَانِكَ وَمُلْكِكَ وَأَمْرِكَ ، تَمْلِكُ مِنَ الأَنَامِ مَا تَشَاءُ ، وَلاَ يَمْلِكُوْنَ مِنْكَ إِلاَّ مَا تُرِيْدُ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِجَاهِ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَىٰ ، وَبِاسْمِكَ العَظِيْمِ الأَعْظَمِ ، الَّذِي دَعَوْتُكَ بِهِ :

أَنْ تُصَلِّيَ عَلَىٰ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الطَّيِّبِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ ، وَعَلَىٰ جَمِيْعِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِيْنَ ، وَالأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ[3] .

---

(١) هُوَ ضَوْءُ البَرْقِ ، « مختار الصّحاح » ص (٣١٨) ، مادة : « سنا » .

(٢) انظر ص (١٩٠) تعليقة رقم (١) .

(٣) أَقُوْلُ : بحمدِ اللهِ وعونِهِ وتوفيقِهِ وإسْعَادِهِ وإسْعَافِهِ وَسَدَادِهِ : انتهيتُ مِنْ ضَبْطِ هذا الكتابِ المُبَارَكِ الشَّرِيْفِ المُستطابِ ، ووضعِ عَنَاوِيْنِهِ ، وبعضِ التعليقِ عليه دونَ =

* * *

ـ الإسهابِ في ذلك ؛ لأنَّ ما هُنالك .. يحتاجُ إلى مجلَّداتٍ ودفاتر .

أَجَلْ ! فإنَّ معانيَ العِرفانِ فيه لَتتفجَّرُ للناظرِ من ثنايا كلامِهِ ، وطِيْبَ الوُجْدانِ يتراكمُ فوقَ مَرامِهِ .

ولولا خشيةُ الإطالة والنُّزولِ عندَ كُلِّ كلمةٍ إلى الحواشي .. لأبرزتُ ـ بقدرةِ اللهِ ـ ما انطوىٰ في جُمَلِهِ مِنْ كُلِّ نَفِيْسٍ أغلاهُ ، وعندَ كُلِّ حبَّةٍ مِنْ عِقْدِ جَوْهَرِهِ يتيمةً عصماءَ .

بَيْدَ أنّي خبَّأتُ الكُنُوزَ ، ليومِ تُجْلَىٰ فيه الرُّموزُ ، بإذنِ ربِّي ، وَمُنْبَرِ أَمْرِي .

وَقَدْ كان ذلك بعد صلاةِ العصرِ ، من يوم الخميسِ ، ٨ جُمَادَىٰ الأولى سنةَ ١٤٢٨ هـ ، ٢٤ أيار سنةَ ٢٠٠٧م .

فالحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحاتُ مِنَ الأعمالِ .

شَرَفُ الدِّينِ

فِهْرِسُ المَوْضُوعاتِ

فِهرِسُ المَوْضُوعاتِ